

A. U. B. LIBRARY

N. MAKHOUL
BINDERY

14 OCT 1972

Tel. 260458

مكتبة
الشيخ
الشيخ
الشيخ

AS

892.709
D228 A
V.1

في الأدب الحديث

لـ

تأليف

عبد الله السوني

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

ملتنم الطبع والنشر دار الفكر العربي

78831

طبعة الرسالة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

في مستهل القرن التاسع عشر أخذت مصر والبلاد العربية تستيقظ من سبات طويل ، وتفرك عيوناً طالت هجمتها ، وتنظر دهشة إلى دنيا حافلة بالجديد في نظم العيش ، ووسائل التغلب على قوى الطبيعة وتذليلها للإنسان ، بالاختراعات الحديثة ؛ وفي نظم الفكر وعالم المعاني ، والآداب ، وما خلقه أدباء الغرب من صور ودبجوه من كتب ، ونظموه من شعر ، وسطروه من علم مبني على التجارب المحصنة ، ومن حقائق مؤيدة بالبراهين الساطعة . ومنذ ذلك الوقت ، ومصر والبلاد العربية تزداد بالغرب صلة ، وبأهله تعرفاً ، وبحضارته وثقافته ولوعاً . ولم تنس ماضيها وتراثها المجيد من الحضارة والثقافة ، فأحيت ما ورثته عن العرب من آداب ضخمة . وأخذت تتناول من القديم ، وتتناول من الجديد وتمزج بين الثقافتين .

وكان اتصالها بالغرب عن طرق كثيرة : فمن بعثات ترى رأى العين . وتتلقى العلم على أساتذة مختصين ثمة ، وتعود فتنتقل صوراً جديدة من العادات والحياة ، وأفكاراً وآراء لم تكن موجودة من قبل ، ومن ترجمات لآثار العلماء الغربيين ورجال الأدب والفكر ، والفن والقانون ، يطلع عليها جمهور المتعلمين من الشعوب العربية ، ويدرسونها ، فيستقر ما بها من آراء في عقول الناس نتيجة التداول ، ومروور الزمن ، وتصير من تراث الأمة العقلية ، تظهر

دون تعتمد على السنة الخطباء ، وعلى أسلات الأقلام ، وفي ثنايا الأبيات الشعرية ، والصور الفنية ، وبذلك يتخذ الأدب والفن لوناً جديداً يميزه عن العصور السابقة ، ويطبعه بطابع خاص

وكان التعليم المدني الذي وضع محمد علي أسسه في مصر ، ونماه إسماعيل ، واشتد عوده ، وأتى أكله في عهد فؤاد الأول ، وفاروق الأول ، من أعظم العوامل التي ساعدت على اتصال الشرق بالغرب ؛ وكذلك فعلت النهضة التعليمية في سوريا ، وفي لبنان على الأخص ، ومجهودات الرسائل التبشيرية في هذا المضمار لا تنكر . وصار الطالب العربي في مدارس القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد ، حتى وهو في مرحلة الدراسة الثانوية يلم بشيء كثير من الأدب العربي ، ويطلع على بعض صوره : من قصة وشعر ، ومقالة ، وحياة أدباء ، ويستوعب كل هذا ، ويؤدي فيه امتحاناً ، ثم يختزنه في عقله الواعي ، أو في عقله غير الواعي ؛ وإن يستطيع أن يتخلص من تأثيره حين يتكلم ، وحين يكتب ، وحين يقرض الشعر ، وحين يفكر وحده . دع جانباً دراسة التخصص في الجامعات ، وما تقوم به الهيئات والأفراد من بحوث وترجمات ؛ ونهضة الصحافة ، والتجديد في مادتها بنقل كثير من ألوان الصحافة الغربية وأبوابها لجمهرة القراء ، وعامة الشعب

وليس الغرب أمة واحدة ، ذات ثقافة واحدة ، ولكنه أمم شتى ، ولها أذواق مختلفة ، وآداب متباينة وانغات عديدة ؛ ولكل شعب أسلوبه في التفكير ، وفلسفة خاصة في الحياة ، ولم يكن اتصال مصر والبلاد العربية قاصراً على شعب عربي دون آخر ، بل اتصلنا بكل بلاد الغرب إن لم يكن عن طريق البعثات فمن طريق الترجمة ؛ اتصلنا بفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وإيطاليا ،

وروسيا ، وأسبانيا والولايات المتحدة وغيرها ، وعرفنا صوراً وألواناً من آداب كل وفلسفة كل ، ولا سيما في الحقبة الأخيرة ، بعد ما انتشر الطيران ، وازداد العالم اتصالاً ببعضه ببعض .

~~والثقافة~~

ومن العسير أن نحدد مدى تأثير الأدب العربي بكل ثقافة من هذه الثقافات ، بيد أننا نستطيع أن نقول على وجه التقريب : إننا تأثرنا بآداب الأمر بالحضارة الفرنسية ، فنقلنا عنها كل ما يتصل بأسباب الحياة من طب وهندسة ، وعلوم تجارية ، وقانون وما شاكل هذا ؛ وأن مصر تأثرت بالثقافة الإنجليزية ، ثم بالثقافة الفرنسية ، ثم أخذت ألواناً من ثقافات غربية أخرى دون أن يكون لها تأثير كبير . أما في لبنان فالثقافة الفرنسية ، ثم الثقافة الأمريكية والإنجليزية ، ثم سوى ذلك من الثقافات

هذا التيار الغربي القوي الذي يجري في حياة الأمة العربية العقلية والأدبية ، ينافس تيار آخر محبب إلى نفوس الأمة ، ويمت إلى ماضيها الجيد ، ويعرض الشخصيات المألوفة لديها الأثيرة عندها ، التي تبعث فيها العزة والكرامة ، وتقوى من شخصيتها ، وتزيد في اعتدادها بنفسها ، وذلك هو الأدب العربي القديم ، وهو أدب ضخمة عتيقة ، غاص بكثير من آيات الفن ومعجزاته ، وهو قريب من نفوس الشعب العربي ، ويستطيع أن يتمثله بيسر ومسرة ، قريب من فكره وعاداته ، وعقيدته ، ومزاجه وشعوره ، فلا بدع إذا عظم هذا التيار واشتد وزاحم تيار الثقافة الغربية مزاحمة عنيفة .

والأدباء في العالم العربي — في خلال قرن من الزمن — قد تباينوا في تأثرهم بهذين التيارين : فمنهم من اقتصر على القديم بحكم ثقافته وبيئته ، والعوامل الاجتماعية الخاصة المحيطة به ، وإن لم ينبج من التأثر بالأفكار الشائعة ،

والألوان الأدبية المترجمة في الصحف والمجلات ، ودور العلم ، ولكن غلب القديم عليه في خياله ، وموضوعه ، وأسلوبه ، وطريقة عرضه ؛ ومنهم من كانت ألوان الثقافة الغربية غالبية على أدبه ، فتقرأه ، وكأنما تقرأ لأديب فرنسي أو إنجليزي ، يكتب بالعربية ؛ ومنهم من حاول الجميع بين القديم والجديد ، فخذ من القديم متانة الأسلوب ، وطلاوة العبارة ، ووضوح الغرض ، وأخذ من الجديد العرض ، والموضوع ، أما الفكرة فتارة يأخذها من هنا ، وتارة يأخذها من هناك .

هذا ، وقد حاول بعض أدباء العربية في السنوات الأخيرة محاكاة المدارس الأدبية الأوروبية ، التي نشأت بتطور تلك الأمم في الحياة والمدنية ، والتي كانت أثراً لعوامل اقتصادية ، واجتماعية وسياسية مختلفة .

حاولوا محاكاتها دون أن تحفزهم إلى هذه المحاكاة ، أو تدفعهم إلى لون خاص من الأدب دوافع قهرية كما كان في الغرب ، ولكنه حب التجديد ، والتقليد للأدب الغربي فحسب .

ولذلك رأينا من يقلد المدرسة الإبداعية (Romantisme) ، ومن يدعى أنه من المدرسة الواقعية (Realisme) ، ومن يحاول أن يكون من المدرسة الرمزية (Symbolisme) إلى آخر ما هنالك من مدارس .

وأدب هؤلاء المفرقين في التجديد ، المفرمين بالتقليد ، هو أدب غربي صرف ، جاء في ثوب عربي ضعيف النسج ، ملون بألوان صارخة يمجها الذوق العربي . هذه الأنماط المختلفة من الأدباء ، وهذه الألوان المتباينة من الأدب ، في عصر ازدهم بالعلوم والثقافات ، يجعل مهمة مؤرخ الأدب عسيرة في تعرف طريقه في درسها وتقسيمها وحصرها ، وإصدار أحكام عامة عليها ، وتبيان

كل مدرسة ، والفريق الذى ينتمى إليها فى كل بلاد العروبة ، ولاسيا والنهضة اليوم عامة ، وهناك عشرات من الأدباء اللامعين يستحقون الدراسة . ولا بد لمؤرخ الأدب كذلك من التعرض للعوامل السياسية والاجتماعية التى أثرت فى الأدب العربى الحديث ، وتتبع نمو هذا الأدب منذ عصر محمد على ، حين كان يحاول التخلص من القيود التى كبل بها فى عصور الانحطاط ، إلى أن قوى ، ووقف على قدميه حراً طليقاً ، ثم إلى أن صار مارداً عملاقاً فى جيلنا الحاضر .

وأشهد أن هذا العمل الضخم يحتاج إلى دراسات واسعة قبل أن يتم ويصير عملاً تاريخياً علمياً له قيمته : فمن دراسة لتأثر الشعر العربى الحديث بالثقافة الغربية من حيث الفكرة والخيال ، والغرض والصورة ، ومن دراسة للكلمات الدخيلة والمعربة التى استعملها الأدباء ؛ ومن دراسة لتطور القصة فى الأدب العربى قديماً وحديثاً ؛ ومن دراسة للأساليب الأدبية المتأثرة بالأساليب الغربية ؛ ومن دراسة لتطور النثر العربى ، وأدب المقالة إلى غير ذلك من الدراسات المنظمة المسهبة التى تأخذ جزءاً خاصاً من هذا العمل الضخم ، وتبحثه ، وتصدر عليه أحكاماً مدعومة بالأدلة والنماذج ؛ لتعين مؤرخ الأدب حين يتعرض إلى المدارس الأدبية فى العصر الحديث ، ورجال كل مدرسة .

ولست أزعم أنني ضليع بهذا العبء وحدى ، وأنى حين أقدم هذا الكتاب للقارىء العربى قد قمت بهذه الدراسات المستفيضة ، وانتهيت من الأحكام العامة التى تؤدى إليها هذه الدراسات . ولكن هذا الكتاب ليس إلا محاضرات ألقيتها على طلبة كلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول ، حاولت أن أعرض عليهم فيها نماذج من هذه التيارات المتباينة فى الأدب الحديث ، وأسرد عليهم فيها كيف نما هذا الأدب وتطور ، فى إجمال واختصار .

وقد ألحوا على إلحاحاً شديداً في أن أقدمه المطبعة ، حتى ينتفعوا به وينتفع غيرهم فيما يزعمون ؛ ولقد ترددت طويلاً قبل أن أستجيب لرغبتهم ، لاعتقادي أن هذا العمل يتطلب جهداً عنيفاً ووقتاً طويلاً ، وأن الأولى أن يظل دراسة حتى تستوفي عدتها ، وتكمل أهبتها ، وتوضع في قالبها الأخير على صورة كتاب . فإنا لا أعني كتابي هذا من التقصير ، وإذا لم يستوعب كل نماذج الأدب الحديث ومدارسه ، وكل الشخصيات الأدبية الجديرة بالدرس ، فإنني أول المعترفين بذلك ، المعتذرين عن تقصيرهم . والذي يشفع لي عند القراء أنها محاولة لدرس الأدب الحديث ؛ علّ فيهم من يكون أقوى مني مُنة ، وأطول باعاً ، فيستوفي الموضوع ويلم بكل أطرافه ؛ أو يكون فيهم من تستهويه ناحية خاصة ، أو أديب بعينه فيمتخذه مجالا لدراسته ، وتزويد المكتبة العربية بها ، فيعين على تحديد معالم أدبنا المعاصر .

وبعد ، فإن المعاصرة حجاب ، وقد أتعرض في كتابي هذا بالنقد لبعض الأحياء من الأدباء ، والتعريف بآثارهم الأدبية ، وقد يكون في كلامي ما لا يروقهم ، أو يثقل عليهم ، ولكنني سألزم نفسي قول الحق مجرداً عن الأهواء والغايات ، ثم إنني مجتهد ، فإن أصبت فلي ثوابان ، وإلاّ فلن أعدم ثواب الاجتهاد ، ولن تحول المعاصرة بيني وبين تقرير الحقيقة ، والله الموفق للصواب

عمر الرسو في

الفصل الأول

البعث

- ١ -

قبيل البعث:

ظلت مصر وبلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك ، وهي في ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعاني مرارة الظلم ، وقسوة البغي قلب ما شئت أسفار التاريخ فلن ترى إلا صفحات سوداء قائمة ، تنبعث منها روائح الاستبداد والبطش ، وستسمع صراخ المظلومين يظم الآذان ، وتلمح دماء الفلاحين في كل صقع تسيل تحت سياط الجبابة ، وتمثل لك بلاد العروبة تخنقها يد غاشمة أصابها : الفقر ، والمرض ، والجهل ، والذلة ، والانحلال لم يكن لولاة الأتراك هم إلا استدرار الأموال بأية وسيلة ، غير معبرين صرخات الشعوب العربية التفاتا ، وغير مهتمين بما يقاسونه من ضنك وبؤس وفاقة وجهل ، واشتد الخلف بين أمراء الممالك ، وسلبوا الوالى سلطته ، وشنوها حرباً شعواء كل على أخيه ، ينازعه السلطة والجاء . والضحية في هذا النزاع كله هم أبناء البلاد ، فلا غرو إذا أفقرت من أهلها ؛ وقد جاء القرن التاسع عشر ، وسكان مصر أقل من ثلاثة ملايين ، أكثرهم من العرب المسلمين ، ويلهم الأقباط ثم الأتراك . وكان الحاكم يفد من الأستانة ، ويقيم بالقلعة ، ويدعو للخليفة ، ويضرب باسمه النقود .

ولكن السلطة الفعلية كانت في يد المماليك ، وهم أخلاط من الأتراك
والشراكسة وغيرها ، وجميع ثروة البلاد وإدارتها في أيديهم ، ولم يكن لهم
عصبية ؛ لأنهم لم يتاورثوا الملك إلا نادراً وإنما الغلبة للقوى . ولا ريب أن
الحالة الاجتماعية والأدبية تتأثر إلى حد كبير بالحالة السياسية ؛ فرعية همل ، ورعاة
مستبدون ، وهيهات أن يكون للأدب نصيب في مثل هذه البيئة الجاهلة .

وقد زار (فولاني) الفيلسوف الفرنسي مصر ، وبلاد الشرق العربي وتركيا
في أخريات القرن الثامن عشر فراعه ما بها من جهل مطبق ، وفساد شائع ،
وهو في هذا يقول : « الجهل عام في هذه البلاد ، وفي كل بلد تابع لتركيا ،
وقد عم كل الطبقات ويتجلى في كل العوامل الأدبية وفي الفنون الجميلة ، حتى
الصناعات اليدوية تراها في حالة بدائية ، ويندر أن تجد في القاهرة من يصلح
الساعة ، وإذا وجد فهو أجنبي » .

ويقول في موضع آخر : « ولّى عصر الخلفاء وليس من الأتراك أو العرب
اليوم علماء في الرياضيات أو الفلك ، أو الموسيقى أو الطب ، ويندر فيهم من
يحسن الحجامة ، ويستخدمون النار في السكي ، وإذا عثروا بمتطبيب أجنبي
عدوه من آلهة الطب ، وصار علم الفلك والنجوم شعوزة وتنجيميا ، وإذا قيل
لعلمائهم ورهبائهم إن الأرض تدور عدوا ذلك كفراً ؛ لأنه — في زعمهم —
يخالف كتب الديانات » .

ولم تكن تركيا أحسن حالاً من البلاد الخاضعة لسلطانها ، وحسبك أنه
حينما أراد بعض النابيين من الأتراك في القرن الثامن عشر^(١) إدخال المطبعة لأول
مرة في تركيا ، وجد من ولاية الأمور ، وجمهور الشعب عنقاً وإرهاقاً ، واضطر

إلى اسم تصدار فتوى شرعية بعد أن بذل إبراهيم باشا صهر السلطان مجهوداً كبيراً ، وقد سمحت الفتوى بطبع الكتب غير الدينية ، ثم أفتى علماء الشرع بعد ذلك — حين ظهرت فائدة المطبعة — بطبع كتب الدين اعتماداً على أن « الأمور بمقاصدها » .

وقد حرم الأتراك مصر أغلى كنوزها فنقلوا أكثر الكتب التي كانت مخزائن المدارس إلى بلادهم ، ثم نقلوا كثيراً من العلماء ، والأدباء ، والأمراء ، والمهندسين ، والوراقين ، وأرباب الحرف . وقد ذكر ابن إياس أسماء كثير من هؤلاء ، وقال : إنهم يبلغون ألفاً وثمانمائة ، وصادفهم النحس ففرقت بهم بعض السفن التي كانت تقلهم فمات كثير منهم . مع أن ابن إياس ^(١) أرخ لمصر حتى أوائل الاحتلال العثماني ، ولم يشهد الاحتلال في أوج جبروته ، وما جره على البلاد من نكبات . وكان من نتائج هذا الاحتلال كذلك أن قلت أموال الأوقاف التي كانت محبوسة على العلماء وطلبة العلم ، فتفرق الطلاب ، وانقضت سوق العلم ولم يبق منه إلا ذمء يسير بالأزهر . ومن البديهي أن اللغة العربية لم تجد في هذا العصر المظلم من يشد أزرها ، ويشيب الشعراء والكتاب المحققين بها ، لأن اللغة التركية طغت ، وصارت اللغة الرسمية في الدواوين ، وفشت على السنة الناس ؛ ولأن الحكام لا يفقهون العربية ولا يقدرونها قدرها ، ولا يميزون بين الجيد والفت من الكلام حتى يلجأ إليهم الشعراء مادحين .

ولم يعد في استطاعة كثير من الكتاب أن يسماعوا من اللحن الفاحش ،

(١) هو ابن إياس الجركسي الحنبلي من رجال القرن التاسع والعاشر للهجرة ، وله كتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » دون فيه تاريخ مصر حتى سنة ٩٢٨ هـ ١٥٢١ م ولفته ضعيفة أقرب إلى العامة منها إلى الفصحى .

أو يأتوا بالمفهوم المقبول ، بل عز عليهم اللفظ الجزل والأسلوب القوى ، فلبجثوا للزخرف والمحسنات يخفون بها عوار كلامهم ، وقد أكثروا من هذه الخلى اللفظية حتى استغلق الكلام ، وأنوا بالغث السمج الذى إن حسن فيه شيء كان سرقة واغتصاباً من آثار من سبقوهم من الكتاب .

وحسبنا أن نقدم بعض نماذج دليلاً على ما وصلت إليه اللغة وآدابها نثراً ونظماً من الركة والضعف

(١) قال عبد الوهاب الحلبي في رسالة إلى الشهاب الخفاجي :

« لقد طفحت أفئدة العلماء بشراً ، وارتاحت أسرار الكتّابين سرّاً وجهراً ، وأفعمت من المسرة صدور الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، يمين قدوم من اخضرت رياض التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار التدقيق من سحاب أقلامه »

(٢) قال عبد الرحمن الجبرتي من النثر المرسل مبيناً نشأة مدرسة الهندسة

في عهد محمد علي :

« لما رغب الباشا في إنشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة ، تعين المترجم رئيساً ومعلماً لمن يكون متعلماً بذلك المكتب ، وذلك أنه تداخل بتحليلانه لتعليم ممالك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك . ورتب له خروجاً وشهرياً ، ونجب تحت يده الممالك في معرفة الحسابيات ونحوها ، وأعجب الباشا ذلك فداكره وحسن له بأن يفرد مكاناً للتعليم ويضم إلى ممالكه من يريد التعليم من أولاد الناس ، فأمر بإنشاء ذلك المكتب ، وأحضر له أشياء من آلات الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الإنكليز وغيرهم »

(٣) ولم يكن الشعر — إذا صح أن نسميه شعراً — أرقى حالاً من النثر

وإنما كان صناعة لفظية غثة .

وهناك مثلاً مما قاله عبد الله الشبراوى (١) يرثى أحمد الدلنجاوى المتوفى

سنة ١١٢٣ هـ :

سألت الشعر هل لك من صديق وقد سكن الدلنجاوى لحده
فصاح وخر مغشياً عليه وأصبح ساكناً فى القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصر فقد أرخت مات الشعر بعده

٤٤١ ٦٠١ ٨١

ومن هذه النماذج المتقدمة للأدب قبيل النهضة ، ندرك كيف كان النهوض صعباً بطيئاً ، يحتاج إلى عناء طويل ، وصبر كثير ، وزمن مديد ، ليبلغ أشده ، ويؤتى أكله .

— ٢ —

البعث :

✓ هبت مصر من سباتها العميق فزعة مذعورة حين دوت فى آفاقها مدافع نابليون ، وأخذت تقلب الطرف دهشة فى هذه الجيوش العجيبة ، والوجوه الغريبة ، فكان ذلك أول عهدا بالفرنجة منذ عصر صلاح الدين الأيوبي . ولكن شتان بين العهدين ، ففي الأول كانت قوية عزيزة لا تزال فيها أثارة من علم وأدب ، وكانت أوروبا لا تزال تتحسس طريقها نحو النور . فاقبست من مهد العروبة وأفادت علماً وحضارة ، وأخذت ترقى صعداً فى سلم المدنية

(١) كان عبد الله الشبراوى من أكابر شيوخ الأزهر ، واشتهر بقول هذا النوع من

بخطوات ثابتة سريعة ، بينما أخذت مصر تهوى وتنحدر رويداً رويداً ويترام عليها الجهل والغفلة . حتى جاءها (نابليون) وهي في الدرك الأسفل .

اصطحب (نابليون) معه كل عدد الاستعمار والاستغلال والإيقاظ . وكانت دهشة المصريين جد عظيمة مما رأوا من مظاهر هذه المدنية الجديدة ؛ إذ أنشأ نابليون مسرحاً للتمثيل ، ومدارس لأولاد الفرنسيين وجر يدين ، ومصانع ، ومعملاً للورق ، وأسس مراصد فلكية ، وأما كن للأبحاث الرياضية ، والنقش والتصوير في حارة الناصرية ، وأسس مكتبة عامة يفد إليها كل من يريد المطالعة ، وكان القائمون بأمرها يرحبون بمن يدخلها من المصريين . وكان بها عدد كبير من الكتب العربية ، وبذل الفرنسيون غاية جهدهم في تقريب المصريين إليهم ، وترغيبهم في أسباب الحضارة . وفي تاريخ الجبرتي وصف مستفيض لكل هذا ، حتى موائد الفرنسيين ، وكيف يأكلون ويشربون ويلبسون ، وما شاهده من سائر أعمالهم العلمية والكيميائية ، وكتبهم المصورة وأدواتهم . وهو يمثل بدعشته هذه حال كل عربي في أيامه . ولقد ظن كثير ممن شاهدوا التجارب العلمية التي أجراها المصريون في معاملهم سحراً (١) بيد أن كل هذا ذهب بذهابهم من مصر سنة ١٨٠١ م .

كانت حملة نابليون هزة عنيفة لمصر ، أيقظتها من سباتها الطويل العميق

(١) وصف الجبرتي كل ما رآه في أحد هذه المعامل بقوله : « ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض التقيدن لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً في كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً ياقوتياً » .

وبينت لها أنها تعيش في عالم آخر ، وأن الدنيا تسير وأهلها واقفون غارقون في أحلامهم ، يجترون ماضيهم ، ولا يدركون مساوئهم ، ويظنون أنهم للناس وأن غيرهم لا شيء .

نم أتاحت لمصر فرصة ذهبية حقاً لكي تنهض وتتبوأ مركزها بين أمم العالم المتمددين ، باستواء محمد علي على عرش مصر ، فأقالها من عثرتها ، وأنهضها من كبوتها وغسل بماء العدل والعلم والمدنية هذه الدماء التي خلقتها في جسم مصر الهزيل برائن السبع التركي .

كان محمد علي طموحاً ، يريد أن يرى مصر ما بين طرفه عين وانتباهتها لا تقل في حضارتها وقوتها عن دول أوربا ، فوضع أسس نهضة شاملة : في الجيش والصناعة ، والزراعة ، والتعليم ، والإدارة ، حتى يكون البعث عاماً ، يدفع بعضه بعضاً . ولا يعنيننا في مقامنا هذا إلا ما يمس اللغة والأدب .

وقد وجد محمد علي أن خير وسيلة تنهض بالشعب المصري وترفعه إلى مستوى الأمم الناهضة الاهتمام بالتعليم وقد سلك في سبيل تعليم الشعب كل الطرق الناجحة : فمن بعثات ، وطباعة ، وفتح مدارس ، ونقل آثار الأمم الغربية في العلوم والآداب ، وتأسيس الصحافة لتنير الحياة أمام الأمة .

البعثات :

جاء محمد علي إلى مصر جندياً في الحملة التي اشتركت في إخراج الفرنسيين منها ، ولم تمض عليه أربع سنوات حتى استولى على مصر ؛ بما وهب من صفات نادرة خلقتها لأن يكون زعيماً مصلحاً ، وملِكاً قوياً ورأى أنه لن يستقيم له الأمر حتى يقضى على المماليك لتمردهم وكثرة شغبهم ، فأبادهم ؛ وأنه لا بد له من جيش

قوى يقربه الأمن ، ويصون هيبة الحكم في الداخل ، ويدفع به غارة المغيرين من الخارج ، فانتدب طائفة من أساتذة الفنون العسكرية بأوربا ، وأرسلهم مع مماليكه إلى أطراف الصعيد ليدربوهم هناك .

وفي سنة ١٨٢٥ أسس مدرسة حربية إعدادية ، واتخذ لها قصر ابن العيني مكاناً ، وكان كل تلامذتها في أول الأمر من غير المصريين إلا أنهم لم ينجحوا فالتفت إلى المصريين ، ونقلها إلى أبي زعبل ، وأكثر بها من الأساتذة الفرنسيين ؛ وتعجلاً للفائدة كان قد سبق وأرسل في سنة ١٨١٣ طائفة من شبان المماليك لدراسة الفنون العسكرية بإيطاليا ؛ وفي سنة ١٨١٨ أرسل بعثة أخرى إلى إنجلترا لدراسة علم الحيل (الميكانيكا) وغيرها .

ورأى محمد علي أن الجيش في حاجة إلى أطباء يأسون جراحات الجند ، ويقاومون الأوبئة ، ويعنون بالمرضى ، وأن الطب لا أثر له ألبتة ، فخاصة المصريين كانوا يعتمدون في هذا على المأثور من نسخ الأدوية في الكتب القديمة ، وعلى ما تمخضت عنه التجارب ، ومنها السكي والحجامة ؛ وأما الدهاء فكانوا في عامة شأنهم يعوذون بمدعى الطب من الدجالين والمشعوذين والسحرة ، أو يقنعون من طلب الاستشفاء بزيارة الأضرحة . فأنشأ في ١٨٢٦ مدرسة للطب في جهة أبي زعبل ، وأقام بجوارها مستشفى كبيراً لمعالجة المرضى ، ولتدريب الطلبة ، واسم تقدم لها أساتذة من الغرب ؛ وجعل رياستها إلى الدكتور (كلوت بك الفرنسي) . وكان الطلاب في هذه المدرسة من المصريين وغيرهم وكثير من أولئك اختير من نوابغ طلاب الأزهر ، ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر ابن العيني في ١٨٣٨

وقد كان لمدرسة الطب أثر لا ينكر في بعث اللغة العربية والنهوض بها ،

واتصالها بالعلم الحديث ؛ لأن فصيح اللغة ، فوق أنه غم على الناس ، وعلى المصريين بخاصة من عهد بعيد ، وأن آدابها ومظاهرها بلاغتها قد دب إليها الضعف والانحلال إلى حد كبير ، فإنها قد تخلفت عن متابعة العلم حقبة طويلة ، فلما استوى العلم وأدرك ، إذا هو في واد ، وإذا حظ الناس من لغة العرب في واد آخر . وحين فاجأ محمد على مصر بهذه العلوم التي حذوها الغرب منذ عدة قرون تشابهها الألفاظ هناك ، وتدارجها الصيغ ، وتطبع لها المصطلحات التي تهيتها الهيئات العلمية المنظمة ، تبين العسر أشد العسر في تعليم هذه العلوم الحديثة لطلاب يجهلون لغات أهلها ، وخاصة من معلمين لا يعرفون العربية ، ولو عرفوها ما تهياً لهم أن يدرسوا بها عجزها عن أداء كثير ، والقليل مما تهياً لها أن تؤديه ليس في متناول اليد ، بل إنه يحتاج إلى كثرة مراجعة وشدة تفقيب ، ويحتاج إلى علماء عندهم شغف بالاطلاع ، ورغبة في البحث ، وجلد على العمل ؛ لهذا اضطر محمد على أول الأمر أن يقيم بين الأساتذة وتلاميذهم جماعة من المترجمين يستمعون الدرس في اللغات الأجنبية ، ثم يؤدونه إلى هؤلاء بالعربية ، وكان هؤلاء المترجمون من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم .

ولقد عانوا كثيراً في القيام بهذه المهمة الشاقة ، ولكن كان عملهم هذا أول دعامة في صرح النهضة الحديثة ، فلقد حفزهم ذلك إلى مراجعة معجمات اللغة ، والكتب الفنية القديمة كمفردات ابن البيطار ، وقانون ابن سينا ، وكتابات ابن رشد ، وغيرها من الكتب العربية لاستخراج المصطلحات العلمية ، أو لصياغة ما يؤدي مطالب العلم الحديث ، إذا عجز القديم عن أدائه ، وإذا كانت قد غلبتهم الألفاظ الأجنبية في كثير من الأحيان ، ففضلهم في عقد الصلة بين الشرق والغرب لا يحدد .

رأى محمد على أن تشمل نهضته جميع نواحي الحياة ، فأكثر من إنشاء المدارس العالية والابتدائية ، وقد بدأ بالمدارس العالية ، وكان على حق فيما فعل ؛ حتى يجد بجانبه جماعة من المتخصصين في المواد المختلفة يشرفون على مراحل التعليم الأخرى ؛ ويسيرون بالنهضة سريعاً ، تأسس مدرسة للصيدلة ، وأخرى للهندسة في القلعة ثم نقلت إلى بولاق ، ومدرسة للولادة والتمريض . ورأى أن الحاجة ماسة إلى أساتذة مختصين عالمين بعلوم الغرب وثقافته ، ف جلب الأساتذة من فرنسا في كل فن من الفنون ، ولكنه أدرك أن النهضة الحقة لا تتم إلا على يد أبناء البلاد ، فأكثر من البعثات ، وفي سنة ١٨٣٦ أرسل بعثة إلى فرنسا عدتها أربعة وأربعون طالباً ، ذكر أسماءهم (الميسيو جومار) وقد عهد إليه محمد على بالإشراف على بعثاته ، في المجلة الآسيوية ، *Journal Asiatique* ^(١) وقد تخصصوا في شتى العلوم والفنون ، من حقوق ، وعلوم سياسية ، وهندسة حربية ، وطب ، وزراعة وتاريخ طبيعي ، وميكانيكا ، وكيمياء ، وطباعة وحفر ، وغير ذلك مما استلزمته النهضة الحديثة . ومن أشهرهم وأعظمهم أثراً أمام البعثة الشيخ رفاعه الطهطاوى . وسنترجم له فيما بعد لجليل قدره وعظم أياديه على الترجمة والنهضة الأدبية .

ثم توالى البعثات ، ومن أشهرها البعثة الطبية الكبرى في ١٨٣٢ ، وقد اختير طلبتها من نابهي مدرسة الطب المصرية ، ومن نوابغ رجالها محمد على البقلي ، وفي سنة ١٨٤٤ أرسلت بعثة ضمت خمسة من أمراء البيت المالكة ، ومنهم الأمير إسماعيل ^(٢) ، ولذا سميت ببعثة الأنجال ، وهي أكبر بعثات محمد على وآخر

(١) عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٩

(٢) الحديو إسماعيل فيما بعد ، ومن الأمراء الذين سافروا في هذه البعثة الأمير حليم والأمير حسين من أنجال محمد على ، والأمير أحمد شقيق الأمير إسماعيل من أنجال إبراهيم باشا — الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١٠

بعثاته الكبرى ، وقد اختار تلامذتها سليمان باشا الفرنساوى من نوابغ تلاميذ المدارس المصرية ، ومن أجل هذه البعثة فتح محمد على مدرسة بباريس . ومن أشهر رجالها على مبارك باشا ، وحسن أفلاطون باشا ، ومحمد عارف باشا ، ومحمد شريف باشا .

وقد أرسل محمد على إحدى عشرة بعثة آخرها سنة ١٨٤٧ ؛ وكان محمد على شديد العناية بأعضاء البعثات يتقصى أنباءهم ، ويشرف على دراستهم باهتمام ، ويكتب لهم من حين لآخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد ، وينبههم إلى واجباتهم ؛ وذلك لشدة حاجته في نهضته إلى من يقف بجانبه ، وينفذ مشروعاته الضخمة ، وقد ذكر رفاة بك الطهطاوى نموذجاً من الرسائل التي وجهها محمد على باشا إلى طلبة البعثات ، يوبخهم فيها على تقصيرهم ، ويحثهم على الاجتهاد ، ويتعجلهم في قطف ثمار تحصيلهم . (١)

كان لهذه البعثات كلها أثر بالغ في تقدم مصر ، ونهضتها ، وإرسال نور العلم دافقاً قوياً في ربوعها ، كما كان لها أعظم الفضل في إحياء اللغة ، وجعلها مسيرة للعلم الحديث ، بما ترجم أعضاءها من كتب وما أدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه في شتى نواحي العلم .

الترجمة :

كان محمد على حريصاً على أن ينقل كنوز الغرب إلى اللغة العربية فأسس في سنة ١٨٣٦ مدرسة الإدارة والألسن ، وعهد بالأشراف عليها لرفاة بك الطهطاوى . ولما كان تاريخها مرتبطاً به ، ونهضة الترجمة في عصر محمد على

(١) راجع الرسالة في تخليص الأبريز في تلخيص باريز لرفاة بك ص ١٥١ ، وفي تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي بك ج ٣ ص ٤٥٥

وخلفائه ثمرة جده وكده ، رأينا أن نترجم له ترجمة موجزة فحياته حياة مدرسة الإدارة والألسن ؛ لأنها وجدت بفضلها ، وانتهت بخروجه منها .

رفاعة بك الطهطاوي

١٨٧٣ - ١٨٠١

مصرى صميم ، من أقصى الصعيد ، يتصل نسبه من جهة أبيه بسيدنا الحسين رضى الله عنه ، ومن جهة أمه بالأنصار الخزرجية ، ولد في طهطا ، وكان أجداده من ذوى اليسار ، ثم أخنى عليهم الدهر ، وحينما ولد كانت أسرته في عسر ، قدشاً نشأة معتادة بين أبوين فقيرين ، وقرأ القرآن ، وتلقى العلوم الدينية ، كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره ، ودخل الأزهر كما دخله غيره ، وصار من علمائه كما صار كثيرون ، ولكن ذكاه وحبه للعلم ، وإقباله على التحصيل لفت إليه نظر الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر في ذيك الوقت ، وكان الشيخ العطار من أفذاذ عصره في العلم والأدب والفنون الحديثة ، فاقتدى به تلميذه الشيخ رفاعة ، فقرأ كثيراً من كتب الأدب ، ومهر في فنونه وهو بعد في الأزهر . ثم تولى التدريس سنتين ظهر فيهما استعداداه للتعليم والثقيف ، إذ أحبه تلاميذه حباً جماً وتعلقوا به وبدروسه ، ويقول صالح بك مجدى في هذا^(١) :

« وكان رحمه الله حسن الألقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل في الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى : في الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك ، وكان درسه غاصاً بالجسم الغفير من الطلبة ، وما

(١) في رسالته (حلية الزمن بمناقب خدام الوطن) ، وهي ترجمة حياة رفاعة بك . كتبها صالح بك مجدى أحد تلاميذه .

منهم إلا من استفاد منه ، وبرع في جميع ما أخذه عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب سهل التعبير ، مدققاً ، محققاً ، قادراً على الأنصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب .

ثم عين واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش ، فاعتاد حياة جديدة عنوانها النظام والطاعة ، ومحبة الوطن والدفاع عنه ، ومواجهة الأخطار ، وقد كان لذلك أثر كبير ؛ فعاش محباً للنظام ، شغوفاً بوطنه مخلصاً له طول حياته .

وكان من حسن حظه وحظ مصر أن طلب محمد علي باشا إلى الشيخ العطار أن يختار له من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولى ، يرى فيه اللياقة لتلك الوظيفة^(١) فوقع الاختيار على الشيخ رفاعه .

ولم يكن مطلوباً من إمام البعثة أن يحصل شيئاً من علوم الفرنسيين ، ولكن حسبه أن يؤدي مهمته : من وعظ الطلاب ، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم ، ونصحهم إذا ضلت بهم السبل ، وإمامتهم حين الصلاة ؛ ولكن الشيخ رفاعه كان ذا نفس طموح ، فما أن أقبلت به وبصحبه الباخرة من مصر حتى ابتداء يتعلم الفرنسية ، فأتقنها في ثلاث سنوات ، واتصل بكثير من العلماء والمستشرقين فأجلوه وأكبروه ومنهم المستشرق المشهور (البارون دي ساسي) .

واهتم في دراسته بالتاريخ والجغرافية ، والفلسفة والأدب ، فقرأ (فولتير) و (روسو) ، و (راسين) و (مونتسكيو) وغيرهم ، وقرأ بعض الكتب في علم المعادن أو فنون الحرب والرياضيات . ومالت نفسه وهو بباريس إلى التأليف والتعريب ، فوضع رحلته وسماها : (تخليص الأبريز في تلخيص باريز) ، وقد

كان أستاذه العطار قد أوحى إليه بذلك ، وعرب نحو اثنتي عشرة رسالة في مختلف الفنون والعلوم من هندسة ومعادن وطبيعة وتاريخ ، وتقويم ، وميثولوجيا وعلم الصحة والأخلاق . ~~و~~ترجم كذلك في باريس كتابه (قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر) وهو أول من كتب من المصريين في المباحث الدستورية ، مع أن هذه المباحث كانت مجهولة في تاريخ مصر القومي وذلك أنه درس في أثناء إقامته بباريس نظام الحكم في فرنسا وعرب في كتابه (تخلص الأبريز) دستور فرنسا في ذلك الحين ، وما تضمنه من نظام المجلسين واختيار أعضائهما وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، ولم يكن يكتفي بالتعريب بل كان يعلق بما يدل على سعة فهم وصحة حكم ، وميل فطري للنظم الحرة . (١)

ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ بعد ست سنوات قضاهامكياً على الدرس والتحصيل ، يطالع ، ويقرأ ، ويكتب ويعرب ، ويجالس العلماء ويساجلهم البحث والمناظرة ، وينعم النظر في أحوال الشعوب الأوربية وتاريخها ، وأسباب حضارتها وتقدمها . واستقر عزمه وهو في باريس على أن يخدم بلاده عن طريق

(١) من ذلك تعليقه على موقف الملك شارل العاشر لما قامت الثورة في باريس قال : (فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محاصرة حكماً ، وجعل قائد العسكر أميراً من أعداء الفرنسيين ، مشهوراً عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأي ؛ فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح ؛ فإن عفو الملك أبقى للملك ، ولما ولى على عساكره لإجماعة عقلاء ، أحبباً له وللرعية ، غير مبغضين ولا أعداء ، ولكنه أراد هلاك رعاياه حيث أنزلهم بمنزلة أعدائه ، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالحياء والرفق بالذنب والإغضاء
 فإن لم تقل عثرة من يقال يوشك أن يصيبك الجهل

نقل العلوم الغربية إلى مواطنيه ؛ ففتسح أفكارهم وتنمو مداركهم مقتفياً في ذلك آثار الدولة العباسية ؛ إذ بدأت نهضة العلوم والمعارف في عهدها بترجمة كتب اليونان إلى العربية .

ولقد بر بوعده فلاء البلاد علماً وحكمة ، وحمل لواء النهضة وخدمها بقا ليفه وتعاريبه ، وتلاميذه الذين تخرجوا علي يديه في مدرسة الألسن وغيرها .

أعماله بعد هجرته :

لما رجع إلى منصب الترجمة ، وتدرّس اللغة الفرنسية في مدرسة الطب بأبي زعبل ؛ ثم انتقل إلى مدرسة المدفعية بطرة ، وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ، ثم وقع وباء في القاهرة اضطره إلى السفر لاطهطا بلده ، فمكث بها ستمين يوماً ، ترجم في خلالها مجلداً من جغرافية (ملتبرون) وعاد به إلى القاهرة وقدمه لمحمد علي فأكرمه ورقاه .

عرف الشيخ رفاة في باريس مدرسة اللغات الشرقية ، التي أسست لدراسة لغات الاستشراق ، وكان يسميها في كتابه مدرسة الألسن ، فوجب أن تؤسس في مصر مدرسة للألسن تواجه مطالبها وتناسب أغراضها . ورأى إن أعضاء البعثات مهما كثر عددهم لن يقوموا بكل ما تتطلبه النهضة من جهود ، فلا بد من إيجاد طبقة من العلماء الأكفاء في الآداب العربية ، واللغات الأجنبية ؛ ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب ، وليكونوا صلة بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية .

إننا بالبعثة ننقل المصريين إلى أوروبا ، وهذه المدرسة ننقل علم أوروبا إلى مصر ؛ فاقترح الشيخ علي محمد علي إنشاء مدرسة الألسن ، وكان من مزايا محمد علي أن يسر بالاقتراح الجيد ، وينفذه فوراً ، وعهد إلى الشيخ رفاة بوضع

المشروع وتنفيذه ، وبذلك أنشئت مدرسة الألسن ، وكان مكانها (سراى الألفى بك) حيث فندق (شبرد) الآن . واختار لها الشيخ خمسين طالبا من نوابغ طلاب المسكاتب المصرية . وفي هذه المدرسة التى تولى الشيخ نظارتها ظهر نبوغه كعالم محقق ، ورئيس قدير ، ومعلم كفء ، ومرب ممتاز .

وكانت المدرسة كلية تدرس فيها آداب العربية ، واللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ؛ فكانت أشبه شىء بكلية للآداب والحقوق مجتمعتين ، وكان نهج المدرسة فى الترجمة عمليا ومفيدا ، فلم يكن دروسا تكتب فى دفاتر وتهمل ، بل يمرن الطلبة على الترجمة فى كتب نافعة ، فإذا استغفلت عليهم جملة لجئوا إلى شيخهم يذلها لهم ، ثم عرضوا ما ترجموا على أستاذ اللغة العربية يصحح لهم لغتهم ، وخاصة الشيخ محمد قطه العدوى فقد كان ساعده الأيمن فى هذه المدرسة ؛ لما رزقه من موهبة جليلة فى التدريس بلغة سهلة ، وعبارة فصيحة ، وقدرته الفائقة على تصحيح عبارات الطلبة ، فيما يترجمون . فإذا أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع ، فتكون أثرا خالداً (١)

(١) يقول أحمد أفندى عبيد مترجم كتاب (الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر) « كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن السيد رفاعة أفندى ، فأجاد تربيتى كغيرى ، حتى حسن حالى وسيرى ، وتعلمت بإرشاده اللغتين الفرنسية والعربية ... فبعد أن رأى فى التعليم حسن حالى ، واجتهادى فى نيل المعالى بين أمثالى ، اقتضى رأيه المؤيد ، وحزمه المعضد ، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ ، فاختار ملكا من ملوك الأفرنج تعلو همته على المريخ ، وهو تاريخ بطرس الأكبر ، وفضله أشهر من أن يذكر ، لمؤلفة الشهير المسمى (قولتير) ، الذى يعد بين أكابرهم أعظم حجة ، وإن كان عن الأديان بعيد المحجة ، فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال ، وأتم منوال ، وقد شرعت فى نقله من الفرنسية إلى العربية ، مع إعانتة لى فى حل مشكلاته ، وما عصر على من غوامضه ومعضلاته ، وقد صرفت فى ترجمته على صعوبته الهمة ، وسهرت فى مطالعته وفهمه الليالى المدهمة ... الخ »

وأحيل على رفاة بك مع إدارة هذه المدرسة إدارة عدة معاهد كالمدرسة
التجهيزية ، ومعهد الفقه والشريعة الإسلامية ، ومعهد المحاسبة ، ومدرسة
الإدارة الأفريقية ؛ والتفتيش على مدارس الأقاليم ، وتحرير الوقائع المصرية .
وبعد سنوات تخرجت الدفعة الأولى من مدرسة الألسن ، فقلقتهم مصالح الدولة
المختلفة ، وابتدءوا يفيضون وأستاذهم على مصر من بحور الغرب وكنوز ثقافته
ما كان دعامة لنهضتنا الحالية .

ظل الشيخ سبعة عشر عاماً وهو دائب في عمله لا يمل ولا يكل ، وفي
كل آونة يضاف إليه عمل جديد يتقبله بصدر رحب وعزيمة قوية ، وكلما زاد
اجتهاده وإنتاجه زاده أولو الأمر مكافأة وتقديراً ، فمنحه محمد على رتبة أميرالاي
و ١٣٠٠٠ قرشاً في الشهر ، و ٢٥٠٠ فدانا في طهطا . ولكن الدنيا لا تدوم على
حال فما أن مات محمد علي ، وتولى عباس الأول الحكم حتى أغلق المدارس
جميعها إلا القليل ، وألغى مدرسة الألسن والشيخ رفاة معها ؛ بحجة الاقتصاد
في النفقات ، ولأن حاشية السوء لما رأت ميل الوالي إلى محاربة التعليم والعلماء
خاضوا في الشيخ رفاة وطريقته ، ورموه بالعقم ؛ فنفاه عباس الأول إلى
السودان تحت ستار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظراً لها ، ومعه طائفة
من أكابر العلماء . ولم تكن الخرطوم كما نعهدها اليوم في نظافتها ومبانيها ،
وتوفر وسائل العيش بها ، وإنما كانت مدينة صغيرة تصعب الحياة فيها على من
ألف حياة باريس والقاهرة ، وعلى من كان يشرف على التعليم كله بمصر فإذا
هو يشرف على مدرسة ابتدائية صغيرة بالخرطوم . وحز في نفس الشيخ أن
يجازى على إحسانه بالإساءة ، وأن يطعن الجاهلون في صلاح طريقته وقد أبنت
وآتت أكلها شهياً لذيذاً يزيد في نماء البلاد العقلي ونهضتها نحو السكمال ،

وأخذ يستغيث ويندب حظه ، والموت يتخطف أعوانه كل يوم حتى لم يبق
إلا نصفهم . وكان يستغيث أولاً بمن يأنس منهم روح الجد والعمل لخير مصر ،
حتى إذا عجز هؤلاء عن إغاثة لجأ إلى أولياء الله الصالحين وأنبيائه المطهرين ، ومن
قصيدة له أرسلها إلى حسن باشا كتحدا مصر :

مهازيل الفضائل خادعوني وهل في حربهم يكمبو جوادى
وزخرف قولهم إذ موهـوه على تزييفه نادى المنـادى
قياس مدارسى — قالوا — عقيم بمصر فما النتيجة من بعادى
ثم يذكرك أشهر مترجماته ومؤلفاته فيقول :

على عدد التواتر معرباتى تفى بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل ومنـتسكو يقر بلا تمادى
ومغتربو قراح فرات درسى قد اقترحوا سقاية كل صادى
ولاح لسان باريس كشمس بقاهرة المعز على عمادى
ويزفر زفرة حارة على ماصار إليه أمره ، وعلى بعده عن أولاده وأهله فيقول :
رحلت بصفقة المغبون عنها وفضلى فى سواها فى المزداد
وما السودان قط مقام مثلى ولا سلامى فيه ولا سعادى
وقد فارقت أطفالاً صغاراً بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهمو سراً وجهراً ولا سمرى يطيب ولا رقادى
أريد وصالهم والدهر يابى مواصلى ويطمع فى عنادى
وهذه القصيدة على وزن وقافية :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى
وحين يأس من مثل هذه الاستغاثات أخذ يخمس قصيدة لسيدى

عبد الرحيم البرعى فى مدح النبى عليه السلام مطلعها :

خل الغرام لصب دمه دمه حيران توجده الذ كرى وتعدمه

ويقول فيها :

«رفاعة» يشتكى من عصبه سخرت لما رأت أبحر العرفان قد زخرت

فارفع ظلامه نفس عدلك ادخرت وهالك جوهر أبيات بك افتخرت

جاءت إليك بخط الذنب ترقه

وظل الشيخ فى منفاه أربع سنوات ، ولم يعد لمصر إلا بعد أن توفى عباس وتولى سعيد أريكه مصر فعينه وكيلًا للسلكية الحربية ، ثم ناظرًا لها ، ومديرًا لمدرسة الهندسة ، ومدرسة العمارة ، مع الاحتفاظ برئاسة قلم الترجمة ؛ بيد أن هذه المدارس جميعها ألغيت فى سنة ١٨٦٠ ، كما ألغى قلم الترجمة فظل الشيخ بدون منصب حتى عهد إسماعيل ، حين هبت على العلم والتعليم نسمة من الحياة فبعثته قويا فتياً ، وأعيد قلم الترجمة بنظارة المعارف العمومية وتولى رئاسته من جديد رفاعة بك سنة ١٨٦٣ ، وعين عضواً فى مجلس المعارف الأعلى الذى كان يعرف حينذاك بـ (قومسيون المدارس) ، وكان لهذا المجلس فضل كبير فى تنظيم التعليم على عهد إسماعيل :

رفاعة بك والقانون :

حينما فكرت الحكومة فى إصلاح نظام القضاء على عهد إسماعيل رأت أن تبدأ بترجمة القوانين الفرنسية المعروفة (بالكود) وهو قانون نابليون ، وكانت هذه مهمة عسيرة تتطلب إماماً واسعاً بالقوانين الفرنسية ، وأحكام الشريعة الإسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها فى القانون الفرنسى ،

وهذا كله يحتاج إلى صبر طويل ومشاركة وهمة .

ولم تجد الحكومة خيراً من رفاعة بك وتلاميذه ، ليقوم بهذه المهمة الجليلة ،
فقام بهذا العمل مع بعض من نجباء خريجي مدرسة الألسن ، وأخرجوه في
مجلدين كبيرين .

رفاعة بك والمرأة :

وهو أول من نادى بتعليم المرأة وتنقيتها ، ووضع لذلك كتاباً مشتركاً
لتنقيف البنات والبنين على السواء ، وسماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) ،
وهو كتاب في الأخلاق والتربية والآداب ؛ بل دعا إلى اشتراك المرأة في أعمال
الرجال على قدر طاقتها ، ويقول في هذا : « فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل
ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالآهواء ، وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة
عمالاً يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال
فهي مذمة عظيمة في حق النساء » ، وقد طبع كتابه هذا في سنة ١٨٧٢ ،
وأُسست أول مدرسة لتعليم البنات في مصر سنة ١٨٧٣ ، أسستها إحدى
زوجات اسماعيل . على أن دعوة رفاعة بك إلى تعليم المرأة والنهوض بها ترجع
إلى ما قبل هذا بكثير ، ولكن لم يستجب لدعوته أحد ، وكان تعليم المرأة
قاصراً على الأساتذة الخصوصيين ، إلى أن وجدت دعوته من يليها ويعمل
على تنفيذها .

وفاته :

ظل هذا العالم الجليل يدأب ويجد في نشر الثقافة وفتح أبواب العلم والنور
للأمة المصرية ، حتى توفي في سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م وله من العمر ٧٥ سنة .

وقد بقي تلاميذه من بعده ، وطريقته التي استنتها ، وكتبه التي ألفها وترجمها تهيب بالأمة أن تسير على سنته ، وأن تنقل من آثار الغرب ما يزيل صدا السنين عن عقول طالت غفلتها .

صفات:

كان رفاة بك عربي الصفات ، يتمثل فيه الكرم والجرأة والحزم ، وتفرس الأمور ، ومن أخص مزاياه الشمم والآباء ، واعتداده بنفسه ، ولعل هذه الصفات تفسر لنا تأخر رفاة بك في سلم الترقى الحكومى ونيل الألقاب ، بينما قد سبقه بعض تلاميذه في هذا المضمار . وكان يمثل أخلاق العلماء ببعده عن مظاهر الخيلاء والغرور ، بل كان زاهداً جواداً ، متواضعاً ، محباً للخير ، وكان يتقد وطنية وغيره على بلاده وله في ذلك كثير من الأشعار الحماسية يشيد فيها بمصر ، وعظمة جيشها ، ومن هذا قوله يخاطب الجنود :

يا أيها الجنود	والقادة الأسود
إن أمكم حسود	يعود هامى المدمع
فكم لكم حروب	بنصركم تئوب
لم تشنكم خطوب	ولا اقتحام معمع
وكم شهدتم من وغى	وكم هزتم من بغى
فمن تعدى وطنى	على حماكم يصرع

وتجلى روحه الوطنية في ترجمته نشيد فرنسا القومى (المارسيليز) ؛ لأنه أحبه ، وهاج عاطفته ، وكان يكثر من عبارات الوطن والوطنية وخدمة الوطن في مؤلفاته .

وكان بجانب هذا أديباً ، وشاعراً قيقاً إذا قيس بأهل عصره ، ويدللك على ذلك ما روى من أن السفينة التي أفلته إلى أوربا ظلت خمسة أيام بحزيرة صقلية تزود من الماء والخضر ، ولم يسترع انتباه الشيخ ، ويأخذ بمجامع قلبه إلا دق نواقيس الكنائس . وفي إحدى الليالي دعا صديقاً من أصدقائه من أعضاء البعثة ممن يعرف فيه الظرف والأدب ، واقتراح عليه أن يشتركا في إنشاء مقامة على غرار مقامات البديع أو الحريري ، ويكون موضوعها ثلاثة أشياء : حوار حول « أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العنفاء » ، ثم « سكر الحب من عيني محبوبه » ؛ ثم « تأثر النفوس بضرب الناقوس » إذا كان من يضربه ظريفاً . وأخذ ينشئ الشعر في مقاماته حول هذه المعاني ، فقال في المعنى الأول :

أصبو إلى كل ذى جمال ولست من صبوتى أخاف
وليس لى فى الهوى ارتياب وإنما شيمتى العفاف

وقال فى المعنى الثانى :

قد قلت لما بدا والكأس فى يده وجوهر الحجر فيها شبه خديه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ونشوتى من معانى سحر عينيه

وفى المعنى الثالث :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له : من علم الظبي ضرباً بالنواقيس
وقلت للنفس أى الضرب يؤلمكى ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسى

ومن هذه الأمثلة وغيرها مما مر بك ترى أن رفاعة بك قد حمل لواء النهضة الجديدة فى الأدب ، وأنه جدد فى أغراضه ، كما جدد فى أسلوبه ، وإن لم يتخلص جملة من كل تلك القيود القديمة ، والزخارف اللفظية . ورفاعة بك لم يكن ذلك

الشاعر الفحل ، وإن كان أديباً سلمت له بعض الأبيات التي تدل على ذوق سليم ، وتدل على أنها تبشير الشعر الجديد .

— ٣ —

الطباعة والصحافة :

السكرت غداء العقول ، وإذا لم يتيسر للعقل غذاؤه أجذب ، والأمة التي تجذب عقولها لا تعرف كيف تحيا حياة الأناسي ، بل تكون أمة من سائمة . ولا ريب أن السكرت تيسر ويسهل على الناس اقتناؤها والانتفاع بها ، والاستئثار بمصايبها ، إذا كثرت المطابع وانتشرت ، وساعد أولو الأمر على إذاعة الثقافة . وقد كان محمد علي من أولئك الذين ألهموا حب الخير ، ورزقوا العقل المفكر ، والنظر الثاقب ، فعمل على نشر الطباعة في مصر .

ليست مطبعة محمد علي ببولاق أول مطبعة عربية في العالم ، وإن كان أول مطبعة عربية ظهرت كانت في (فانو) بإيطاليا ، حيث أمر بها البابا (يوليوس الثاني) ، وأخذت تعمل سنة ١٥١٤ في عهد البابا (ليون العاشر) . وأول كتاب عربي طبع في تلك السنة هو كتاب ديني — كما هو المنتظر — ثم سفر الزبور في سنة ١٥١٦ ؛ وبعد قليل طبع القرآن في البندقية ، ولكن الطبعة أحرقت خشية أن يؤثر في عقائد المسيحيين ، وطبع كتاب القانون لابن سينا في روما سنة ١٥٩٣ في مجلد ضخيم . وتعددت المطابع العربية في أوربا ، وطبعت فيها مئات من الكتب العربية وغيرها (١)

أما الطباعة العربية في الشرق ، فأسبق الأمم إليها الدولة العثمانية ، وقد

(١) راجع جورجى زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٤٤

مر بك كيف اضطر من أراد إدخال المطبعة الأولى لأخذ فتوى من علماء الدين ،
وأول كتاب طبع بالعربية في الأستانة كان سنة ١٧٢٨

وكانت للسوريين محاولات سابقة لهذا التاريخ ؛ إذ طبع الأنجيل في حلب
بالعربية سنة ١٧٠٦ ، وأقدم مطبعة عربية في الشام هي مطبعة (ماريو حنا)
الصايغ في (الشويز) للروم الملاكانيين ، أنشئت سنة ١١٤٥ هـ ١٧٣٢ م .
ثم مطبعة القديس (جاو رجيوس) للروم الأرثوذكس ، في بيروت ١١٦٧ هـ
١٧٥٣ م . ولكن مطبوعات هاتين المطبعتين لم تتعد بعض كتب الدين ،
ولم يكن لهما أثر يذكر في نشر الثقافة العربية ، ولا في النهضة الحديثة .

وأهم مطبعة انبعث منها النور متدفقا فياضاً يبدد الظلام الخالك المطبق على
عقول الأمة العربية ، هي تلك المطبعة العتيقة التي أسسها محمد علي في بولاق
سنة ١٨٢٢ ، وهي إلى اليوم تعد أكبر مطبعة عربية في العالم .

نعم ! إن مصر قد عرفت الطباعة العربية قبل محمد علي ؛ لأن نابليون كان قد
أحضر معه مطبعة عربية وحاول أن يصدر بها تلك النشرة المعروفة (بالتنبيه) التي
لم تصدر فعلاً^(١) ، وإنما الذي صدر هو (سلسلة التاريخ) وكان يحررها السيد
إسماعيل الخشاب ، وكانت سجلاً لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة ،
بيد أن أثر مطبعة نابليون زال بخروج الحملة الفرنسية من مصر ، واشتري
محمد علي مطبعتهم ، فكانت نواة لمطبعة بولاق الشهيرة . أما مطابع تركيا فكانت
أسبق إلى نشر الكتب الأدبية والعلمية من سواها ، فطبع هنالك القاموس
المحيط في سنة ١٨١٤ ، وطبعت كافية ابن الحاجب سنة ١٨١٩ ، وجملة ما نشر من

(١) راجع عبد الرحمن بك الرافعي في تاريخ الحركة القومية الجزء الأول ص ١٤٥ ،

والجزء الثاني ص ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، وج ٣ ص ٥٣٨

الكتب الأدبية واللغوية لا يزيد عن أربعين كتاباً حتى سنة ١٨٣٠ (١) .
لم يكن اتجاه محمد علي أدبياً ، ولكن معظم اهتمامه كان بالعلوم والجيش
والإدارة ؛ ولذلك كان إنتاج مطبعة بولاق في أوائل أمرها علمياً بحتاً ، ومن
أوائل الكتب التي طبعت بها قاموس طلياني عربي ، وكتاب الآجرومية في
النحو ، ورسالة الفنون الحربية مترجمة إلى التركية ، وكتاب في صباغة الحرير
مترجم من الإيطالية ، ثم سيرة الإسكندر الأكبر .

وفي الحق لم تخرج مطبعة بولاق شيئاً ذا قيمة من الكتب الأدبية القديمة
إلا في عهد اسماعيل ، حينما أخذت النهضة الأدبية تشتد وتقوى . على أن
مطبوعات استامبول كانت في نمو واطراد ، ولا يزال لطبعاتها في آذاننا رنة
حتى اليوم .

ومن أشهر المطابع التي كان لها أثر ملموس في النهضة الأدبية بالشرق
العربي المطبعة الأمريكية ببيروت سنة ١٨٣٤ ، ومطبعة الآباء اليسوعيين
ببيروت كذلك سنة ١٨٤٨ . وتعد الأخيرة أكبر المطابع في سوريا ، وأتقنها ،
وفيها حروف عربية ، وأفريقية ، ويونانية ، وسريانية ، وعبرية ، وأرمنية .

الصحافة :

الصحافة من أسس النهضة الأدبية الحديثة ، وعامل من أهم العوامل في
مقاومة اللغة العامية ، وانتشار اللغة الفصحى ، ومجال واسع لنشر الأبحاث
الأدبية ، والعلمية ، والسياسية ، والتاريخية ، والاجتماعية . ولقد تدرجت في
نموها من عصر محمد علي حتى اليوم .

أنشأ الفرنسيون إبان مقامهم بمصر في عهد نابليون صحيفتين فرنسيتين :
 العُشار المصري ، ويريد مصر . وقد ذهبتا بانقضاء الحملة الفرنسية ، كما أنهم
 نشروا سلسلة تاريخية حررها السيد اسماعيل الخشاب ، وقد أشرنا إليها سابقاً .
 وقد ذهبت كذلك بانقضاء حملتهم .

كانت هذه محاولات بدائية في الصحافة ، فلما جاء محمد علي أصدر أول
 صحيفة عربية سنة ١٨٢٨ ، وهي الوقائع المصرية . وكانت تصدر أول أمرها
 بالتركية ، ثم صدرت بالتركية والعربية معاً ، وأخيراً اقتضرت على العربية .
 ولا تزال تصدر حتى اليوم . ولم يكن صدورها في عهد محمد علي منتظماً ، وكان
 يشرف على تحريرها الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر ، وكان صديقاً للشيخ
 اسماعيل الخشاب محرر (سلسلة التاريخ) . وتسكاد الوقائع تكون مقصورة على
 الأخبار الرسمية . وقد تعاقب على تحريرها منذ ذلك الوقت نخبة من كبار الأدباء
 منهم أحمد فارس الشدياق ، والسيد شهاب الدين صاحب السفينة ، والشيخ أحمد
 عبد الرحيم ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سليمان ، وغيرهم .

وقد تعطلت الوقائع بعد محمد علي ما بين ١٨٢٩ — ١٨٦٣ ، ولم تصدر
 جريدة غيرها ، وذلك راجع إلى عزوف عباس وسعيد عن النهضة ووسائلها .
 ولكنها استأنفت حياتها في عهد اسماعيل .

نقيب :

كانت نهضة محمد علي كما رأينا من كل ما تقدم علمية حربية ، ولم يلتفت
 للأدب أدنى التفاتة ؛ وذلك لأنه لم يكن بحاجة للأدب كحاجته لجيش قوى
 يدعم به عرشه ، ويؤسس دولته ، ويدافع به عن نفسه . وكان كل شيء في

مصر ، وكل البعثات من طبية وهندسية وصناعية وغيرها تهدف إلى خدمة الجيش ، ورجال الجيش . ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التي ظهرت في عهد اسماعيل ؛ فالمدارس التي فتحتها محمد علي ، والكتب التي ترجمت ، والبعثات التي تزودت من علوم أوروبا ، واطلعت على حضارتها ، أسهمت كلها في النهضة التالية ، وساعدت على نجاحها ، فلم يكن كبار المفكرين في عهد اسماعيل إلا شباناً في عهد محمد علي ، ولقد أفادوا مصر فيما بعد أكبر فائدة ، وفي طليعتهم رفاعة بك ، ومحمد علي البقلي باشا ، واسماعيل باشا الفلـكي ، ومحمود باشا الفـلـكي ، وعلى باشا مبارك .

تعلم هؤلاء في عصر محمد علي وقادوا الحركة الفكرية في عهد اسماعيل . ففضل محمد علي على النهضة الأدبية من هذه الناحية أجل من أن ينكر . وحسبنا أن نقول كما قال (جبرجي زيدان) : إنه « قد خدم آداب اللغة العربية بإحياء الجامعة العربية ، واللغة العربية ، حتى الأزياء العربية ، فإنه كان يُكره من يدخل في خدمته من الفرنجة أن يتزويوا بالزى العربى ، ويتكلموا اللغة العربية ويؤلفوا فيها ، أو ينقلوا كتبهم إليها » كما رأينا في الكلام على الترجمة ، وكما سنرى عند الكلام على التأليف في عهد محمد علي .

— ٤ —

الأدب في عهد محمد علي :

لا نستطيع أن نقول : إن الأدباء الذين ظهوروا في عهد محمد علي هم أثر للنهضة العلمية في عصره ، ولكنهم ولاشك أفادوا منها ، مع أنهم من آثار العصر السابق . اطلعوا في عصر محمد علي على أشياء كثيرة لم يروها من قبل وأحاطت

بهم نهضة شاملة ، ومع ذلك فقد كانوا مكبلين بقيود الألفاظ ، والزخارف في كتاباتهم وشعرهم إلا القليل . ومن هؤلاء :

١ - الشيخ مسهر العطار :

من أسرة مغربية نزحت إلى القاهرة فولد بها سنة ١١٨٠ ١٧٦٦ م ، وكان أبوه عطاراً ، فتنبع أباه في تجارته أول الأمر ، ولكن الله قد أودع قلبه حب الأدب والعلم ، فلم يرض عليه والده بالمساعدة على تحصيلهما ، وجد الولد ، وحصل منهما الشيء الكثير ، ووعى ما حصل ، وتلمذ على أكابر علماء عصره كالشيخ الأمير ، والشيخ الصبان .

وفي أيامه دخل الفرنسيون مصر ، فاتصل بهم ، فأفاد منهم بعض الفنون الشائعة ببلادهم ، وعلم بعضهم اللغة العربية ، ثم ارتحل إلى الشام ، وسكن دمشق زمناً . وتجول في بلاد كثيرة يفيد ويستفيد ، ثم آب إلى مصر ، فأقر له علماءؤها بالفضل ، وتولى التدريس بالأزهر ، ثم صار شيخاً له ، بعد الشيخ العروسي ، فأحسن إدارته ، وظل في منصبه إلى أن توفي سنة ١٨٣٥ م . وكان محمد علي يحله ويكرمه ، وقد خلف عدة مؤلفات في النحو والبيان والمنطق والطب ، وله كتاب في الإنشاء والمراسلات طبع مراراً بمصر ، وكان على إمام بعلم الفلك ، وله رسالة في كيفية العمل بالأسطرلاب ، وكان يحسن عمل المزاول الليلية والنهارية ، وقد اشتهر كذلك بالأدب والشعر .

وكان صديقاً للسيد اسماعيل الخشاب ، واستمرت صحبتها بعد عودة الشيخ العطار من الشام — حتى كانا يبيتان معاً — إلى أن مات الخشاب ، وللعطار ديوان شعر ، وروى له الجبرتي كثيراً . وكان على صلة بكثير من أدباء عصره ،

ومنه المعلم بطرس كرامة اللبناني ، وقد قال فيه كرامة لما لقيه بمصر :
 قد كنت أسمع عنكم كل نادرة حتى رأيتك يا سؤلى ويا أربى
 والله ما سمعت أذننى بما نظرت لديك عينائى من فضل ومن أدب
 ومن نثر الشيخ العطار :

« أما بعد فإن أحسن وشى رفته الأقلام ، وأبهى زهر تفتحت عنه
 الأكام ، عاطر سلام يفوح بعبير الحبة نفحه ، ويشرق فى سماء الطروس صبحه .
 سلام كزهر الروض أو نفحة الصبا أو الراح تجلى فى يد الرشأ الأملئ
 سلام عاطر الأردن ، تحمله الصبا سارية على الرند والبان ، إلى مقام حضرة
 الخالص الوداد ، الذى هو عندى بمنزلة العين والفؤاد صاحب الأخلاق الحميدة ،
 حليلة الزمان الذى حلّى به معصمه وجيده ... الخ » .

ومن شعره قوله يتغزل :

ألزمت نفسى الصبر فيك تأسيًا والصبرُ أصعبُ ما يقاد نجيبه
 وبليت منك بكل لاح لو تبى دى نحو طود أثقلتـه كروبه
 أفلا رثيت لعاشق لعبت به أيدى المنون ونازعتـه خطوبه
 أنت النعيم له ، ومن عجب ته ذبه وتمرضه ، وأنت طيبه
 وهو شعر إذا قيس بعصره دل على روح أديب ، وذوق شاعر ، كما أن
 النثر ، وإن كان مسجوعاً ، إلا أنه غير مثقل بالحلى اللفظية ، مما يدل على بعض
 التطور فى كل من النثر والشعر . نعم إن فى النثر تكلفاً وتعهداً للسجع فما دام
 السلام عاطر الأردن ، فلا بد أن تحمله الصبا سارية على الرند والبان . إلى غير
 ذلك مما يذكرنا بسجع القاضى الفاضل ، وتذليل المعانى للألفاظ ، وخفاء شعور
 الكاتب والشاعر تحت هذه الزخارف الكثيرة . على أن الشيخ العطار مع

هذا من أحسن كتاب عصره وشعرائه ديباجة ، وأقلمهم تكلفاً .

٢ — الشيخ محمد فويرر :

تلميذ العطار ، ولد بمصر ١٢٠٤ هـ — ١٧٨٩ م ، وهو مغربي الأصل كأستاذه ، ونزح أهله إلى بلدة الخليل بالشام ، وجاء والده إلى القاهرة وأقام بها ، فولد فيها المترجم . ونال شهرة عظيمة في العلوم ، وكان مع ذلك يشتغل بالتجارة ، وصارت له مع أهل الشام صلات تجارية . ومن تأليفه شرحه المطول على منظومة الشيخ العطار في النحو ، وكان قد قرظها من قبل بقوله :

منظومة الفاضل العطار قد عبت منها القلوب بريا نكهة عطره
لولم تكن روضة في النحو يانعة لما جنى الفكر منها هذه الثمرة
وله كتاب إنشاء ومراسلات ، وكتاب نيل الأرب في مثلثات العرب ، وهو مزدوجات ضمنها الألفاظ المثلثة الحركات المختلفة المعاني كمثلثات قطرب ، وقد طبع بمصر ، ونقله إلى الإيطالية المستشرق (إريك فيتو) قنصل إيطاليا ببيروت . وهو أرجوزة طويلة مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن لكن له ظن بمولاه حسن
فكم لمولاه عليه من منن بالعد لا تدخل تحت الحصر
ويقول في المنظومة : —

جمعت فيها الكلمات اللاتي تكون في الشكل مثلثات
أبدأ بالفتوح ثم آتى بالضم لكن بعد ذكر الكسر
وهاك مثلاً من مثلثاته :

أَجَمَةُ الحلفاء هي الأباء والامته — ناع من كذا إباء

والغشيان يا أخى أباة وهو كراهة الطعام قادر
وهى ألفان ومائتان وعشرة أبيات ، وهى من مطبوعات جمعية المعارف .
وكان مشهوراً بالتاريخ الشعرى ، وقد أرخ وفاته وهو مريض سنة ١٢٦٢ هـ
بقوله : « رحمة الله على حسن قويدر » . ومما يروى من شعره قوله :
يا طالب النصح خذ منى محبرة تلقى إليها على الرغم المقاليد
عروسة من بنات الفكر قد كسيت ملاحه ، ولها فى الخلد توريد
كأنها وهى بالأمثال ناطقة طير له فى حميم القلب تغريد
واحذر من الناس لا تركز إلى أحد فاخل فى مثل هذا العصر مفقود
بواطن الناس فى ذا الدهر قد فسدت فالشر طبع لهم والخير تقليد
وهو شعر كما ترى ، قريب المعانى جداً ، ليس فيه من الخيال شىء ، وهو
وإن خلا من الحسنات البديعية إلا أنه غير متين النسيج ، بل هو قريب من
الكلام المعتاد .

وقد رثاه محمود صفوت الساعاتى بقصيدة مطلعها :
بكت عيون العلا وانحطت الرتب ومزقت شملها من حزنها الكتب

٣ — السيد على الدرويش :

توفى سنة ١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ م

هو السيد على الدرويش بن ابراهيم المصرى ، نشأ فى القاهرة ، وأغرم
بالأدب ، وحفظ كثيراً من الشعر ، وأصاب شهرة كبيرة فى زمانه ، وله عدد
وفير من المقطوعات الغنائية ، واتصل بأمرء البيت العلوى ، وعرف بشاعر
عباس الأول . ولم يكن يتكسب بالشعر ، لأن الله رزقه حظاً من الثروة ،
فاكتفى بما لديه .

وشعره يمثل لنا عصره من حيث الولوع بالمحسنات البديعية ، يحشرها
حشراً ، ويتكلفها تكلفاً ، ومعانيه وأخيلته لا تدل على شاعرية ممتازة إذا قيس
بشعر عصرنا ، ولكنه بالنسبة لعصره كان في طليعة الشعراء . وقد اشتهر
بالتواريخ الشعرية ، وله ديوان طبعه تلميذه مصطفى سلامه النجاري في ٤٨٢
صفحة ، وقد جمع فيه كل ما قاله السيد على الدرويش من شعر ونثر .

ومن شعره يصف الجراد الذي اجتاح مصر سنة ١٢٥٩ هـ

فترى الجراد على الجريد يد مكلا مثل الثمر
رُقشٌ تراها إنها نار تلظى بالشجر
لواحة للأرض لا تبقى النبات ولا تذر
وصغيرة في حجمها لكنها إحدى الكبر
الأرض كانت جنة فالآن ترمي بالشر
نزل الجراد بها كما نزل القضاء أو القدر

٤ — المعلم بطرس كرامة :

وهو من شعراء سوريا في عهد محمد علي ، ولد في حمص سنة ١١٨٨ هـ
١٧٧٤ م ، وجاء لبنان ، واتصل بالأمر بشير الشهابي ، وتوفي سنة ١٢٦٨ هـ
١٨٥١ م ومن شعره يصف ينبوع الصفا ، وقد مدَّ (بيت الدين) مقر الأمير
بشير بماء هذا ينبوع :

صاح قد وافى الصفا يروى الظما بشراب كوثرى العس (كذا)
وأفاض الشهد في روض الحمى لجلا الغم وبرء الأنفس

حبذا الفوّار منه حين راق فأرانا ماؤه ذوب اللجين
نَزَّه القلب عن الهم ، وراق بسنا صافي صفاه كل عين
نثر الدر بفيض واندفاق وسقى الورد أهنا الأطيبين
قد جرى عذبا فأغنى الندما بزلال من رحيق الأكؤس
وعلى الأغصان أبقى النعما فزهت مثل ندامى العُرس^(١)

وقال يصف باقة زهر أهداها له الأمير بشير :

و باقة زهر من مليك منحتها معطرة الأرواح مثل ثنائها
فأبيضها يحكى جميع خصاله وأصفرها يحكى نضار عطائه
وأزرقها عين نشاهد فضله وأحمرها يحكى دماء عدائه

٥ - الشيخ ناصيف اليازجى :

هو ناصيف بن عبد الله اليازجى ، ولد بكفر شيما بלבنان سنة ١٨٠٠ م ، واشتغل أول أمره بالعلوم والطب ، ولكن الأدب غلب عليه ، واتصل بالأمير بشير الشهابى ، فاتخذته كاتم سره ، ولما دالت دولة الأمير بشير انقطع للتأليف ومراسلة الأدباء ، ونظم الشعر . وقد خلف عدّة مؤلفات ، من أشهرها :

(١) مقاماته السقوت المعروفة بمجمع البحرين ، عارض فيها مقامات الحريرى ، ويقول في إحداها المعروفة بالمقامة الخزرجية :

« قال سهيل بن عباد : دخلت بلاد العرب فى التماس بعض الأدب ، فقصدت

(١) قد نظم الشاعر هذه القصيدة على منوال الموشح الأندلسى المشهور لابن سهل

الأشبلى ومطلعه :

جارك الغيث إذا الغيث ها يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصالك إلا حلاماً بالكرى أو خلسه المختلس

نادى الأوس والخزرج ، لأتفرج وأتخرج ، وأخذ من ألسنتهم بعض المنهج ،
فلما صرت في بهرة^(١) النادى ، أخذ بمجامع فؤادى ، فجلست بين القوم ساعة ،
وأنا أهدق إلى الجماعة ، وإذا شيخنا ميمون بن خزام ، قد تصدر في ذلك المقام ،
وهو يقول : من أراد أن يعرف جهينة^(٢) ، أو شاعر مزينة^(٣) ، فليحضر لي سمع
ويرى ، فإن كل الصيد في جوف الفرا^(٤) ، فعمد إليه رجل وقال : أطرق
كرى ، إن النعامة في القرى^(٥) الخ .

(٢) وله كتاب فصل الخطاب في الصرف والنحو ، وله شرح على ديوان
المتنبى ، أتمه ابنه الشيخ ابراهيم ، واسمه العرف الطيب في شرح ديوان
أبي الطيب .

(٣) وله ديوان شعر في ثلاثة أجزاء : أحدها نفحة الرياح ، وثانيها فاكهة
الندماء ، وثالثها : ثالث القمرين .

وشعره يجمع بين الرقة والمتانة ، ومن شعره في بخيل :

قد قال قوم :

إن خـ بـزك حامض والبعض أثبت بالحلالة حكمه^(٦)

(١) بهرة النادى : وسطه (٢) جهينة : قبيلة قتل رجل منها قتيلًا ، ومرو بامرأته
وهي تبحث عنه فقال :

تناشد كل حى عن حصين وعند جهينة الحبر اليقين
ويضرب بالشطر الأخير المثل :

(٣) هو زهير بن أبي سلمى (٤) الفرا : حمار الوحش ، ومن صاده أغناه عن كل
صيد سواه ، ويضرب بهذه الكلمة المثل .

(٥) الكرى : الكروان : اخفض رأسك ولا تتكبر فإن النعامة وهي أكبر منك قد
صيدت وحبست في القرى .

(٦) أل لا تدخل على بعض في صحيح اللغة ، وعجيب أن يفوت ذلك على الشيخ ناصيف
وهو العالم اللغوى .

كذب الجميع بزعمهم في طعمه
وقال في الزهر :

مر النسيم على الرياض مسالماً
أحني إليه الزهر مفرق رأسه
يا حبذا ماء الغدير وشمسه
وقال يرثي صديقاً :

قد كنت أنتظر البشري برؤيته
إن كان قد فات شهد الوصل منه فقد
أحب شيء لعيني حين أذكره
هذا الصديق الذي كانت مودته
لا غرو أن أحزن الزوراء مصرعه
فجاءني غير ما قد كنت أنتظر
رضيت بالصبر لكن كيف أصطبر
دمع ، وأطيب شيء عندها السهر
كالكوثر العذب لا يغتالها كدر
فحزنه فوق لبنان له قدر

٦ - الشهاب الألوسي :

هو أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسي ، ولد ببغداد ١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م
وتوفي ١٢٧٠ هـ ١٨٥٤ م .

وكان إماماً في التفسير والإفتاء ، عالماً ضليعاً باللغة ، وكاتباً بليغاً وخطيباً
مصقلاً . وقد حظي بشهرة عظيمة في عصره ، وصار مقصد الأدباء والمتأدبين ،
وطلاب التفسير والفقه .

وقد كثر حاسدوه وشائثوه ببغداد ، واضطهده الوالي التركي ، فقام برحلة
إلى الأستانة يبث شكواه لأولى الأمر ، ويعرض عليهم تفسيره المشهور (روح
المعاني) ، ولقي في رحلته من الأكرام ما أنساه غلظة الوالي ، وسجل رحلته بعد
عودته لبغداد في ثلاثة كتب .

وكان سريع الخاطر ، منطلق الذهن في الكتابة والتحرير ، وقيل إن أقل ما كان يكتبه في الليلة من مؤلفاته ورقتان كبيرتان ، وله عدة كتب في : التفسير والفقہ والمنطق والأدب واللغة ومن أشهرها : (١) روح المعاني في التفسير وهو تسعة أجزاء . ويعد خبر كتبه ومن أحسن التفاسير المتداولة . (٢) شرح السلم في المنطق (٣) كشف الطرة عن الغرة ، وهو شرح على درة الغواص للإحريري (٤) حاشية على شرح قطر الندى لابن هشام . (٥) وله كتاب في المقامات طبع في كربلاء . ومن نثره يصف القسطنطينية :

« بلدة موفقة الأرجاء . رائعة الأنحاء ، ذات تصوير تضيق عن تصورها سعة الأذهان ، وتتجاذب الحسن هي وقصور الجنان ، وربة رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، وقد تغنت أطيارها ، فتمايلت طرباً أشجارها ، وبكت أمطارها فتضاحكت أزهارها » (١)

وهو شاعر مقل ، ولكن رقيق ، ومن شعره قوله يذكّر العراق :

أهيم بآثار العراق وذكره	وتغدو عيوني من مسرتها عبري
والثم أخفاً وطنن تراه	وأكحل أجفانا بتربته العطري
وأسهر أروعي في الدياجي كواكبا	تمر إذا سارت على ساكني الزورا
وأنشق ريح الشرق عند هبوبها	أداوى بها يامحى مهجتي الحرا

تقريب :

ذكرنا آنفاً أن هذا الأدب وليد العصر السابق ، وأنه لم يتأثر أدنى تأثر بالحركة العلمية التي حمل محمد علي لواءها في مصر ، كما رفع رجال الرسائل

(١) تجد نماذج من نثره في كتاب أعلام العراق لمحمد بهجت الأثرى ص ٣٤ وما بعدها .

هذا اللواء في بعض بلاد الشام ؛ لأن هذه الحركات فضلا عن أنها كانت في بدء نشأتها ، بحيث لم يستفد بها هؤلاء الرجال الذين ترجمنا لهم ، والذين هم خير من أنجب عصرهم ، فإن هذه الحركات كانت علمية ، لا تعنى بالأدب إلا القليل . والنماذج التي أوردناها هؤلاء الأدباء من شعر ونثر تفصح عن تعلق بتلك الحلي السمجة ، والزخارف اللفظية ، والمعنوية ، التي تضحي بالفكرة في سبيل المحسن المقصود ؛ والفكرة في ذاتها ضحلة ، والخيال يكاد معدوماً ، وما بها من معنى فهو مأخوذ من السابقين ، وليته ظهر واضحاً كما ظهر عند المتقدمين من الشعراء ولكنه توارى تحت ستار كثيف من المحسنات الثقيلة ، والنسج ضعيف إلا القليل . وأما الأغراض فهي تلك المقاصد التقليدية التي سار عليها الأدباء من قديم ، ولم يظهر فيما رأينا أية بادرة للروح القومية وبقظة الشعوب ، والأغراض العامة ، وإفصاح الشاعر عما يجيش في نفسه هو من حزن وألم ، وفرح ولذة مما يلاقيه في الحياة ، بحيث يبدو مستقلاً في شخصيته عن أمير يمدح ، أو عظيم يرثى . وربما كان عند بعض شعراء الشام أو العراق في ذلك الوقت — كما رأيت — كلف بالطبيعة ووصفها ؛ لأن الشاعر الحساس لا يملك أن يغمض عينيه مهما كانتا من الضعف ، أو ألا ينجذب ذوقه مهما كان عليه من المرض ، أمام هذه الطبيعة الغياضة بالفتن والحاسن في بلاد الشام ، والطبيعة ثمة تغرى على القول :

تبدل كل آونة لبوساً خيال العبقري به يضل

بيد أن وصف الطبيعة ، وإن دل على حس مرهف ، وتأثر بالجمال ، فإن الصياغة والمعاني تنهالك من الضعف والركة .

التأليف في عصر محمد علي :

رأينا عند الكلام على الترجمة ، أن النهضة الحديثة ابتدأت ، والبلاد في فقر عقلي شنيع ، وظلام مطبق دامس ، وليس ثمة إلا بصيص ضئيل من النور يشع من الأزهر ، بيد أن أهله عكفوا على كتب الأقدمين يدرسونها بطريقتهم العقيمة ، ولم يكونوا على علم بما وصلت إليه أوربا من علم وحضارة ، حتى بعد أن جاء نابليون ، ومعه العلماء الأفذاذ ، والباحثون العظام ، بل ظل الأزهر كما هو غارقاً في أحلامه القديمة ، وإن اعتمد عليه محمد علي في اختيار أعضاء البعثات منه أول الأمر . وأخذت النهضة تسير في طريق مختلفة عن طريق الأزهر ، ولم يشأ محمد علي أن يغير من نظم الأزهر شيئاً بحيث توافق مقتضيات العصر ، وحاجات النهوض ، بل أنشأ نظاماً علمياً جديداً هو ذلك النظام المدني في التعليم الذي نجنى ثمرته اليوم ، وذلك أن تغيير الأزهر ، وتحويله إلى النظام المدني كان عملاً شاقاً ، وفيه قضاء على ما للأزهر من سمعة دينية في نفوس المسلمين في كافة الأقطار ، ثم فيه تحد للشعور الديني الذي كان مسيطرأ على أذهان الناس في الشرق حينذاك ولم ير محمد علي بداً من الاستعانة بعلماء الأزهر وكتب الأزهر في مدارسه الحديثة ، إذ لم يكن هنالك غير علماء الأزهر يصلحون لتدريس اللغة والدين ، ولم تُولف فيهما كتب على النهج الحديث ، بل كانت الكتب الأزهرية — على ما بها من غموض ، ومع أنها في مستوى أرق من مستوى المدارس الحديثة — هي الشيء الوحيد في هذا الميدان ، ولذلك اضطرت حكومة محمد علي أن تقدم الآجرومية والسنوسية والألفية ، والشيخ خالد وغيرها من الكتب إلى مطبعة بولاق ،

فطُبعت منها لأول مرة في مصر آلافاً من النسخ نشرتْها في مدارسها الحديثة ،
وفي الأزهر نفسه .

ولم يكن في هذه الكتب ما يشوق التلميذ أو يحجب القراءة إليه ، أو يعاونه
على تفقّد ذهنه ، واستكمال عدته للتعليم الثانوي ؛ لأنها ألقت في عصور ضعف
اللغة ، وفيها أمثلة بعيدة كل البعد عن بيئة التلميذ وحياته ، وطريقة تأليفها عقيمة ،
إذ لا تتدرج مع معلومات التلميذ ، وإنما تفرض فيه العلم من أول سطر وتعرض
أمامه مشكلات في الأعراب والعقائد يخالها طلاس ، ويتبرم بها ، ويكاد
يئأس . كل هذا في عصر كان الكتاب فيه هو كل شيء أمام التلميذ ، وليس
له إلا أن يستظهره ، فحفظ كتب الدين واللغة ، وأعدته الطريقة فاستظهر كتب
الحساب والهندسة وغيرها من الكتب المعروفة ، استعداداً لاجتياز الامتحان .

ولم يكن المدرسون وحدهم هم الذين استعارتهم مدارس محمد علي من
الأزهر ، بل كانت طائفة أخرى ، اقتضتها طريقة التدريس على يد المترجمين
التي ذكرناها آنفاً (١) ، هذه الطائفة هم المصححون الذين يصلحون الأخطاء
النحوية والأساليب في الكتب التي تنقل إلى اللغة العربية . ولم يكن هذا
العمل سهلاً هيناً ، فكثير من المترجمين وبخاصة في السنين الأولى من إنشاء
المدارس كانوا من السوريين ، أو غيرهم من المتمصرين كالأرمن والمغاربة ،
ولا ريب أن لغتهم كانت على شيء كثير من الضعف ، فقلما وثق بكتاباتهم
وترجمتهم ، ولا سيما في مواد لم يدرسوها من قبل . هذا إلى أن العلوم الحديثة
كانت تنقل لأول مرة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية ، وقد هجر الأزهر
من زمن بعيد دراسة هذه المواد ، فاضطروا إلى مراجعة الكتب القديمة في

الحساب والفلك والهندسة والطب ، وغيرها من التي ترجمت أو ألقت في العصر العباسي ، وذلك لأن مهمتهم لم تكن قاصرة على تصحيح العبارة اللغوية ، بل تعدتها إلى اختيار الكلمات الفنية المناسبة .

وقد أفادت اللغة العربية من عملهم هذا فائدة جليلة ، وحين أعجزتهم الترجمة ، ولم يهتدوا إلى مقابل للكلمة الأجنبية في العربية عمدوا إلى تعريبها ، وتركوها كما هي مع تحريف يسير يناسب اللسان العربي ، أو بدون تحريف ؛ وبذلك ازدادت ثروة اللغة العربية ، واتسع أمامها المجال لدراسة المواد الحديثة وتعريبها والتأليف فيها . وقد ألف بعضهم في ذلك كتباً تعين المترجمين والمؤلفين مثل الشيخ محمد عمر التونسي في كتابه (الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية) .

كان لابد لمحمد علي من الاعتماد على هذا القبس الضئيل الذي يشع من الأزهر ، ولقد رأينا إلى أي حد كان هذا الاعتماد ، ولكن حين استطاع نظام محمد علي أن يقف على قدميه ويؤتي ثمرته ، ويتخرج في مدرسة الهندسة والطب وغيرها شباب جمعوا بين الثقافتين حاول محمد علي أن يتخلص من تأثير الأزهر على نظامه ، ورأينا في أخريات عهده محاولة لتأليف كتب في اللغة والدين على طريقة حديثة ، وهذه الكتب وإن لم تبلغ مستوى الكتب الأزهرية في الجودة بحيث يمكنها التغلب عليها إلا أنها كانت نزعة إلى التحرير من الأزهر ، ورأينا أيضاً مدرسي الحساب من خريجي مدرسة الهندسة ، وبعض مدرسي اللغة العربية يؤخذون من نوابغ المتخرجين في مدرسة الألسن . وهكذا ابتدأت الهوة تزداد اتساعاً بين تعليم الأزهر والتعليم الحديث ، حتى أوشكت الصلة أن تزول فيما بينهما . بل رأينا — على العكس — أن الأزهر يقتبس من النظم الجديدة في التعليم ، ويحاول الشيخ العروسي شيخ الأزهر في عهد محمد علي أن يدخل الطب

في الأزهر بمعاونة كلوت بك ، لولا أن عاجلته المنية .

كان التعليم الحديث في عهد محمد علي بالجمان في كافة أنواع المدارس سواء كانت ابتدائية أو ثانوية أو عالية ، وكانت الحكومة تنفق على التلاميذ ، وتتولى أمورهم من مسكن ومأكل ، وملبس ، وتجري على كثير منهم الأرزاق والمرتبات . بيد أن الأهالي لم يطمئنوا إلى إسلام أولادهم للمدارس والتعليم في بادئ الأمر ، بل نفروا من ذلك نفوراً شديداً ؛ حتى لجأت الحكومة في بعض الأحيان إلى إدخال التلاميذ في المدارس قسراً .

ولكن ما لبث الناس في مصر أن لمسوا فائدة التعليم ، وكيف ينقل أولادهم من حال الضعف الجسمي والعقلي والخلقي ، إلى مستوى رفيع من الحياة ، فأقبلوا عن المعارضة ، بل أقبلوا على التعليم بنفوس رضية .

وقد بلغ عدد التلاميذ في عهد محمد علي بجميع مدارس القطر المصري على اختلاف أنواعها تسعة آلاف تلميذ ، تتولى الحكومة النفقة عليهم في كل شيء ، وتعطى لهم بعض الرواتب ^(١) .

كانت نهضة محمد علي علمية كما مر بنا ؛ لأن البلاد لم تكن في حاجة للآداب حاجتها للعلوم والنهوض بالجيش ، ومسايرة الحضارة الأوروبية العلمية في الطب والهندسة والرياضيات والفنون العسكرية ، وكان محمد علي نفسه يؤثر اللغة التركية على اللغة العربية في التعليم أول الأمر ، ولكنه اضطر إلى أن يجعل اللغة العربية لغة الدراسة ، فكانت هذه الخطوة الأولى في إحياء اللغة . ثم أنشأ مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ كما ذكرنا ، وقد عكفت منذ عصره حتى اليوم على إحياء

(١) راجع كتاب (لمحة عامة إلى مصر) تأليف كلوت بك ج ٢ ص ٥١٩ . وتاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي بك ص ٤٥١ ج ٣ .

الكتب القديمة ، وإن كان اهتمامها بكتب الآداب في عهد محمد علي زهيداً ، لأنها كانت في شغل بطبع مؤلفات رجال البعثات في الفنون التي تخصصوا بها ، ولم تتجه إلى إحياء التراث العربي القديم إلا في عصر اسماعيل كما سيأتى .

وأغلب الكتب التي ظهرت في عهد محمد علي كانت كتباً مترجمة في شتى العلوم والفنون ، ولم تؤلف إلا كتب قليلة ليست ذات شأن ، مثل كتب الرحلات التي دون فيها أعضاء البعثات مشاهداتهم بأوروبا ككتاب رفاعة بك (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) وما شاكله . أما الكتب العلمية البحتة فكان أغلبها ترجمة ، وقد انتشرت هذه الكتب كثيراً بتشجيع محمد علي لترجمتها ومكافأتهم مكافآت سخية ، وبتطبعها على نفقة الدولة في مطبعة بولاق .

ويروى عن محمد علي أنه لما عاد أعضاء البعثة الأولى إلى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة ، وسلم كلا منهم كتاباً بالفرنسية في المادة التي درسها بأوروبا ، وطلب إليهم أن يترجموا تلك الكتب إلى اللغة العربية ، وأمر بإبقائهم في القلعة ، وألا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد به إليهم ، فترجموها ، وأمر بتطبعها وتوزيعها على المدارس التي وضعت لها تلك الكتب ^(١)

وكان للوقائع المصرية التي أنشأها محمد علي فضل في تذليل الأسلوب العربي للأخبار الصحفية ، وكانت على عهده تنشر أخبار الحكومة ومصالحها وبعض الأنباء الخارجية ، وكان يحررها نوابغ العلماء في عهده .

كل هذا ولاشك قد مهد اللغة نوعاً ما للعصر الثانى في النهضة وهو عصر إسماعيل ، وهياً جيلاً من العلماء والمفكرين ، ومحبي الفنون والآداب ، قادوا مصر في عهد إسماعيل إلى مدى واسع من الرقي والتعليم .

(١) راجع تاريخ الحركة القومية للرافعى بك ج ٣ ص ٥٣٧ .

على أن النهضة السورية اتجهت وجهة أدبية من أول أمرها بخلاف النهضة المصرية ؛ وقد وقفنا على الدوافع التي حولت نهضة مصر إلى وجهة عامية ، أما الأسباب التي جعلت نهضة سورية أدبية ، فهي أن المبشرين كانوا حملة مشاغل تلك النهضة أول الأمر ، وكان همهم نشر التعاليم الدينية طبقاً للمذاهب المسيحية الغربية ، وقد عنوا بترجمة التوراة ، وظل الجدل الديني مسيطرأ على الصحافة السورية ، ومجالس الأدب ثمة ردحاً طويلاً من الزمن . ولعل هذا يعمل لنا سبق السوريين في الصحافة وإتقانهم لإخراجها وتبويبها ، وقد ظهرت ثمرة هذا الميل الأدبي عند السوريين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولنا إليه عودة



الفصل الثاني

النهضة

عصر اسماعيل هو العصر الذي أينعت فيه النهضة الأدبية ، وأورقت ، وبشرت بثمار طيبة حلوة ، وكان عهده الباب الذي دلف منه الأدب إلى رياضة الغناء في عصرنا الحاضر ؛ وذلك لأن اسماعيل وضع أسساً متينة لنهضة شاملة ، بعد أن مضت فترة ركود كادت تعصف بما غرسه محمد علي ، وتعود بمصر القهقري إلى عصور الظلمات وذلك أيام الواليين عباس وسعيد ؛ إذ كانا من من دعاة الرجعية ، فألقى عباس حين توليته كل المدارس العالية إلا المدرسة الحربية والأدب في عصر اسماعيل مدين في نهضته ورقيه وسيره نحو التحرر من أغلال الماضي في صورته ومعناه إلى عدة عوامل لا نستطيع إغفالها ، أو التقليل من أثرها ، وسنلقى عليها نظرة عاجلة ، حتى يكون إدراكنا لتطور الأدب في مصر والبلاد العربية إدراكاً صحيحاً .

— ١ —

التعليم :

استوى اسماعيل على أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ، وما بها إلا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ، وأخرى طبية ، وثالثة للصيدلة ، وأوقفت البعثات ، واستغنى عن خدمات من عاد من رجالها ؛ وكان اسماعيل ذاهمة عالية ، ترسم

في نهضته خطوات جده محمد على ، وأراد أن يرى مصر قطعة من أوربا في ظرف وجيز ، فأعاد للبعثات سيرتها الأولى حتى بلغ عدد أعضائها في عصره اثنين وسبعين ومائة ، وأعاد مدرسة البعثات بباريس ؛ لأنه عرف فائدتها أيام أن كان طالباً هناك .

وأخذت الحياة تدب إلى كل أنواع التعليم ، فأعاد اسماعيل المدارس العالية التي كانت على عهد محمد على كالمهندسة والطب ، وزاد عليها مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة الإدارة والألسن (بدلا من مدرسة الإدارة القديمة) . وقد أسهمت مدرسة الحقوق في النهضة اللغوية والأدبية ، فالمذكرات التي يعدها المحامون ، ووكلاء النيابة ، ولغة المرافعات والدفاع ، والخطابة القانونية قد تحسنت كثيراً وأدخلت في اللغة كلمات عديدة لم تكن مستعملة من قبل . ورجال الحقوق والقانون هم الذين يقودون مصر اليوم في ميدان السياسة ، ولكنهم وللأسف قد أثروا بعقليتهم الجدلية ، وتربيتهم النظرية ، وإصلاحاتهم القانونية اللفظية في حياة الأمة أثراً بليغاً ، وأبعدوها عن جادة الصواب ، وألقوا بها في لجة الجدل والتناحر الحزبي ، والتشدد بالإصلاح ونأوا بها عن الحياة العملية المنتجة ، على أن هذا الموضوع ليس مما يعنيننا في كتابنا هذا ، وإنما الذي يلفت أنظارنا هو نهضة الخطابة واللغة على يد من تخرج في هذه المدرسة ، ولا سيما في عصرنا الحاضر .

ومن المدارس التي أنشئت في عهد اسماعيل ، وكان لها أكبر الفضل في نهضة اللغة والأدب مدرسة دار العلوم التي أشار بها على باشا مبارك ، وافتتحها في سنة ١٨٧٦ . وقد رأينا ما كانت تعانيه مدارس محمد علي الحديثة من فقر في الكتب المدرسية المنظمة وفي المدرسين الأكفاء ، الذين جمعوا بين العلم القديم

والعلم الحديث ، وعرفوا النظام ، ونالوا حظاً من طرق التربية ؛ وأن ذلك الفقر التربوي كان معوقاً نهضة الآداب . بيد أن دار العلوم سدّت هذا الفراغ ، فقد كان طلبتها يختارون من متقدمي طلبة الأزهر ونوابهم ، وينشئون تنشئة لغوية وأدبية ، وشرعية ، مع قسط وفير من العلوم الحديثة ، وطرق التربية . ولقد أدت دار العلوم رسالتها للأمة ولغة ولدين على الوجه الأكمل ، حفظت اللغة وصانتها ، وقوتها وأيدت دعائمها ، وأحيت مواتها وجددت في أساليبها ، ونفخت عن تراثها المجيد غبار القرون ، وقدمته للناس رائعا جذابا . وعكف أبناؤها على تعليم النشء ، وتقويم أسنتهم ، وتدريب أqlامهم ، وتزويدهم بذخائر نفيسة من مختارات الشعر والنثر ، وتقديم الكتب التي تنهج نهجاً علمياً نفسياً يتماشى مع عقل الطفل وملكوته وغرائزه ؛ فكانت بحق خير ما أسدى إسماعيل من خدمات اللغة العربية ، ولا تزال دار العلوم تقوم بنصيبتها الوفير في نهضة التعليم واللغة ، وتعتمد عليها جامعتا فؤاد الأول وفاروق الأول في دراسة الآداب والنصوص وقواعد اللغة . ولا زال بنوها في الطليعة من الكتاب والمؤلفين يجارون بتأليفهم تيار النهضة الحالية ، ويمشون مع الزمن خطوة بخطوة ، وقد تخرج على أيديهم زعماء النهضة في كل ميادين الحياة .

وفي عهد إسماعيل أنشئت أول مدرسة للبنات وذلك في سنة ١٨٧٣ حيث أسست السيدة (جشم آفت هانم) ثالث زوجات إسماعيل مدرسة السيوفية ، وكان بها حين افتتاحها مائتا تلميذة ، وبلغ عددهن في السنة الثالثة أربعمائة تلميذة يتعلمن بالبحر بالفضل عن القيام بما كلهن وملبسهن ، وكن يتعلمن القراءة والكتابة ويحفظن القرآن الكريم ، ويدرسن الحساب والجغرافيا والتاريخ والتطريز والنسيج وقبل مدرسة السيوفة كانت البلاد خلوا من مدرسة للبنات اللهم إلا مدرسة

للولادة ، لم يغشها إلا البنات الحبشيات ، واستنكف المصريات عن دخولها . وبذلك كان الجهل متخذاً من رؤوس فتيات مصر ونسائها أعشاشاً ، إلا من حرص أهلها على تعليمها في البيت ، وقليل ما هن . وقد خطا تعليم البنات منذ مدرسة السيوفية خطوات واسعة في مصر ، وتعددت ألوانه ومدارسه ، وزاحمت الفتاة الفتى في الجامعة ، واقتحمت الكليات المستعصية ؛ ولست هنا في مقام النقد ، ومناقشة طريقة تعليم الفتيات ذلك التعليم النظري ، ومنافسة البنين في كل شيء . ولكن مما لا شك فيه أن تعليم المرأة ونهوضها دعامة متينة في النهضة الاجتماعية والأدبية ، والأم المتعلمة ترباً بابنها أن يكون فريسة الجهل ، وتسعى جهدها أن تنيله حظاً مهماً كان يسيراً من نور العلم .

وقد أنشأ إسماعيل بجانب هذه المدارس كثيراً من المدارس الصناعية والخصوصية كمدرسة المساحة والمحاسبة ومدرسة الزراعة ومدرسة العميان والبكم أما المدارس الابتدائية فقد زاد عددها حتى بلغ أربعين مدرسة ، وقد صار للأقباط زيادة على ذلك اثنتا عشرة مدرسة ، وافتتحوا مدرستين لتعليم البنات . واحدة بالأزبكية والأخرى (بحارة السقاين) ، وقد وهبهم إسماعيل ألفاً وخمسمائة فدان ينفق ريعها على مدارسهم .

وأنشأ إسماعيل كذلك عدة مدارس ثانوية منها مدرسة رأس التين في سنة ١٨٦٣ ، والمدرسة الخديوية سنة ١٨٦٤ وأعاد ديوان المدارس ، وهو نواة وزارة المعارف بعد أن ألغاه سعيد ؛ ليشرّف على التعليم ويرعاه ، ويدخل على نظمه وأساليبه التحسينات التي تسير الحياة .

ومن الوسائل التي ساعدت على النهضة الأدبية والعلمية في عصر إسماعيل دار الكتب ، وناهيك بما لها من أثر في نشر العلم ، وتحبيب الاطلاع وتسهيله ،

ومعاونة المؤلفين والباحثين ومساعدة الناشرين والطابعين على استفساخ نفائس الكتب وإشاعتها بين الناس .

لقد كانت الكتب قبل ذلك مبعثرة في المساجد يتولى أمرها خدم لا يقدرونها قدرها ، ففرطوا فيها ، وتسرب كثير من كنوزنا الأدبية والعلمية إلى مكاتب أوربا ، وأهين كثير من الكتب القيمة باستعمالها في دكاكين البدالين وغيرهم هم إسماعيل بتأسيس دار الكتب فجمع هذه الكنوز المبعثرة في المساجد والتكايا والزوايا والأضرحة وغيرها ، وضم إليها ألفى كتاب اشتراها من مكتبة المرحوم حسن باشا المانسترلى ، ولما مات أخ الخديو إسماعيل الأمير مصطفى فاضل ، وكان من أكبر هواة الكتب في الشرق ، ابتاع إسماعيل من مكتبته ما يربو على ثلاثة آلاف كتاب ، وضمها إلى دار الكتب ؛ فكان ذلك نواة لهذه المؤسسة العظيمة ، التي أخذت بعد ذلك تنمو وتزداد ، وتجلب لها الكتب من الشرق والغرب ، وتضم إليها المكتبات الكبيرة مثل مكتبة المرحوم العلامة أحمد باشا تيمور وغيرها .

وقد ضم القسم الأدبي الذي كان يشرف على إحياء الكتب القديمة بمطبعة بولاق إلى دار الكتب ، وعكف منذ سنين على تصحيح وإخراج أمهات الكتب الأدبية من أمثال : الأغاني ونهاية الأرب والنجوم الزاهرة ... وغيرها .

— ٢ —

المجميات العلمية :

إذا كثرت المجميات العلمية في أمة دل ذلك على حيويتها ويقظتها ، ورغبتها في السير نحو الكمال ، غير معتمدة على الحكومة في غذائها العقلي ، فإذا اضطرب أمر الحكومات ، أو وليها من لا يحسن القيام بشئون الحكم ، لا يصاب الشعب

بالشلل العقلي ، ولكن يمضي في طريقه قدماً ، يتوقف ويستعد للنضال في سبيل الحياة السعيدة بهمهم أفرادهم اليقظين ، والجمعيات القوية المنظمة .

وقد بدأت تبشير هذه اليقظة العقلية في عهد اسماعيل ، وبرهنت مصر على أنها آخذة بأسباب النهضة الصحيحة ، وأنها مستعدة للنضج الفكري ، ولو توانت الحكومة في الإصلاح ، أو قصرت في الأخذ بأسبابه ؛ ومن الجمعيات التي كان لها أثر في الأمة :

(١) الجمع العلمي : وقد أسس على عهد الفرنسيين سنة ١٧٩٨ ، وألغى عند جلالتهم ، ولكنه أعيد في عصر سعيد ، وظل يعمل مدة حكم اسماعيل ، مؤدياً رسالته في نشر المباحث العلمية . ولا يزال حتى اليوم قائماً ، وإن تغير اسمه إلى (مجلس المعارف المصري) ، ومقره وزارة الأشغال ، وله مجلة تنشر أبحاثه .

(٢) جمعية المعارف سنة ١٨٦٨ ، وهي أول جمعية علمية مصرية صميمة ظهرت لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر ، أسسها محمد باشا عارف ، وأسهم في تأسيسها عدد كبير من أعيان البلاد ، وقد اقتنت مطبعة وقامت بطبع طائفة من أمهات الكتب في التاريخ والفقه والأدب (١) .

واقيت الجمعية تشجيعاً عظيماً حتى بلغ عدد أعضائها ستين وستمئة عضو من الطبقة الممتازة في الأمة (٢)

(١) من هذه الكتب : أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير في خمسة مجلدات ، وتاج العروس من شرح جواهر القاموس ، وتاريخ ابن الوردي ، وشرح التنوير على سقط الزند ، وديوان ابن خفاجة . وديوان ابن المعتز والبيان والتبيين للجاحظ وشرح الشيخ خالد على البردة ورسائل بديع الزمان الهمداني وغير ذلك من الكتب .

(٢) كان من أعضائها : إبراهيم بك المويلحي ، وأحمد فارس الشدياق ، والشيخ حسونة النواوي ، والدكتور محمد شافعي بك ، ومصطفى رياض باشا ، والشيخ بدرى عاشور . وتجدت بشتاً بأسماء أعضاء الجمعية في آخر (الفتح الوهبي) ، وراجع كتاب عصر اسماعيل لعبد الرحمن الرافعي بك ج ١ ص ٢٥٦ ، وجورجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٧٨

وظلت الجمعية تعمل ، وتؤدي رسالتها الثقافية إلى أن اشتد النزاع السياسى بين الخديو إسماعيل ، والأمير عبد الحليم باشا لتنافسهما على أريكة مصر ، وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا ، ففر إلى الآستانة خوفاً من إسماعيل ، وبذهابه انحلت الجمعية . وكان عارف باشا أديباً ، ويروى له قوله :

ألم تعلم بأن سماء فكرى تلوح بأفقها شمس المعارف
تقرس والدى فى المزايا فيوم ولدت لقبنى بعارف

(٣) الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ ، وتعد من أهم المنشآت العلمية بمصر ، وتعنى بالأبحاث الجغرافيا والعلمية وتدوينها ونشرها ، ولها مجلة دورية تنشر أبحاثها ، وما تقوم به من اكتشافات ، ولا تزال قائمة إلى اليوم .

(٤) الجمعية الخيرية الإسلامية . أنشئت أول الأمر بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ ، حين دفعت الحماسة جماعة من المتعلمين بالثغر — رأوا طغيان الأجانب ، واشتداد نفوذهم ، واستثمارهم بمرافق البلاد — إلى تأسيسها ، وكانت تعقد الاجتماعات ليلا ويتبادل أعضاؤها الخطب ، وقبيل افتتاحها انضم إليهم السيد عبدالله نديم ، فكلفته الجمعية العمل على تأسيس مدرسة حرة يتعلم فيها أبناء المسلمين ، وينشئون تنشئة صالحة ؛ وظلت الجمعية والمدرسة تتقدمان حتى قامت الثورة العربية فتفرق القائمون بأمرها .

وقد أنشئ على غرار هذه الجمعية التعليمية جمعية باسمها فى القاهرة ، وأخرى بدمياط ، أما الجمعية الحالية فقد أسست سنة ١٨٩٢ .

الصحافة :

وتعد الصحافة من أقوى عوامل النهوض بالشعب فى عقلية ، و لغته ، وعلمه ، والإصلاح الاجتماعى الذى يأخذ بيده صوب الكمال . وقد تحررت اللغة من آفات القديمة التى ورثتها عن عصور الانحطاط ، ولا سيما السجع والمحسنات والزخرف اللفظى والركاكة ، على يد الصحافة .

انقضى عصر محمد على كما رأينا ، وليس بمصر سوى صحيفة واحدة هى الوقائع المصرية ، وكانت موضوعاتها قاصرة على الأخبار الحكومية ، ولغتها لا تسكاد تستقيم من الركة ، ولا كنفنا نشاهد فى عصر اسماعيل نهضة جديدة ، واسعة عظيمة الأثر فى الصحافة .

سبق السوريون فى بلادهم بإصدار صحف سياسية ، وصدرت مرآة الأحوال بحلب سنة ١٨٥٥ ، وإن لم تعمّر أكثر من عام واحد ، ثم صدرت حديقة الأخبار ببيروت سنة ١٨٥٨ ، وظلت تصدر حتى سنة ١٩٠٩ ، وكانت يوماً ما لسان الحكومة الرسمى . ثم خطت الصحافة خطوة أوسع فى سبيل الرقى بصدور الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق ^(١) بالآستانة سنة ١٨٦٠ وقد طلعت على

(١) أحمد فارس الشدياق من رواد النهضة الحديثة فى الأدب ، ولد فى لبنان سنة ١٨٠٤ من أسرة مارونية مشهورة ، وتيم وهو حدث صغير ، وكانت تتراءى عليه مخايل النجابة فأقن صناعة الخط ، وجعل ينسخ الكتب لنفسه ولغيره بأجر ، وكان له أخ يسمى أسعد على حظ وفير من العلم والذكاء ، فعاون فارس معاونة طيبة فى سبيل العلم . ثم اضطهد أسعد من بطريرك الموارنة ، وسيم ألواناً من العذاب لتغيير مذهبه المسيحى حتى مات بأحد الأديرة وهو فى عنفوان شبابه ؛ فأثر موته على فارس ، وحز فى نفسه حتى كره الإقامة ببلاد الشام ووفد على مصر فى عهد محمد على باشا ، وقد أتى مبشراً من قبل الأمريكان ببيروت ليعلم أعضاء بعثتهم بمصر اللغة العربية ؛ وفى مصر ازداد اطلاعاً على اللغة العربية ، ووعى كثيراً من =

الناس بأسلوب جديد فى الكتابة العربية ، وافتن صاحبها فى تحريرها ،
وتخير موضوعاتها

فجمعت بين السياسة والأدب بشتى ضروبه وأبوابه بما فى ذلك القصائد
البليغة لكبار شعراء العربية فذاعت ، وأقبل الناس على قراءتها بشغف بالغ ،
ولم تدع بلداً عربياً بل إسلامياً إلا دخلته ، وقد سافرت كذلك إلى كثير من
بلدان الغرب ، واقتبس الناس منها ، وحكوا عنها ، وظلت تعمل حتى سنة ١٨٨٤ .
كل ذلك حفز المصريين إلى الاهتمام بالصحافة ، ووجدوا من اسماعيل
صدراً رحباً للنقد السياسى اللهم إلا ما يمس شخصه ، فلصاحبه الويل والثبور كما
حدث لمدير الأهرام ، حين أشار إلى مال صرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ،
وكاد اسماعيل يبطش به ويجريده لولا أن ارتضى فى حضن فرنسا فخمة ؛ كما

= أداها ، وتمكن من سائر علومها كالنحو والصرف والمنطق ، وتقرب من خيرة العلماء
بمصر ، ومن معية العزيز حتى أسندت إليه كتابة الوقائع المصرية ، ثم سافر بعد مدة إلى
مالطة وأقام بها زهاء أربع عشرة سنة يدرس فى مدارس الأمريكان ، وفى أثناء أقامته ثمة
ابتدأ يؤلف ، وينشر الكتب ، ويصححها . ثم ذهب إلى لندن ليشارك فى ترجمة التوراة إلى
العربية وقد سجل رحلته فى كتابه (كشف الخبايا فى أحوال أوروبا) ، وصف بها تلك البلاد
وصفاً دقيقاً . ومكث بأوروبا عدة سنين ، وألف فى خلالها كتابه المشهور (الساق على الساق
فما هو الفاريق) ، والفاريق لفظ مقتطع من اسمه (فارس الشدياق) ، وتجنس بالجنسية
الإنجليزية : ولما زار باى تونس مدينة باريس ، ووزع فى فرنسا كثيراً من الأموال على الفقراء
مدحه الشدياق بقصيدة طويلة حببته إليه ، فاستدعاه للأقامة معه بتونس ، وكان قد مدح السلطان
عبد الحميد كذلك بقصيدة طويلة حسنت لديه فاستدعاه للأستانة ، ولكن فضل الذهاب
إلى تونس . وهناك أسلم على يد الباي ويقول : « لعمري ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر
سوقاً ينفق فيها ، ولكن إذا أراد الله بعبد خيراً لم يعه عنه الشعر ولا غيره » ، وتولى عند
الباي أرفع المناصب ، واشتهر اسمه حتى طلب إلى الأستانة مرة أخرى ، وتولى تصحيح الطباعة
العامة بضع سنوات ، وفى سنة ١٨٦٠ أنشأ الجوانب ، وظل بالأستانة حتى سنة ١٨٨٦ ،
ثم جاء إلى مصر وهو شيخ هرم فقبول بكل ترحاب ثم عاد إلى الأستانة وتوفى بها ، ونقل
جثته إلى سوريا ودفن بقرية الحازمية على مقربة من بيروت سنة ١٨٨٧ .

وجدوا من اسماعيل تشجيعاً للحركة الأدبية وميلاً إلى الأدب والفن والعلم . ومن
 الصحف المصرية التي ظهرت في عهد اسماعيل :

١ - مجلة المعسوب :

وهي أول هذه الصحف المصرية ، وهي مجلة طبية أصدرها الدكتوران
 محمد علي باشا البقلي ، وإبراهيم الدسوقي بك ، وكانت شهرية عربية اللغة ، وهذا
 يدلنا على عظم المحاولة التي كان يبذلها أطباء البعثات العلمية في تذليل اللغة العربية
 المصطلحات العلمية ، والاستعانة بالكتب القديمة ، وبوضع كلمات من عندهم —
 على سبيل الاشتقاق — ولقد كانت هذه المجلة الأولى من نوعها في الشرق ،
 ولكنها للأسف لم تعمر طويلاً . ومنها نماذج بدار الكتب ، وكان ظهورها
 سنة ١٨٦٥ .

٢ - مجلة روضه المدارس :

أنشأها العلامة علي باشا مبارك سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف
 المصرية ، وهي من أجل أعماله خدمة للغة والأدب ، وكانت الوزارة تتولى
 إصدارها والإنفاق عليها ، وقد أسست لإحياء الآداب العربية ، ونشر المعارف
 الحديثة ، وأسندت رئاسة تحريرها للعالم الأديب رفاعة بك الطهطاوي ، وكان
 من محرريها ابنه علي باشا فهمي رفاعة مدرس الإنشاء بمدرسة (الإدارة
 والألسن) ، وعلى باشا مبارك ، وعبد الله باشا فكري ، والشيخ حسين المرصفي
 المدرس بدار العلوم وغيرهم . وكانت هذه المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل
 الكتاب في ذلك العصر ، وقد عنيت بالمباحث الطريفة في العلم والأدب
 والاجتماع والفلك والتاريخ والرياضيات ، وكانت تصدر مرتين في الشهر ،

وظلت تصدر ثمانى سنوات ، فهدت السبيل للصحافة الحديثة ، وكانت توزع بالجان على جميع التلاميذ ، وقد أفسحت أعمدتها للطلبة ينشرون أبحاثهم الجيدة فيها ، فعودتهم بذلك الاطلاع والكتابة والبحث ، وبذل الجهد المستقل عن أسانذتهم .

ومن الأمثلة على تشجيع المجلة للتلاميذ ما نشرته « للشاب النجيب اسماعيل أفندى صبرى أحد تلاميذ مدرسة الإدارة وقتئذ » ، وقد صار فيما بعد الشاعر العظيم اسماعيل باشا صبرى .

فمن ذلك قصيدة فى مدح الخديو اسماعيل بالعدد العشرين من السنة الأولى مطلعها :

سفرت فلاح لنا هلال سعود ونما الغرام بقلبي المعمود
وقصيدة أخرى بالعدد الخامس من السنة الثانية قال فيها :
أغررتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليل تراخى سدوله وتغرك أم عقد تنظم من در
وقصيدة أخرى بالعدد الثالث والعشرين من السنة الثانية استهلها بقوله :
لا والهوى العذرى والوجد عذلُ عذولى فيك لا يجدى
إنى مع الصمد وطول الجفا باقى على الميثاق والعهد
وغير ذلك مما يعد مقدمة وباكورة للشعر الحديث^(١) .

(٣) أما الصحف السياسية بمصر فأقدمها ظهوراً جريدة (وادى النيل)

(١) راجع تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى بك ج ٣ ص ٤٩٧ ترجمه رفاعة بك الطنطاوى . وعصر اسماعيل له كذلك ج ٢ ص ٢٦٢ وديوان اسماعيل صبرى باشا ص ٢ - ١٠

أنشأها الكاتب الأديب الشاعر عبد الله أبو السعود^(١) ، وكانت تصدر مرتين في الأسبوع على شكل المجلات ، ثم ألغتها الحكومة في سنة ١٨٧٢ ؛ بيد أنها استأنفت جهادها وحياتها باسم جديد هو « روضة الأخبار » التي أصدرها محمد بك أنسى نجل عبد الله أبي السعود ، وكان والده محرر القسم السياسي بها إلى آخر حياته .

(٤) وتليها في الظهور جريدة (نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ لمنشئها ابراهيم بك المويلحي ، ومحمد بك عثمان جلال ، وناهيك بهما في ذلك العصر فحولة قلم ، وجزالة أسلوب ، وطرافة موضوع ، وحلاوة نكتة ؛ وكانت هذه الجريدة أسبوعية ، ولكن لسوء الحظ لم يصدر منها إلا عددان ، وضاق بها اسماعيل ذرعاً ، فعطلها حين نصحه بذلك أحد وزرائه خشية أن تثير لهجتها الخواطر ضده .

(٥) وأنشأ بعض الأقباط بمصر في سنة ١٨٧٧ ؛ جريدة الوطن ، وكانت سياسية وطنية تميل إلى التحرر .

ثم نزع عقب حوادث سنة ١٨٦٠ في سوريا^(٢) جماعة من الأدباء الذين فروا بحريتهم من الاضطهاد ؛ جاءوا وقلوبهم تغص بالحقد والأحن على تركيا ، وفي نفوسهم ميل إلى الحرية ، والتنفيس عن الآراء المكبوتة . وقد شجعهم اسماعيل باشا على الإقامة بمصر ، والإسهام في نهضتها ، ولا نستطيع أن ننكر

(١) توفي سنة ١٨٧٨ وهو من أوائل تلاميذ رفاة الطهطاوي ، ودرس بدار العلوم واشتهر بالترجمة والكتابة في التاريخ ، وصار عضواً بمجلس الاستئناف .

(٢) في هذه السنة زاد اضطهاد الأتراك لمسيحي سوريا ، وقامت منابغ في جبل لبنان ذهب ضحيتها عدد كبير من المسيحيين ، واضطر كثير من سكان القرى بجبل لبنان إلى الهجرة وذلك لأن نصارى الشام قد أظهروا ولاءهم لابراهيم باشا وكرههم للحكم التركي أيام وجوده بينهم ، فلما سحبا الجيوش المصرية ظلوا على ولائهم لمصر ، فانتقم الأتراك منهم شر انتقام .

ما أسدوه للصحافة ونشر الثقافة من خدمات .

ومن أوائل الذين وفدوا على مصر عقب هذه الحوادث الدامية أديب إسحاق ، وسليم نقاش ، وقد أصدرامعاً جريدة مصر سنة ١٨٧٧ ، وكانت أسبوعية وتأثرا فيها بتعاليم جمال الدين الأفغانى وأسلوبه ، أنشأها وهما مفلسان لا يملكان غير عشرين (فرنكا) ولكن كفلا لها أسلوبها وقوة بيانها ، وجدة أفكارها ، ودعوتها الجريئة للحرية الإقبال والرواج . وقد شجعهما ذلك على إصدار جريدة يومية سميها (التجارة) ، وكانت لا تقل عن أختها حماسة وقوة ، وكان جمال الدين الأفغانى ينشر فى كليتهما بعض الرسائل ، يكتبها هو أو يملئها على تلاميذه . وقد ألغاهما رياض باشا سنة ١٨٨٠ . بيد أن ذلك لم يثن أديب إسحاق عن الجهاد فى سبيل الصحافة ، فهاجر إلى باريس وأصدر جريدة (القاهرة) بالعربية ، وكانت شـعلة متوهجة ، ولم تقف إلا حين ترك باريس مريضاً .

ومن السوريين الصحفيين سليم باشا الحموى صاحب جريدة (الكوكب الشرقى) سنة ١٨٦٣ ، ولكنها كانت قصيرة العمر . ومنهم سليم وبشارة تقلا ، وقد أصدرام (الأهرام) بالإسكندرية سنة ١٨٧٥ ، وقد لاقت أول أمرها عقبات جمة ، ثم نالت حظاً كبيراً من الرواج ، وكانت تصدر أسبوعية فى بدء ظهورها ، ثم صدرت بجانبها جريدة يومية تسمى (صدى الأهرام) فلما عطلت الجريدة اليومية انفردت الأهرام بالظهور ، ودأبت تصدر حتى اليوم ، فهى أقدم الصحف المصرية السياسية .

ومنهم سليم عنجوري ، وقد أصدر جريدة سياسية سماها (مرآة الشرق) ولكنه تنحى عنها فى سنة ١٨٧٩ ، وتولاها إبراهيم اللقانى بإيعاز من

السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد أنشأ الشيخ يعقوب صنوع اليهودى صحيفتين سياسيتين وهما (مرآة الأحوال) صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نضارة) صدرت فى القاهرة سنة ١٨٧٧ .

وكانت الأخيرة من الصحف المعارضة لإسماعيل ، وكان صاحبها ميالا للفكاهة والدعابة وهو مصرى إسرائيلى ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ؛ وقيل إنه هو الذى أوحى إليه بإصدار جريدته لانتقاد سياسة إسماعيل . وكانت (أبو نضارة) أول جريدة هزلية سياسية صدرت بمصر ، وقد نفاه إسماعيل فرحل إلى (باريس) ، واستأنف إصدار جريدته بأسماء مختلفة معارضا الخديو ومنقدا أعماله ، ولم يخل عدد منها من صور هزلية تعرض تعرضاً شديداً بالخديو إسماعيل ، فلقبت رواجاً ، واستمر الشيخ صنوع يصدر جريدته إلى ما بعد الاحتلال ، وكان معادياً للإنجليز وتوفى سنة ١٩١٢ .

وعلى العموم فقد بلغ عدد الصحف التى ظهرت فى عهد إسماعيل ما يقرب من عشرين صحيفة ، ومعظمها ظهر فى أواخر أيامه ، وقد أطلق لها الحرية فى الكتابة ، وكان يميل إلى هذه الحرية فى أخريات عهده حين اصطدم بالمطامع الأوربية ، وكانت هذه الصحف تندد بسياسة الأوربيين وجشعهم ، ونواياهم ، وتشعر الناس بتدخلهم السياسى ، وتحمل عليهم حملات شديدة اللهجة ، فكان ذلك يروق إسماعيل . ولكن لم يكن يرضى أن يتعرض كاتب ما لسياسته الخاصة أو لشخصه .

تعقيب :

هذه النهضة الصحفية خلصت اللغة من أسرها القديم ، وأوضارها التى

ورثتها من عصور الضعف ، وخاضت في موضوعات شتى كما ذكرنا ، وسلس الأسلوب ، واحتذى الصحفيون أسلوب ابن خلدون في مقدمته ، ذلك الأسلوب المرسل السهل . وإذا وازنا بين أسلوب النثر الصحفي في هذا العهد الذي نتحدث عنه ، وأسلوب الكتابة في العصر السابق ، وجدنا البون شاسعاً ، وإليك نماذج من هذه الكتابة الصحفية يتجلى فيها أثر التحرر اللغوي والفكري ، وقوة البيان ، وطلاقة الموضوع .

١ — يقول أحمد فارس الشدياق :

« من الناس من يتعلم العلم ، وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدى ورشداً ، وورعاً ، ودماًنة أخلاق ، وحسن تصرف ، واستقامة طبع ، ونزاهة نفس ، وصفاء عقيدة ، وإخلاص مودة ، وسلامة نية ، وعفة قلب ولسان ، وانبساط يد ؛ فمثل كمثل الجوهر الشفاف إذا قابله شعاع الشمس ، أو كمثل إناء من زجاج نظيف صاف إذا وضع فيه الماء لم يغير من طبعه شيئاً ؛ فتراه دائماً مقبلاً على نفع الناس ساعياً في إصلاح شئونهم ، وتسنية أحوالهم ، باذلاً أقصى جهده في تسكين خواطرهم ، ولم شعثهم ، وتأليف متفرقهم ، وتسليمة حزينهم ، وإرشاد غاويهم ، وتأبيد ضعيفهم ، وليس من همه التردد على أبواب الأمراء والخضوع لحجابهم ... الخ^(١) » .

٢ — ويقول أديب إسحاق :

« الكتابة صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات بوضع صحيح ، وأسلوب صريح ، فهي ذات ثلاثة أركان : الخاطر المراد إيضاحه وهو الإنشاء ،

والوضع الذى يبدو به ذلك الإيضاح وهو البيان ، والكيفية التى يحصل بها ذلك وهو الأسلوب .

ويقول : « النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة ، إلا ما يكون من وضع الكلام فى مواضعه ، وإيثار ما يآلفه السمع والطبع منه ، فهو من هذا الوجه مقدم على سائر أنواع الكلام ، بل هو الأصل فى الإنشاء ، وما سواه فرع منه ، فإنه طبيعى أصيل ، وما دونه صناعى حادث ، والأصل فى الطبيعة لا محالة ؛ يدل على ذلك أن هذا الكلام المقفى الذى يسمونه سجعاً لا يكاد يوجد فى غير اللسان العربى ، فلو كان طبيعياً لوجب أن يكون فى جميع اللغات ، أو فى المعدودة منها أصولاً لا أقل ^(١) » .

٣ — ويقول السيد عبد الله نديم فى العدد الأول من جريدته (التنكيت والتبكيك) ^(٢) :

« إليكم يراعى فاستخدموه فى مقترحات أفكاركم العالية ، وصحيفتى فاملئوها بأدابكم المألوفة ، وبدائعكم الرائقة ، فاليراع وطنى يخاطب القوم بلغتهم ويطيعهم فيما يأمر به ، والصحيفة عربية ، لا تبخل بالعطاء ، ولا ترد الهدية ، وأنتم كرام اللغة وإخوان الوطنية ، فشدوا عضد أخيك بالقبول والإغضاء عن العيوب ، وساعدوه بأفكار توسع دائرة التهذيب ، وتفتح أبواب السكال ، وكونوا معي فى المشرب الذى التزمته ، والمذهب الذى انتحلته : أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيك ينادى بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ؛ لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مثلة فى الوجود من ركوب متن الغواية ، واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » .

وترى من هذه النماذج كيف كان القوم يجاهدون في سبيل العلم وتفتيح
الأذهان المغلقة ، وتحبيب الناس في الثقافة ، والإشادة بفضل المتعلمين في زمن
كانت الأمة لا تزال تحب في طريق النور ، وكيف وضعوا أسس تحرر اللغة من
أسر السجع والتكلف ، ورسموا قواعد الإنشاء الصحيح لمن يريد أن يتخذ
الكتابة حرفة ؛ وكيف سخروا القلم القوي الجريء في خدمة الوطن ، وجعلوا
الصحف ميداناً للأفكار الطيبة والأدب الرفيع ، والدعوات الإصلاحية الحرة
وبذلك كانت الصحافة منارة من منارات النهضة العربية الأدبية ، ارتفعت هذه
المنارة في عهد إسماعيل ، وظلت ترسل النور قوياً يبدد سدفة الجهل ، ويهدي
الضالين إلى اليوم .

— ٤ —

الطباعة :

نهضت الطباعة نهضة عظيمة في عهد إسماعيل ؛ إذ وجه عنايته إلى مطبعة
بولاق ، وما زال بها حتى صارت أرقى مطبعة في الشرق ؛ وأسس مصنعاً للورق
يمد المصالح الحكومية بالورق من سنة ١٨٧١ ، ويزود المشتغلين بالعلم والطباعة ،
والتجار بكل ما يحتاجون إليه . ولقد سهل هذا الأمر على المشتغلين بالعلوم ،
وشجعهم على الإنتاج المتصل ، وكاد إنتاج الورق بمصر يعطل ما يرد من
أوروبا حينذاك .

وانشئت بجوار مطبعة بولاق عدة مطابع أهلية أهمها مطبعة جمعية المعارف
التي تكلمنا عنها آنفاً ، ثم المطبعة الأهلية القبطية التي جلبها من أوروبا الأنبا

كرلس الرابع سنة ١٨٦٠ في عهد سعيد باشا . ومطبعة (وادي النيل) ، ومطبعة (مجلة روضة المدارس) ، والمطبعة الوطنية بالأسكندرية ... وغير ذلك من المطابع التي كان لها الفضل الأكبر في نشر الكتب الحديثة ، وتيسير الاطلاع ، والنهوض باللغة والأدب وشئون التعليم .

ومن أشهر الكتب التي طبعت في تلك الحقبة : المثل السائر ، والأغاني ، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وفقه اللغة للثعالبي ووفيات الأعيان ، وإحياء علوم الدين للغزالي ، وتفسير الرازي ، والبخاري (شرح القسطلاني) ، وحياة الحيوان ، ونفح الطيب ، وقانون ابن سينا في الطب وتذكرة دواد ، وغير ذلك من نفائس الكتب التي عملت على تغذية العقول بنتاج السلف ، وتهذيب اللغة وتقويمها .

— ٥ —

الترجمة والتأليف :

كانت التركية لا تزال ذات سطوة في مصر حتي عصر إسماعيل ولكن هذا العاهل العظيم عمد إلى تمصير الحكومة ولغتها ؛ حتى يسهل انفصاله عن الدولة العثمانية ، وأصدر أمراً يجعل صور الأوامر واللائح وكل ما سبق صدوره من الإجراءات منذ عهد محمد علي عربية ، وطبعها ، فما كان منها عربياً يطبع كما هو ، وما كان تركيا يطبع معه ترجمته العربية^(١) ، ولقد كان الأمر باستعمال اللغة العربية أداة التعبير الحكومية سابقاً لأوانه ؛ لانتقار البلاد لعدد كبير ممن

يُحذقون اللغة العربية ، ولا سيما بعد ذلك الركود الذي أصاب التعليم على يد عباس وسعيد ، ثم إن ترجمة هذه القوانين الكثيرة التي صدرت منذ عهد محمد علي تحتاج إلى وقت طويل ، ولذلك ظلت للتركية بعض السطوة ، وإن أخذت تدريجياً تفسح مكانها للعربية حتى أو شكت أن تحل محلها نهائياً في أخريات عصر إسماعيل .

ومما ساعد على الاهتمام بالترجمة في عهد إسماعيل ازدياد النفوذ الأجنبي ، وكثرة من وفدوا إلى مصر من هؤلاء الأجانب تجاراً ومغامرين ، ولا سيما بعد فتح قناة السويس ، فأنشئوا المصارف والدور التجارية الكبرى ، ودخلوا في خدمة الحكومة مديري وفنيين ، وعلى الأخص حين اضطرت مالية البلاد . واهتم إسماعيل باللغة الفرنسية اهتماماً زائداً ، لأنها كانت منذ عهد محمد علي هي اللغة التعليمية الأولى لرجال البعثات .

وظل الأمر في تدريس المواد العلمية كما كان في عهد محمد علي محتاجاً إلى واسطة بين التلاميذ والمدرس الأجنبي . ولكن حينما أعاد إسماعيل مدرسة الألسن سنة ١٨٦٨ ، وأخذ تلاميذ رفاة بك الطهطاوى يشرفون عليها ، نهضت الترجمة نوعاً ما ، وتولى رفاعك بك رئاسة قلم الترجمة ، واشترك في تعريف القانون الفرنسى مع عبد الله أبى السعود وغيره .

استمرت حركة الترجمة في أوائل عهد إسماعيل مصبوغة بالصبغة العلمية ، ومعظم ما ترجم حينذاك كان في العلوم كالمهندسة والطب والصناعات العسكرية وغيرها ، وذلك لشدة حاجة البلاد إلى هذا النوع من التعليم . وإن كان بعض تلاميذ رفاة بك قد اهتموا بالنواحي الأدبية من قانون وتاريخ وأدب . فنجده عبد الله أبى السعود الصحفى والسياسى يترجم نظم الآلىء في السلوك في

من حكم فرنسا من الملوك . وقناصة أهل العصر في خلاصة تاريخ مصر ، تأليف (أوغست مارييت بك) ، وباشتر ترجمة تاريخ عام مطول واسمه « الدرس التام في التاريخ العام » ، وتاريخ الديار المصرية في عهد الدولة الحمديدية العلوية تأليف (برنار الفرنسى) .

وترجم محمد عثمان جلال ^(١) أمثال (لافونتين) ^(٢) نظمها شعراً ، وسماها (العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ) ، وهاك مثلاً لأسلوبه في الترجمة ، وهو يدلنا على أن المترجم لم تسعفه اللغة العربية القديمة ليؤدى بها هذه المعانى بيسر وسهولة ، وليس ذلك على ما اعتقد من عيب في تلك اللغة ، ولكن اعجز المؤلف وعدم إتقانه لها ، وإلا فإن (أبان بن عبد الحميد اللاحق) نظم من قبل كمية ودمنة في العصر العباسى بلغة قوية سهلة .

ولم يجد عثمان جلال إلا اللغة العامية أو الفصيحة القريبة من العامية أداة للتعبير عن هذه الخرافات التى ترجمها من (لافونتين) ، وأصلها (لأيسوب) اليونانى ^(٣)

١ — صاحب الدجاجة :

(١) ولد في (ونا القس) بمديرية بنى سويف سنة ١٨٢٨ ، وتلقى العلم في مدرسة قصر العيني ، ثم في مدرسة الألسن وتلمذ لرفاعة بك ، ونبغ في العلوم وبدأ عليه الميل إلى الشعر والأدب ، وشغل عدة مناصب حكومية ، وأخيراً تولاه منها منصب القضاء في المحاكم المختلطة سنة ١٨٨١ وتوفي سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة .

(٢) شاعر فرنسى مشهور نظم كثيراً من القصص الرمزية وقصصاً على ألسنة الحيوان من أمثال تلك التى في كمية دومنة ، بل إن كثيراً من قصص لافونتين مأخوذ من كمية ودمنة . (٣) لأيسوب صاحب هذه الخرافات يونانى ولد بعد تأسيس رومة بمائتى سنة . وكان عبداً رقيقاً وإليه تنسب هذه القصص الخرافية على لسان الحيوان . وكثير منها شرقى : هندى وصينى ، وفارسى وعربى ، وقد ترجم قسيس فرنسى في القرن الرابع عشر كثيراً من القصص الشرقية ونسبها إلى لأيسوب .

كان البخيل عنده دجاجة تكفيه طول الدهر شر الحاجة
 في كل يوم مر تعطيه العجب وهي تبيض بيضةً من الذهب
 فظن يوماً أن فيها كنزاً وأنه يزداد منــــه عزا
 فقبض الدجاجة المسكين وكان في يمينه سكين
 وشقها نصفين من غفلته إذ هي كالديجاجة في حضرتها
 ولم يجد كنزاً ولا لقيته بل رمية في حجره مرمية
 فقال لا شك بأن الطمعا ضيع الانسان ما قد جمعا

وترجم كذلك رواية (بول وفرجينى) ، ولكنه للأسف لم يستخدم في الترجمة ذلك الأسلوب المرسل الذى ساد الصحافة فى عصر إسماعيل ، ولكنه التزم السجع حتى فى عنوان القصة الذى ترجمه ، ومصره ، فسماها « الأمانى والمنه فى حديث قبول وورد جنّه » ، وقال فى تصدير الكتاب : « أخرجته من الطباع الأفرنجية وجعلته على عوائد الأمة العربية ... فمن تصفحه بعين النقد رأى القد على القد ، ومن قاسه بمقياس المقابلة ، وطبق آخره وأوله رأى فذاً قرن بتوأم ، وعلم أن من ترجم فقد ترجم ، ثم كتبته على ورق الجنة ، وسميته قبول وورد جنّه ، لمقارنة مخرج الاسمين ، ومطابقتها فى لفظه اللغتين » .

وعرب بعض الروايات التمثيلية كرواية (تروتوف لمولير ^(١)) الشاعر الفرنسى الشهير وقد تصرف فيها محمد عثمان جلال ، وأعطاهم لوناً مصرياً ، وسماها (الشيخ متلوف) وقد مثلت على مسارح مصر

وهذه الكتب التى ترجمها محمد عثمان جلال تعد طليعة الكتب الأدبية

(١) مولير شاعر فرنسى ولد بباريس سنة ١٦٢٢ ، واشتهر برواياته التمثيلية الهزلية وتوفى سنة ١٦٧٣ ، ومن أشهرها : النساء المتحذقات والطبيب على الرغم منه

الترجمة ، وهو وإن لم يكن على الأسلوب ، متيناً في اللغة إلا أنه كان خفيف الظل ، سهل الشعر حريصاً على المعاني .

وترجم خليفة محمود (إتحاف الملوك الألبا بتقديم الجمعيات في بلاد أوربا) ، وكتاب (إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الأمبراطور شارل-كان) ، وترجم محمد أحمد عبد الرزاق كتاب « غابة الأرب في خلاصة تاريخ العرب تأليف المؤرخ الفرنسي (سيدبلو) . وترجم بشارة شديد رواية « السكونت دي مونت كريستو » تأليف (اسكندر دوماس) ، وجاءت بعبارة « بسيطة ليكون ذلك سهلاً على عامة الناس » كما يقول المترجم .

وترجم حسن عاصم خطبة (رينان) الفرنسي ، وموضوعها « الدين الإسلامي والأمة العربية » . وترجم مراد مختار من التركية « قصة أبي علي بن سبنا وشقيقه أبي الحارث ، وما حصل منهما من نوادر العجائب ، وشوارد الغرائب » وهذه أهم الكتب الأدبية التي ترجمت في عصر إسماعيل . ويقول قدرى باشا : إن مستوى الترجمة قد هبط بمصر بعد أن أغلقت مدرسة الألسن ، ولم يخلفها معهد آخر لتخريج العلماء الأكفاء في التعريب ، ولذلك استعانت الحكومة بالأجانب . نعم ! إن مدرسة الألسن قد أعيدت في عهد إسماعيل كما ذكرنا بيد أن تخريج المترجمين لم يكن موضع عناية ، ولا سيما بعد أن تحولت إلى مدرسة للحقوق سنة ١٨٨٦ .

أما التأليف فقد خطا خطوات لا بأس بها ولو سيما في القانون والتاريخ والعلوم ؛ فقد ألف قدرى باشا ثلاثة كتب رتب فيها أحكام الشريعة الإسلامية في المعاملات المدنية والأحوال الشخصية والوقف ، على مذهب أبي حنيفة ، وصاغها في شكل مواد قانونية ، وهي كتاب (مرشد الخيران إلى معرفة أحوال الإنسان) في المعاملات الشرعية ، وكتاب (الأحكام الشرعية في الأحوال

(الشخصية) ، وكتاب (قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف) .

أما التأليف في العلوم فهناك عشرات الكتب من تأليف محمد علي البقلي ، والشافعي ، ومحمد بيومي ، وصالح مجدى ، ومحمد سليمان وهو أول من برع في الترجمة من الإنجليزية .

وقد ذكر قدرى باشا ^(١) أن تلاميذ رفاة بك قد عربوا نحو ألفى كتاب أو رسالة في مختلف العلوم والفنون ، وأن جميع الذين نبغوا في الترجمة كانت لهم مؤلفات قيمة .

هذا وقد توسع إسماعيل باشا في فتح المدارس والمعاهد على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، واقتضى ذلك تبسيط العلوم والمواد المختلفة لصغار التلاميذ ؛ فألفت الكتب بالعربية شاملة كل نواحي العلم من : حساب وجغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وحيوان وحياة وافة... إلى غير ذلك مما مهد السبيل لبلوغ النهضة ذروتها في عصرنا الحالى .

— ٦ —

النهضة في بلاد الشام :

لا نستطيع أن نغفل أثر السوريين في الأدب إبان القرن التاسع عشر وفي عصرنا الحاضر ، ولقد ساعدوا على النهوض ، ومكنهم من خدمة اللغة حرصهم على التعليم ، ووجود الرسائل التبشيرية .

والباحث في نهضة سوريا التعليمية يعجب أشد العجب ؛ لأن الأتراك تركوا البلاد تتخبط في ديجور مطبق من الجهالة ردياً طويلاً من الزمن ،

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافى بك ص ٥١١ .

ولم ينشئوا من المدارس إلا القليل الذي لا يسكاد يذكر ، وهى مدارس لا يتجاوز ما تلقنه لتلاميذها مبادئ العلوم . كان أكثر الذين بنوا مدارس دمشق غرباء عنها ، وقد ظلت المدارس التى أسست فى عهد ملوك الطوائف مفتوحة للطلاب قبل زمن الأتراك ، بيد أن الناس قد فسدوا فى القرون الأخيرة ، وتوفروا على التهام تلك المدارس وأوقافها .

وكان معظم هذه المدارس دينية فمدرسة للفقهاء الحنفى ، وأخرى للشافعى وثالثة للمالكى ، ورابعة للحنبلية . ومنها مدارس لدراسة القرآن وتجويده ، ومنها دور الحديث ؛ وكانت هناك مدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، غير أن كل هذه المدارس قد أغلقت بعد دخول الأتراك بلاد الشام (١)

ولما رأى الأتراك أن مصر ولبنان قد سارتا خطوات واسعة فى درج النهضة العالمية لم يستطيعوا أن يغمضوا أعينهم عن التأخر والفساد والجهل الذى كان فاشياً فى سوريا ، وقد وكل إليهم أمرها ، فأسسوا فى أخريات أيامهم مدرسة للحقوق هى اليوم إحدى كليات الجامعة السورية ، وأنشئوا مدرسة التجهيز والمعلمين سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٢ م (٢)

وفى سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٠ م صدرت إدارة السلطان عبد الحميد بإنشاء مدرسة طبية بدمشق ، وأن يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة ، ومثلها لنفقتها ولوازمها ؛ وذلك لأن بيروت أخذت تخرج أبناء البلاد فى مدرستها الأجنبية الأمريكية واليسوعية (٣)

أما غير دمشق من مدن الشام فكانت مقفلة من المدارس تقريباً إلا حاب ،

(١) خطط الشام لكرد على ص ٦٩ ج ٦

(٢) راجع خطط الشام لكرد على ص ١٠٢ ج ٦ (٣) نفس المرجع ص ١٠٤

وهي ثاني مدن سوريا عظمى ، وقد عمرت قديماً بكثير من المدارس ، ولكنها خربت على يد العثمانيين ، وجاء في تقويم ١٣٣٢ هـ ١٩١٢ م أن بحلب الشهباء اثنتي عشرة وثلاثين مدرسة ، وما نظن العامر منها يتجاوز العشر (١)

وإذا كانت دمشق وحلب لم يسعدهما الحظ للنهوض السريع ، فإن نصارى لبنان كانوا أسبق إلى اليقظة من إخوانهم المسلمين في دمشق وغيرها ؛ بفضل الأرساليات التبشيرية ، ولصلة النصارى الدائمة بأوروبا المسيحية يستمدون منها القوة ضد الدولة العثمانية المتعصبة .

وكان التعليم في لبنان — كما كان في غيره — دينياً ، ومن أوائل المدارس التي أسست فيه (مدرسة عين ورقة) سنة ١٧٨٩ ، وكانت ديراً ثم حولت إلى مدرسة ، وكانت تدرس فيها اللغة السريانية ، والعربية ، والفصاحة والمنطق ، واللاهوت .

ولكن المدارس لم تنتشر ، والنهضة لم تعم البلاد إلا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر حين أسست مدرسة (عينطورا) سنة ١٨٣٤ م ولا تزال مفتوحة الأبواب حتى اليوم ، وقد تعلم فيها عدد من زعماء النهضة اللبنانية الحالية . ولما وفد على لبنان الدكتور (فاندريك) الأمريكى مبشراً بالدين المسيحي والمذهب البروتستانتي ، ورأى البلاد في حاجة للمدارس العلمية أنشأ مدرسة (عبية) سنة ١٨٤٧

كانت كل هذه المدارس في الجبل ؛ لأنه موئل المسيحية ، فلما وقعت مذابح سنة ١٨٦٠ ونزح كثير من أهل الجبال إلى بيروت ، ابتدأت الأرساليات تفتح المدارس فيها ، ومن ذلك الوقت تبدىء النهضة الحقيقية بلبنان .

وأقدم مدرسة أنشئت ببيروت كانت للبنات اليتامى اللأئي فقدن آباءهن في مذابح سنة ١٨٦٠ ، أسستها (مسز طمسن) في تلك السنة ، ثم المدرسة الكلية الأنجليزية الأمريكية للبنات سنة ١٨٦١ ، وقد كان لهاتين المدرستين أثر عظيم في النهضة ؛ لأن تعليم الأم أول خطوة في تعليم الشعب ، وقد كثرت مدارس البنات في لبنان خاصة بعد ذلك كثرة ملحوظة ، ولا ريب في أن الأم المتعلمة لن ترضى لأولادها الجهل .

ومن أوائل مدارس البنين المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني في سنة ١٨٦٣ ، وكانت ممتازة بصبغتها الوطنية ، وحرية الدين ، ولكنها تعطلت سنة ١٨٧٦ . وأنشئت المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٥ ، ومدرسة الحكمة في نفس السنة وهي للطائفة المارونية . وأقدم المدارس الإسلامية هي كلية المقاصد الخيرية الإسلامية في سنة ١٨٨٠

أما التعليم العالي فيتمثل في الكلية الأمريكية والكلية اليسوعية ، وقد أنشئت الأولى ببيروت سنة ١٨٦٦ ، وبها الآن فروع للطب ، والفلك ، وطب الأسنان ، والتجارة ، والآثار والآداب ، ولها قسم إعدادي ثانوي ، وبها مرصد فللكي . ولما قوى نفوذ الأنجليز في الشرق بعد الحرب العالمية الأولى ، وصار تعلم الأنجليزية ضرورياً اتسعت الجامعة الأمريكية ، وزاد إقبال الطلاب عليها ، وقصدها من كل البلاد العربية ، وبها ما يقرب من خمسة آلاف طالب ، وقد اتسعت مبانيها ، وألحق بها مستشفى عظيم ، ولها عناية بالمؤلفات العربية (١)

أما الكلية اليسوعية فقد نقلت إلى بيروت سنة ١٨٧٤ ، وتعلم اللغات ،

(١) من أشهر أساتذتها الحاليين الرئيس (دودج) ، والأستاذ بولس الخولي أستاذ التربية ، والأستاذ أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي ، والدكتور قسطنطين زريق ، والدكتور شارل مالك وقد صار وزيراً مفوضاً بالولايات المتحدة ، والدكتور أسد رستم ناشر مخطوطات الشام في عهد محمد علي ، والدكتور مصطفى الخالدي .

والآداب والطبيعيات والرياضيات، وبها ثلاث شعب رئيسية : الحقوق والطب والهندسة . ولها مستشفى كبير ، والتعليم فيها باللغة الفرنسية ، وبها مكتبة من أنفس المكتبات العربية ، ومطبوعات اليسوعيين ذات شهرة عظيمة .

كان لهذه النهضة التعليمية في لبنان أثر بالغ في ثقافة الشعب ، والأقبال على القراءة والتنافس في أسباب الرقي بين الطوائف المختلفة ، كل طائفة تسعى لأن تبرز الأخرى وتحتل دونها مركزاً أدبياً ممتازاً في القطر الصغير .

ولسكن كثيراً من أدباء لبنان في القرن التاسع عشر قد آثروا الهجرة إلى مصر ؛ لاضطهاد تركيا المسلمة لهم ، ولضيق المجال أمام تفوقهم في بلادهم ؛ ومن أشهر من وفد على مصر من هؤلاء الأدباء غير من ذكرنا سابقاً من الصحفيين : جورجى زيدان ، وطانيوس عبده ، وأديب إسحاق ، وسركيس ، ويعقوب صروف ، وفارس نمر . وقد نشر زيدان في مجلة الهلال كثيراً من البحوث المترجمة ، واختصت المقتطف بالأبحاث العلمية البحتة . ومن أشهر آثار اللبنانيين في الترجمة تعريب الألياذة شعراً ، وقام بهذا العمل الضخم سليمان البستاني (١) ولكن للأسف قد طغت الفرنسية على أهالى لبنان بعد الحرب العالمية الأولى حينما خضعت بلادهم لحكم فرنسا ، وفرضت الفرنسية في جميع المدارس ، تعلم بها كل المواد ما عدا اللغة العربية ، فاستعجمت السنة شبابهم وأدبائهم ، وركت أساليبهم ، وضعفت الترجمة إلى حد كبير ، ولا سيما عند المسيحيين . أما المسلمون فقد انصرفوا للتجارة ، وإن كانوا أصبح لغة من إخوانهم ، ولولا شعراء الجيل الماضى وأدباؤه لتأخرت منزلة لبنان في الأدب .

(١) ولد سنة ١٨٥٦ وتوفي سنة ١٩٢٥ ، وابتدأ في ترجمة الألياذة سنة ١٨٨٧ بالقاهرة ، وتعلم اليونانية ليترجم الألياذة ، ونظمها في أحد عشر ألف بيت غير متقيد بوزن واحد ولا قافية واحدة بل استعمل كل ضروب الشعر وبحوره ، وانتهى من نظمه سنة ١٨٩٥ ، وشرحها وعلق عليها بألف بيت من الشعر وبكثير من القصص العربية ، وانتهى من شرحها سنة ١٩٠٢ ، ونشرت لأول مرة كاملة بشرحها ومقدمتها سنة ١٩٠٤

الفصل الثالث

الأدب في عصر إسماعيل

لم يكن لهذه النهضة الشاملة ، وهذا الإحياء القوى الذي ظهر على يد إسماعيل ورجال البعثات أثر كبير في الأدباء الذين نشئوا في عصر محمد علي وعاصروا إسماعيل بعد أن جمدت طباعهم ، ورسخت عاداتهم ، وصار عسيراً عليهم أن يتقبلوا الأفكار الجديدة ويغيروا أسلوبهم في التعبير والتفكير . ولم يكن من المنتظر أن تؤثر النهضة في مثل هؤلاء الأدباء ، وهم لم يتشربوا مبادئها ، ويسيروا على هداها ، ويتمتعوا بنورها رَدْحاً طويلاً من الزمن ؛ ولم يكن من السهل التخلص من أضرار الماضي وتقاليده ، ولا سيما ذلك الماضي القريب الذي يمت إلى عصور الضعف اللغوي والفكري والخلقي ؛ إذ لم ير الأدباء أمامهم أمثلة تحذى إلا ما قيل في الماضي إن قريباً وإن بعيداً . أما الأدب الأوربي فلم يترجم في عصر إسماعيل منه شيء يذكر ، ولو عرفه الأدباء ما استساغوه ؛ لأن ثقافتهم كانت محدودة ، وكان عصرهم مثقلاً بتلك التقاليد القديمة ، والمدارس قليلة العدد ، والمتعلمون في الأمة يعدون عدداً .

هذا وقد كان اهتمام محمد علي وإسماعيل بالعلوم أعظم من اهتمامهما بالأدب ، ولولا ما أخرجته المطبعة العربية حينذاك من السكتب القديمة ، وإطلاع الحبيين في الأدب الراغبين في التزود من ينابيعه على آثار السلف ، ودواوين كبار الشعراء الذين ظهوروا في عصور القوة ، لما كان للأدب في مصر والشرق العربي نصيب .

ولما كان الأدب الموروث هو أول ما عرفوا من الآداب كان طبيعياً أن يحتذوه ، ويحاكوه في موضوعاته وأسلوبه ، ومعانيه وأخيلته ، وقد تفاوت الأدباء في هذا التقليد تبعاً لمواهبهم ، وشخصياتهم ، كما تفاوتوا في اختيار من قلدوهم ، فمنهم :

١ — أدباء لم تكن لهم شخصية ألبتة ، بل ساروا في الطريق المعبد الذي سلكه من قبلهم أدباء عصور الانحطاط والضعف ، ذلك هو طريق الشعراء النظامين أو العروضيين ، لا يعرفون الشعر والأدب إلا أنه مهارة لغزية وقدرة على التفوه بعبارات شعرية ونثرية لا حياة فيها ولا عاطفة ولا قوة ، وإنما غرضها إظهار البراعة في اقتناص ألوان البديع ؛ حتى إنهم ليخلون بالأعراب في الكلمات والتصرف ، إذا تعارض الأعراب أو التصريف مع ما يريدونه من جناس أو طباق ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف ما يجرون وراءه من هذه الحلي التي يسترون بها عوار لغتهم الركيكة وأفكارهم السقيمة ، وخيالاتهم المريضة ومثال هذه المدرسة العروضية في عصر إسماعيل السيد علي أبو النصر ، والشيخ علي الليثي ، ولولا ما بهما من ظرف طبيعي ، ورقة قاهرية ، ولولا أنهما ألفا منادمة الأمراء والعظماء ، وتطلبت المنادمة منهما أدباً وحلاوة نكتة وسرعة بديهة لما خرجا عن نطاق شعراء مصر والشام إبان الدولة العثمانية ، ولما امتازوا بشيء عن عبد الله الشبراوي ، وحسن قويدر وأضرابهما .

٢ — وأدباء كانت لهم — مع تقليد هم للسلف والأدب الموروث — شخصية بيد أن هذه الشخصية كانت ترى من بعيد ، ومن خلف هذه الحجب الكثيفة من التقاليد في العبارات والأساليب والأخيلة ، حائلة غير واضحة ولا مميزة ، ولكنها تدل على أن هذا الأديب قد جاهد في أن ينفذ بشاعريته وأدبه

من خلال هذه الحوائل الغليظة ، وإن لم تمكنه شخصيته القوية ، ولا أدبه المتين من التغلب عليها ، وخير مثل لهذا النوع من الأدباء هو محمود صفوت الساعاتي .

٣ — وأدباء قويت شخصيتهم بعض الشيء ، وحاولوا أن يجددوا ، وأن يلونوا أدبهم بما يظهر نفسياتهم ، ويطبعه بطابعهم ، وقد نجحوا في ذلك أحياناً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا سيطرة الأدب الموروث ، ولا إغراء المحسنات والزخارف ، فضعفت هذه الشخصية ، وتضاءلت أمام هذا الإغراء ، فجاء أدبهم إبان هذه الضعف من نمط المدرسة الثانية ، ومن نماذج هذه المدرسة عبد الله فكرى ؛ تراه آنأً ينطلق على سجيته ، ولا يتقيد بهذه الصناعة السمجة المتكلفة في نثره ، وبهذه الزخرفة اللفظية الممجوجة فتتضح شخصيته وتنجلي فكرته ، ويترسل في كتابته فيفهم الناس منه ما يقول دون عناء ، وهذا قليل في كتابته وأنا يجذبه ذلك الزخرف إليه فيستعد ويهتم ويحتفي بموضوعه ، ويبذل جهداً شديداً في صوغ العبارات ويكاد هذا يطغى على شخصيته وأكثرت نثره وشعره من هذا الطراز .

٤ — وأدباء رزقوا الشخصية الغالبة ، والأدب المتين ، وحاكوا النماذج الرفيعة من أدب السلف ، فاستحصدت مِرَّتْهم ، وعظمت ذخيرتهم من الأدب الرصين فمزقوا هذه الحجب الكثيفة ، وطرحوها جانباً ، وارتفعوا بالشعر والأدب إلى حيث الشمس الساطعة القوية فترأت معانيه ، وتجلت أخيلته ، واهتزت لديباجته المشرقة النفوس . قلدوا القدماء ، بل عارضوهم ، وجروا وإياهم في ميدان واحد . ولكنهم لم يقلدوا الغث من الآداب بل عمدوا إلى فحول الشعراء ينسجون

على منوالهم و يبارونهم في قصائدهم المشهورة الخالدة ، فخلقوا معهم في سماواتهم ،
وأضفوا على الشعر لوناً جديداً جذاباً لم يستمتع به منذ أمد طويل . أجل !
لم يكونوا دائماً في قوة فحول الأدباء والشعراء السابقين ، بل قصرُوا عنهم في
كثير من الأوقات ، ولكن حسبهم أن سلم شعرهم من هذه العلل والأوصاب
التي أزممت لدى الشعر العربي قروناً ، ووصلت به إلى درك الغثاء والركة
والعجمة . وخير مثل لهذا النوع من الأدباء — استغفر الله — بل باعث الشعر
العربي في العصر الحديث ، وصاحب هذه اليد الطولى على الأدب هو البارودي .
هذا وقد ظهر في أخريات عصر إسماعيل فجر نهضة جديدة في الأدب ،
لم تكن مدارس إسماعيل ، ولا حركة الإحياء في عهده هي الباعث عليها ، ولكن
رغبة إسماعيل في أن يرى مصر بين عشيّة وضحاها قطعة من أوربا في مدينتها
وحضارتها ، جعلته يسرف في مال مصر ، ويبدده في هذا السبيل غير ناظر إلى
الشعب ومصيره . واتخذ الأجانب من حب إسماعيل للحضارة الأوربية وسيلة
لاستيطان مصر فجاءوا زرافات ووحداناً ، يرتادون هذه الأرض البكر وينشئون
البيوت التجارية والمصارف المالية ، ويتقدمون لخدمة الحكومة في جميع مصالحها .
ولما استدان إسماعيل ، وأثقلته ومصر الديون ، عظم نفوذ هؤلاء الأجانب
وشجعتهم حكوماتهم وحتمهم امتيازاتهم ، فكان هذا النفوذ المتزايد سبباً في
تنبيه المصريين إلى الخطر الداهم الذي ينتظر بلادهم . وتصادف أن كان بمصر
الزعيم المصلح السيد جمال الدين الأفغاني — وكان من المهتمين في العصر الحديث —
فبث تعاليمه الإصلاحية ، وشجع حركة الاستياء من طغيان النفوذ الأجنبي ،
وأخذ يهتحم هذا الحمى الذي ظل قروناً لا يقرب ، وهو حق الحاكم في التصرف
برعاياه وأموالهم ونفوسهم ، فوجه الانتقاد لإسماعيل وحاسبه في الصحف المختلفة

التي يكتب فيها أتباعه ومريدوه من أمثال أديب إسحاق ، وسليم نقاش ،
وعبد الله نديم ، ويوسف صنوع ، وعبد الله أبو السعود ، وهو من ورائهم
يغذيهم بروحه وتشجيعه وآرائه ، ويكتب هو أحياناً مستتراً .

هذه الحركة أنتجت أديباً قومياً حيث وجهت الأدب — ولا سيما النثر —
إلى النظر في شؤون الشعوب العربية ، والدفاع عن حقوقها ، ووصف أمراضها
وأدوائها وما تتطلبه هذه الأوصاب من علاج ، ولنا عودة إلى هذا الأدب
ومظاهره فيما بعد .

وحرى بنا ، وقد ألقينا هذه النظرة العاجلة على ألوان الأدب في عصر
إسماعيل أن نعود إلى هذه الألوان والنماذج فندرسها بشيء من التفصيل .

١ — السير على أبو النصر :

مصري شريف النسب من منفلوط ، لا نعرف على التحقيق متى ولد ،
وأغلب الظن أنه كان رجلاً ناضجاً في عصر محمد علي حيث أرسله في مهمة إلى
الآستانة في خلافة السلطان عبد المجيد ، ومبعوث محمد علي إلى (الخضرة الخليفية)
لن يكون حدثاً غريباً أو شاباً غير مجرب ، بل رجل مكتمل العقل والشهرة ؛
ولذلك نرجح أنه ولد في أوائل القرن التاسع عشر . وجاء إلى مصر من منفلوط
وهو صغير السن ، ثم دخل الأزهر وتلقى به العلوم العربية والشرعية ، إلا أنه
لم يسر في مرحلة التعليم هذه حتى غايتها ، بل ترك العلم واشتغل بالأدب ، وقد
ظهر ميله إليه منذ الصغر . وكان عصر شبابه مقفراً من الأدباء اللامعين ،
وصفوت الساعاتي كان في شغل بمدح أمراء الحجاز كما سيأتي ، فنال أبو النصر شهرة
واتصل بالأسرة الحاكمة ، وبعثه محمد علي كما ذكرنا إلى الآستانة ، وصحب اسماعيل

من بعده ، وكان له نديماً وجليساً ، وقد سافر الى الآستانة مرة ثانية معه .
 لم يكن أبو النصر شاعراً فحسب ، ولكنه كان نديماً أكثر منه شاعراً ؛
 وللمنادمة صفات كثيرة ، وهي صنعة شاقة . أما هذه الصفات فمنها الأحاطة
 بالأدب القديم ورواية شعره ونثره ، ونوادره وأمثاله ، ثم الذكاء الحاد ، وسرعة
 البديهة ، ومعرفة دخائل النفوس ، ودراسة أحوالها المتباينة ؛ وأهم من هذا طبيعة
 مرحة قادرة على استئلال سخائم النفوس ، وبعث الضحك مع الاحتفاظ بالوقار
 والمنزلة ؛ حتى لا يمتن النديم ويهان . وليس الإضحاك أمراً هيناً ولا سيما في مجلس
 أمير عظيم تشغله أعباء الحكم وتحزبه أزمت نفسية كثيرة ، والنفس الإنسانية
 يعتورها الحزن والسرور والانقباض والانشراح ، والغضب والرضا ؛ والمفروض
 في النديم أن يستطيع بعث الضحك في كل حالة ، ولا سيما في حالات الانقباض
 والحزن ، وأن يُذهب بمرحه وأدبه وضر القلوب ، وتجهم الوجوه ، مع أنه إنسان
 كسائر الناس له نفس تحزن وتنقبض ، وعقل يفتر ويخبو ، وقرينة تخمد
 وتبذل أحياناً .

ولهذا كانت مهمة النديم شاقة ، وعليه أن يخلق الجو المناسب لنسكاته ،
 وأن يروض الناس على الضحك حين يطلق النكتة ولو لم تكن مستساغة ، وهذا
 فن يتقنه الموهوبون من الندماء .

ثم إن النديم صدى للحوادث التي تحدث في مجلس الأمير أو العظيم ،
 يسجلها في أدبه فيقول الشعر في كل المناسبات الممكنة ، حين يرحل الأمير ،
 وحين يعود ، وحين يرتقى أحد أفراد الحاشية أو ينعم عليه بلقب ، وحين يولد
 مولود جديد ، وفي الأعياد والأفراح والمآتم ، بل في غير ذلك من المناسبات
 المفاجئة والعارضة .

وإذا تصفحنا ديوان السيد على أبي النصر لم نجد شيئاً غير هذا ، وقلمنا يلتفت القديم لنفسه فيظهر لواعج حبها ، أو اهتزاز مشاعرهما وعواطفها ، أو يلتفت إلى غير الأمير وحاشيته .

وشعر أبي النصر يمثل كذلك هذه المدرسة التي أثقل أديبها بأوزار القديم وآفاته ، فهو مولع بالمحسنات البديعية ، وبالتأريخ الشعري ، وبالألفاظ وبالتشطير والتلاعب بالألفاظ . والشعر في هذه المدرسة كما ذكرنا صناعة تظهر البراعة والقدرة على صياغة معينة تحقق غرضاً من هذه الأغراض ، وليس ترجيحاً عن همسات القلوب ، وأشجان النفوس وأحاديثها ، ومطية للخيال يخلق في سماواته الواسعة ، أو مفصحا عن فكرة اختمرت في عقل الشاعر وأبت إلا أن تظهر جليلة واضحة ، كما يجب أن يكون الشعر .

ولم يكن مع هذا شعر السيد على أبو النصر متين النسيج ، قوى العبارة بل هو وسط بين القوة والضعف . وبذلك يكون خير مثال للنظاميين أو العروضيين . ومن شعره وقد أهدى إليه قدح :

أهدى الحبيب لمن أحب	قدحاً تحلى بالذهب
لو أفرغت فيه الطالا	لأطل ينظره الحب
قد راق منظر حسنه	ودعا له داعي الطرب
لما نظرت لشـكـه	في رسم تيجان العرب
قبلته وقبلته	ووعده بنت العنب
ولأجله لولا التقى	خلعت أثواب الأدب
وملاؤه راحاً بها	ينسفي عن الصب الوصب
لكنني أودعته	بخزانة تحوى الأدب

ومدحت من أهـداه لى
وجعلته بشرى المنى
ومنحته شكرآ وجب
والدهر يأتى بالعجب
وقال ملغزآ :

ما اسم الحبيب أفيدوا أيها الأدبا
فقال لى بعضهم : حرف أضيف له
فقلت : هذا جواب رائق فعلى
ومن قوله يتغزل :

نورُ زاهى الروض أم نور الصباح
ونجوم تزدهى فى أفقها
لا ، ولا ، بل بدر تم ينجلي
بحيا يزدرى شمس الضحي
وابتسام الثغر أم زهر الأقاح
بوميض البرق أم كاسات راح
للندامى فى اغتباق واصطباح
فى معانى حسنه تعيا الفصاح
وقال مهنثا مصطفى باشا نعمانى برتبة الباشوية مؤرخا فى كل شطر من أبيات

القصيدة بتاريخ هذه الرتبة وهو سنة ١٢٩٥

بشير الهنا لاحت يمين قدومه
وبدر التهاني فاق بالأنس نوره
وهكذا حتى أتم خمسة عشر بيتا كل شطر منها يؤرخ سنة ١٢٩٥ مظهرا
بذلك مهارته وقدرته على الصياغة والنظم .

ومن أحسن ما قاله من الشعر هذه القطعة التى يتأسف فيها لفراق أحبابه :

لقد ذهب النوى بجميل صبرى
وألبسنى الأسى خلع التمنى
ونار الشوق أغراها غرامى
على كبدى فقومت الضلوعا
وأودع فى حشاشتى الولوعا
وألزمنى التذلل والخضوعا

ولى قلب تقلبه شجونى وتمنعه السكينة والهجوعا
 يبيت مع الأحبة حيث كانوا ويصبح راجياً منهم رجوعا
 وفي هذه النماذج التى سقناها من شعره يتبين مدى ما ذكرناه عن أدباء
 هذه المدرسة وتقليدهم وعدم ظهور شخصيتهم ، مع افتتانهم بالبديع والجرى
 وراءه ، وضعف أسلوبهم ، وقد مات سنة ١٨٨٠ ، وله ديوان مطبوع .

٢ - الشيخ على الليثي :

ولد سنة ١٨٣٠ ببولاق ، وتيم صغيراً ، فتحوط به أمه إلى جهة الأمام
 الليث وإليه ينسب ، وطلب العلم بالأزهر مدة ، ولكنه لم يتم به تعليمه ؛
 ثم رحل إلى طرابلس الغرب ، وأخذ عن الشيخ السنوسى الكبير ، والشيخ
 القوصى الكبير الطريقة والعلم ؛ ولما عاد اتصل بالبيت الخديوى ، وكان مقرباً
 لدى الخديو اسماعيل ؛ لأنه كان مثلاً للنديم المحبوب الذى لا يمل حديثه ،
 ولا يطاق فراقه ، وتروى له فى باب المفادمة نوارد لا تزال تتردد حتى اليوم على
 ألسنة السمار فى مجالس الأنس ، ولعل كثيرين منا يعرفون قصته مع (المهردار)
 بقصر الخديو اسماعيل حين كتب على باب حجرة الشيخ الآية الكريمة :
 « إنما نطعمكم لوجه الله » ؛ إذ لم يجد لقباً سواها يعطى لهذه الحجرة كما أعطيت
 الحجرات الأخرى بالقصر ألقاباً ، من مثل حجرة أمين الخازن ، ورئيس الحرس ،
 وغير ذلك ؛ وقد كانت هذه مداعبة من (المهردار) ، أثارت فى نفس الشيخ
 الليثى الرغبة فى الانتقام منه ، وجعله سخريه أمام رجال الحاشية ، فاتهز فرصة
 وجوده معه بحضرة اسماعيل باشا ، والمجلس عامر بعلمية القوم يخوضون فى أحاديث
 شتى ، ولما سنحت الفرصة قال الشيخ على الليثى للخديو : عندي قصة صغيرة

يا مولاي ؛ فقال : ما هي ؟ قال :

لنا طحونة في البلد لكن ثقيلة ع الحمار

علقت فيها الطور عصي علقت فيها المهر دار

فكانت أضحوكة سارت علي الألسنة ، وطرب لها الخديو وأفراد حاشيته ،
ونال الشيخ الليثي لدى اسماعيل حظوة ومنزلة وعرف رجال الدولة مكانته
فكان مقصد طلاب الحاجات ، ولا يرد له رجاء عند أولى الأمر . ولما مات
اسماعيل أبقى عليه توفيق ، وقربه وأكرمه ، وبقي مخلصاً له في أحلك أوقات
الثورة حين تنسكروا له كثيرون ممن أكرمهم توفيق ، فأسبغ عليه من نعمه وكافأه
على إخلاصه .

وللشيخ علي الليثي ديوان لم يطبع ، بل يقال : إنه لعن من يطبعه . ولسنا
ندري سبباً واضحاً لعزوف الشيخ عن تخليد أثره الأدبي ، إلا أنه نال ثراء واسعاً
في أخريات حياته ، وصار من سراة مصر ، وليس من اللائق بسرى وجيه مثله
أن يكون له ديوان شعر يروى ، وبه ما به من عبث ومجون ، وتزلف لكثيرين
ممن يتسامى في حالته الأخيرة لمنزلتهم . ومن المستبعد أن يكون الشيخ قد أدرك
أن شعره لا يستحق الخلود ، وأنه ركيك ضعيف ، فكل إنسان مهما كان شأنه
يعجب بما يقول ، ولا يفتن إلى ما به من عيوب ؛ ثم إن الذوق الأدبي والنقد
لم يكونا قد وصلا إلى منزلة تمكن الشيخ من الاطلاع على مساوئ شعره ، بل
على العكس كان الشيخ محسود المسكنة الأدبية ، وיתהافت أدباء عصره على
مكاتبتة ومطارحته الشعر^(١) . وقد طال عمر الشيخ وتوفي سنة ١٣١٣هـ ١٨٩٦م
وإذا نظرنا إلى ما روي لنا من شعره ، لم نجد يميز عن زميله السيد علي

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو

أبى النصر فى شىء ، ونجده يقول فى المناسبات المختلفة شأن الندماء ، وقبلما يطلق نفسه على سجيتها ، وينظم الشعر لأنه يشعر بدافع نفسانى يلهمه القول . ومن شعره على البديهة قوله ، وقد كان أحد العظماء يفرغ تفاحة بمدية ليشرّب فيها ، فأنهكسرت المدية ، فنظر إلى الشيخ نظرة من يسأله وصف هذه الحال ، وخليق بنديم الخديو إسماعيل أن يسجل مثل هذه الحادثة ، فقال الشيخ مرتجلا :

عزّت على الندماء حتى إنهم اتخذوا لها كأساً من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمدية لأن الحديد كرامة للراح
ومن شعره فى رثاء عبد الله باشا فكري :

نذم المنايا وهى فى النقد أعدل غداة انتقت مولى به الفضل يكمل
كأن المنايا فى انتقاها خبيرة بكسب النفوس العاليات تعجل
فتم لها من منتقى الدر حليلة بها العالم العلوى أنسا يهمل
ويقول فى وصف الفقيد :

لقد كان ذا بر عطوفاً مهذباً سجاياه صفو القطر بل هى أمثل
رقيق حواشى الطبع سهل محبب إلى كل قلب حيث كان مبجل

وله فى مدح السلطان عبد العزيز فى عيد جلوسه سنة ١٢٩٠هـ :

مولى الملوك الذى من يمن دولته ظل العدالة فى الآفاق ممدود
عبد العزيز الذى آثاره حمدت أب الألى جدهم فى المجد محمود
أجاد نظم أمور الملك فى نسق لا يعتريه مدى الأزمان تبديد
فلا تقسه بأسلاف له كرمتم والشبل من هؤلاء الأسد مولود
ففخرهم عقد در وهو واسطة فى جيد آل بنى عثمان معقود

وهذا نظم ليس فيه شىء من الخيال أو المعانى السامية ، ولفظه وسط بين

القوة والضعف . وهكذا كان شعر الشيخ ، بل له شعر مليء بالحسنات والزخارف
اللفظية التي زادتة ضعفاً على ضعف ، من مثل قوله يرثي محمود باشا الفلكني وقد
تصادف أن تهاوت نيازك ليلة وفاته :

أرى النيازك عن سام من الفلك مذعورة أصبحت تصبو إلى الدرك
كالطير فاجأها البازي وأذهلها فحاكت البرق، وانقضت عن الحبك
إلى أن يقول :

أليس نسر سماء العلم قد علقت كف المتنون به فأنحاز في الشرك
الصبر يا نفس ، واستبقى منايحه أو فالتصبر إن تبغى الهدى فلك
حل القضاء وناعى الجد أرخنا قد مات محمود باشا المسند الفلكني

١٣٠٣ ١٠٤ ٤٤١ ٩٨ ٣٠٤ ١٨٥ ١٧٦

وهو شعر ليس فيه من أثر الحزن شيء ، بل هو مصنوع ايظهر قدرة الناظم
على تلفيق مثل هذا الكلام . وقد حاول مرة أن يفتن ويصف السفينة التي أقامته
إلى مصر وهو عائد من برلين ، فلم تمكنه اللغة القوية ، ولم يسعفه الخيال ، وأتى
الشعر ضعيفاً ، وأغلب الظن أنه لم يقله بدافع نفسه ، وإنما طلب إليه أن يسجل
هذه الرحلة فصنع الأبيات التي منها :

أصبح الوقت باسمًا بالسرور كابتسام الربيع وقت الزهور
أين ألقى ظريف طبع لطيفاً كي ندير الحديث مثل الخور
فوق ظهر السفين نحسن وصفاً حيث يجري على صفاء البحور

* * *

وتراه يختال وهو معنى ويحه كم يجر ذيل الفخور
ذيله يرسم الحجرة عجباً بين موج يضىء مثل البدور

وهو وصف غنى عن التحليل ، وإظهار ما به من ركاكة ، ففي كل بيت عوار لا يغفر ، ودلائل قاطع على أن الشيخ ينتمى إلى مدرسة النظاميين والعروضيين ، ولعل خير ما روى له قصيدته التى قالها مستعظفاً لخلديو توفيق عقب الثورة العربية ، وطالبا الصفع عن أجرم :

كل حال لضده يتحول	فالزم الصبر إذ عليه المعول
يا فؤادى استرح فما الشأن إلا	ما به مظهر القضاء تنزل
رب ساع لحفته وهو ممن	ظن بالسعى للعلا يتوصل
قدرٌ غالبٌ وسر الخفايا	فوق عقل الأريب مهما تكمل
غاية العقل حسرة وعقال	واللبيبُ الذكى من قد تأمل
كيف نذى ، وحادثات الليالى	فاجأتنا بكارث ليس يحمل
أذهبت أنفساً وغالت نفيساً	وذوى مرّبعُ الحظوظ وأحمل
وإذا المرء كان بالوهم يبنى	نخيل الظنون ما قد تمثل
ويح قوم سعوا لإدراك أمر	دون إدراكه الجبال تزلزل
ما أصروا عليه إلا أضروا	بأناس من نابه أو مغفل
ذاك يسعى على التقية خوفاً	وسواه سعى لـكـيـما يحمل
لو أصابوا الرشاد عند ابتداء	كانت الغاية الجميلة أجمل

وهذه القصيدة على بها من سهولة ، فمعانيها مطروقة ليس فيها جديد وحكمها مألوفة ، وبها كثير من أثر الصنعة والتكلف ، أما الخيال وهوروح الشعر وجناحه الذى يخلق به فلا أثر له . ونعود فنقرر أن هذه المدرسة التى ينتمى إليها على أبو النصر ، وعلى الليثى هى مدرسة التقليد للشعر الذى كان سائداً فى عصور ضعف اللغة ، وليس لهذين الشاعرين وأضرابهما شخصية قوية تهتك ستار هذه

الحجب الكثيفة من الزخارف السمجة ، وليس لها قوة عارضة ، وخفولة نسج لتستمر مساوئ هذا الذي يسمى شعراً . وهما نظامان أكثر منهما شاعران ، يقولان في المناسبات نظماً غير صادر عن شعور إلا القليل النادر .

٣ — محمود صفوت الساعاتى :^(١)

وهاك مثلاً لشاعر استطاع بمواهبه أن يفصح عن شخصيته ، وإن تراءت من بعيد حائلة اللون ، غير واضحة المعالم تحاول جهدها أن تظهر من خلال هذه السدف الغليظة من التقاليد الموروثة في الشعر العربي ، ولا سيما من عصور الركة والانحلال . وقد أوتى حظاً من اللسن والفصاحة فاستطاع أن يجيد في غير ما موضع من شعره ، حتى ليعده بعدهم طليعة للنهضة الحديثة ، ومهدا للطريق الذي سلكه البارودى من بعد .

ولد الساعاتى بالقاهرة سنة ١٢٤١ هـ ١٨٢٥ م ، وظل بها إلى أن بلغ الثانية عشرة ، ثم ارتحل إلى الإسكندرية فأقام بها ثمانية أعوام . ولم يدخل الساعاتى الأزهر كما دخله على أبو النصر ، وعلى الليثى ، ومحمد شهاب ، وعبد الله فكرى وغيرهم ، بل يقال : إنه لم يتعلم النحو ، وإنما استظهر ديوان المتنبي وكثيراً من أشعار القدماء ، فاستقام لسانه ، وعظم مخزونه من الأدب . وقد ظهر تأثير المتنبي في شعره واضحاً ، وكان بينه وبين النجاة مناقشات طويلة كما سنرى .

وكان تلميذاً للشيخ حسن قويدر يغشى مجلسه ويأخذ عنه الأدب ، وكان الشيخ قويدر غنياً كريماً ، ومات سنة ١٨٤٥ م وكانت سن الساعاتى حينئذ

(١) هو محمود صفوت بن مصطفى أغا الزيلع الشهير بالساعاتى ، والساعاتى لقب غلب عليه ؛ لأنه مهر فى إصلاح الساعات ، ولا ندرى على التحقيق أكان إصلاح الساعات حرفه له أم هواية كما يقول بعضهم .

عشرين سنة . وهذا كل ما نعلمه عن ثقافة هذا الشاعر وحياته حتى هذه السن ،
وقد رثى الشيخ قويدر بقصيدة مطلعها :

بكت عيون العلا وانحطت الرتب ومزقت شملها من حزنها الكتب
وفيهما يقول ، وقد حشاها بالمبالغات السخيفة ، وهي ليست قوية النسيج
مما يدل على أنها من أوائل ما نظم :

يا شمس فضل فدتك الشهب قاطبة إذ عنك لا أنجم تغنى ولا شهب
لما أصابك لا قوس ولا وتر سهم المنية كاد الكون ينقلب
ما حيلة العبد والأقدار جارية العمر يوهب والأيام تنتهب
لو افقدتك المنيا عندما فتكت بخيرنا لفدتك المعجم والعرب
أمت لفقدك عين العلم سائلة ترجو الشفاء وأنى ينجح الطلب
إلى آخر هذا النظم الذى ينبئنا بأن ذوق الشاعر لم يكن قد تهذب بعد ،
وأنه يحاكي الشعراء المتأخرين فى نسجهم الضعيف واستعاراتهم السمجة ، مثل
(عين العلم سائلة) وغير ذلك .

وفى سن العشرين بدا له أن يحجج إلى بيت الله الحرام ، وهناك اتصل بأشراف
مكة (آل عون) ، فأكرموه ، واصطحبوه معهم فى غزواتهم وحروبهم مع
آل سعود وأمراء اليمن ، وظل بجوارهم خمس سنوات يسجل انتصاراتهم ،
ويسبغ عليهم مديحه . ولما عزل الأمير محمد بن عون عن إمارة مكة ، ورحل
إلى الأستانة صحبه الشاعر ثمة ، ومكث معه قليلا ، ثم تركه ، ورجع إلى مصر ،
ولسنا ندرى سببا لتركه : أيئس من عودة الأمير إلى أريكته فأراد أن يبحث
عن شخص آخر يستظل بظله ؟ . أم أن الأمير رأى نفسه معزولا قليل المال
فهرم بصحبة شاعر يعوله وينفق عليه فى غربته ؟ ولما عاد الأمير إلى إمارته

لم يستدع شاعره الصداح ، وفي شعر الساعاتى ما يدل على أن القطيعة كانت من الأمير من مثل قوله يخاطبه :

أوليتنى الآلاء ثم تركتني مثل الذى حلت به اللاؤاء
ما كان ذا أملى الذى أملتته فيكم وأنتم سادة كرماء
ويقول :

وحبوتمنى بعدها بقطيعة أكذا يكون تكرم وحباء
وقال مرة يعاتبه ، ويظهر يأسه منه ، وكأنه يودعه إلى غير رجعة :
قضى العبد بعض الواجبات بقصده إليكم وقد جوزى بما هو أعظم
ونال الذى قد كان يرجوه وانقضت أمانيه منكم ، والسلام عليكم
وعلى الرغم من هذه القطيعة فقد ظل الشاعر يتحسر على أيامه الخاليات ،
وعلى المودة المفقودة ، ويعتذر عن جرم لا ندرى كنهه للشريف محمد ، ولأولاده
من بعده عبد الله ، وحسين وعلى ، فيقول للشريف عبد الله :

شدت بكم بعد الإله عزائى فكنت عليهم بالعذاب شديدا
وإني أعيد النفس بعد لعفوكم وإن جل ذنبى أو مكثت بعيدا
ويقول مرة أخرى للشريف عبد الله :

فانى لم أبرح على العهد مخلصاً وإن طال عهد البعد واشتقت معهدا
ويبدو أن الشريف عبد الله كان يصله على البعد ، ولكن الشاعر كان
يأمل أن يستدعيه لديه :

يقلدنى فضلا على البعد بيننا وأطمع حرصاً فى شتوف المسامر
ويتذلل للشريف حسين ويطلب العفو :

أقلنى وبادر بالجميل فاننى أرى العفو دوماً من صفات الأماجد

ولما يئس الشاعر من صلاتهم ، والعودة إليهم بعد كل ما قدمه من زلفى
ومن قصائد يرسلها إليهم فى كل المناسبات قال للشريف حسين :

عللت نفسى غروراً بالمواعيد فكان تعليلها عنوان تقنيد
إلى متى وإلى كم لا أرى زمنى إلا كذا بين تقريب وتبعيد
قالوا ذكائك محسوب عليك كما يروى فقلت حديث غير مردود

وما كان أغنى الشاعر عن هذه الضراعة والذلة ، وهذا الإلحاح المشين فى
الطلب ، وأغلب الظن أنه لم يكن يراه بهذا المنظار ، وإنما كان يقتفى آثار
الألى عبدوا له طريق المدح والإلحاف فى المسألة من لدن النابغة الذبياني حتى
عصر اسماعيل ، ولم يجد فى قوله هذا ما يخل بالكرامة أو يشين المروءة ؛ ونحن
إنما نحكم عليه وعلى أمثاله من الذين طبعوا الشعر العربى بهذا الطابع ، لأننا
فى عصر تغيرت فيه قيم الأشياء ، وصرنا نعتد بالأدب الشعبى القومى ، وبالشعور
الخاص ، والعواطف الكامنة فى نفس الأديب ، ونجوى خياله وروحه أكثر
من التفاتنا إلى شعر المناسبات ، والسير فى ركاب العطاء ، والتمدح بمناقب الأغنياء
ولكننا نتساءل : ألم يكن بمصر أمراء يكفون الشاعر لو تقرب منهم
مؤنة هذا التسول ؟ ، ولماذا قصر فى مدح اسماعيل العظيم إذا لم يثبه سعيد على
مدحه إياه ثواباً يرضيه ؟ وهل ثلاث قصائد تكفى فى اسماعيل وهو من هو حذباً
على الأدب والأدباء ، وهو الذى أظل بعطفة العليين أبى نصر والليثى ، وهما دون
الساعاتى قدرة على النظم ، ومثانة شعر ، وسمو خيال ؟ ، أيهما المقصر اسماعيل
إذ لم يضم إلى حاشيته وندمائه هذا الشاعر ؟ أو الساعاتى إذ انصرف إلى مدح
آل عون بمكة ، واشتهر بإخلاصه لهم ، وجعل شعره حبساً عليهم إلا القليل ،
ورأى أن باب اسماعيل قد سبقه إليه شاعران آخران واحتلا لدنه مكانة

ومقاماً ؟ فلم يشأ أن يدع طريقاً عرفه ، ونوالاً جربه وذاق حلاوته ، وينافس
آخرين في أمر لا يعرف مصيره ، فظل على ولائه لآل عون يمدحهم في كل
مناسبة : إذا غزوا ، وإذا أبلوا من مرض وإذا ولد لهم مولود ويقول فيهم :
أحبهم ما دمت حياً ديانة وأرغب لکن عن سواهم ترفعا
وقد سار شعري بين شرق ومغرب فما اختار غير البيت والآل موضعا
وما طار في الآفاق بدعا مديحهم ولكنه نشر ذكى تضوعا
وكان يرى أنهم هم الذين أطلقوا لسانه بعطائهم ، وعلموه الشعر ، ولولاهم
ما نظم قصيداً :

نظمت حالي ولولا سلك فضلكم ما كان قولي ولا فعلي بمنظّم
علمتني الحمد والشكر الجزيل على فعل الجميل بما توليه من نعم
ما كنت لولاكم أبغى الفوائد من نظم الفرائد في إسم ولا علم
وعلى الرغم من هذا الولاء ، ومن دعوب الشاعر على مدحهم في كل مناسبة
وهو عنهم بعيد ، فإنهم لم يستجيبوا لرجائه بدعوته إليهم ، ولعل للمنافسات التي
كانت بين الشاعر ، وبين بعض الحجازيين ^(١) أثراً في هذه الجفوة ، فعلمنا خلت
(١) من المنافسين للشاعر في الحجاز زين العابدين المكي ، وكان نحوياً ، وقد
اعترض مرة على قول الساعقي :

وأبصرت في كف ابن عون مهنداً يرويه قرم بالضراب خبير
بأن الضراب في اللغة النكاح ، وليس فيها ضراب بمعنى الضرب ، واحتج الشاعر
مؤيداً رأيه بقول الحارث بن ظالم المري :

وقومي إن سألت بني لؤي بمكة علموا الناس الضرابا
أقاموا للكتاب كل يوم سيوف المشرقة والحرابا
واستشهد بقول المتفي وكان من الحفاظ لشعره :

كل السيوف إذا طال الضراب بها يمسها غير سيف الدولة السأم
وقوله : إنما بدر رزايا وعطايا ومنايا وطعنا وضراب
وقوله : بغيرك راعيا عبث الذئاب وغيرك صارما ثلم الضراب
فأخمه بهذه الاستشهادات ، وفات المكي أن الضراب مصدر قياسي لضارب كقاتل
وناضل ، ولكنها حزازات النفوس تزل الخطأ .

حاشية أمير عظيم سمح النفس سخى اليد من أمثال هؤلاء الحساد اسكل من
نال لديه حظوة أو نبغ وقصروا . وما أمر المتنبي وسيف الدولة بمجهول ، ولقد
بلى الساعاني بمثل ما بلى به المتنبي من هؤلاء النحاة الذين يحاولون الوقعة بينه (١)
وبين ممدوحه كما فعلوا مع أبي الطيب من قبل ، ولكنه انتصر عليهم في كل
مرة تعرضوا فيها لأدبه ؛ وأغلب الظن أنهم لم يتركوه يهناً بهذه المنزلة ، وحاولوا
جهدهم أن يزحزحوه عن مكانته ، وفي ذلك يقول معرضاً بهم :

لا تعدلوا بالشعر كل معمم كالثور ذي القرنين بالأسكندر
ما كل من يملئ القصيدة ناظم قد ينتمى للشعر من لم يشعر
لو كان فيهم شاعر لوقفت في ديوانه أدباً ، ولم أتكبر
يا آل محسن لم يزل إحسانكم يدع الدنيا على حماكم يجترى
بل يحاول أن يوقع بهم كما حاولوا الوقعة به ، وأن يفسر بعضهم له لإخلاقه
لآل عون :

فما أبغضوا مثلي سدى غير أنهم يعدون مدحى فيكم كلما تم
ألم تر حسناً ولى أسوة به وما كان يلقي من عدا آل هاشم
إذا زعموا أنى مع الفضل جاهل فقل لهم : هاتوا فصاحة عالم

(١) من ذلك أنهم خطئوا في قوله يمدح الشريف ويصف أعداءه بالجن .
كانهم فوق السوابق خرد هن متون الصافنات جياذ
بأن في ذلك انعطافاً لمقدار من يقاومهم حيث شبههم بنسوة ، فكانه انتصر على نساء
لا على أبطال ، ومكنته ذاكرة واعية لما استظهر من شعر المتنبي في الصغر من إخمادهم بقوله
يمدح سيف الدولة :

فصبحهم وبسطهم حرير وسامهم وبسطهم تراب
ومن في كفه منهم قناة كن في كفه منهم خضاب

فدعني من قول النجاة فإنهم تعدوا لصرف النطق في غير لازم
وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ولست بسراق كبعض الأعاجم

شعره :

قدمنا عند الكلام على الساعاتي ، والمدرسة التي ينتمي إليها بأن له شخصية
في شعره ، وأن هذه الشخصية استطاعت البروز والوضوح على الرغم من كثافة
التقاليد الشعرية الموروثة .

أجل ! استطاع أن يتخلص في بعض قصائده من الحسنيات البديعية ، وأن
يرتفع بديباجته عن درك الغثاثة والركة ، وأن يعبر عن شعره تعبيراً واضحاً ،
وأن يشعر على الرغم من معانيه المطروقة بأنه أحسن التقليد وأضفى عليه شيئاً
من نفسه وروحه . ومع كل هذا فمعظم شعره من ذلك النوع الذي ساد أيام
المماليك وبنى عثمان ، ولما خات قصيدة من تأريخ شعري ، وتعهد للصناعة والزخرف
١ — ترى الشاعر يجيد في الحماسة ، ويقوى شعره وتشرق ديباجته ،
اسمعه يقول مادحاً سعيداً باشا ، وقد عزم على زيارة المصطفى عليه السلام :

ملأت قلوب العرب رعباً فما دروا بعثت لهم بالكتب أم بالكتائب
تركتهم في أمرهم بين صادق وآخر في تيه من الظن كاذب
تسير لهم في بحر جيش عرمرم يفيض بموج الحتف من كل جانب
إذا هتفوا باسم العزيز تزلزلت جبال عليها الذل ضربة لازب
فكيف إذا يمت بالشهب أرضهم وزاحت ما في أفقهم بالنجائب
وجرد عليها الأسد في قصب القنا ترى الأسد في الآجام مثل الثعالب

وخير من هذا قوله يمدح الشريف ابن عون ويصف غزوته لبني سليم :

وأضرمت النيران فيهم وأضرمت
 كررت على أهل الجبال بمثلها
 وما ثبتوا إلا قليلاً وزلزلوا
 رأوا باترات البيض تغمد فيهم
 فلو ومالوا للهزيمة بعدها
 لهم نار حرب مثل نار الحباحب^(١)
 جبال رجال سيرت بالركائب
 وأبطالكم ما بين ضار وضارب
 وتخرج من أصلابهم والثرائب
 وملتم على أرواجهم ميل ناهب
 فهذه الديباجة القوية ، وهذه الفجوة قد طال انتظار الشعر العربي لها ،
 ولعل في حفظ الشاعر للمتنبي ما جعله يجيد في الحماسة ووصف المعارك ، كما كان
 المتنبي يجيدها وهو يمدح سيف الدولة ، وقد شهد الساعاتي معارك آل عون مع
 أعدائهم كما شهد المتنبي معارك سيف الدولة مع الروم وغيرهم .
 ٢ — ومن الأغراض التي وفق الشاعر للقول فيها العتاب ، وقد سلمت له
 أبيات جيدة في هذا الباب مثل قوله يعاتب آل عون :

إني على العهد القديم وإنما
 عاملتموني بالجفاء رويدكم
 مالي أراكم تنكرون مكانتي
 قلتم غيري الجميل وقلتم
 أسديتم الجدوى له وسددتم
 إن لم يكن مثلي يسىء ومثلكم
 ويقول معاتباً صهراً له :

هلا اتخذتم سوى أعراضنا غرضاً
 إنا لنضرب صفحاً عن بوادركم
 يُرمى وصيرتم الإكثار تقليلاً
 ولو أردنا أسأنا الرد تنكيلاً

لكن نصون عن الفحشاء السنة هي الأسنة. تجريحاً وتعديلاً
 فليتكم تحسنون الظن إذ حسنت منا الظنون ، وكان الود مومولا
 رأيت وصلكم قطعاً وحبكم بغضاً ونصركم للصهر تخذيلاً
 ومن عتابه الرقيق قوله :

كنا وكنتم فأكثرنا زيارتكم ونحن مثلان في فقر وإفلاس
 كانت مناسبة الحالين تجمعنا ومن يدوم على حال من الناس ؟
 والعتاب كما نعلم ليس باباً جديداً في الشعر العربي ، بل طريقه قبل الساعاتي
 كثيرون ، وأنت معانيه فيه مما وردت عند غيره من شعراء العتاب ، وكان
 الساعاتي أحياناً يستعمل الكلام المألوف العادي في العتاب حتى يفهم المعاتب
 ما يقول .

٣ — وقد ظهرت شخصيته في نصائحه التي قدمها لممدوحيه ، والتفاته
 للشعب ، وطلب الرأفة به ، وحسن معاملته ، كقوله للشريف ابن عون :
 فما استقام عماد الملك منتصباً إلا إلى قائم بالعلم والعمل
 ودولة المجد ما انقادت ولا خضعت إلا إلى عادل للشرع ممثّل
 ما راقب الله مولى في رعيته إلا وأدرك منها غاية الأمل
 ويطلب العفو لأعداء ممدوحه محاكياً المتنبي في توسطه لدى سيف الدولة
 لبني كلاب ، فمن ذلك قوله :

للسلم قد جنحوا فمنا واصفحوا ما قتل نصفهم من الإنصاف
 وإذا أساءوا أحسنوا لمسيئهم وارعوا مقام بقية الأحلاف
 وإذا هم اقتتلوا وشدوا أصلحوا ما بينهم خير من الإجحاف
 ٤ — وكانت له دعايات طريفة تدل على روح مرح ، وبديهة طيعة ،

ونكته رائقة ، وهذا طابع المصريين غالباً لا يستطيعون عنه حولا ، فمن ذلك قوله يعزى منافسه وحاسده الشيخ زين العابدين المكي ، وقد نفقت فرسه في طريق جده :

قضت وهي تدعو فالق الحب والنوى بقلب كئيب دقه الحب والنوى
فكيف يعزى الشيخ في الفرس التي به طوت الأسفار صبراً على الطوى
وكانت به تجرى مع الريح خفة وأشبعها جرياً فعاشت على الهوى
وإن حملت مالا تطيق لضعفها تعوج منها الظهر والذنب استوى
قضت وهي ما ذقت شعيراً لزهدها فما شعرت إلا وعرقوبها التوى
ألا أيها الخل الذي طال حزنه عليها وفي أحشائه التهب الجوى
فعش أنت واسلم والحير كثيرة ومثلك معدوم النظير لما حوى
ألا تذكرنا هذه القصيدة بالبهاء زهير حين يقول :

لك يا صديقي بغلة ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسب أنها فوق الطريق مشككة

هي روح الدعابة المصرية تتجلى دائماً حين ينطلق شعراء مصر على سجيتهم ولا يتكلفون القول ، ولا يتزمتون .

ومن دعاياته الظريفة قوله معرضاً ببعض النحاة وواصفاً لهم ولحركاتهم وغلطهم :
إذا ارتفعت بالنحو أعلام علمنا جعلنا جواب الشرط حذف العائم
ليعلم من بالنصب يرفع نفسه بأن حروف الخفض غير الجوازيم
ويلعلم من أعياه تصريف اسمه بأنا صرفناه كصرف الدرام
نصبنا على حال من العلم والعلى وكنا على التمييز أهل المسكارم
لأننا رأينا كل نور معمم يكلف قرنيه بنطح النعائم

يجر من الإذلال فضل كسائه كأن الكسائي عنده غير عالم
إذا نظر الكراس حرك رأسه وصاح أزيد قام أم غير قائم ؟
وقال : المنادى اسم شرط مضارع وظرف زمان نحو جاء ابن آدم
وجمعك للتكسير اسم إشارة كقولك نام الشيخ فوق السلام

هـ — وقد تغنى الشاعر في بعض قصائده بمصر وأمجادها ، وإن لم يظهر من
الروح الوطنية مثل الذى أظهره رفاة الطهطاوى ، فمن ذلك قوله مادحاً إسماعيل باشا
على أنها من جنة الخلد غيضة رياض بها عين وأنت ضياء
فأبصرت فردوساً تدانت قطوفها وللنيل فيها كثر وشفاء
ومصر هى الدنيا جميعاً وربها عزيز وأهلوها هم النجباء
وكان الساعاتى يدرك أنه مطبوع على قول الشعر ، وأنه استطاع أن ينبجو
ببعض شعره من آفات القول ، وأوضار الشعر التى انتشرت فى زمانه ، وقبل زمانه ،
ويقول فى هذا :

فلا تحسبنى بالوضيع مكانة فى القائلين وما أقول هذاء
ويقول :

رويت جليلاً فى جليل من الثنا فكان عقوداً لا كلاماً معقداً
ويقول :

وما أنا إلا ناظم در فكرتى ولم أنتحل فيما أقول وأسرق
ويقول :

وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ولست بسراق كبعض الأعاجم
على أن هذا كله لا يعنى الشاعر من أنه أراق ماء وجهه فى الطلب حيث
يقول مادحاً توفيق باشا :

أريد وروداً من نداكم لأرتوى كما يطلب الصادي على البعد مورداً
فسيرت آمالي دليل قصائدي لنيل الأمانى علّ أبلغ مقصداً
وأنه كان يرى الشعر ثمناً للمال ، وأن المسألة بيع وشراء ، وأخذ وعطاء :
منى المدائح والمنائح منكم لا غبن إن كليهما آلاء
تعتاض من بذل النضار جواهرأ هذا بذاك وفي البقاء نماء
وأنه أسرف في الصناعات اللفظية ، واستعمال المحسنات البديعية كما يدل
على ذلك معظم شعره ، وقد نظم قصيدة كاملة في مدح الرسول عليه السلام
معارضاً بها ابن حجة الحموي ، والبوصيري ، وكل بيت منها يشتمل على محسن
بديعي ، وفيها يقول ، وقد بلغ عدد أبياتها مائة وخمسين بيتاً :

براعة استهلال

سفع الدموع لذكر السفع والعلم أبدى البراعة في استهلاله بدم
التورية

وكم بكيت عقيقاً والبكاء على بدر ، وتوريتي كانت لبدنهم
الجناس التام

أقمار تم تعالوا في منازلهم فالصب مدمعه صب لبعدهم
وأن الشعر عنده ، كما كان عند معاصريه ، مهارة لفظية ، وصناعة خالية
من الروح والشعور ، ومقدرة على صياغة منظومة فمن ذلك قوله موريا :
قالوا : اتخذ لك خادماً فأجبتهم أنى يكون لناظم الشعر الرقيق
قالوا : التمس لك طيب عيش قلت لا يرجي لرب اللفظ والمعنى الدقيق
وقوله في الجناس ، وكل القصيدة على هذا المنوال :
أيا من به صار الزمان سعيداً ومن كل من وافاه آنس عيداً

أما التاريخ الشعري ، والأحاجي والأغاز فكثيرة . هذا وقد شغل الساعاتي عدة مناصب في الدولة ، فمن موظف بالمعية ، إلى موظف في مجلس الأحكام المصرية (وكان بمثابة هيئة الاستئناف العليا في عهدنا) ، وكان يرأسه الأمير اسماعيل باشا في عهد سعيد . ومدح من أمراء مصر سعيداً ، واسماعيل ، وتوفيقاً ، ومات في سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م قبل أن تندلع الثورة العربية .

٤ — عبد الله باشا فكري :

وهو يمثل المدرسة الثالثة من المقلدين ، تلك المدرسة التي قلد أربابها بلغاء القرن الرابع كالصاحب بن عباد ، وابن العميد ، وقلدوا كذلك في حياتهم وأسلوبهم وتنميق رسائلهم القاضي الفاضل ، وابن مطروح ، واستطاعوا بما أوتوا من تزلع في اللغة ، وتمكن من الأدب ، وذوق مرهف حساس ألا يكونوا صدى لهؤلاء السكتاب القدامى ، بل أضفوا على ما كتبوا طابعهم وشخصيتهم ، ومثلوا عصرهم بعض التمثيل ، فتشعر حين تقرأهم أنك تقرأ كتاباً في القرن التاسع عشر ؛ وذلك لخوضهم في الموضوعات الحيوية للبلاد ، ولتخلصهم في بعض الأحيان من قيود الماضي جملة ، فلا سجع ولا تنميق ولا تزويق ولا محسنات ، وإنما يتبعون طريقة ابن خلدون في التزلع ، مع متانة نسج وحسن عرض . وإن كانوا في كثير من الأحيان ، ولا سيما حين يحتفلون بكتاباتهم ، أو يرسلون عظيماً أو أديباً ، أو يتحدثون عن لسان السلطان أو الأمير ، يعمدون إلى الأسلوب الشعري المنشور ، بما فيه من خيال وسجع ، وفقرات تختلف طولاً وقصراً ، ويزخرفون كتاباتهم ويرصعونها بشتى الحلى اللفظية والعنوية ، وهنا تتضاءل شخصية بعضهم وتحافظ شخصية آخرين على وجودها

في وسط هذه الزينات والتقاليد تبعاً لتمكن الكتاب من موضوعه ، وحذقه
للغة ، ومثانة شخصيته وتميز خصائصها .

كان لديوان الإنشاء في الدول العربية منزلة سامية ، يتوصل به الكتاب
والشاعر إلى أرقى مناصب الدولة ، منذ سهل بن هارون ، ومحمد بن عبد الملك
الزيات ، وابن العميد والقاضي الفاضل ، وابن مطروح . وقد مضى على مصر
حين من الدهر استعجمت فيها لغة الدواوين ، وسادت التركية ، وصدرت بها
قوانينها ورسائلها ، ووصلت العربية إلى الحضيض ، ولم يبق فيها إلا ذماء يسير .
وحاول اسماعيل — كما ذكرنا — بعث اللغة العربية ، وترجمة القوانين التي
صدرت من عهد محمد علي حتى أيامه من التركية إلى العربية ، كي يسهل عليه
الانفصال عن الدولة العثمانية حينما تلوح الفرصة ، وقد كان لعبد الله باشا فكري
يد كريمة في هذا العمل الجليل ، فبعث اللغة الديوانية لا ركيكة ولا سخيفة
بل ممتلئة رونقاً وقوة ، فصار نموذجاً يحتمدى ، وأستاذاً يأخذ الناس عنه طريقة
الكتابة الديوانية ، وتديبج الرسائل الأدبية .

ولد بالحجاز سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م من أب مصري^(١) وأم من بلاد المورة
وعاد به والده إلى مصر بعد عودة جيوش محمد علي من الحجاز ، واسكنه توفي
ولما يبلغ عبد الله الحادية عشرة من عمره ، فكفله بعض أقاربه ، ودخل الأزهر
وتلقى العلوم المتداولة على كبار مشايخه ، وكان في نفس الوقت يدرس اللغة التركية
فلما حذقها عين في القلم التركي في الديوان الكتخدائي ، وظل مع اشتغاله بالوظيفة

(١) أبوه محمد بليغ بن الشيخ عبد الله ، وكان الشيخ عبد الله من العلماء المدرسين
بالأزهر ، أما محمد والد عبد الله ففكرى فكان مهندساً بالجيش ، ووصل فيه إلى رتبة صاغ ،
وحضر عدة مواقع حربية منها حرب المورة ، وفيها تزوج أم عبد الله فكري ، وولدت
بالحجاز حين ذهبت مع زوجها في حرب السعوديين .

يتردد على الأزهر ويتزود من علوم اللغة والشريعة ، إلى أن ضاق وقته عن الجمع بين طلب العلم والوظيفة فانصرف عن الأزهر ، والتحق بعدة وظائف ديوانية ، ثم عين بمعية سعيد باشا ، وتولى فيها تحرير الرسائل الديوانية بالتركية والعربية ، وظل في منصبه حتى تولى إسماعيل عرش مصر فأبقاه ، وقربه وسافر معه صرات إلى الآستانة ؛ ثم عهد إليه بتشقيف أولاده وغيرهم من أمراء الأسرة ، فكان يباشر تعليمهم أحياناً ، أو يشرف على المدرسين أحياناً أخرى . ولما نقل إلى وزارة المالية كان له الفضل في جميع الكتب الموجودة بها ، وضمها إلى دار الكتب حين أنشأها على باشا مبارك . وبعد ذلك عهد إليه بترجمة اللوائح والقوانين وتنقيحها فأدى هذه المهمة الجليلة على أكمل وجه ؛ ثم عين وكيلاً لديوان المكاتب الأهلية فرفع مستواها وجعلها صالحة لتغذية المدارس الأميرية ، فوكيلاً لنظارة المعارف مع شغله منصب الكاتب الأول في مجلس النواب ، وقد ارتقت طريقة تعليم العربية على يده وهجرت طريقة الأزهر ؛ ثم عين وزيراً للمعارف في وزارة محمود باشا البارودي ، ولما استقالت الوزارة بسبب الثورة العربية ، اتهم بمآلاته للشوار بعد انتهاء الثورة ، وقبض عليه ولكنه برىء فأطلق سراحه وعاقبوه بقطع راتبه ، فراح يستعطف الخديو توفيق ، وقال في ذلك قصيدته المشهورة :

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرا
فعفا عنه توفيق ، وأعاد إليه راتبه . وقام بعد ذلك بعدة رحلات إلى الحجاز ولبنان ولقي فيهما كل ترحاب وإجلال لمكانته الأدبية ، ولما رأى فيه أهلها من سعة علم وعظيم فضل ، وحسن حديث .
وفي سنة ١٨٨٨ مثل مصر في مؤتمر المستشرقين باستكهلم عاصمة السويد

وصحبه نجله أمين باشا فكرى ، وقام بسياسة عظيمة شهد فيها معظم عواصم أوربا ؛ ولما عاد عكف على تدوين رحلته ، ووصف ما شاهد من المناظر فى أوربا ، وما رأى من آثار الغرب ، وكيف استطاع العقل البشرى أن يسخر الطبيعة ومواردها لخدمة الإنسان ، غير أن المنية لم تمهله فقضى بعد عودته بزمان وجيز ، وأتم نجله أمين باشا كتابة هذه الرحلة وسجلها فى كتاب أسماه (إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا) فى سنة ١٨٩٢ هذا وقد توفى عبد الله باشا فكرى فى سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م ونرى من حياته التى سردنا تاريخها موجزاً أنه ديوانى بالنشأة والمربي والعمل ، فلا بدع إذا تجلى أثر عبد الله باشا فكرى فى الكتابة الديوانية . ولما كنا فى صدد ذكر الشعراء الذين ظهوروا فى عصر اسماعيل والمدارس التى ينتمون إليها ، وقدمنا أن عبد الله باشا يمثل إحدى هذه المدارس التقليدية كان حرياً بنا أن نذكر نماذج من شعره ؛ على أنه يمثل بكتابه تلك المدرسة التى تظهر فيها شخصية الكاتب والأديب واضحة بعض الوضوح أكثر مما يمثلها بشعره ، بل إن شعره ينتمى إلى المدرسة الأولى أو الثانية ، مدرسة على أبى النصر أو الساعاتى ؛ وذلك لأن عبد الله باشا تفوق فى نثره تفوقاً باهرأ ، وكان كاتباً أكثر منه شاعراً .

كان يمثل فى شعره مدرسة الصناعة لا مدرسة الطبيعة ، يؤرخ لكل مناسبة ، ويشطر ويقول الأناز والأحاجى ، ويقول كما يقول الندمان فى وصف الآنية ومجالس الأنس ، والأزهار وغير ذلك ، ويكثر من الحسنات ينتزعها انتزاعاً ، ويحشرها حشراً شأن هذه المدارس التقليدية ، وقلمنا انطلق على سجيته ، وترك نفسه لطبيعتها .

اسمعه يؤرخ زواج الأمير حسين كامل بالأميرة عين الحياة :

بشر بأحسن قال يقول والقول يصفو
أرخ لنحو حسين عين الحياة تزف
ويقول في نفس المناسبة :

بشرى بطالع سعد بالبشر واليمن آتى
تزف للبدر شمس تسمو على النيرات
بخير فال سعيد يومى لطول حياة
يقول والقال حق عن سيد الكائنات
أرخ لنحو حسين تزف عين الحياة

٩٤ ١٢٨ ٤٨٧ ١٣٠ ٤٥٠ المجموع ١٢٨٩

ويؤرخ لانتصار الأتراك على الروس ، وأخذهم ميناء سباسبول بعد تخريب
قلاعها سنة ١٢٧٢ هـ ، وكل مصرع من المطلع يساوى هذا التاريخ .

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن بفتح القرم هان لنا الصعب
وقد ذات الأعداء من كل جانب وضاق عليهم من فسيح الفضا رحب
بحرب تشيب الطفل من فرط هولها يكاد يذوب الصخر والصارم العضب
إذا رعدت فيها المدافع أمطرت كثوس منون قصرت دونها السحب
تجرع آل الأصفر الموت أحمرًا وللبيض في مسود هاماتهم نهب
تراهم سكارى ، للظبا في رءوسهم غناء ، ومن صرف المنايا لهم شرب

وقد سقنا مع البيت الأول الذى فيه التاريخ بعض أبيات من هذه القصيدة
لنرى مدى قوته فى وصف الحرب ، وقد مر بنا شاعر معاصر له أو قريب منه
أجاد فى هذا الغرض ، ألا وهو الساعاى . إن أثر الصنعة ، وضعف النسج ،
وضحالة الخيال ، وتفاهة المعانى ، واقتناص المحسنات ، كلها محشودة فى هذه الأبيات

وهاك مثلاً آخر يقلد فيه القدماء في معانيهم وأخيلتهم بما لا يناسب قاهريته وحضارته ؛ فتشبيهات قديمة ، وخيال سخي ، وديباجة ضعيفة ، وجري وراء المحسنات ، وموضوع هذه القصيدة المديح ، وقد ابتدأها بالنسيب كما كان يفعل القدماء قال :

أزاحت ظلام الليل عن مطلع الفجر وقامت تدير الشمس في كوكب دري
وهزت على دعص النقا غصن بانه ترنح في أوراق سندسه الخضر
ومالت بها خمر الصبا مثلما انثنت نسيم الصبا بالأملد الناعم النضر
من الترك لم تترك لصب محجة إلى الصبر أو نهجاً لعذل إلى العذر
وبيضاء سوداء اللحاظ غريرة من الغيد ريا الردف ظامئة الخضر
ممنوعة لا تجتنى ورد خدها يدُ اللحظ إلا بين شوك القنا السمر
من الروم مثل الريم جيداً ولفتة ولحظاً ومثل الغصن والشمس والبدر
فهي لم تترك لصب محجة إلا لأنها من الترك ، وهي مثل الريم جيداً ولفتة لأنها من الروم ، ومالت بها خمر الصبا مثلما انثنت نسيم الصبا بالأملد النضر . وهزت على دعص القنا غصن بانه ... وغير ذلك من هذه العبارات المحفوظة والقوالب المعدة ، وذلك الوصف المادى الرخيص الذى لا يمثل المرأة إلا سلة . وقد قال فى الأغراض التى نظم فيها كتاب الدولة الأيوبية ورؤساء دواوين الإنشاء ، فكان يصف الآنية والأزهار ، ويشبه بالنفائس على طريقة الظرفاء المقتدى بهم فى عصر الأيوبيين وما بعده ، خلال المناديات والمطارحات ، فمن ذلك قوله يصف ناراً موقدة فى فحم حوله رماد .

كأنما الفحم ما بين الرماد وقد أذكت به الريح وهنا ساطع الذهب
أرض من المسلك كافور جوانبها ي موج من فوقها بحر من الذهب

وقال في الورد :

كأن ورداً لاح في كفه يزهو بثوبى خضرة واحمرار
ياقوتة في سندس أخضر أو وجنة خط عليها العذار
وكان يقول الشعر في أغراض التظرف مثلاً ما قالوا ، وله في هذا بعض
المقطوعات الصغيرة ، فمن ذلك قوله مجيئاً مليحاً قال له كيف أصبحت ؟
أصبحت من فرط وجدى فيك ذا شجن

وكانت الروح كادت أن تفارقنى
فـذ لقيتك كل الهم فارقنى وألف الله بين الروح والبدن
وقال في مليح رآه أول الشهر مستعملاً الجناس التام :
وبدر تبدى شاهراً سيف جفنه فروع أهل الحب من ذلك الشهر
وليلة أبصرنا هلال جبينه علمنا يقيناً أنها غرة الشهر
وقال يتغزل :

كتبت ولولا دمع عيني سائل تلظى جوابي من تلهب أنفاسي
وعندى من الأشواق مالم يبع به لسان يراع في مسامع قرطاس
ولى من تباريح الهوى وشـجونه

أحاديث تلهي الشرب عن لذة الكاس
ولو كنت من دهرى أنال ما ربي اسرتكم سعياً على العين والرام
وكتب يعتذر للشيخ عبد الهادي نجا الأبيارى عن دعوة وصلته منه متأخرة^(١)

(١) وصلت رقعة الشيخ الأبيارى بعد غروب الشمس وفيها يقول :

يا نور فكرى وسرى	وروح روحى ونفسى
لدى شامة شام	لطيف معنى وحس
يود كل أديب	لقياه رغبة أنس
فإن تمن فمشر	من قبل مغرب شمس

يا من بديع حلاه تزي البديع وتنسى
 وافت عقيمة نظم تتلو فصاحة قس
 كالبدر لاح سنه من بعد مغرب شمس
 فغادرتني صريعا نشوان من غير كأس
 فمن بالعمفو إني منه على غير بأس
 وإن عتبت فحق وما أبرئ نفسي

وكل هذا الذي روينا له شعر مصنوع لا يفصح عن طبع وسليقة ، أو شعور دفعه إلى القول بما يختلج في نفسه . ومن هذا النمط قوله في الحكمة والمواعظ :

إذا رمت المروءة والمعالي وأن تلقى آله العرش برا
 فلا تقرب لدى الخلوات سرا من الأفعال ما تخشاه جهرا
 وقوله ينصح ولده أمين باشا وهو صغير :

إذا نام غر في دجى الليل فاسهر وقم للمعالي والعوالى وشمر
 واخل أحاديث الأمانى فإنها علالة نفس العاجز المتحير
 وسارع إلى ما رمت ما دمت قادرا

عليه ، فإن لم تبصر النجى فاصبر
 ولا تأت أمرا لا ترجى تمامه ولا موردأ ما لم تجد حسن مصدر
 وعود مقال الصدق نفسك وارضه تصدق ، ولا تركز إلى قول مفترى
 ودع عنك إسراف العطاء ولا يكن لكفيك في الإنفاق إمساك مقتر
 ولا تقف زلات العباد تعدها فلست على هذا الورى بمسيطر

وهذا من الشعر التعليمى الذى لا ينبىء عن خيال عميق ؛ لأن الحكمة نظم للحقائق المجردة ، والحقيقة المجردة منتزعة من صميم الوجود ، وقائل الحكمة

السائرة عالم بطباع الناس يضع العالم أمام ناظريه ويشرف عليه من عل ، وكأنه
 ينظر في كفه فيستقرى الحوادث والطباع ، ثم ينطق بالحكمة تصلح لكل زمان
 ومكان من أمثال ما نظم المتنبي وغيره من فحول الشعراء ، وأين منهم عبد الله
 فكبرى في مواعظه المدرسية هذه ؛ على أنها تعد من خير شعره ، وأسلسه وأوضحه
 ومن شعره ، وربما كان فيه شيء من الشاعرية ، لصراحته وتصويره نفسية
 امرأة فرنجية تقجر بعرضها وتهافت على المال ، وماحدث له معها :

وهيفاء من آل الفرنج حجابها على طالبي معروفها في الهوى سهل
 تعلقها لا في هواها مراقب يخاف ولا فيها على عاشق بخل
 إذا أبصرت من ضرب باريز قطعة من الأصفر الإبريز زل بها النعل
 فلما تعارضنا الحديث تعرضت لوصل ومن أمثالها يطلب الوصل
 فرحت بها في حيث لا عين عائن ترانا ، ولا بعل هناك ولا أصل
 وبت ولى سكران من خمر لحظها وراح ثناياها ، ومن خدها نقل
 وقت ولم أعلم بما تحت ثوبها وإن كان شيطاني له يبنفنا دخل
 ومن أحسن شعره قصيدته التي يعتذر فيها للخدو توفيق ، ويتنصل من
 اشتراكه في الثورة ، ويطلب إرجاع راتبه المقطوع ؛ وإن كانت معانيها مما يخطر
 لكل شاعر وليس فيها جديد !

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرا
 وقف خاضعاً واستوهب الأذن والتمس

قبولا وقبل سدة الباب لى عشر
 وفيها يقول :

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا

لئن كانت أقوام على تقولوا
 حلفت بما بين الخطيم وزمزم
 لما كان لي في الشرباع ولا يد
 ولكن محتوم المقادير قد جرى
 أتذكر يا مولاي حين تقول لي
 أراك تروم النفع للناس فطرة
 فعفوا أبا العباس لا زلت قادراً
 أجمل في دين المروءة أننى
 بأمر فقد جاءوا بما زوروا نكراً
 وبالباب والميزاب والكعبة الغرا
 ولا كنت من يبغي مدى عمره الشرا
 بما الله في أم الكتاب له أجرى
 وإنى لأرجو أن ستنفعنى الذكري
 لديك ، ولا ترجو لذى نسمة ضرا
 على الأمر ، إن العفو من قادر أحرى
 أكابد في أيامك البؤس والعسرا

ولعلنا بعد كل هذا الذى رويناه له قد أخذنا فكرة واضحة عن منزلته بين الشعراء ، وقد ذكرنا آنفاً أنه اشتهر بالكتابة ، وأنه كاتب أديب أكثر منه شاعر ؛ وشعره فى الواقع قليل إذا قيس بما ترك من مقالات ورسائل ، وكتب وشروح وغير ذلك .

نثره :

استطاع عبد الله فكرى أن يرتقى بالكتابة الديوانية ، وأسلوب الرسائل والمكاتبات إلى منزلة سامية ، وأعاد إلى الأذهان عصر رؤساء ديوان الإنشاء فى العصور القديمة ، واتخذ له خاتماً نقش عليه : « إني عبد الله آتاني الكتاب » ؛ لأن هذه الآية وافقت سنة ميلاده ١٢٥٠ ، كما كان لهؤلاء الرؤساء خواتم .

وكان له أسلوبان فى نثره : أحدهما وهو الغالب وبه كتب أكثر رسائله ، هو ذلك الأسلوب الذى يحتفى بعبارته ، وموسيقاه ويختار ألفاظه ، وبه خيال

شعري ، ومعان دقيقة معارضاً فيه أسلوب القاضي الفاضل ، أو بديع الزمان ،
أو الخوارزمي أو ابن العميد . وثانيهما أسلوب مرسل سهل يجري مجرى الكلام
العادي ، وهو أسلوب الصحافة في عهده ، ولكنه قليل فيما ترك من آثار .

ومن الأسلوب الأول قوله من رسالة لصديق ، بين فيها أحوال أهل العلم في
عصره ، منتقداً هذه الأحوال ، متهمينهم في لهجة ساخرة لاذعة ، قال :
« كتبت والذهن فاتر ، من وهن الدفاتر ، والتبويض والتسويد ، والتقعيد
والتسديد ، والترجمة وكثرتها ، والهمة وفترتها ، والماهية وقلتها ، والنفس وذاتها ،
وراتبى لا يكفى أجره البيت ، ولا يفي ثمن الماء والزيت . وبالأمس وعد الوكيل
بالزيادة ، واعتذر اليوم بالأصيل على العادة ؛ على أنه لو حصلت زيادة ، فلزيد
ولعمرو ، إلى آخر الزمر ، والله الأمر . أحوال متبددة ، ونفوس متبدلة ، وأشغال
متعددة ، وإخوان خوان ، وخلان غيلان ، ورفاق وما أجهل الفراق ، وقلت :

إلام أعانى الصبر والدهر غادر وحتى متى أشكو ومالى عاذر

ولو أننى أشكو عظامى شدتى لميت لرقت لى العظام النواخر

وسألت عن فلان وفلان ، وهيان بن بيان ، ممن ينتسب للعلم وأهله ،
ويتظاهر بشعار فضله . ولو كان العلم بلحية تعظم وتطول ، وشوارب تحف
وتستأصل وعيون على ما بها غمض ورمض تكحل ، وعمامة تعظم حتى ترذُل ،
وطيلسان يلف ويسدل ، وكم يوسع ويسبل ، وأحاديث خرافة تقص وتنقل
ومحفوظة تفعم وتنقل ، وسواك يظهر من العمامة نصفه ، وكتاب يخرج من الجيب
طرفه ، ثم بتشوق فى الكلام ، وبتباله فى المرام ، وتعسف فى الأفهام ، وحرص
على الخطام ، ثم بقول الإنسان حضرت درس فلان ، وسمعت من لفظه باللسان
وقضيت فى العلم كذا سنة من الزمان ، فهم أعلم من أقلته الغبراء ، وأفقه من

أظلمته الخضراء ، وإن كان للعلم غير هذه الآلات ، فما لهم سوى هذه الحالات .
 غاية الأمر أنهم قضوا أزدل العمر في كتب معدودة ، وشروح موجودة ، وهم
 يكررونها ولا يدرونها ، ويقررونها ولا يحجرونها ، ويتداولونها ولا يتعلقونها ،
 ولو صرف حمارى هذا العمر فيها لأصبح فقيها وأخفى نبيها ؛ والذي يظهر منهم
 وشينهم ، وعلامة ما بيننا وبينهم أن يؤمر أحدهم برقعة تكتب لحاجة معهودة
 ويمتحن بكتاب غير هذه الكتب المعدودة ، فيه بعض كلام العرب وأشعارها
 وشئ من وقائعها وأخبارها ، فإن كتب فصيحاً وقرأ صحيحاً ، وفهم مليحاً ،
 عرفنا أنه شم عَرف العلم ، وذاق طعم الفهم ، وسلمنا إليهم ما يدعون ، وتركنا
 لهم ما يأتون وما يدعون ، وإن ارتبك للرقبة ووقف حمار الشيخ في العقبة
 عرفنا حاله ، وقلنا له :

أيها المدعى سليماً — فهاها لست منها ولا قلامة ظفر
 إنما أنت من سليم كواو ألحقت في الهجاء ظلاماً بعمر
 وقد صررت بالأمس على أحدهم في الدرس ، يقرأ القطر لابن هشام ،
 ويلحن لحن العوام ، وصررت بآخر يدرس الكافي في علمي العروض والقوافي
 يقرر قوله :

قف على دارهم وابكين بين أطـ — لالها والدمن
 فلا وربك ما أقام له وزناً ، ولا عرف له معنى ، مع سهولة مبناه وظهور
 معناه .. الخ »

ومن هذا النثر المسجوع قوله يصف حديقة :

ثم خرجت إلى حجرة خالية ، أعدت فيها فرش عالية ، وأدوات غالية ،
 وسطعت بها روائح الطيب والغالية ، وقد أكلت وجوه تحسينها ، وأتمت أسباب

تزينها وهي مشرفة على حديقة ذات أفنان ، وأنواع من الزهور وألوان ، وثمرات
حسان ، وقد فاح الطيب من محاجر أزهارها ، وصاح الخطيب العندليب على
منابر أشجارها :

رياض كديباج الحدود نواضر وماء كسلسال الرضاب برود
جلست أجيل فيها النظر ، وأتأمل محاسن الروض غب المطر ، وأطالع مارقه
الطل في صحائف الغدران ، وأرى خواتم الزهر حين تسقط من أنامل الأغصان
من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغواذى من ثغور الأفاح
وقد استعمل عبد الله باشا فكرى هذا الأسلوب المسجوع فى كل باب
وغرض ، حتى فى التقارير الفنية ، والمذشورات العامة و (الفرمانات) فمن ذلك
صورة (الفرمان) الآتى بتنصيب محافظ :

« صدر هذا الفرمان المطاع ، الواجب له القبول والاتباع ، خطاباً إلى الحكام
والعلماء ، والقضاة والأعيان ، والوجوه والعمد ومشايخ البلدان ، وعموم الأهالى
المواطنين فى محافظة كذا بجهات السودان . ليكون معلوماً لديكم بوصول هذا
المنشور إليكم أنه قد اقتضت إرادتنا تنصيب فلان محافظاً عليكم ، لما توسمناه فيه
من الدراية والاستعداد ، والسلوك فى طرق الرشاد ، وبذل المهمة فى أمور المصلحة
ومزيد الاجتهاد الخ »

ومن هذه النماذج المتقدمة نرى أن هذا الأسلوب على ما به من سجع ،
فإنه سهل متين العبارة ، تقل فيه المحسنات المتعمدة ، ويطرق أغراضاً متعددة
منها الديوانى البحت ، ومنها ما يستعمل فيه الشعر . وقد أفاد هذا الأسلوب
الكتاب من بعده ، وصار لهم قدوة ، ولكنه آخر تخلص النثر من طريقة هذه
المدرسة الديوانية حتى أوائل عصرنا الحاضر ؛ لأن أرباب هذا الأسلوب شغلوا

المناصب الرفيعة فظن الشادون في الأدب أنهم لو قلدوهم لوصلوا إلى ما وصلوا إليه فتمسكوا بأسلوبهم أمداً غير يسير . والحق أن الغرض الأدبي المهم يحتاج إلى عبارة خاصة يحتفى بها الكاتب بعض الاحتفاء ، ويضعها في قالب جميل تناسب الغرض الذي قيلت فيه حتى لا تذهب بنفاسة الموضوع تفاهة العبارة . وتجويد العبارة محبوب مرغوب فيه على شريطة ألا يضحي بالمعنى من أجل لفظة أو سجع أو محسن خاص . ولقد استطاع عبد الله باشا فكركى أن يسترد بأسلوبه هذا اللغة العربية مكاتها التي فقدتها عدة قرون ، وأن يزيج التركية من أمامها ويثبت قدمها في الدواوين وفي لغة الرسائل ، واضحة أدبية جذابة .

|| أجل ! لم يكن عبد الله فكركى من هؤلاء الذين طرخوا موضوعات جديدة في كتاباتهم ، بل استخدموا مقدرتهم البلاغية في الأغراض القديمة من تعزية وتهنئة ، ووصف ومدح واعتذار وعقاب . ومنشورات على لسان الأمير ، وتقارير عن مهمات وكلت إليهم وغير ذلك من الأغراض المطروقة . ولم يكن للأفكار الجديدة ، ولا للأغراض القومية أى تأثير عليه وقد زاد نفوذ الأجانب ، وقامت الثورة العربية ، ونكبت مصر بالاحتلال ، ولم نسمع له كلمة تعبر عن هذه الأحداث ، ولم يتألم لألم وطنه وذلتة كما تألم الشدياق ، وأديب إسحاق ، وعبد الله نديم ، وجمال الدين الأفغانى وغيرهم ، وما ذلك إلا لأنه كان مثال الموظف الديوانى الخالص ، البعيد عن الاشتغال بالمسائل العامة ، والأمور الهامة .

ومن الأسلوب المرسل الذى تأثر فيه برجال الصحافة لعده ، ولا سيما أسلوب الجوائب ، قوله من رسالة بعث بها إلى المرحوم عبد الله أبى السعود صاحب جريدة « وادى النيل » :

« قد كنت وعدت فيما حررته سابقاً أنى أكتب حضرتكم بعد بما تيسر

على حسب الإمكان ، ومساعدة الزمان ، والآن أريد أن أخبركم بمحاورة جرت بيني وبين بعض المتورعين من الناس فيما يتعلق بصحيفة « وادي النيل » وكتاب الجغرافية المطبوع في ورقاتها ؛ وذلك أني رأيته ينكر على حضراتكم بعض المباحث المدرجة في ذلك الكتاب ككون الأرض كرة ، والقبة السماوية متخيلة ، وما قيل في كيفية الكسوف والخسوف ، ونحو ذلك ، بعد الاعتراف منه بأن الكتاب المذكور كتاب مناسب في موضوع مهم تدعو إليه الحاجة لمعرفة مواقع البلاد ومحالها ، وأقسام الأرض وأحوالها ، فإن هذا لا تنكر مزيته وفائدته في السياحة والتجارة وأمور التمدن والحضارة فقلت له : قد علمت أن منشئ « وادي النيل » ليس مؤلف الكتاب المذكور ، وإنما هو مترجم له ، والمترجم ناقل ليس عليه عهدة ما ينقله ، وإنما يلزمه صحة النقل ، وتوفية حق الأداء على صحته ، ولا يلزمه ما يترتب على الأصل المنقول عنه من نقد ومؤاخذه ، بعد عزوه لأصله ، ونسبته إلى قائله ، فلو سلم أن جميع تلك المباحث مما ينكر فما عليه شيء من ذلك ، فقد قالوا : إن ناقل الكفر ليس بكافر .. الخ ^(١) وهي رسالة طويلة تقع فيما يقرب من عشرين صفحة .

ومن نثر المرسل كذلك قوله في تقرير عن رحلته إلى استوكهلم حيث حضر مؤتمر المستشرقين :

« ثم أشير إلى فقامت ، وأنشدت قصيدة كنت أعدتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس ، فأنتمتها في الطريق ، وبيضتها في استوكهلم ، فابتدأت أقول :

اليوم أسفر للعلوم نهار
وبدت لشمس نهارها أنوار

ومضيت فيها إلى آخرها ، وصفق الناس لكل من خطب ، وبالجملة لي

لما أتممت الأنشاد ، وخاطبني أناس منهم باستحسنائها في اليوم ، وحضر كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها وساورني يطلب نسختها ، فأخذها في الحفلة ، وخطب بعد ذلك أناس منهم (المسيو شفر) وافد فرنسا ، وكانت هذه الحفلة خاصة بذلك ليس فيها تقديم موضوعات علمية .. الخ »

على أن عبد الله فكرى لم يكثر من هذا الأسلوب المرسل ، وإنما كان من غواة النثر المسجوع ؛ وهو بأسلوبيه يمثل دوراً هاماً ص فيه النثر العربى من مرحلة الغثاثة والركاكة إلى مرحلة القوة وتوخى الفصاحة وقواعد اللغة ، بل والتأنق فى الأسلوب ، ولم يذهب تقليده لرؤساء ديوان الأنشاء فى القديم بشخصيته وطابعه ، بل لا يزال يعطينا صورة عن عصره ، ولم يأمره حب البديع ومحسناته فيذهب بمعانيه بإغراقه فيه .

آثاره :

وتوفى سنة ١٨٩٠ ، وله عدة مؤلفات منها : المقامة الفكرية فى المملكة الباطنية المطبوعة سنة ١٢٨٩ هـ ، ومنها الفوائد الفكرية ، وشرح بديعية محمود صفوت الساعاتى ، ومنها جزء من شرح ديوان حسان بن ثابت ، وكتاب « نظم اللاك فى الحكم والأمثال » وكتاب آثار الأفكار ومنثور الأزهار (طبع منه تسع ملازم بروضة المدارس) ، ومنها الفصول الفكرية للمكاتب المصرية ، ورسالته التى كتبها فى المقارنة بين الوارد فى نصوص الشرع والمقرر فى علم الهيئة الفلكية ، وغير ذلك من المراسلات والمقالات . وله أيضاً « إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا » وقد أتمه ولده أمين باشا بعد وفاته . وقد جمعت معظم آثاره فى كتاب الآثار الفكرية ، وترجم له فى أوله المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده

هذا وقد كان لعبد الله فكري عناية برواية الحديث وله فيها طرق عديدة
وأسانيد سديدة (١)

٥ — السيد عبد الله الألوسي (٢) :

ولد في بغداد من أسرة مشهورة بالعلم سنة ١٢٤٨ هـ — ١٨٣٢ م ، وتلقى
العلم على والده ، فعرف شيئاً من النحو وروى الشعر ، وقرأ القرآن ، والتفسير
والحديث وغير ذلك من العلوم التي كانت تدرس في المساجد ، والتي لا تزال
تدرس في الأزهر حتى اليوم في الكتب الموروثة (٣)

ولم نترجم للسيد عبد الله الألوسي ؛ لأنه أديب نابغة ، أو شاعر ملهم ،
وإنما لنعطى صورة من الأدب في البلاد العربية إبان هذه الفترة التي نتحدث
عنها ؛ حتى نصدر حكماً صائباً عن الأدب العربي وتطوره ، وأنه لم يكن في بلد
أحسن منه في أخرى ، وأن النهضة أخذت تدب فيه شيئاً فشيئاً .

لم يعمر السيد عبد الله طويلاً ، فقد مات سنة ١٢٩١ — ١٨٧٤ عن
ثلاثة وأربعين عاماً ، وقد قضى هذه السنين القصيرة عليلاً سقيماً ، واشتغل
بالتدريس حقبة في بغداد ، واشتهر بحسن إلقاءه ، وتوضيحه لهويص المشكلات
العلمية ، ولكن الحياة لم تكن ميسرة له ، فمن أسرة كبيرة العدد ، وصحة سقيمة ، إلى
فقروعدم تقدير ، فعزم على الرحلة ، وباع كل ما يملك ويم صوب الأستانة ، ولكنه
لم يصل ، لأن قطاع الطرق سلبوه كل عتاده ، وتركوه عارياً في الصحراء ،
ولولا أن من الله عليه بمن التقطه وأرجعه إلى بغداد لقضى جوعاً وعرياً . رجع

(١) راجع الآثار الفكرية ص ٩ — ١١

(٢) هو ابن السيد محمود الألوسي (أبو الشاء) الذي ترجمنا له سابقاً .

(٣) راجع أعلام العراق لبهجت الأثرى ص ٨٩

صفر الكف من زاد الدنيا ، ولم يكن ممن يجيدون التزلف والملق فسأت حاله ،
وطالما عرض عليه القضاء قبل هذا وكان يرفضه ورعاً وزهداً ، بيد أن الضائقة
أخرجته فاضطر إلى قبوله وتولى قضاء البصرة سنتين ثم مات . وقد ترك عدة
مؤلفات في علوم اللغة ، وله شعر لطيف ومقالات أدبية جمعها ابنه
السيد محمود شكرى الألوسى فوكت في مائة صفحة ؛ ومن نثره يصف مطراً شديداً
متوالياً ، وفيضان نهر دجلة . وهو نثر يمثل مدرسة الصنعة والسجع والتكلف
وانتزاع الاستعارات وحشدها ركماً عجيبة ، وهو دون عبد الله فكرى منزلة
ولا ريب من حيث الأسلوب ، والفكرة ، وتنوع الموضوعات . قال من رسالة
بعث بها لأخويه يصف هذا المطر :

« ... إنه (المطر) عند غروب شمس الأربعاء ، تنفس بغم الشوق الصعداء
ورمى بوجه الأرض حصى من كف السماء . فناداه الليل — وقد تحقق أن الدائرة
على الأرض — مارميت إذ رميت ولـسكن الله رمى ، وحاك الدوى بمكوك الرياح
من سدى البخار ولحمته شققاً سوداً ، وصبغها الليل فكانت ظلمات بعضها فوق
بعض ، وطينها خيمة خيمة على أكتاف العراق فى الطول والعرض . واشتد
الريح والظلام ، وشرع جنى الليل يخوف صبي النهار كلما أحس منه بقيام ؛ حتى
سل الفجر قرصاً به الأبيض من غمده الأسود ، وأغمد الليل قامة الجوزاء بعد أن
كان بها على النهار يتهدد » ^(١).

(٢)

٦ — حسين بهرام

ولد حسين ببيروت سنة ١٢٤٩ ١٨٦٣ م ، وأخذ من العلم المعروف فى

(١) راجع أعلام العراق تجد فيها الرسالة كاملة من ٤٨ — ٥٠ .

(٢) أبوه السيد عمر بهم وكان من أعيان بيروت وأدبائها ، ولا تزال أسرة بهم حتى اليوم ذات مكانة فى بيروت .

عصره قسطاً غير قليل ، ثم انقطع للتجارة ، ولكن حنينه إلى العلم جذبته إليه ثانية فنال شهرة . وتولى عدة مناصب كبيرة كمنظارة الخارجية ورئاسة الأحكام العدلية ، ومثل بلاده في مجلس النواب التركي مدة ، ولما عاد ترك الوظائف وتفرغ للأدب . ومن آثاره رواية أدبية وطنية مثلت مبراراً ، وقرظها الأدباء ، وشعره لا يتميز عن مدرسة أبي النصر والليثي ، وقد وفيناه نعتاً عند الكلام عليهما ومن ذلك قوله يؤرخ إنشاء (التلغراف) في بيروت :

لله در السلك قد أدهشت عقولنا لما على الجو ساق
فأعجب السكون بتأريخه شبيه برق أو شبيه البراق (١٢٧٧)
وقال مشطراً :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ناداك طائر يمنها وسعودها
نم فالخاوف كلهن أمان واصطد بها العنقاء فهي حباله
واملك بها الغبراء فهي سنان واصعد بها العليا فهي معارج
واقعد بها الجوزاء فهي عنان وقال يعزى صديقاً له بفقد ماله :

لقد غمنا والله والصحب كلهم كأن شراراً منه طار لأرضنا
مصاب دهاكم بالقضا حكم قادر ولكننا قلنا مقالة عاقل
فاحرق أحشاء الورى بالتطائر إذا سلمت هام الرجال من الردى
يسلم للبارى بكل المظاهر فكأن مثل ظن الناس فيك مقابلا
فما المال إلا مثل قص الأظافر ولا تأسفن إذ ضاع مال ومقتنى
لذا الخطب بالصبر الجميل المصادر وإن حياة المرأ رأس لماله
فربك يا ذا الحزم أعظم جابر وهو شعر بادی الضعف ، كثير الموارد لا يحتاج منا وقفة أو نقداً .

الفصل الرابع

بعث الشعر العربي

مر الشعر العربي منذ عهد امرئ القيس إلى عصر البارودي في أطوار مختلفة : كان في الجاهلية وصدر الإسلام شعر الفطرة والسليقة المنبعثة عن الشعور والإلهام ، تعرض الحادثة أو المنظر للشاعر فينفعل ويتأثر ، ويلهج لسانه بما يختلج في فؤاده ، وقد ينبعث الشعور من طيات ضميره لا بوحى خارجي ؛ وهو في كلتا الحالتين لا يعتمد إلى تميق أو تزويق ، أو يعتمد لفظاً بعينه ، وإنما كانت اللغة ملك يمينه وطوع لسانه ، وكأنها بمفرداتها الزاخرة ، ومعانيها المتباينة موضوعة في كفه يختار منها ما يكفي لأداء المعاني التي تتجاوب في خاطره . وكثيراً ما يعتمد إلى هذا الأداء بأوجز لفظ وأمتنه دون إسهاب أو حشو ، ولا سيما إذا كان شاعراً فخلاً طويل الباع في فن الشعر ، وله دراية بوجوه تصريف الكلام . ولذلك جاء الشعر العربي القديم صورة صادقة لمن قالوه ، ولأمر ما قال نقاده منذ القرن الثاني : « الشعر ديوان العرب » . لم يكن العربي الأول يعتمد إلى الخيال المجنح الذي يخلق الصور ويغوص وراء المعاني في أعماق الفكر ، وإنما كان يصور إحساسه وشعوره دون تزييد أو نقصان ، ودون فلسفة أو منطق ، وقد كان دستورهم في ذلك قول أحدهم :

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وكان الشعر العربي حينذاك بيت مشيد بالحجارة المقيمة العارية عن

الزخرف والطلاء ، يروعك بسذاجته ، وشموخه ، ومتانتة . وفي السذاجة جمال الفطرة .

ثم أخذ العرب بنصيب غير قليل من حضارات الأمم التي فتحوها بلادها . وألفوا أنواعاً من العيش وألواناً من الحياة ونظام الحكم لم يعرفوها من قبل ، وشاهدوا مناظر جديدة اختمرت في عقولهم زمناً ، واطلعوا على ثقافات متباينة من يونانية وفارسية وهندية ونبطية وما شاكل هذا ، وكان من الطبيعي أن يتأثروا بكل ذلك . وكنا ننتظر أن يتطور الشعر العربي تطوراً جديداً خليقاً بهذا الانقلاب الكبير في حياة الأمة العربية ، وأن يحتذى العرب حذو الإغريق مثلاً في ملاحظتهم وقصصهم ومسرحياتهم . ولكن ما طرأ على الشعر العربي لم يعد الشكل الظاهري ، وظل البناء القديم ، والقالب الموروث تصب فيه المعاني في العصر العباسي كما كانت تصب في العصر الجاهلي والإسلامي الأول . أجل ! لقد رق الخيال ولطف ، وتولدت المعاني وابتكرت ، وتناول الشعر ألواناً جديدة لم يقل فيها السابقون ، ولكن ظل البيت الذي شاده الجاهليون ، والطريق الذي سلكوه في التعبير عن شعورهم هو المثل الأعلى لشعراء العصر العباسي ، بيد أن مقتضيات الحضارة دعت الشعراء أن يؤثثوا هذا البيت الذي ورثوه عن أسلافهم فحشدوا فيه أنماطاً شتى من المعاني العميقة والأخيلة البعيدة ، والفلسفات والحكم ، وكثيراً من صور الحياة في عصرهم ، وابتدأوا مع هذا يدخلون شيئاً من الزخرفة بقدر ، وكانت زخرفة منسجمة مع الرياش والأثاث ، وبدا الشعر العربي في عنفوان قوته وازدهاره وغناه .

ثم خلف من بعدهم خلف أضافوا إلى هذا القصر الفاخر كثيراً من الحلى والزخارف ، وكان الضعف قد ابتداءً يتسرب إلى البناء ، ويدب فيه الوهن ،

وعجز الشعراء عن مجارة الأفدين في متانة عباراتهم ، وتمسكهم زمام اللغة ،
وعجزوا عن مجارة المولدين في معانيهم العميقة ، وأخيلتهم الجميلة ؛ فأكثرنا من
الزخرف والزينة ليستروا بهما الضعف الشائن وكانوا على شيء من الإلمام باللغة
وبالأساليب الصحيحة فلم يستعجم قولهم ، وظل في الشعر ذماء يحفظ عليه حياته ،
وبقى البناء في مجموعته سليماً .

ثم أخذ البناء يتداعى بضعف الأمة العربية ، وخضوعها للأعاجم الذين
لا يقدرّون هذا التراث الجميل ، ولا يعرفون لسان أهله ، ولا هم لهم إلا ابتزاز الأموال
من الشعوب المظلومة دون مقابل من علم أو صحة أو غنى ، فتفشى الجهل ، وساد
الظلم ، واستعجم الشعراء ، ولحنوا لحناً فاحشاً ، وكانوا أبعد الناس عن الأساليب
الصحيحة ، والمعاني الواضحة ، والشعور السليم ، وخاتمتهم الأداة المعبرة ، وأصبح
همهم النظم الذي لا روح فيه ولا معنى له ، والذي يساق في عبارة ركيكة غثة ،
وفي حشد زاهر من الزينيات والمحسنات لتستر عواره ، وقد كان الشعر يلفظ
أنفاسه الأخيرة عيماً ومرضاً حين ابتدأ العصر الحديث .

ابتدأت النهضة الشاملة منذ عصر محمد علي ، وقد رأيت شيئاً من معالمها ،
ورأيت كيف كان الشعر يتردد بين المرض والعافية ، فيصح أحياناً وينتفكس
أحياناً كثيرة ، والنهضة سائرة في طريقها على يد اسماعيل ، واللغة يدب فيها
شيء من القوة ، والمطابع تدفع بالكتب الأدبية القديمة ، والمدارس تبتدئ سدف
الجهل والظلام ، والصحافة تكشف الطريق ، وتزيل ما به من أضرار وعوائق ،
واسكن الشعر ظل على حاله من الضعف لم يقف على قدميه بعد ، وكان مكبلاً بقيود
ثقيلة ، تحت أنقاض هذا البناء المشمخر الذي تداعى أيام الانحلال .

وشاء الله أن يبعث من ينهضه من كبوته ، ويقيله من عثرته ، ويلقي بهذه

الآفات والأضرار بعيداً ، ويعيد للبناء قوته ومجده ، وزخرفته الطبيعية الجذابة
دفعة واحدة كأنما هي عصا ساحر قلبت الميت حياً ، والضعيف قوياً ، والمعدم
ثرياً ؛ كان هذا على يد إمام النهضة الشعرية في العالم العربي .

محمود البارودي

١٢٥٥ هـ — ١٣٢٢ هـ ، ١٨٣٨ م — ١٩٠٤ م

حياته :

محمود سامي البارودي من أسرة جر كسية ذات جاه ، ونسب قديم (١) ،
تنتمي إلى حكام مصر المماليك ، وكان البارودي يعرف هذا النسب ويعتبره .

« أنا من معشر كرام على الدهر أفادوه غزوة وصلاً
عمروا الأرض مدة ثم زالوا مثلما زالت القرون اجتياحا
ويقول :

نماني إلى العلياء فرع تأملت أرومته في الجدد ، وافتر سعه
وحسب الفتى مجدداً إذا طلب العلا بما كان أوصاه أبوه وجده

وتيمم محمود البارودي صغيراً ، وهو في السابعة من عمره ، فخرم بذلك حنان
الأب ورعايته ، وتلقى دروسه الأولى في البيت حتى بلغ الثانية عشرة ، ثم التحق
بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجرا كسة والترك ، وأبناء الطبقة الحاكمة . وتخرج
في المدرسة الحربية سنة ١٨٥٤ وهو في السادسة عشرة من عمره في عهد عباس
الأول ، وكان من المعوقين للنهضة كما مر بنا ، وقد خدمت في عهده روح الحماسة ✓

(١) أبوه حسن حسني بك البارودي من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودققة في
عهد محمد علي باشا ، وجده لأبيه عبد الله بك الجركسي ، والبارودي نسبة إلى (لبناني البارود)
بمدينة البحيرة وكان أحد أجداده ملتزماً لها . وأجداده ينتسبون إلى حكام مصر المماليك .

التي شبهها محمد علي في الجيش ، بل سرح معظمه ، وأفقرت ميادين القتال من
ألوية مصر ؛ ولم يكن عهد سعيد أحسن حالا من عهد عباس . فلم يجد البارودي
— كما لم يجد زملاءه — عملا يعملونه ؛ أما هم فقد طاب لهم عيش الرخاء والدعة
وسرهم البعد عن ميادين القتال ، ولكنه أحس دونهم بألم ممض ؛ إذ لم يشترك
في حرب كما اشترك آباؤه ، ولم كان يود أن يحقق عن طريق الجندية والجيش
أمالا ضخمة ، وأمانى عريضة . ودفعه هذا الألم إلى طلب العوض عن المعارك
الحقيقية بمعارك موصوفة مدونة في صفحات التاريخ ، فعكف على كتب الأقدمين
يلتهمها التهاماً . وكانت ملكة الشعر كامنة في حنايا فؤاده فراقه من التراث الأدبي
شعر الحماسة والفخر ، ووصف ميادين القتال ، وأعمال الأبطال ، ورأى في هذا
الأدب تصويراً للحياة كلها حلوها ومرها : من غزل وفكاهة وحكمة ورثاء ،
وكل ما يخطر ببال الناس ؛ فازداد شغفه به وحرصه على حفظه وتدوينه ؛
وتحركات نفسه لقول الشعر فقلد فحول الشعراء في أروع قصائدهم . وهل على
مثله من بأس أو عار إذا هو قال الشعر ؟ إذا توهم هذا معاصروه من أبناء طبقته
لجهلهم وخمود قريحتهم ولتقاليدهم الموروثة ، ولهوان شعراء زمانهم وضعة شأنهم
فإن البارودي كان على ذكر من أن أمراء كثيرين قبله ، أعرق منه نسباً ، وأعلى
حسباً ، قد برزوا في الشعر العربي وسطروا تاريخهم في سجل الخلود كأمري القيس
وابن المعتز والشريف الرضي وأبي فراس وأضرابهم . فلم لا يكون مثل
هؤلاء ؟ ولم لا يرتفع بالشعر إلى منزلتهم ؟ إن يكون مداحاً متملقاً ، أو نديماً
منافقاً ، ولكنه سيقول في أغراض شريفة تليق به وبمكانته :

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذام
قد طالما عز به معشر وربما أزرى بأقوام

فاجعله ما شئت من حكمة أو عظمة أو حسب نام
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى الراعى
وقد عرف فيما عرف من أدب العرب منزلة الشعر وعبر عنها بعد بقوله :

صحائف لم تزل تتلى بالأسنة الدهر في كل ناد منه معمور
يزهى بها كل سام في أرومته ويتقى البأس منها كل مغفور
فكم بها رسخت أركان مملكة وكم بها خمدت أنفاس مغرور
والشعر ديوان أخلاق يلوح به ما خطه الفكر من بحث وتنقير
كم شاد مجدأ ، وكم أودى بمنقبة رفعاً وخفضاً بمرجو ومحدور

هكذا رأى البارودى الشعر ، وما كان له أن يعرض عنه ، ولو حاول ما استطاع
وفيه طبع شاعر ، وقد ملك أدواته اللغوية المعبرة .

تكملت كالماضين قبلى بما جرت به عادة الإنسان أن يتكلم
فلا يعتمدنى بالإساءة غافل فلا بد لا بن الأيك أن يترنما

فهو مطبوع على قول الشعر مثله في ذلك مثل الهزار أو البلبل ، ينطلق كلاهما
بالغناء فطرة وجبلة . ولكن مصر ضاقت به ، أو ضاق بها حيث لم يجد
غنية لدى الدولة تحقق آماله ؛ فسافر إلى الآستانة مقر الخلافة ، والتحق بوزارة
الخارجية ، وهناك تعلم التركية والفارسية ودرس آدابهما ، وحفظ كثير من أشعارهما
ودعته سليقته الشاعرة فقال بالتركية وبالفارسية كما قال بالعربية ، ومع ذلك لم
يهجر لسانه الأول . ولما سافر إسماعيل باشا إلى الآستانة بعد أن تولى أريكة مصر
سنة ١٨٦٣ ليقيم على شكره على توليته ألحق البارودى بحاشيته ، ورأى فيه مالم
يرى في غيره فرجع به إلى مصر .

وابتدأ إسماعيل نهضته بعد عودته مترسماً خطا جده . وأعاد للجدش مكانته ،

ووجد البارودى المجال أمامه فسيحاً فظل يرتقى فى مناصب الجيش ، وفى فرسان
الحرس الخاص حتى وصل رتبة (قائمقام) . وتحقق له مناه بالاشتراك فى معارك
جزيرة (كريت) حين ثارت على الدولة فأسهم إسماعيل بجيشه فى إخماد الثورة ،
وقد فتنت البارودى مناظر الجزيرة ، ومناظر المعارك ، فسجل ذلك كله فى شعره ،
وسمع الناس نغماً جديداً فى الشعر لم يألوه منذ عهد طويل ، وأخذوا يتطلعون فى
لهفة وشوق إلى المزيد من هذا النفس العالى ، ومن هذا الطراز الجديد فى الشعر (١)
وتقلب البارودى فى مناصب الدولة ، وكان ذا حظوة لدى إسماعيل فاتخذ
كأنم سره ، وسافر فى رحلتين سياسيتين إلى الأستانة فى مهمة خاصة . ومكث
اثنى عشرة سنة بجوار إسماعيل يرى نشاطه الجم فى إحياء مصر وإنهاضها
ويشاركه فى عمله المجيد . وفى سنة ١٨٧٨ م أعلنت روسيا الحرب على تركيا ،
وأرسل إسماعيل جيشاً يعاون الخليفة فى حربه مع عدوه ، وسافر البارودى مع
الجيش ، وأبلى فى المعارك بلاء حسناً فأنعم عليه برتبة (اللواء) وبأوسمة عدة .
وكان فى ميدان القتال ، والمناظر الخلابة ، والعالم الذى رآه ما ألهب شاعريته ؛
فوصف المعارك والناس والمناظر بشعر أخذ بلغ به الذروة فى الوصف . وأخذ
يهتف باسم مصر ، ويحن إلى الأهل والوطن ، فانبعث منه الشعر قوياً
مليئاً بالحياة .

مولاي قد طال مرير النوى فكل يوم مربى ألف عام (٢)
يقتبل الصبح ويمضى الدجى وينقضى النور ويأتى الظلام
ولا كتاب من حبيب أتى ولا أخو صدق يرد السلام

(١) سنتكلم عن شعر البارودى فيما بعد بالتفصيل إن شاء الله .

(٢) الخطاب للأديب العالم الشيخ حسين المرصنى وإليه أرسل هذه القصيدة ، والتي تليها

من خلفنا البحر وتلقاءنا
ويقول في قصيدة أخرى :

هو البين حتى لا سلام ولا رد
ومنها يقول :

ولكن إخواناً بمصر ورفقة
أحن لهم شوقاً على أن دوننا
فيا ساكني الفسطاط ما بال كتبنا
أفي الحق أنا ذا كرون لعهدكم
فلا تحسبوني غافلاً عن وداكم
هو الحب لا يثنيه نأى ، وربما
نسوا عهدنا حتى كأن لم يكن عهد
مهامه تعيماً دون أقربها الربد
توت عندكم شهراً وليس لها رد
وأنتم علينا ليس يعطفكم ود
رويداً فما في مهجتي حجر صلد
تأرج من مس الضرام له الند

وعاد من حرب البلقان وهو في الأربعين من عمره فعين مديراً للشرقية ،
محافظةً للعاصمة — ثم عصفت ريح السياسة باسماعيل ، وأرغمه الأجانب على
التخلي عن العرش ؛ فألهب هذا التدخل الشائن نفوس المصريين ، وبعث الحمية
الوطنية في صدورهم ، فطالبوا بالشوري وبالحكم النيابي حتى يطعنوا إلى تحقيق
العدالة ، ولا تتكرر المأساة ، وزاد رجاؤهم في تحقيق آمالهم لما تولى توفيق العرش
بدل أبيه ؛ لأنه كان من المعجبين بآراء السيد جمال الدين الأفغاني الإصلاحية .
بيد أنه تنكر لهذه المبادئ بعد توليه العرش وأرجع المراقبة الثنائية ، وخاصم
الحكم النيابي ، وحكم البلاد حكماً مطلقاً ، وإنما فعل كل هذا بإشارة الأجانب ،
واستجابة لتدخلهم ، فعز ذلك على كثير من رجال مصر ، ورأوا لزماً عليهم
أن يضعوا حداً لهذا التيار .

كان البارودي من المقر بين لتوفيق ، وولاه وزارة الأوقاف ، فأصلح فيها

ما وسع به جهده . وكان في نفس الوقت وطنياً متشبعاً بروح الإصلاح فحار في
في أمره بين ولائه للعرش ، وبين نزعاته الإصلاحية .

ثم كانت حركة الجيش ، والمطالبة بتولية المصريين المناصب العليا فيه ، وقد
كانت قبل وفقاً على الجراكسة والأتراك ، وكانوا في منتهى الغلظة والقسوة ، فثار
الجيش وخلع وزير الحربية عثمان رفقي ، فولى توفيق البارودي وزارة الحربية
مع وزارة الأوقاف ، ولكن رياض باشا رأى نزعاته الشعبية فدرس عليه عند
توفيق فعزله ، ودفعه هذا إلى اعتزال السياسة والعيش بعيداً عن جو القلق
والاضطراب في الريف (١)

ولما اشتدت حركة الجيش عزل رياض باشا ، وتولى شريف باشا ، ولم يقبل
البارودي الوزارة حتى ألح عليه توفيق إلحاحاً شديداً وأقسم أن ليس بنفسه شيء منه .
ثم استقال شريف باشا وتولى البارودي رئاسة الوزارة (٢) ، وكان محبوباً من
الشعب ومن الجيش على السواء ، وأراد أن يصلح الأمور في الجيش بالرفق
والهودة ، ولكن الأمور سارت على غير ما يهوى ، وطالب الجيش بعزل توفيق ،
ونازعته نفسه يومئذ إلى المجد المؤمل ، وإلى مكان أجداده المماليك الذين حكموا
مصر ، فغاض الثورة مع الخائضين ، ولكن التيار كان شديداً ، وتدخلت
انجلترا وفرنسا في الأمر ، فأحس البارودي الخطر ، وعلم أن لا قبل له بمواجهته ،

(١) وفي هذا يقول :

صبح مطير ، ونسمة عطره وأنفس للصبوح منتظره
قدر بعينيك حيث شئت تجد ملكاً كبيراً وجنة خضره
وخلنا من سياسة درجت بين أناس قلوبهم وغره
يقضون أيامهم على خطر فبئس عقبى السياسة الخطره
خدعة لا يزال صاحبها بين هموم وعيشه كدره

(٢) ولا ننس أنه من الجراكسة الذين يطالب الجيش بعزلهم .

فنصح لعرابي وإخوانه وصارهم برأيه ، وحاول الاعتزال في مزارعه ، ولكن هيهات وقد جرى مع الضباط شوطاً بعيداً وربط حظه بحظهم (١)

وأخفت الثورة ، ونفى مع زملائه إلى (سرنديب) فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض عام ؛ وظل وزملاءه سبعة أعوام في (كولومبو) ولما دبت بينهم البغضاء ، وألقى كل منهم التبعة على زميله ؛ فارقهم البارودي ، وأمضى عشرة أعوام في (كندى) ، وفيها تعلم الإنجليزية . وفي المنفى قال القصائد الخالدة ، ينشأ شكواه ، ويحن للوطن ، ويصف كل ما حوله ، ويرسل الأدباء ، ويتلهف على ذكر الوطن ويتتبع أخباره فيرثى من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه ، ويتذكر أيام شبابه وأوقات أنسه وما آل إليه حاله . ووجد في الشعر عزاء أى عزاء ، وصار إمامه في العالم العربي دون منازع ، ولكن طول النفي أورثه السقام والعلل ، فكف بصره وضعف سمعه ، ووهن جسمه ، واستأجد أروع ولا أوفى من قوله يصف ما أصابه :

كيف لا أندب الشباب ؟ وقد أص	بحت كهلاً في محنة واغتراب
أخلق الشيب جدتي وكساني	خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبي على عي	ني حتى أطل كالهذاب
لا أرى الشيء حين يسنح إلا	كخيال كأنني في ضباب

(١) وفي هذا يقول :

نصحت قومي وقلت الحرب مفاجئة	وربما تاح أمر غير مظنون
خالفوني وشبوها مكابرة	وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأني الأمور على ما ليس في خلد	ويخطيء الظن في بعض الأحيان
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة	وأصبح الشر أمراً غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمي ومن شيمي	صدق الولاء وتحقيق الأظنان

وإذا ما دعيت حرت كأني أسمع الصوت من وراء الحجاب
 كلما رمت نهضة أقعدتني ونية لا تقلها أعصابي
 لم تدع صولة الحوادث مني غير أشلاء همة في ثياب
 وزاد أمره بؤساً أن الموت تخطف ابنته وزوجه وأصحابه ، فابتدأ الفناء
 يدب إليه ، هنالك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون إلى أوطانهم ، وعاد البارودي
 معهم (أشلاء همة في ثياب) كما يقول ، ولكن جاء وفي يمينه سفر الخلود ،
 وهو ذلك الشعر العلوي وكان ذلك في سنة ١٩٠٠ م ، واستقبل مصر بقصيدته
 أبابل مرأى العين أم هذه مصر ؟ فإني أرى فيها عيوناً هي السحر
 واستقبلته مصر بكل حفاوة وترحاب ، وكانت عودته عيداً للأدب الرفيع ،
 وصارت داره ندوة يؤمها الأدباء والشعراء القدامى والشادون فيه ، يأنسون إليه
 ويأنس إليهم ، وعكف على تنقيح ديوانه ، وحذف ما لا يروق له منه ، وتدوين
 مختاراته وترتيبها ، وأخيراً فاضت روحه إلى بارئها ، وأسلم هذه الشعلة المتوهجة
 في ديسمبر ١٩٠٤ م شوال ١٣٢٢ هـ إلى الأجيال من بعده يتلقفها كابر عن كابر
 وكلهم يذكرون فضله ، ويمجدون ذكره ، لأنه أورثهم شعلة خالدة .

أخبرني

شب معقداً بحسبه ونسبه ، في عصر ساد فيه جنسه ، وتبوا أبناء جلده
 من الجرا كسة والأتراك أسمى مناصب الدولة ، ثم تزود من فنون الجنديّة ،
 ونشأ نشأة عسكرية فكان لهذه النشأة ، وهذا الحسب تأثير عميق في أخلاق
 البارودي ، ولكن الزمن قد حور في هذه الأخلاق ؛ ومن يدرس شعره دراسة
 فاحص مدقق يستطيع أن يتبين هذا التغيير أو التحوير في أخلاق البارودي

مجاراة لزمته وعادات الناس الذين يخاطبهم إن طوعاً وإن كرهاً . بيد أن كثيراً من صفات الشباب التي اعتد بها لازمتها حتى مماته لم تتبدل ولم تتأثر بعوامل الزمن ، ومحن الناس .

كان البارودي في صباه متوثب العزيمة ، واسم الآمال ، عزوفاً عن الملاهي يود أن يعتلى ذروة المجد قفزاً :

لهج بالحروب لا يألف الخف ض ولا يصحب الفتاة الرداحا
مسعر للوغى أخو غدوات تجعل الأرض مائماً وصياحا
لا يرى عاتباً على شيم الدهر ر ، ولا عابثاً ولا مزاحا
يفعل الفعلة التي تبهر النا س ، وترنو لها العيون طاحا
وظلت نعمة المجد تتردد على أسلة لسانه أنشودة حلوة ، وكان في نفسه شيء يود تحقيقه ، ويرجو نيله ، ويسعى له سعياً حثيثاً ، ولكنه لم يصرح به
وبى ظلاً لم يبلغ الماء ريه وفي النفس أمر ليس يدركه الجهد
أود ، وما ود امرئ نافعاً له وإن كان ذا عقل ، إذا لم يكن جد
وما بى من فقر لدنيا وإنما طلاب العلا مجد ، وإن كان لى مجد
وما أن عضته الحوادث عضه دامية ، ونكاه الزمان نكاة قاسية ، حتى تطامن في مطلبه وقال :

وكن وسطاً ، لامشرئباً إلى السها ولا قانعاً يبغي التزلف بالصغر
وقال :

يود الفتى ما لا يكون طماعه ولم يدر أن الدهر بالناس قلب
ولو علم الإنسان ما فيه نفعه لأبصر ما يأتي وما يتجنب
ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا ، وأمر الغيب سر محجب

نظن بأننا قادرون وإننا نقاد كما قيد الجنيب ونصحب
 وإذا كان في صباه قد عزف عن النساء جداً منه وتزمتاً ، وأبى اللهو والمجانة
 حتى لا ينصرف عن طلب العلا ، فإن الشباب والجاه والمال قد غيرت نظرته إلى
 الحياة ، وبات ذلك الفارس الذي يدل بشبابه وجاهه على الحسان ، ويجرى
 وراء اللهو ، ويعب الخمر عباً ، ويتصيد مجالس الأُنس والسمر . يقول :

ودعني من ذكر الوقار فإنني على سرف من بغضة الحماء
 فما العيش إلا ساعة سوف تنقضي وذا الدهر فيما موع برماء
 ويقول :

لو حذر المرء كل لائمة لضاع منه الصواب والرشد
 ولو أصحنا أكل منتقد فكل شيء في الدهر منتقد
 واله بما شئت قبل منادمة يكثر فيها العناء والعكد
 فليس بعد الشباب مقترح ولا وراء المشيب مفتقد
 ومن أي شيء يخشى ؟ . وعلام ينتقده الناس ؟ . ينتقدونه على أنه ممتلئ
 بالحياة ، مستهين بالتقاليد والعادات .

فرحنا بنجر الذيل تيهاً لمنزل به لأخى اللذات واللهو ملعب
 مسارع سكير ، ومربض فاتك ومخدع أكواب به الخمر تسكب
 أما الدين فله في النفس حرمة ولاكن :

إذا ما قضينا واجب الدين حقه فليس علينا في الخلاعة من عذر
 أجل ! لقد صار فارساً مرحاً ينهل من اللذات ويعل

فطوراً لفرسان الصباح مطارد وطوراً لإخوان الصفاء سمير
 ويارب حي قد صبحت بغارة تكاد لها شُمُ الجبال تمور

وليل جمعت اللهو فيه بضادة لها نظرة تسدى الهوى وتنير
 عقلنا به ما ند من كل صبوة وطرنا مع اللذات حيث تطير
 أما أخلاقه الطبيعية فكان كثير الافتخار بها ، يرددها مراراً في شعره ،
 فهو مخلص في صداقته :

واختبرني تجد صديقاً حميماً لم تغـير وداده الأهواء
 صادقاً في الذي يقول وإن ضاقت عليه برحبها الدهناء
 أما الوداد فهو يرهه ، ويعد ذلك من كرم الأصل :
 ليس يرعى حق الوداد ولا يذكر عهداً إلا كريم النصاب
 ولا بد أن يتجلى أثر هذا الوداد القلبي في أعمال الإنسان ، وإلا كان
 وداداً كاذباً

وإن وداد القلب ما لم يكن له دليل على إخلاصه لمريب
 وكان على الهمة يمثل لك في شعره الفروسية والنجدة ، والإباء والآلة فيقول
 إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب فكل زهيد يمسك النفس جابر
 من العار أن يرضى الدنية ماجد ويقبل مكذوب المني وهو صاغر
 إذا كنت تخشى كل شيء من الردى فكل الذي في الكون للنفس ضائر
 ويقول :

ومن تكن العليا همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب
 إذا أنا لم أعط المكارم حقها فلا غرنى خال ، ولا ضمنى أب
 خلقت عيوقاً لا أرى لابن حرة طليّ يداً أغضى لها حين يغضب
 أما جوده فطالما تغنى به في شعره ، وحث الناس على الجود ، ووضع من
 شأن المال والتباهى به فيقول :

فلا تحسبن المال ينفع ربه
وقد يستجيم المال والمجد غائب
ولو أن أسباب السيادة بالغنى
ولم يكن هو لم محمد قراه العشاير
وقد لا يكون المال والمجد حاضر
لكثر رب الفضل بالمال تاجر
ويقول :

وجد بما ملكت كفاك من نشب
فالجود كاللباس يحمى العرض والنسب
لا يقعد البطل الصنديد عن كرم
من جاد بالنفس لم يبتخل بما كسب
وكان يتمدح بصراحته وشجاعته ، فهو لا يسكت عن القبيح وإلا أعد منافقاً
وما دام الإنسان على ثقة من أمره ونفسه حرة وهو شجاع فعلام يغضى على
القذى ، أو لا يصارح الناس بعيوبهم عليهم يصلحونها ؟

أنا لا أقر على القبيح مهابة
إب القرار على القبيح نفاق
قلبي على ثقة ونفسي حرة
تأبى الدنى ، وصارمى ذلاق
فعلام يخشى المرء فرقة روحه
أو ليس عاقبة الحياه فراق ؟
لا خير فى عيش الجبان يحوطه
من جانبيه الذل والإملاق
عابوا على حميتى ونكابتى
والنار ليس يعيها الإحراق
ولكننا نرى البارودى كثيراً ما ينصح بمداراة الناس ، ودفع القسر باللين ،
والغضب بالحلم ، وقد صور جملة من صفاته ومداراته الناس ، ومودته لأصدقائه
ووفائه لهم فى قوله :

ملكى يدي عن كل سوء ومنطقى
فعلت برىء النفس من دنس العذر
وأحسن ظنى بالصدى ور بما
لقت عدوى بالطلاقة والبشر
فأصبحت ماثور الخلال محبباً
إلى الناس مرضى السريرة والجهر
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن
لدوداً ، ولا تدفع يد اللين بالقسر

ولا تحتقر ذا فاقة فلربما
لا تعترف بالذل في طلب الغنى
ودار الذي ترجو وتخشي وداده
ويقول في غير هذا الموضع :

مدارة الرجال أخف وطئاً
يعيش المرء محبوباً إذا ما
على الإنسان من حرب الفساد
نحا في سيرة قصد السداد
ولعل لتجاربه الكثيرة أثراً في إملائه هذا النصيح ، وتحوله من الصراحة إلى
المدارة . وإذا كانت الحياة قد علمته كيف يدارى الناس ، ويكون منهم على حذر ،
فإنها قد علمته كذلك أن المرح والحياة الصاخبة بالذات تورث الأسقام والعلل :
ولقد جريت مع الفواية والصبا جرى الكهيت وللغرام سباق
ولبست هذا الدهر من أطرافه ونزعته وقيصه أخلاق
فإذا الشباب وديعة وإذا الفتى هدى لفاغرة المنون يساق
هذا هو البارودى كما صور نفسه في شعره ، وإذا كان صادقاً في تصويره ،
ولا نحسبه إلا كذلك ، فالأخلاق التي تغنى بها تبعث في النفس الإكبار والإعجاب

مخافة :

أعد البارودى ليكون جندياً ، ولم يعد ليكون أديباً ، بيد أنه حين وجد
نفسه بعد أن تخرج في المدرسة الحربية متعطلاً أبت عليه نفسه الطموح أن
يستمرى حياة اللهو والدعة ، وعكف على كتب الأولين يقرأها بشغف ونهم ،
ولم يقرأ كتاباً من كتب اللغة ، ولكنه قرأ كتب الأدب ، ويقول الشيخ
حسين المرصفي صديقه ومرشده ^(١) « لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية ،

غير أنه لما بلغ سن العقل وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله . فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمحفوظات حسبما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ، وسمعته مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين ، فقلت له في ذلك فقال : هو كذا في قول فلان وأنشد شعراً لبعض العرب ؛ فقلت تلك ضرورة ، وقال علماء العربية إنها غير شاذة ؛ ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ناقدًا شريفها من خسيسها واتفقاً على صوابها وخطئها .

والحق أن أثر القراءة والحفظ ظاهر في شعر البارودي . ومن يطالع على (مختارات البارودي) يشهد بحسن ذوقه ، ودقة اختياره ، وتأنيقه في غذاء عقله ، كما يشهد بكثرة محفوظه ، ولا يعجب بعد هذا حين يري البارودي متمسكاً ناصية اللغة يتصرف فيها تصرف الخبير العليم بأسرارها ، المطبوع على التكلم بها ؛ وأغلب الظن أن مختاراته لم تحو كل ما حفظ من جيد الشعر العربي ؛ لأننا نلمح أثراً للشعر الجاهلي في شعره : من كلمات ، وعبارات ، ومعارضات ، وتشبيهات .

كانت عند البارودي الملكة الكامنة ، والملكة وحدها لا تكفي ، بل لابد لها من عدة تصقلها وتميها ، وتعددها للبروز ناضجة قادرة خالقة . ودراسة البارودي الأدبية قد غدت هذه الملكة غذاء كاملاً ، لا من دواوين الشعراء وحدهم ، بل من كتب الأدب وطرائف القصص ، وأخبار العرب وقبائلهم وشجعانهم وعدائهم وأمثالهم وحكمهم ، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه أديب . والأدلة على

هذه المعرفة متوفرة في ديوانه (١)

✕ كانت إذاً قراءة كتب الأدب والتاريخ وحفظ الشعر المنتقى الجيد هي عماد ثقافته الأدبية ✕ على أن البارودي قد اطلع على آداب غير الآداب العربية ، فقد مر بنا أنه حينما ذهب إلى الآستانة وهو في شبابه ، والتحق بوزارة الخارجية عكف على دراسة التركية والفارسية ، ونظم الشعر بهما كما كان ينظمه بالعربية. أضف إلى هذا ما روى من أنه تعلم الإنجليزية وهو في منفاه ، وترجم بعض آثارها ؛ وهذه اللغات المتعددة لها أثرها ، ولا ريب ، في معانيه وأخيلته ، وتصويره للحوادث .

هذا وقد حفل زمان البارودي بأحداث عظام ، فمن نهضة شاملة ، وخلق لأمة متمدنة ، إلى ثورات وفن وحروب ومعارك ، ونفي وتشريد ، وقد سافر

من مثل قوله :

لك عرض أرق نسجاً من الريح وأوهى من طيلسان (ابن حرب)
وكان ابن حرب أهدى إلى الحمدوني طيلساناً خلقاً . وكان الحمدوني يحفظ قول أبي حمران السلمي في طيلسانه

يا طيلسان أبي حمران قد برمت بك الحياة فما تلتذ بالعمر
في كل يوم له رفا يجده هيات ينفع تجديد مع الكبر
إذا ارتداه لعيد أو لجمعه تنكب الناس لا يبلى من النظر
فاحتذي الحمدوني حذو أبي حمران ، وقال في وصف طيلسان ما يقرب من مائتي مقطوعة من مثل قوله :

يا ابن حرب كسوتني طيلساناً مل من صحة الزمان وصدا
طال ترداده إلى الرفو حتى لو بعثناه وحده لتهدى
ومما يدل كذلك على سعة اطلاع البارودي قوله :

إن شوقي إليه أسرع شأواً من «سليك» والوصل في بطاء «فند»
وأمر سليك بن سلكة معروف ، أما فند (بكسر الفاء) فهو مولى عائشة بنت سعد ابن أبي وقاص ، وكانت قد أرسلته ليأتيها بنار ، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر فتبعهم ، وأقام بها سنة ، ثم قدم فأخذ ناراً وجاء يعدو ، فعرث وتبدد الجمر فقال : « تعست العجلة » . فقيل : « أبطأ من فند » .

البارودى إلى الآستانة مراراً ، وشهد حرب (كريت) وحرب (روسيا) ورأى
 عالماً لم يعرفه من قبل ، ومناظر جديدة ، فتأثر بكل ذلك وانفعلت نفسه له ،
 وهاجت هذه الأحداث شاعريته فانطلق لسانه يردد خواطره وأحاسيسه فكانت
 هذا الشعر الخالد .

وإذا أضيف إلى هذه الموهبة العظيمة ، والدراسة الواسعة ، والتجارب
 الحافلة وراثية في قول الشعر سجلها البارودى بقوله :

أنا في الشعر عريق لم أرته عن كلاله

كان إبراهيم خالى فيه مشهور المقالة

زالت دهشتنا حين نرى البارودى قد كملت عدته ، وهياته الأيام ليبعث
 الشعر من رقوته ، وينهض به هذه النهضة السامية .

شعره :

يقول البارودى في مقدمة ديوانه : « الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في
 سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بالألأها نوراً يتصل
 خيطه بأصلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدى
 بدليلها السالك . وخير الكلام ما اثقلت أفاضله واثقلت معانيه ، وكان قريب
 المأخذ ، بعيد المرمى ، سليماً من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التسف ،
 غنياً عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظاً ،
 وكان كزيم الشمايل ، طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس
 ولولم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام
 وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها لذى
 رغبة مسرح ، وارتبأ الصهوة التى ليس دونها لذى همه مطمح »

✱ وتعريف البارودى للشعر غامض ؛ لأنه لفته في ثوب كثيف مزخرف بالمجازات والاستعارات ، ولم يحدده تحديداً علمياً . وهو يعنى أنه خطرة ذهنية ينفعل لها الفؤاد ، فيتحرك اللسان معبراً عن خلجاته . والخطرة الذهنية تأتي مثلاً من نظرة إلى شئ جميل ، أو شئ يبعث الرثاء والأسى ، وقد تكون خطرة ذهنية مجردة عن الأثر الخارجى . وهذا التعريف يتمشى مع مذهب العرب في الشعر ، وهو أنه (لمعة خيالية) تومض إيماضاً ، فتأني هذه الخطرات الخيالية غير متصلة أو مرتبط بعضها ببعض في حلقة متماسكة ، أو قصة محبوك الأطراف أو خيال ممتد طويل في ملحمة من الملاحم أو مسرحية من المسرحيات تتتابع حوادثها ، وإنما هو ومضات تتألق في أبيات وقصيدة لا تربطها وحدة فكرية .

والشعر الجيد في رأى البارودى « ما كان قريب المأخذ سليماً من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة » ، وهذه صفة الشعر الغنائى ، وهى سمة الشعر العربى غالباً ، ليس فيه عمق المعنى والتوغل في الخيالات ، أو تعقيد الفكرة ، وحشد القضايا المنطقية ، والفكر المجرد عن الشعور والإحساس ، كما نرى ذلك عند أبى تمام والمتنبى أحياناً ، وعند أبى العلاء كثيراً ، وكما نراه مذهباً من مذاهب بعض شعراء العصر الحاضر . والشعر ليس فلسفة ولا منطقاً ، وقد لا يحتوى البيت كبير معنى ، وإنما تطرب له النفوس وتهتز عجباً ، وذلك لأن الشعر غناء القلوب ، وليس مهارة العقول . وهذا ما جعل النقاد قديماً ينعتون البحترى بأنه الشاعر ، وأن المتنبى وأبا تمام حكيان ؛ لأن البحترى لم يكن يتكلف في شعره الفوص على المعانى وابتكارها ولا يستعمل المنطق والفلسفة ، بل كان يحذو حذو شعراء الجاهلية والصدر الأول في قرب معانيه وانسجام ألفاظه بعضها مع بعض وهو القائل رداً على من عاب عليه بعده

عن ثقافة عصره ، وعدم أخذه بشيء من الحكمة والمنطق ، وهو يمثل نظرة العرب إلى الشعر :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه
لم يكن ذو القروح يلهج بالمدح طق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولات خطبه

✚ ويرى البارودي أن وظيفة الشعر : « تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق » ، وقد ردد هذه المعاني في شعره ، بيد أن الشعر قد لا يؤدي وظيفة ما إلا التعبير عن شعور الشاعر ؛ وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مستفيض نقرر فيه نظرة العرب إلى وظيفة الشعر بخاصة والأدب عامة ونظرة الغربيين إلى الشعر ومذاهبهم فيه ، وهل للأدب وظيفة أو هو التعبير لمجرد التعبير ، أو الفن للفن كما يقولون . ومهما يكن من أمر فإن البارودي لم يفتن إلى كل أغراض الشعر وما يمكن أن يستخدم فيه ، وما قرره في مقدمته من تعريف للشعر ، ووظيفته يعبر عن مذهبه .

والبارودي مطبوع على قول الشعر ، لا يفتزعه انتزاعاً ويتعسف في نظمه بل يتدفق على لسانه تدفقاً ، وتشعر وأنت تقرأه أنه يجري في رفق وهودة وابن غير قلق أو مضطرب أو متكلف . وقد كان البارودي يدرك هذه المزية في شعره ويقول :

✚ أقول بطبع لست أحتاج بعده إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر
✚ إذا جاش طبعي فاض بالدر منطقي ولا عجب فالدر ينشأ في البحر
وعلى الرغم من سليقته المواتية ، وحافظته الواعية التي تمدد بمخزون الآداب

ألفاظاً منمقة ، ومعاني سامية ، فإن البارودي كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب
وصقل ، وجهده متصل : وتحسين مستمر ، وأن الطبع وحده لا يكفي : ولذلك
كان يتعهد شعره بالتهذيب والرعاية ، فقد روى أنه رتب ديوانه بعد عودته من
المنفى ، وأعاد النظر فيما قاله من قصائد ، وحذف الأبيات التي لم ترقه ، حتى
لا يخلف للأجيال المقبلة إلا الشعر المصقول لفظاً ومعنى :

لم تبن قافية فيه على خلل كلا ! ولم تختلف في وصفها الجمل
فلا سناد ولا حشو ولا قلق ولا سقوط ولا سهو ولا علل
لا تنكر الكاعب الحسناء منطقته ولا يعاد على قوم فيبتذل
وكان يهتف بشعره قبل أن يخرجه للناس ، ويصفى إليه ليقبين ما فيه من
عيوب في الموسيقى وعدم انسجام الألفاظ بعضها مع بعض ، والخلل المعنوي ،
والقافية القلقة المضطربة ، والحشو ، وغير ذلك من عيوب الشعر ، ويقول :
واهتف به من قبل تسريحه فإلهم منسوب إلى الراعي (١)
فجاء والحق يقال — شعراً يأخذ بمجامع القلوب من حيث موسيقاه ،
وتماسك أبياته وقوافيه ، وانسجام ألفاظه ، وانتقاؤها انتقاء خبير ملهم :
فألقى إليه السمع ينبئك أنه هو الشعر لا ما يدعى الملاء الغمر
يزيد على الإنشاد حسناً كأنني نقشت به سحراً ، وليس به سحر
كان البارودي يتخير الألفاظ المناسبة للمعاني التي يريد أن يبرق ويلطف حين

(١) يقول الشيخ حسين المرصفي في هذا : « ونبه بقوله : واهتف به من قبل تسريحه
على أنه لا ينبغي أن يكتب الشاعر بالنظرة الأولى فللنفس خداع وربما تنبهت بعد أن غفلت ،
واستبجحت ما استحسننت » ولذلك يقول الأول :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تبلغ قبل في تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وسواساً تهذي بها

يقتضى المقام الرقة واللفظ كأن يتغزل أو يعتب ، أو يصف منظراً جميلاً أو مجلس
 أنس وسمر ، ويجزل شعره ويجلجل لفظه ، ويشدد أسرّه حين ينشد في الحماسة ،
 والفخر والمدح ، وحين يصف البحر الهائج ، والريح الزفوف والحرب الضروس
 إذ اشتد أورى زنده الحرب لفظه وإن رق أزرى بالعقود فريده
 إذا ما تلاه منشد في مقامة كفى القوم ترجيع الغناء نشيده
 فجاء شعره مما يلذ للإنسان حقاً أن ينشده بصوت مرتفع ، يترنم به ليطرب
 ويتأمل في نغمه وموسيقاه فيلتذ ويعجب ، فلا بدع أن قال :

ولى كل ملساء المتون غريبة إذا نشدت أفضت لذكر بنى سعد^(١)
 أخف على الأسماع من نغم الحدا وألطف عند النفس من زمن الورد
 كان البارودي يعلم أنه سيخلد بشعره لا بحسبه ونسبه ، وإذا كان قد
 أخفق في بلوغ مناه وتحقيق آماله في هذه الدنيا ، فإنه أدرك الغاية من السعى
 في الحياة بالعمل الصالح والمجد المؤثل ، ألا وهى الخلود بعد الموت وترديد اسمه
 عطراً على كل لسان ، وفي ذلك يقول فى شعره :

سببق به ذكرى على الدهر خالداً وذكر الفتى بعد المات خلوده
 ويقول :

سببى كنى بالشعر من لم يلاقنى وذكر الفتى بعد المات من العمر
 هذا وفى شعر البارودي هنات ، وعليه مأخذ قليلة سنذكرها فى موضعها
 من هذا الفصل ، بيد أنها لا تترى به ولا تغض من شأنه ، وحسبه أنه سما

(١) بنو سعد بطن من هوازن ، ومنهم حليلة السعدية مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم ،
 وكان بنو سعد من أفصح العرب ، ولذلك أرسل رسول الله إليهم كي ينشأ على الفصاحة
 واللسن ، ويريد البارودي أن شعره يذكر الناس بأفصح العرب .

بالشعر العربي إلى الذروة ، وأنه حاق في السماء التي جاب آفاقها ، من قبل ، بشار
وأبو نواس والبحترى وأبو تمام والمتنبى وأبو فراس وأضرابهم بعد أن وصل
الشعر العربي قبيل عهده إلى الحضيض وكاد يلفظ أنفاسه الواهية .

والآن علينا أن نتعرف على هذا الشعر الذي مدحه وافتخر به ، وصقله
وهذبه ، لنرى أحق هو في الثناء عليه ، أم هو غرور شاعر زين له خياله الباطل
حقاً ، والسيئ . حسناً ؟ ولنرى القديم والجديد في شعره ، ومنزلته في موكب
الأدب العربي ، وهل كان صدى للشعراء الذين عارضهم وجاراهم في مضمارهم
أو أنه استقل وابتكر وخرج على المألوف ، وتكونت له شخصية يذكرونها
التاريخ غير معتمدة على سواها ؟ وهل هي شخصية قيّنة هزيلة ، أو شخصية
قوية فارعة ذات مزايا واضحة ؟ .

١ - القديم في شعره :

١ - لم يجدد البارودي في أغراض الشعر التي عرفها شعراء العصر العباسي
فهو يمدح ، ويصف ، ويهجو ، ويرثي ، ويعتب ، ويفتخر . . . الخ ما هنالك
من أغراض معروفة مألوفة ، وياليتهم وقف عند هذا ؛ فقد تكون الأغراض
قديمة والمعاني جديدة . ولكنه حاكى القدماء في أسلوبهم كما حاكهم في أغراضهم
وقد بلغ به التقليد حداً نسي معه أنه في مصر وأنه بعيد عن نجد ورباها ووديانها ✓
وآرامها وخائلها ، فقال :

ياسعد قل لي فأنت أدري متى رعان العقيق تبدو (١)

(١) العقيق . الوادي ، وكل مسيل شقه ماء السيل ، ومواقع بالمدينة والطائف واليمامة
ونجد . والمقصود هنا عقيق نجد ، والرعان جمع رعن « بفتح فسكون » وهو أنف يتقدم الجبل

أشتاق نَجْدًا وساكنيه وأين منى الغداة نجد ؟
وقال :

أين ليالينا بوادى الغضا ذاك عهد ليمته ما انقضى ^(١)
كنت به من عيشتي راضياً حتى إذا ولى عدمت الرضا
أيام لهو وصباحاً كلماً ذكرتها ضاق على الغضا

٢ — وقد وقف على الأطلال والدمن ، وأتى بشعر جاهلى الروح والمعنى ،
والوجه والزى ، لا يمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة . وهو لم يقله لأنه مقتنع
بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه ، والنهج الذى عليه أن يسلكه ، ولكنه
يريد أن يمتحن شاعريته . وهل فى استطاعته أن يحاكي القدماء حتى فى وقوفهم
على الأطلال والدمن ؟ وليس أمامه أطلال ودمن تهيج شاعريته ، وتثير عبرته
فإذا استطاع أن يقول مثلاً قالوا فهو شاعر فحل ، ولا شك أن هذا النوع من
الشعر خال من العاطفة وفيه كثير من الصنعة والتكلف . استمع إليه يقول :

ألا حى من أسماء رسم المنازل وإن هى لم ترجع بياناً لسائل
خلاء تعفتها الروامس والتقت عليها أهاضيب الغيوم الحوافل
فلا ياً عرفت الدار بعد ترسم أرانى بها ما كان بالأمس شاغلي
غدت وهى مرعى للظباء وطالما غنت وهى مأوى للحسان العقائل
إلى أن يقول :

فياليت أن العهد باق وأننا دوارج فى غفل من العيش حامل
تمر بنا رعيان كل قبيلة فما يمنحونا غير نظرة غافل

(١) الغضا : شجر ، وخشبه من أصلب الخشب جمع غضاة . ووادى الغضا : مكان بنجد

صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهباً بعيداً ولم يسمع لنا بطوائل (١)
 نسير إذا ما القوم ساروا غدية إلى كل بهم راتعات وجامل (٢)
 فأى أطلال ، وأى رسوم رآها البارودى فوقف عندها ؟ . وأين رأى
 الأطباء وهو يعيش في أحضان القاهرة المتمدنة ؟ وأين مرت بهما رعيان القبائل ؟
 وما هذه البهم والجمال السائمة ؟ اللهم إنه التقليد ورياضة القول وإظهار
 المقدرة على النظم في مثل هذه الأغراض ، وعلى هذا النمط كما فعل القدماء .
 ٣ — ونراه في النسيب ووصف المرأة يعتمد إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ،
 فهي تحكي الظبي في كناسه ، والبدر في سمائه ، وهى مهاة ، وألحاظها سيوف
 باترات ، وقدها غصن يتثنى .. الخ هذه القوال الموروثة .

إذا نظرت أو أقبلت ، أو تهلت فويل مهاة الرمل ، والغصن والبدر
 ويقول :

أيها الساهرون حول وسادى لست منكم أو تذكروا لى نجدا
 لا تخوضوا فى غيره من حديث فهو حسبي ، وأى ماء كصدًا (٣)
 ويتفرل :

غصن بان قد أطلع الحسن فيه يمد السجر جلمارا ووردا
 ما هلال السماء ؟ ما الظبي ، ما الور د جنياً ؟ ما الغصن إذ يتهدى
 هو أبهى وجهاً وأقتل ألحا ظاً وأندى خدا ، وأين قدأ
 ويصف المرأة بقوله :

(١) الطوائل : جمع طائلة وهى الوتر والذحل ، والمعنى : لم تقترب لئماً

(٢) البهم : جمع بهمة وهى صغار المعز والضأن ، والجمال : الإبل .

(٣) صدا بالقصر ضرورة من صداء : اسم عين يستعنيها العرب وفى أمثالهم . (ماء ولا كصداء) .

كالورد خدأ ، والبنفسج طرة والغصن قدأ ، والغزالة ملفتا
ويصفها وصفاً مادياً كما كان يفعل القدماء ، كأنها ساعة تباع وتشتري :
خفت معاطفها ، لكن روادفها بمثل ما حملتني في الهوى رجحت
وبلاه من لحظها الفتاك إن نظرت وآه من قدّها العسال إن سنحت
كالبدر إن سـفرت والظبي إن نظرت
والغصن إن خطرت ، والزهر إن نفحت
ويقول :

والوعة القلب من غزلان أخبية تسكاد تسكر من أحداقها الراح
من كل مائسة كالغصن قد جمعت بدائعاً كلها للحسن أوضح
فالعين نرجسة ، والشعر سوسنة والنهد رمانة ، والحد تفاح
٤ — نرى البارودي الذي حاكى فحول الشعراء حتى الجاهليين منهم ،
يقلد شعراء الصنعة ، وعصر الضعف فيؤرخ أحياناً في شعره كما أرخوا وإن كان
قليلاً ما فعل حتى لا يسكاد يذكر ، فمن ذلك قوله يؤرخ عودة (إسماعيل باشا)
خديو مصر من دار الخلافة العلية سنة ١٢٨٩ هـ

رجع الخـديو لمصره وأنت طلائع نصره
وتهللت بـقـدومه فرحاً أسرة عصره
فلتبتهج أوطـانه بحـلـوله في قصره
وليشتهر تاريخـه رجـع الخـديو لمصره

وقال في تهنئة الخديو عباس الثاني بعيد الفطر :

أمولاي دم للعالم رباً تسوسه بحكمة مطبوع على الحلم والباس
ولا زالت الأعياد تجري سعودها عليك وتحظى من علاك بإيناس

فلولاك ما فازت يد القطر بالمنى ولا نشأت روح العدالة في الناس
وهذا لسان الشكر يدعو مؤرخاً حوى العيد أنواع الفخار بعباس

٢٤ ١١٥ ١٢٨ ٩١٢ ١٣٥

١٣١٤ هـ

٥ — واستعمل البارودي المحسنات البديعية أحياناً ، ولا سيما الطباق من

مثل قوله :

يموت قلبي ويحيا حيرة وهدى في عالم الوجد إن صدت وإن جنحت
وقوله :

وبنفسى حلو الشمايل مرال بهجر يحى وصلا ، ويقتل صدا
ما على قومه وإن كنت حراً أن دعتنى له الحبة عبداً

٦ — أما معانيه فكثير منها قديم والقليل فيه جدة . وهو مقلد في المعاني
كما هو مقلد في الشكل ، ولا أستطيع أن أحصى المعاني القديمة لكثرتها
ولكن أدل على نوعها ببعض الأمثلة كقوله في الغزل :

طربت وعادتنى الخيلة والسكر وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر
كأنى مخمور سرت بلسانه معتقة مما يضر بها التجر
صريع هوى يلوى بى الشوق كلما تلاًلأ برق أو سرت ديم غر
إذا مال ميزان النهار رأيتنى على حسرات لا يقاومها صبر
يقول أناس إنه السحر ضالة وما هى إلا نظرة دونها السحر

ويقول مفتخراً فى هذه القصيدة بقومه :

لهم عمد مرفوعة ومعاقل وألوية حمر وأفنية خضر
ونار لها فى كل شرق ومغرب لمدرع الظلاء السنة حمر
ويقول فى القصيدة من الحكمة :

لعمرك ما حى وإن طال سيره يعد طليقاً والمنون له أسر
وما هذه الأيام إلا منازل يحل بها سفر ويتركها سفر
فهذه أغراض ثلاثة فى قصيدة واحدة لم يأت فيها بمجديد من المعنى ؛ ففى
الغزل يقول : إنه استخفه الطرب والشوق على حد قول أبى نواس :

حامـل الهوى تعب يسـتخفه الطرب

إنـ بـكى يحق له . ليس ما بـه لعب

وحاكى الأقدمين فى ذكره البرق والسحب ، فهذه الأشياء كانت مقبولة
فى الشعر القديم لأنها تصف البيئة العربية ، والغيث والبرق كان فيهما حياة
العرب القاطنين بالجزيرة ، فإذا لمع البرق أوهطت السحب هائل الناس وفرحوا ،
وإذا ذكر الحب محبوبته فى ذلك الوقت فكأنه يريد أن يشاركها سرورها ،
أو يشاركه سروره . والسرور من الأشياء التى لا تتم إلا إذا اقسما الإنسان
مع سواه . أما فى بيئة البارودى فليس لهذه الأشياء من التأثير والاهتمام ما يدعو
لذكرها ، بل قد يسبب المطر من المضايقات لأهل القاهرة الذين يعتمدون على
النيل ، ولأهل الريف فى ضرر زرعهم ما يذكرونه بشر ، ولكنه التقليد للقديم
وقوله (على حسرات) يعنى به أنه حين تغيب الشمس تكثر همومه ، وكأنه
يتقلب على حسرات ؛ لأن الليل مصدر الذكريات لفراغ الإنسان من الشواغل
والأعمال ، وقديماً قال النابغة :

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ويقول النابغة كذلك :

فبت كأن العائدات فرشن لى هراساً به يعلى فراشى ويقشب

وتشبيه نظرات المحبوبة بالسحر تشبيه قديم معروف .

وفي الفخر نرى البارودي يذكر العمدة المرفوعة وهو في القاهرة ، ويذكر النار على عادات البدو ، ولا سيما في الجاهلية إذ كانوا يشبونها على يفاع من الأرض كي يهتدى بها الساري ، ويلجأ إليها الجائع ويطلب القرى ، ورحم الله حاتم الطائي حين قال لغلامه .

أوقد فإن الليل ليـل قر والريح يا واقـد ريح صر
 عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيقاً فأنت حر
 وقوله في الحكمة إن الإنسان لا يعد طليقاً في حياته وهو في أسر المنون ، مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياء باليد
 وببت طرفة أحسن وأمتن حيث شبه الإنسان بدابة ، وحبلها بيد الموت
 يرخى لها فيه ، وإذا شاء جذبها إليه فانتفضى العمر . وأما أن الأيام منازل ، وأنا فيها على سفر فعني قديم مطروق ، وقد تكرر في الأحاديث النبوية ، وفي أقوال الزهاد والوعاظ .

وهكذا إذا أخذت أي قطعة للبارودي تجده يردد فيها كثيراً من المعاني القديمة المعروفة المشهورة . ولا يعني هذا أن البارودي لم يجدد في شعره وفي معانيه ، بل له تجديد ملحوظ في شعره سنذكره فيما بعد .

وإذا كان البارودي قد طرق أبواب الشعر العربي الموروثة ، ولم يجدد في أغراضه ، فإنه كان واضح الشخصية في كثير من هذه الموضوعات المطروقة فتراه يمثل نفسه ، وزمنه ، وبيئته في قصائد شتى . فالبارودي ذاق حلو الزمان ومره ، وارتفع في مناصب الدولة حتى رئاسة الوزارة ، ثم شرد ونفى ، وقضى زمناً طويلاً يتحرق فيه شوقاً إلى وطنه وأهله ، ويتحسر على أيامه الخاليات ،

ويندب فيه حظه ، وينمى على الأصدقاء الكاذبين خياناتهم وغدرهم ، ويذم الحياة ويكيل لها السباب . وهو في كل ذلك صادق الشعور يصف مابه على طبيعته فبرزت شخصيته واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

وإذا كان البارودي قد قلد القدماء وحاكاهم في أغراضهم وطريقة عرضهم للموضوعات وفي أسلوبهم ، وفي معانيهم ، فإن له مع ذلك تجديداً ملموساً في شعره من حيث التعبير عن شعوره وعن مشاهداته ؛ وله معان جديدة ، وصور لم يسبق إليها ، وإذا أردنا أن ننصفه فعلياً دراسة الجديد في شعره حتى يكون حكمنا عليه عادلاً ، ونستطيع أن نضعه في منزلته الجديرة به في موكب التاريخ والأدب والنهضة .

ب - الجبريد في شعره :

١ - الوصف

ولا تعجب إذا عددنا الوصف جديداً عند البارودي ، وإن كان قديماً منذ أن كان الشعر العربي ، وما من شاعر إلا له في الوصف أبيات وقصائد . ولكن الجديد في وصف البارودي أنه أفرد له قصائد بعينها ، ولم يأت به عرضاً في ثنايا القصائد . كان يصف لمجرد الوصف ؛ ولأن شاعريته ، وحواسه المرفهة ، وتذوقه الحاد للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر ، وإلى وصف مشاهداته لا كما هي في الطبيعة ، ولكن يخرجها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره . كان البارودي مفتوناً بالطبيعة ، يرى شعرها لا ينضب منه معين الإلهام ، ويرى في كل سطر من هذا الشعر آية من آيات الجمال عليه أن يترنم بها ، ويظهر محاسنها للأجيال من بعده ، ويترجمها للناس حتى يعجبوا بها كما أعجب . وديوان البارودي غاص بالموصوفات وبقصائد الوصف . وما دام الشاعر قد انصرف عن

المديح وعن أن يكون شعره مظهرًا للتفاق والخذاع والاستجداء ، والوقوف
 بأبواب الملوك والأمراء ، فقد أصبح شعره طوع يده يسجل به مشاعره الخاصة.
 وشعراء العربية الوصافون — أي الذين أكثروا من الوصف — قليلون ؛ لأن
 المديح وللأسف قد ألهم عن قراءة محاسن الكون ، ويعد البارودي من أكثر
 شعراء العربية وصفًا ، بل يعد في الطليعة . وشعره الوصفي يفخر به الشعر العربي
 ويستطيع أن يباهى به خير ما عند الغرب من شعر وصفي ، وموصوفات البارودي
 كما ذكرنا عديدة ومنوعة ، فمنها :

١ — مظاهر الطبيعة فيصف الليلة العاصفة المطيرة ويجعلك تحس معه
 هزيم الرعد ، وعزف الريح ، وتواصل المطر وشدته ، وترى سوداها ووحشتها ،
 ويصف الليلة الحالية بالنجوم فتلمس جمالها ، ويصف السحاب الممطر والبرق
 والرعد وأثرها في الإنسان والأرض ، ويصف البحر الهائج الغاضب ، والريح
 الزفوف تعلو بالموج فتجيله جبلا سامقة الذرى ، وتنخفض به إلى وهاد عميقة
 الأغوار . ويصف الجبل والغابة وغير ذلك .

وهو في وصف الطبيعة مصور ماهر ، بل هو مصور دقيق بارع في كل
 ما يتناول من وصف ، ولكنه في وصف الطبيعة قد يغرب في لفظه ، ويأتي
 بتشبيهات جديدة منتزعة من بيئته أحيانا ، وأحيانا يردد معاني القدماء وأخيلتهم .
 استمع إليه يصف ليلة مطيرة حتى مطلع الفجر :

وليلة ذات تهتان وأندية كأنما البرق فيها صارم سَلِطَ^(١)

لف الغمام أقاص ————— بها يبرده وانهل في حجرتها وابل سبط^(٢)

(١) أندية : ج ندى وهو البلل ، وسلط لا تنوء في نصله

(٢) حجرتها : ناحيتها . وسبط : شديد متدارك

بهماء لا يهتدى السارى بكوكبها
 يكاد يجهل فيها القوم أمرهم
 يطغى بها البرق أحياناً فيزجره
 كأنما البرق سوط والحيا نجب
 كأنه صارم يرفض من علق
 مزقت جلبابها بالخليل طالعة
 وقد تخلل خيط النور ظلمتها
 كأنها وصديع الفجر يصدعها
 ومربع النسيم الفجر هينمة
 كأنما القطر در في جوانبه
 وللنسيم خلال النبت غلغلة
 والريح تمحو سطوراً ثم تثبتها
 وللسماء خيوط غير واهية
 كأنها وأكف الريح تضربها

من الغمام ولا يبدو بها نمط (١)
 لولا سهيل جياذ الخيل واللفظ
 مخزنظم زجل من رعدا حَظ (٢)
 يلوح في جسمها من مسه حَبَط (٣)
 بالأفق يغمد أحياناً ويختلط (٤)
 مثل الحائم في أجياها العُلط (٥)
 كما تخلل شعر اللمة الوخط
 من جانب أدم قد مسه نبط (٦)
 فيه وللاطير في أرجائه لفظ
 يكاد من صدف الأزهار يلتقط
 كما تغفل وسط اللمة المشط
 في النهر لا صحة فيها ولا غلط
 تكاد تجمع بالأيدى فترتبط
 سلوك عقد تواهت فهي تنخرط

- (١) النمط : الطريق (٢) مخزنظم : غضبان وهو اسم فاعل من اخرنظم
 الرجل أى رفع أنفه واستكبر وغضب ، وزجل : على الصوت ، ومن رعدا : بيان لرجل
 وخط : غضوب نائر .
- (٣) الحيا : المطر ، والنجب : كرام الخيل والإبل وعناقها وجياها المفرد نجيب ، من
 مسه : أى بسبب مسه وأذاه والضمير يعود على السوط . والحبط : آثار السياط بالبدن ،
 أو الآثار الوارمة التى لم تشقق
- (٤) كأنه : أى البرق ، يرفض : يسيل ويقطر ، والعلق الدم . يختلط : يسال ويجرد
 من غمده (٥) العلط ، ككتب جم علاط ككتاب وهو من الحمامة طوقها في
 في صفحتي عنقها بسواد .
- (٦) النبط : بياض في بطن الفرس ، وصديع الفجر : أى طلوعه لأنه يصدع الليلة
 أى يشقها

وفي هذه القطعة أبيات يسمو فيها البارودي بإحساسه وبراعة تصويره ،
وإدراكه للأمور الدقيقة ، كوصفه النسيم وهو يتخلل النبات ، أو وصفه خيوط
المطر وهي نازلة .

وقال يصف النجوم :

أرعى الكواكب في السماء كأن لي عند النجوم رهينة لم تدفع
زُهر تألق بالفضاء ، كأنها حبيب تردد في غدير مقعر
وكانها حول الجمر حنائم بيض عكفن على جوانب مشرع
وترى الثريا في السماء كأنها حلقات قرط بالجمان مرصع
بيضاء ناصعة كبيض نعامة في جوف أدنى بأرض بلقع
وكانها — أكر توقد نورها بالكهرباء في سماء مصنع
والليل مرهوب الحمية قائم في مَسْـجِدِه كالراهب المتلفع
متوشح بالنيرات كباسل من نسل حام ، بالاجين مدرع
حسب النجوم تخلفت عن أمره فوحى لهن من الهلال بأصبع
٢ — ويصف مناظر الريف ، ويصورها تصويراً بديعاً ، فيصف القطن

والسفن في النيل ، والساقية ، والمزروعات ، والطيور وهي تحوم على صفحة النهر
وحركات الطيور ، والنخلة وهي تنتقل من زهرة لزهرة . كل هذا في حساسية
غريبة ، وشغف بالطبيعة وحب لها كأنه يعيش معها .

فمن قوله يصف القطن :

والقطن بين ملوز ومنور كالغداة ازدانت بأنواع الحلى
فكأن عاقده كرات زمرد وكأن زاهره كواكب في الروا^(١)

(١) عاقده ما انعقد من اللوز قبل أن يتفتح .

دبت به روح الحياة فلو وهت عنه القيود من الجداول قد مشى
فأصوله الدكفاء تسبح في الثرى وفروعه الخضراء تلعب في الهواء
لم يسرفيه العقل مذهب فكرة محدودة إلا تراجع بالمنى
واسمعه يصف الريف المصرى إبان الربيع فى أرجوزه :

عم الحيا واستنت الجداول وفاضت الغدران والمناهل
وازينت بنورها الخائل وغردت فى أيكها البلابل
وشمل البقاع خير شامل فصفحة الأرض نبات خائل
وجبهة الجو غمام حائل وبين هذين نسيم جائل
تندى به الأسحار والأصائل كأنما النبات بحر هائل
وليس إلا الأكمات ساحل وشامخ الدوح سفين جافل
معتدل طوراً وطموراً مائل تهفو به الجنوب والشمال
والباسقات الشمخ الحوامل مشمورة عن ساقها الذلاذل (١)
ملوية فى جيدها العشا كل معقودة فى رأسها الفلائل (٢)
للبرس فيها قافى وناصل مخضب كأنه الأنامل
كأنه من ذهب قنادل من العراجين لها سلاسل
المنجنون بينها أزامل تخالها محزونة تسائل (٣)
لها دموع ذرف هوامل كأنها أم بنين ثاكل
فى جيدها من ضفرها حبال من القواويس لها جلال

(١) الذلاذل : الأطراف (٢) العشا كل : ج عشا كول وهو فى النخل بمنزلة العقود فى الكرم والفلائل : ج فليله وهى الشعر المجتمع :
(٣) المنجنون : دولاب السانية التى يسقى بها الزرع : وأزامل : ج أزمل (كجعفر)
وهو الصوت المختلط .

تدور كالشهب لها منازل فصاعد ودافق ونازل
ففي هذه القصيدة يصور مناظر الريف تصويراً سريعاً دون تعمق أو طويل
وقوف على المشاهدات ، ومعانيه قريبة ، وتشبيهاته واضحة غير متكلفة ، وخياله
دان لا إغراب فيه ولا شرود .

ومما يدل على دقة حسه ، وتدقق شعوره ، وأنه مصور بارع ، وأن الأمور
التي لا تسترعى نظر جمهرة الناس يجد فيها ما يثير عاطفته ، ويحرك شاعريته
قوله يصف طائراً تحرك فأيقظه من سنته ، وتتبع حركانه بدقة ، فأعطى صورة
واضحة عنه :

ونبأة أطلقت عيني من سنة	كانت حباله طيف زارني سحرا
فقممت أسأل عيني رجع ما سمعت	أذني ، فقالت : أبلغ الخبرا
ثم اشأبت ، فالفت طائراً حذراً	على قضيب يدير السمع والبصرا
مستوفزاً يتنزي فوق أيكته	تثرى القلب طال العهد فادكرا (١)
لا تستقر له ساق على قدم	فكلما هدأت أنفاسه نفرا
يهفو به الغصن أحياناً ويرفعه	دحا الصوالج في الديعومة الأكر (٢)
ما باله وهو في أمن وعافية	لا يبعث الطرف إلا خائفاً حذراً
إذا علا بات في خضراء ناعمة	وإن هوى ورد الغدران أو نقرا

فأنت تراه يتتبع الطائر في أقل حركة له ، ويحاول أن يستشف دخيلة قلبه الصغير
ليعرف سر فزعه ، وترقبه ، ويتعجب لهذه الحياة القلقة المضطربة مع أن ظاهر
الأمر ينبئ أنه في نعمة وعافية . وهذه أعمري خطرات شاعر مرهف
الأحاساس جيش العاطفة .

(١) مستوفزاً : غير مطمئن قد تهيأ للوثوب ، ويتنزي . يثب .

(٢) دحا اللاعب الكرة دفعها ورماها بيده ، والديعومة : الأرض المستوية .

٣ — وإذا أردت أن تعرف متى يخلق البارودي في الوصف ، فاقراً أوصافه في الأشخاص إنه لا يقل عن أمهر مصور ، بل أين منه المصور ؟ وهو لا يستطيع أن يبرز على (لوحته) دخائل النفوس ، وأسرار القلوب والحركات والأشارات ، وكذلك أوصافه للمعارك وميادين القتال وأدواته ، وإذا كان وصف الحروب من الموضوعات القديمة التي تناولها قبله الشعراء ، فإن تصوير الأشخاص من الموضوعات النادرة التي مهر فيها قلة من فحول الشعر العربي كابن الرومي ، استمعه يصف البلغار في بلادهم حين ذهب مع الحملة المصرية لحرب الروس :

بـلاد بها ما بالجـحيم ، وإنما	مكان اللظى ثلج بها وجليـد
تجمعت البلغار والروم بينها	وزاحمها التاتار ، فهي حُشود
إذا راطنوا بعضاً سمعت لصوتهم	هديداً تكاد الأرض منه تميد
قباح النواصي والوجوه كأنهم	لغير أبي هذا الأنام جنود
سواسية ، ليسوا بنسل قبيلة	فتعرف آباء لهم وجـدود
لهم صور ليست وجوهاً وإنما	تناط إليها أعين وخدود
يخورون حولي كالعجول ، وبعضهم	يهجن لحن القول حين يجيد

فهو يصف رطانتهم وعجمة ألسنتهم ، وقبح وجوههم ورءوسهم حتى كأنهم ليسوا من البشر ، وأن وجوههم متشابهة لا تستطيع التفريق بينها ، بل لا يريد أن يعترف بأن لهم وجوهاً وإنما هي صور وضعت فيها أعين وخدود ، ويخورون حوله كالعجول ، وإذا حاول بعضهم النطق بالعربية أفسدها .

ومن المقطوعات اللطيفة في وصف الأشخاص قول البارودي يذم شخصاً ويصفه بالثمن والجشع :

وصاحب لا كان من صاحب أخلاقه كالمعدة الفاسدة

أقبح ما في الناس من خصلة
لو أنه صور من طبعه
يصلح للصنع لكيلا يرى
يغلبه الضعف ولكنه
يراقب الصحن على غفلة
كأنما أظفوره منجل
كأنما البطة في حلقه
تسمع للبلع نقيقاً كما
كأنما أنفاسه حرجف
ويبين جنبه لظى واقده

٤ — وقد وصف البارودي كثيراً من الأشياء كالسجن ، والقطار ،
والخمر وغير ذلك ، وربما كان وصفه للقطار أول وصف من نوعه في اللغة
العربية ؛ لأن السكة الحديدية دخلت مصر في أخريات أيام سعيد ، ولم يفتن
شعراء عصره له ، أو لم يهتموا بوصفه ، ويقول فيه وإن لم يصفه بدقة :

ولقد علوت سراة أدهم لو جرى
يطوى الفلاطى السجل ويهتدى
يجرى على عجل فلا يشكو الوجى
لا الوخذ منه ، ولا الرسيم ، ولا يرى
ويقول في وصف السجن :

فسواد الليل ما إن ينقضى
لا أنيس يسمع الشكوى ولا
وبياض الصبح ما إن ينتظر
خبر يأتي ، ولا طيف يمر

(١) الوخذ : سعة الخطو ، والرسيم : سير اللابل قريب من الهرولة دون الجرى ،
والعرضه : نوع من السير يمتاز بالخفة والسرعة والنشاط . والهيدي : مشى للخليل فيه جد :

بين حيطان وباب موصلد كلما حركه السيجان صر
 يتمشى دونه حتى إذا لحقته نباءة منى استقر
 كلما درت لأقضى حاجة قالت الظلمة : مهلا ، لا تدر
 أنقرى الشيء أبغيه فلا أجدر الشيء ، ولا نفسى تقر
 ظلمة ما إن بها من كوكب غير أنفاس ترمى بالشرر
 وهذه القطعة فيها أبيات من الشعر الواقعى التى تغنى بتصويرها الحقيقة
 العارية عن أى خيال مهما عمق وملح .

هـ — هذا وقد وصف البارودى بعض آثار مصر القديمة ، وفتح بذلك
 الطريق لشوقى وغيره ، وهو وإن لم يتعمق فى وصفه ، ويستعرض التاريخ الجيد
 كما فعل شوقى من بعده إلا أنه برهن على أنه شاعر يرى الجمال أو العظمة فيما
 حوله من مناظر ، وأن شاعريته حساسة مرهفة ؛ لأن مثل هذا الوصف لا تحفزه
 إليه رغبة فى صلة أو تقرب من أمير ، وإنما هو إشباع لرغبة فنية تجيش فى
 صدره ، وتحاول شاعريته الإفصاح عنها . ولذلك عد باب الوصف من خير
 أبواب الشعر ؛ لأنه فضلا عن نشره ما طوى من آيات الجمال ، أو ما خفى على
 عيون الناس منها فإنه يدل على نفسية الشاعر ، وقدرته وخياله ، وهو خير محك
 للتمييز بين الشعراء .

(ب) الشعر السيامى :

ومن الأغراض القديمة التى خلع عليها البارودى لباس الجدة ، وظهرت
 فيها شخصيته واضحة مجلية ، تفصح عن نفسه الأبية المتمردة على الظلم
 والطغيان ، المحبة للعدالة والشورى والمساواة بين الناس ، ذلك الشعر السيامى

الوطني الذي دفعه إلى مركز الصدارة بين أبناء شعبه ، وجعل منه زعيماً محبوباً ،
والذي ألقى به في غيابة السجن ، ورمى به بعيداً عن وطنه ، ويا ليتته كف عن
مثل هذا الشعر وهو يتجرع غصص النفي والتشريد والمرض ، بل زفر زفرات
حارة كادت تحرق الطاغين المعتدين بشواظها الملتهب ، ولذلك طالت غيبته عن
دياره ، وخاف أولو الأمر من عودته حتي لا يعيدها جزعاً مشبوبة الضرام ؛
ولما هذأت ثأثرته ، وكسرت حدته ، وخفت شرته ، واشتكى ما به من ضعف
وهزال ، ودب إلى جسمه ديب الفناء ، أمنوا جانبه فأعادوه إلى وطنه .

كان البارودي طموحاً ، يعتلج في حنايا صدره أمل كبير يود أن يجدد به مجد
أسلافه ، وقد رزق العقل الذكي ، والفؤاد الأبي ، والعلم والبصيرة ، فلم لا يصل
إلى ما يريد ؟ ولكن ما كل ما يشتهي الإنسان ويأمله يسهل نواله ، وقد
وقفت في سبيل البارودي عقبات شتى ، وظل الأمل يساوره على الرغم من هذه
الصعاب .

ويلاه من حاجة في النفس هام بها قلبي ، وقصر عن إدراكها باعى
أسعى لها وهي منى غير دانية وكيف يبلغ شأوا الكوكب الساعى

ويعترف بهذه العراقيل التي تعترض طريقه ، ولولاها لنال ما تمنى :
وإني أمرؤ لولا العراقيل أذعن ^{العراقيل} لسطوته البدو المغيرة والحضر

وهذا من أصرح الأبيات التي أشار فيها إلى ما يهيم به فؤاده ، وإن كان
قد ساقه في معرض الفخر بالشجاعة واقتحام ميادين القتال . وقد أخفق البارودي
في تحقيق آماله واعتذر عن هذا الأخفاق كما مر بنا .

ويلوح لنا أن البارودي كان بطبعه محباً للحرية ، متمرداً على الظلم ،
شأن كل شجاع شريف . ولعل للورثة ، وللنشأة التي نشأ فيها ، ولقد

غذاها ما حفظه من شعر الحماسة والقوة عند العرب ، وهم أبطال الحرية في فيافهم
الواسعة وقد تغنوا بحروبهم وشجاعتهم وانتصاراتهم وأنفتهم ، وكان شعرهم
سجلاً وافيّاً لمكارم أخلاقهم ، وقد قرأه البارودي وهو بعد شاب غريّر ،
فرسخت هذه الصفات في ذهنه ، وشب مطبوعاً عليها يتمثلها نماذج يحتذيها ،
ويردها في شعره ويود أن يحققها عملاً في الحياة ، ويقول :

لا عيب في سوى حرية ملكك أعنتى عن قبول الذل بالمال
تبعث خطة آبائي فسرت بها على وتيرة آداب وآسال^(١)
ويقول :

دع الذل في الدنيا لمن خاف حتفه فلاموت خير من حياة على أذى
وقد ذكرنا فيما سبق كيف أن البارودي كان من زعماء الثورة ، وأنه كان
يطمح في الانقلاب ، ولكن لما رأى التيار عنيفاً ، وتدخلت فرنسا وإنجلترا ،
أحجم وتردد ونصح لقومه فلم ينتصحو ، ولم يجد بداً من السير في الشوط حتى
الغاية . وللبارودي في إبان الثورة وبعدها شعر ملتهب حمية وحماسة وتمرداً
على الظلم . انصت إليه وهو يحرض المصريين على الثورة ويهيب بهم
ألا يستكينوا للحاكم المستبد ، ويصور لهم نفوسهم العاجزة الضعيفة بقوله .

فيا قوم هبوا إنما العمر فرصة وفي الدهر طرق جمة ومنازع
أصبراً على مس الهوان وأتم عديد الحصى ؟ إني إلى الله راجع
وكيف ترون الذل دار إقامة وذلك فضل الله في الأرض واسع
أرى رؤساً قد أينعت لحصاها فأين ، ولا أين ، السيوف القوطع ؟

(١) آسال : شبه وعلامات يقال فلان يسير على آسال من أيّيه أى على شبه منه
ولا واحد لها .

فكونوا حصيداً خامدين أو افزعوا
أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة
فلم أدر أن الله صور قبلكم
فلا تدعوا هذى القلوب ، فإنها
ويقول معرضاً بالحاكم المستبد :

يآيها الظالم في ملكه
اصنع بنا ما شئت من قسوة

وكان من الداعين إلى نظام الشورى ، وقد مدح توفيقاً لما تولى أريكة
مصر وظن المصريون أنه سيحقق آمالهم الوطنية ويلبى دعوتهم إلى الأخذ
بالشورى ؛ حتى لا يستبد الحكم ، ولا يقعوا في أخطاء تجنب عليهم وعلى قومهم
المصائب كما حدث لإسماعيل :

من المشورة وهى أكرم خطة
هى عصمة الدين التى أوحى بها
فمن استعان بها تأيد ملكه
أمران ما اجتماعاً لقائد أمة
جمع يكون الأمر فيما بينهم
هيئات يحيا الملك دون مشورة
ويقول فيها مادحاً توفيقاً :

أطلقت كل مقيد وحللت كل
وتنعمت بالعدل منك رعية
ويحرض الأمة على اليقظة ، والقوة حتى لا يستهين السلطان بأمرها :

إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع
إلى ، ولباني الصدى وهو طائع
تماثيل لم يُخلق لهن مسمع
قوارير محنى عليها الأضالع

أغرك الملك الذى ينفد
فالله عدل ، والتلاقى غد

يجرى عليها كل راع مرشد
رب العباد إلى النبي محمد
ومن استهان بأمرها لم يرشد
إلا جنى بهما ثمار السؤدد
شورى ، وجند للعدو بمرصد
ويعز ركن المجد ما لم يُعمد

ل معقد وجمعت كل مبدد
كانت فريسة كل باغ معتد

وكذلك السلطان إن ظن بالأمّة عجزاً سطا عليها وشدا
 ✕ ولما أخفقت الثورة وتحاذل الثوار، وخان بعضهم بعضاً، ترك هذا الأخفاق،
 وذياك الخذلان في نفسه مرارة ظل أثرها في لسانه مدة، فأخذ يلفظ بشعر مرير
 فيه أثر الموجدة والغضب من مثل قوله :

كنا نود انقلاباً نستريح به حتى إذا تم ساءتنا مصايره
 ♥ ويقول ذاماً الثورة والثوار، ويحاول أن يتنصل من تبعاتها، وأن ما ناله
 كان بسبب ما دب بينهم من الشحنة، وأنهم غدروا به :

صبرت على ريب هذا الزمان ولولا المعاذير لم أصبر
 فلا تحسبني جهلت الصواب ولكن هممت فلم أقدر
 ثنت عزمتي ثورة المفسدين وغلت يدي فترة العسكر
 وكنا جميعاً فلما وقعت صبرت ، وغادرنى معشرى
 ولو أننى رمت إعناتهم لقلت مقالة مسـ تبصر
 ولكننى حين جد الخصام رجعت إلى كرم العنصر
 ✚ وحاول البارودى أن يبرىء نفسه ويعلل هزيمته ويصف حنث الثوار

في أيمانهم ومواثيقهم وتحاذلهم ، ويتقدم على زعامته :

دعوني إلى الجلى ، فقامت مبادراً وإنى إلى أمثال تلك لسابق
 فلما استمر الجدد ساقوا جمولهم إلى حيث لم يبلغه حاد وسائق^(١)
 فلا رحم الله امراً باع دينه بدنيا سواه ، وهو للحق رامق
 على أننى حذرتهم غب أمرهم وأنذرتهم لو كان يفقه مائق^(٢)
 وقلت لهم كفوا عن الشر تغنموا فلاشر يوم لا محالة — ماحق

فظنوا بقولي غير ما في يقينه
فتباً لهم من معشر ليس فيهم
ظننت بهم خيراً فأبت بحسرة
فياليتني راجعت حلمي ولم أكن
ويا ليتني أصبحت في رأس شاهق
هم عرضوني للقنا ، ثم أعرضوا
وقد أقسموا ألا يزولوا فما بدا
ثم يصف فزعهم وفرارهم من المعركة بقوله :

مضوا غير معذورين لا النقع ساطع
ولكن دعهم نبأة ، فتفرقوا
فكم أبى تلقاه من غير طارد
إذا أبصروا شخصاً يقولون : جحفل
أسود لدى الأبيات بين نساءهم
إذا المرء لم ينهض بقائم سيفه
وقد اتهم البارودي بأنه يطمع في الملك ، وأنه يحاول ثل العرش ، وخلع
توفيق فقال منكرآ هذه التهمة ، معللاً ثورته :

يقول أناس إنني ثرت خالهاً
ولكنني ناديت بالعدل طالباً
أمرت بمعروف وأنكرت منكراً
وتلك هنات لم تكن من خلأئقي
رضا الله ، واستنهضت أهل الحقائق
وذلك حكم في رقاب الخلائقي

(١) دلق السيف : أخرجه من غمده .

(٢) النبأة : الصوت ، والباشق : من الطيور الجارحة

(٣) ج نقق (بكسر فسكوث) وهو الظليم ، ذكر النعام ويضرب به المثل في الجبن

فإن كان عصياناً قيامي فإني
 وهل دعوة الشورى على غضاضة
 بلى ! إنها فرض من الله واجب
 وكيف يكون المرء حراً مذهباً
 فإن نافق الأقوام في الدين غدرة
 على أتى لم آل نصحا لمعشر
 رأوا أن يسوسوا الناس قهراً فأمرعوا
 فلما استمر الظلم قامت عصابة
 وشايهم أهل البلاد فأقبلوا
 يرومون من مولى البلاد نفاذ ما
 أردت بعصيانى إطاعة خالقي
 وفيها لمن يبغى الهدى كل فارق ؟
 على كل حى من مسوق وسائق
 ويرضى بما يأتى به كل فاسق ؟ !
 فإني بحمد الله غير منافق
 أبى غدرهم أن يقبلوا قول صادق
 إلى نقض ما شادته أيدي الوثائق
 من الجند تسعى تحت ظل الخوفاق
 إليهم مراعاة بين آت ولاحق
 تألاه من وعد إلى الناس صادق

✚ وإذا كان البارودى قد أنكر هذه التهمة هنا ونفاها عن نفسه ، ففي شعره
 ما يثبتها ويدل على أنه كان يطلب من الثوار أن يولوه عليهم حاكماً ، ويمدح
 نفسه ، ويطرى حكمه . ومن البديهي أنه لم يرد رئاسة الوزارة فقد كان رئيساً
 للوزارة ، ولكنه يريد ما هو أعلى منها ، وتراه يذم هؤلاء الذين يقفون في سبيله
 ويكيدون له :

من كل وغد يكاد الدست يدفعه
 ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
 وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة
 إلى أن يقول :

بئس العشير وبئست مصر من بلد
 أرض تأثل فيها الظلم وانتذفت
 أضحت مناخاً لأهل الزور والخلط
 صواعق الغدر بين السهل والجبل

وأصبح الناس في عمياء مظلمة
أصوحت شجرات المجد أم نضبت
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم
فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
وقلدوا أمركم شهماً أخاً ثقة
ماضى البصيرة غلاب إذا اشتبهت
إن قال بر ، وإن ناداه منتصر
يجلو البديهة باللفظ الوجيز إذا
ولا تلجوا إذا ما الرأي لاح لكم
هذه نصيحة من لا يبتغى بدلاً
فهذا الشعر السياسي ، وهذه النفس المتوثبة الطموح ، وهذه الثورة المتأججة
التي انتهت بصاحبها إلى النفي والتشريد هي من الجديد في معاني البارودي
وشعره ، وهي جديدة حتى في الأدب العربي كله . وإن كان المتنبي قد حاول
من قبل ملكا وثار على الدنيا التي مكنت للعبيد والخصيان والعلاج في الأرض
يسوسون شعوباً ضعيفة وجعل يقول :

في كل أرض وطئتها فدمٌ ترعى بعبد كأنها غنم
فإنه اكتفى بالأشارة والتلميح وبالزفرة الحارة ، وبملامة الدهر ومحاربة
في مطلبه ؛ ولكن البارودي كان يطلب شيئاً آخر : كان يطلب الحرية لقومه ،
والعدل والمساواة ، كان يطلب العيشة الهنية في ظلال الحرية ، ولا عليه إذا طلب
(٢) الخزل : من الانخزال وهو الظلوع في المشى من أثر شوكة أو شبهها . مشى فيه
تأفل وتراجع .

بجانب هذا ملكا عضودا ليحقق لقومه آمالهم . وهب البارودي قلد المتنبي في بعض معانيه ، فهل كان اقتحامه نار الثورة تقليدا ؟ أو ليس شعره هذا وليد الحوادث وصدى لها ؟ وهل فترت عزيمته ، ووهنت قوته ، وذات نفسه وهو يقاسى ألم النفي والتشريد ، ما دام يدب في جسمه شيء من العافية ؟ كلا ! وإذا شئت برهاناً فاستمع لهذه الكلمات التي كان يخشى بأسها على البعد حكام مصر كأنها جيش لهم يبدد سعادتهم :

أبى الدهر إلا أن يسود وضيعه	ويملك أعناق المطالب وغده
تداعت لدرك الثأر فينا ثعالة	ونامت على طول الوتيرة أسده
فختم نسرى فى دياجير محنة	يضيق بها عن صحبة السيف غمده ؟
إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت	عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
ومن ذل خوف الموت كانت حياته	أضر عليه من حمام يؤده
وأقتل داء رؤية العين ظالما	يسىء ، ويتلى فى المحافل حمده
علام يعيش المرء فى الدهر خاملا	أيفرح فى الدنيا بيوم يعده ؟
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه	كذى جرب يلتذ بالحك جلده
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعيش	بها بطلا يحمى الحقيقة شده
من العار أن يرضى الفتى بمذلة	وفى السيف ما يكفى لأمر يعده
وإنى امرؤ لا أستكين اصوله	وإن شد ساقى دون مسعاى قده
أبت لى حمل الضيم نفس أبية	وقلب إذا سيم الأذى شب وقده

وربما قيل إن البارودي كان ذا أثره ، وأنه كان يسعى سعیه لتحقيق أمله ، وأنه لم يكن مخلصاً فى دعوته لمحاربة الظلم . وسواء كان هذا صحيحاً ، أو غير صحيح ، فالذى نلمسه هو أن البارودي كان يتغنى بمصر وأهلها ، ويظهر محبته

لها ، وحرصه على خيرها ونفعها ، بما لم نسمعه قبل من شاعر . إنها الروح القومية الجديدة التي سرت في شعوب الأرض وجعلتهم يطالبون بالحرية والاستقلال ، ويشيدون بأوطانهم ويتغنون بما ترقومهم وقد تمثلت هذه الروح في البارودي على غير انتظار وعلى غير سابقة من شعراء وطنه وزمنه . أصغ إلى القطعة التالية ، والمس ما بها حرارة الصدق والمحبة لتعرف أكان البارودي مخلصاً في دعواه أو مداحياً ؟؟

فيا مصر ! مد الله ظلك وارثي ثراك بسلسال من النيل دافق
ولا برحت تمتاز منك يد الصبا أريجاً يداوى عرفه كل ناشق
فأنت حمى قومي ، ومشعب أسرتي وملعب أترابي ، ومجرى سوابقي
بلاد بها حل الشباب تمانى وناط نجاد المشر في بعاتقي
تركت بها أهلاً كراماً وجيرة لهم جيرة تعتادني كل شارق
هجرت لذيد العيش بعد فراقهم وودعت ريعان الشباب الغرائق

إننا لا نستطيع أن نحكم على البارودي ، وشعره ينطق بوطنيته ، بأنه

منافق خداع ؛ إنه كان يحب وطنه ، وفي سبيله شرد ونفى :

ومن عجائب ما لاقيت من زمني أنى منيت بخطب أمره عجب
لم أقترف زلة تقضى على بما أصبحت فيه ، فماذا الويل والحرب
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظلاماً واغترب ؟!

إن هذه النغمة الوطنية الجديدة — كما ذكرنا — في الشعر العربي ، وحسب

البارودي نغراً أنه من أوائل من تغنى بأعجاد وطنه في العصر الحديث .

(ح) — الفسيب :

وقد مر بنا أن البارودي قد قلد القدماء في الوقوف على الأطلال والدمن ،

وفي الأوصاف الموروثة ، وفي الوصف المادى المرأة والنظرة إليها نظرة السلعة .
ولكنه مع هذا قد تحلل أحيانا من كل تلك القوالب القديمة ، وترفع في نظرتها
إلى المرأة ، فحسبه منها نظرة .

إني لأفنع من هواك بنظرة وأعدها صلة إذا لم تمنعني
هذى منأى وحبذا لو نلتها عن طيب نفسي فهي أكبر مقنع^(١)
وهو يتمدح بعفته في حبه ويمين مذهبه في الوداد بقوله :

إني امرؤ ملك الوداد قيادتي وجرى على صدق العهود وفائي
لا أستريح إلى السلو ، ولو جنى خلى عليّ ، ولا أشين ولائى
لا ذمتى رهن الفكك ولا يدي تلقى أزمة عفتى وحيائى
ويقول :

على أنتى لم آت في الحب زلة تغض بذكرى في المحافل أو تزرى
ولكننى طوفت في عالم الصبا وعدت ولم تعلق بفاضحة أزرى
ويقول :

والعشق مكرمة إذا عف الفتى عما يهيم به القوى الأصور^(٢)
يقوى به قلب الجبان ويرعوى طمع الحريص ، وينخضع المتكبر
وقد فطن أحيانا إلى أن المرأة بها من أنواع الجمال غير هذه السمات المادية

(١) المعنى قديم طرقة من قبل جميل في قوله :

ولأني لأرضي من بثينة بالذى لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع وبألنى وبالأمل المرجو قد خاب آماله
وبالنظرة العجلى وبالعام ينقضي أواخره لا نلتقى وأوائله

ولكن البارودى كان في عصر مادى لا يفتن إلى هذا ، وقد سبقه آلاف الشعراء
منذ جميل لم يقنعوا قناعته .

(٢) الأصور : المنحرف عن الهدى والرشاد من الصور وهو الميل .

قال :

فتاة يحار الطرف في قسماتها لها منظر من رائد العين لا يخلو
لطيفة مجرى الروح لو أنها مشت على ساربات النذر ما آده الحمل
وله في الغزل معان جميلة مبتكرة من مثل قوله :

تركنتي من غمرات الهوى في لجج بحر بالردى زاهر
أسمع في قلبي ديب المنى وألمح الشبهة في خاطري
وقد وفق البارودي في البيت الثاني أيما توفيق . على أن معظم نسيب
البارودي متأثر بالشعر القديم ، وقد وفيناه نعتاً فيما سبق .

(٤) الهجاء :

والهجاء نوعان : شخصي وهو ما درج عليه معظم شعراء العربية ،
 واجتماعي ، ويراد به ذلك الهجاء التهكمي الذي يقصد إلى تجسيم عيب من
عيوب المجتمع وتصويره في أبشع صورة رغبة في الإصلاح ، وقد يتمثل هذا العيب
الاجتماعي في شخص من الأشخاص فيهجوه الشاعر ويبرز ذلك العيب فيه
بشكل يسترعى انتباه القارئ أو السامع ، وليس الشخص مقصوداً لذاته في
مثل هذا النوع من الهجاء ، وإنما المقصود هو هذه السوء الاجتماعية . ولن
يبلغ الشاعر مرتبة الشعراء العالميين في الهجاء ما لم يصل بهجوه إلى هذا النوع
الاجتماعي . وقد لجأ شعراء العرب إلى التمثيل يصورون فيه هذه المثالب الإنسانية
العامة ، ويجسمون العيوب تجسيمياً يحمل الشعب على الاشتمزاز منها والبعد عنها
كما فعل شكسبير في رواياته الكثيرة وكما فعل مولير في هزلياته .

وقد وُجد في شعر البارودي نوعا الهجاء : الشخصي والاجتماعي ،

وأكثر من النوع الاجتماعي على غير عادة شعراء العربية فهو يشكو الناس
ونفاقهم وظلمهم وغدرهم ، ويصور قومه ويعدد عيوبهم ، ويحرضهم على إصلاح
تلك العيوب ، وقد مر بنا نماذج من النوعين ، فقصيدته التي يدعو فيها لنفسه
ويعدد محاسنه ، وينعي على مواطنيه صفاتهم وخمولهم والتي يقول فيها :

بئس العشير وبئست مصر من بلد أضحت مناخا لأهل الزور والخطل

أرض تأثّل فيها الظلم وانقذت صواعق الغدر بين السهل والجبل

من نوع الهجاء الاجتماعي ، والمقطوعة التي يذم فيها النهم الجشع من
الهجاء الشخصي ، وإن لم يُظهر فيها أمرا شخصيا أو عداوة خاصة حفزته على
هجائه وإنما ذمه بعيب عام وهو الجشع والنهم .

ومن النوع الاجتماعي قوله يذم زمانه وينعي على معاصريه تلونهم وعدم
وفائهم في صداقتهم ؛ ولا شك أن البارودي قد لقي من الحن والشدائد ما جعله
حائقا على الناس والزمان ولا سيما وقد خذلوه وآذوه :

أنا في زمان غادر ومعاشر يتلونون تلوت الحرباء

أعداء غيب ليس يسلم صاحب منهم وإخوة محضر ورخاء

أقبح بهم قوما ! بلوت إخوانهم فبلوت أقبح ذمة وإخاء

قد أصبحوا للدهر سبّة ناغم في كل مصدر محنة وبلاء

وأشد ما يلقى الفتى في دهره فقد الكرام وصحبة الاثماء

شقي ابن آدم في الزمان بعقله إن الفضيلة آفة العقلاء

فهو هنا لا يذم شخصا بعينه لعداوة خاصة بينه وبينه ، وإنما يذم عيبا
اجتماعيا متفشيا ، ولو تناول هذا العيب شاعر غربي لأظهر لنا شخصية المناق
في مسرحية شائقة ولأوسعها سخرية وتهكما . ولكن البارودي أوجز في وصفه

على عادة العرب؛ على أن له قطعاً تصويرية جميلة في هذا النوع الاجتماعي، اسمعه مثلاً
يصور جارة تكثر من الصخب والضوضاء، ولها أولاد يتشاجرون كثيراً، ويمثلون
الجو صراخاً وعويلًا؛ لا تراعى هذه الجارة حرمة الجيران، ولا تعباً براحة سواها
ومن العجيب أن هذا العيب لا يزال منتشراً في كثير من بلدان الشرق بدعوى
الحرية الكاذبة فترى الجار يقلق راحة جاره بشتى الوسائل : فتارة بالمذياع،
وأخرى بمكبر الصوت أو بالمشجرة مع أهله وأولاده... إلى آخر ما هنالك من
أنواع المضايقات. والبارودي أديب ومفكر، وقد ابتلاه الله بحجارة مقلقة للراحة
تبدد ضوضاؤها وجلبتها أفكاره وخيالاته فلا بدع إذا سخط عليها وبرم بها :

إلى الله أشكو طول ليلي وجارة	تبئت إلى وقت الصباح بإعوال
لها صبية لا بارك الله فيهم	قباح النواصي لا ينم على حال
صوارخ لا يهدأن إلا مع الضحى	من الشر في بيت من الخير محال
ترى بينهم — يا فرق الله بينهم —	لهيب صياح يصعد الفلك العالى
كأنهم مما تنازعن أكلب	طرقن على حين المساء برئيل
فهجن جميعاً هيجة فزعت لها	كلاب القرى ما بين سهل وأجبال
فلم يبق من كلب عقور وكلبة	من الحى إلا جاء بالأم والخال
وفزعت الأنعام والخليل فانبثرت	تجاوب بعضاً في رغاء وتصهل
فقامت رجال الحى تحسب أنها	أصيبت بجيش ذى غوارب ذيال
فمن حامل رحا ومن قابض عصا	ومن فزع يتلو الكتاب بإهلال
ومن صبية ريعت لذلك ونسوة	قوائم دون الباب يهتفن بالوالى
فيارب هب لى من لدنك تصبرا	على ما أقاسيه وخذم بزلزال

ومن هجائه الشخصى الذى ينهش فيه العرض، ويذم الشخص بصفات

على أن يستمد تشبيهاته من هذه المخترعات الحديثة رغبة في الطرافة ، وتمثيل عصره ، فيقول مثلاً :

تعرض لى يوماً فصورته حسنه ببلورتى عينى فى صفحة القلب
ويقول :

فالعقل كالمناظر يبصر ما نأى عنه بعيداً دون لمس باليد
ويقول :

فسرت بجسمى كبرياء حسنه فمن العروق به سلوك تخبره
ويقول :

شفت زجاجة فكرى فارتسمت بها عليك من منطقي فى لوح تصوير^(١)
ويقول :

جسم رته يد الضنى حتى غدا قفصاً به للقلب طير يصفر
لولا التنفس لاعتلت بى زفرة فيخلنى طيارة من يبصر

وقد يبدو على بعض هذه الأبيات شيء من التكلف ، ولكن البارودى ما كان يستطيع أن يبتعد عن استخدام هذه المخترعات فى شعره ، وهو الولوع بالتجديد فى الشعر ، الحريص على أن يمثل زمانه تمام التمثيل .

(ح) نظرة عامة :

رأيت مما سبق أن البارودى حاول أن يجدد فى الشعر العربى من حيث الموضوعات التى تناولها ، ولا سيما فى الوصف ، وفى الشعر السياسى ؛ ورأيت أن الوصف قد تناول نواحى عدة : من وصف للطبيعة ، والأشخاص ، وميادين القتال ، والأشياء ، وأن وصف البارودى كان فى الغالب وصفاً حسيماً يقف

(١) ارتسمت : برید رسمت ، وارتسمت غير موجودة بالمعاجم

عند التصوير المشوب بشيء من العاطفة دون أن يتعمق فيه ، ويحلل ويوازن ، ويتخيل ، وأن موصوفاته كانت كذلك من المشاهدات غالباً ، ولم يحاول وصف الأمور المعنوية والنفسية ؛ ومع ذلك فالبارودي بإفراده قصائد خاصة بالوصف وبمحاكاة الطبيعة في شعره وإتيانه بالأدب الواقعي المجرد عن العواطف والأخيلة إلا القليل قد فتح فتحاً عظيماً في الشعر العربي ونقض عنه غبار السنين الطويلة وعرض القديم عرضاً جديداً شائقاً جذاباً ، ومهد الطريق لمن أتى بعده من الشعراء . ناهيك بأسلوبه الفخم الجزل ، وبعده عن الزخارف والحلى التي تطنى على المعنى وتذهب ببهاء الشعر ، وتدعو إلى التكلف والتعسف .

✖ ومن أهم مزايا البارودي أنه كان بعيداً عن التكلف ، بل كان ينطلق على سجيته ، ويظهر كل ما في نفسه ، ويصور مشاعره السارة والحزينة دون إخفاء أى شيء منها ، وقد يغلبه التقليد للقديم أحياناً فيخالف طبعه ، ويسير على غير سجيته ، ويتكلف القول محاكياً القدماء ، وتلمس أثر هذا التكلف واضحاً ليس عليه طابع البارودي ولا شخصيته ، وقد مر بنا عند الكلام على القديم في شعره نماذج من هذا الطراز .

وهناك أغراض تقليدية قال فيها الشعراء منذ عصر امرئ القيس ، وقال فيها البارودي كذلك مثل الرثاء والمدح والحكمة وما شاكل هذا . ولا نستطيع أن نختم الكلام على البارودي قبل أن نرى موقفه من هذه الأغراض .

الرثاء : ولم يرث البارودي إلا صديقاً أو قريباً ، فلم يكن رثاؤه مفتعلاً أو من شعر المناسبات ، وإنما كان منبعثاً عن عاطفة صادقة ، وقد تمثل في رثائه كل ما يخطر ببال الرائي ، من تفجع وشكوى من الزمن والحياة وسخط عليهما وإظهار لمحاسن المرنى ، وبعض الحكم يتأسى بها الشاعر أو يعظ بها غيره ،

ويقدم العزاء أحياناً لأهل الميت **❧** وإن لم يلجأ إلى الوقوف على سر الحياة
الأخرى وأن يستشف ما بعد الموت كما كان يفعل شوقي . وقد يأتي البارودي
ببعض المعاني القديمة في قصائد الرثاء كأن يدعو الله بأن ينزل الغيث على جدث
الميت وما شابه هذا من الصيغ التقليدية المعروفة . وهو يظهر الجزع والحزن
الشديد دون مبالغة جارفة في النعوت التي يضيفها على الميت ، وجزعه وحزنه
يدلان على عاطفة مشبوبة وقلب وفي ، ولا سيما وقد قال معظم مرثييه وهو في
المنفى فيزيد في أساء لوعة النوى عن الوطن ، وجرمانه التزود من الميت بنظرة
أو حديث ، ويدعو هذا إلى توجيه الخطاب للشامتين به في نكبتة ومحنته ،
ويظهر لهم التجلد في أخريات قصائده وأنه لا يزال صلب العود ولا سيما إذا
كان الميت من ذوى قرابته .

ومن أحسن مرثييه قوله في ولده على :

كيف طوتك المنون يا ولدي ؟	وكيف أودعتك الثرى ييـدى
وا كبدى يا على بعدك ، لو	كانت تبلى الغليل وا كبدى !!
فقدك سـل العظام منى ور	د الصبر عنى وفـت فى عضـدي
كم ليلة فيك لا صباح لها	سهرتها با كياً بلا مدد
دمع وسهد وأي ناظـرة	تبقى على المدمعين والسهد
لهفى على لمحـة النجاة لو	دامت إلى أن تفوز بالسدد
ما كنت أدرى إذ كنت أخشى عليه	لك العين أن الحمام بالرصد
فاجأتى الدهر فيك من حيث لا	أعلم ختلا والدهر كالأسد
لولا اتقاء الحياء لاعتضت با	حلم هياماً يحيق بالجلد
لكن أبت نفسى الكريمة أن	أثلم حد العزاء بالكمد

فلميك قلبي عليك ، فالعين لا تبلغ بالدمع رتبة الخلد (١)
 إن يك أخنى الردى عليك ، فقد أخنى أليم الضنى على جسدى
 عليك منى السلام توديع لا قال ، ولكن توديع مضطهد
 ✖ وإذا عددت مرآثيه وجدته رثى أصدقاءه الأدباء الذين كانت بينه وبينهم
 آصرة محبة ووداد ، وتقدير وتفاهم مثل أحمد فارس الشدياق ، وعبد الله فكرى
 وحسين المرسفى ، ووجدته رثى أولاده ، وزوجه ، ورثى والده وإن كان قد توفى
 وهو صبي كما عرفنا ؛ ولذلك جاء رثاؤه لوالده خالياً من العاطفة فيه كثير من
 الفخر ، ليس فيه تفجع الحزين ولا حسرات الفراق وبه كثير من المبالغات غير
 للقبولة ، وفيه يقول :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى طاح الردى بشهاب الحرب والنادى
 مات الذى تهرب الأقران صولته ويتقى بأسه الضرغامه العادى
 جف الندى ، وانقضى عمر الجد وسرى

حكم الردى بين أرواح وأجساد

المدح : واقتصر فى مدحه على ولاية مصر إسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ،
 وهو فى مدحه لا ينسى مصر وموقف الوالى منها ، وما قدم لها أو ما يرجى على
 يديه من خيرات لمواطنيه ، فيمدح توفيقاً لأخذه بالشورى والعدل .

ويستطرد إلى مدح نظام الشورى وأنه من تعاليم الإسلام ، وأن الأمة التى
 لا تأخذ به مصيرها إلى الانهيار ، والملك الذى لا يتبعه ملك غير عادل ، وملكه
 سرعان ما يدب إليه الضعف ؛ وهو فى مدحه لعباس يذكر عدله وأريحيته ، وما
 يرجى على يديه من نفع ، وقد مدح عباساً لأنه عفى عنه وأعادته إلى وطنه ،
 فكان لزاماً عليه حين يمدحه أن يذكر له هذه الكريمة . أما إسماعيل

فقد مدحه حين ولى على أريكة مصر، وبشر البلاد بعهد جديد كله خير وبركة
بمقدمه، وقدم نفسه لإسماعيل وأطراها، وأظهر استعداداته لخدمته وخدمة وطنه .
هذا ولم يغفل أن يثني على كل ممدوحيه وينعتهم بكرم الأصل وحب الخير والعدل
وأنهم ذوو هيبة وشماثل كريمة . . . الخ هذه الصفات المعروفة والمعاني المطروقة ،
وقد صرت بنا بعض أبيات من مدحه لتوفيق وعباس ، وهالك بعض ما قاله في
إسماعيل حين ولى أريكة مصر :

طرب الفؤاد ، وكان غير طروب	والمرء رهن بشاشة وقطوب
ورد البشير، فقلت من سرف المنى	أعد الحديث على فهو حسيبي
خير جلا صدأ القلوب فلم يدع	فيها مجال تحفز لوجيب
فلتهن مصر وأهلها بسلامه	جاءت لها بالأمن بعد خطوب
بالمجد المنسوب ، بل بالأروع	مشبوب ، بل بالأبلج المعسوب (١)
رب العلا والمجد (إسماعيل) من	وضحت به الأيام بعد شحوب
ورد البلاد وليلها متراكب	فأضاءها كالكوكب المشبوب
بروية تجلو الصواب وعزيمة	تمضي مضاء اللهزم المذروب (٢)

ويقول فيها :

وأعاد مصر إلى جمال شبابها	من بعد ما لبست خمار مشيب
فتنعمت من فيضه في غبطة	وتمتع من عدله بنصيب
ويقدم نفسه لإسماعيل بقوله :	
فاسمع مقالة صادق لم ينتسب	لسواك في أدب ولا تهذيب

(١) المنسوب ذو النسب ، والأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته
والمشبوب : الحسن الوجه . والبلجة (بضم فسكون) الضوء ، وتقاوة ما بين الحاجبين ، ويقال
للرجل الطلق الوجه أبلج . والمعسوب : المتوج . (٢) المذروب : المحذمون .

أوليته خيراً ، فقام بشكره والشكر للاحسان خير ضريب
 فاعطف عليه تجد سليل كرامة أهلاً لحسن الأهل والترحيب
 ينبئك ظاهره بود ضميره والوجه وسمة مخلص ومريب
 وإليك من حوك اللسان حبيرة يغنيك رونقها عن التشبيب
 حضرية الأنساب إلا أنها بدوية في الطبع والتركيب
 ولم يكن البارودي شاعراً مداحاً متكسباً بشعره ، كما درج على هذه
 العادة معظم الشعراء في الأدب العربي ، ولكنه كان أميراً فارساً عفيفاً يقول
 الشعر للتعبير عن خلجات فؤاده وقد قال :

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذام
 وهو إذا مدح لم يقصد بمدحه العطاء ، و إنما للتعريف بمنزلاته ، أو الشكر
 على يد أسديت إليه ، أو حث على مكرمة . ومديحه خال من المبالغات المذمومة
 والنعوت الموهومة ، وهذا طبيعي ما دام لم يقصد بمدحه صلة أو عطية ؛ لأن
 الشعراء إنما لجئوا إلى هذه المبالغات ظناً منهم أنها تزيد في عطائهم ، وأن نفس
 المدوح تسر لها فيغدق عليهم جزيل الهبات .

نخره : وقد افتخر البارودي كما عرفت بنسبه وحسبه ، وافتخر كذلك
 بشجاعته وفروسيته وقد أكثر من القول في هذا المعنى وله فيه مبالغات سخيفة ؛
 فمن ذلك قوله يفتخر ببأسه ونجدته وأنه ملك أزمة الفصاحة والبيان ، وأن
 الزمان لو تقدم به لبز الشعراء الفحول ولسطر اسمه على جبين التاريخ بالفخر
 إلى آخر هذه المعاني المعروفة من مثل قوله :

ولى شيمة تأبى الدنيا وعزيمة ترد لها الجيش وهو يمور
 إذا سرت فالأرض التي نحن فوقها مراد لمهرى والمعقل دور

فلا عجب إن لم يَصُرْنى منزل فليس لعقبان الهواء وكور
وأصبحت محسود الجلال كأننى على كل نفس فى الزمان أمير
إذا صلت كف الدهر من غلوائه وإن قلت غصت بالقلوب صدور
ملكتم مقاليد الكلام وحكمة لها كوكب نغم الضياء منير
فلو كنت فى عصر الكلام الذى انقضى

لباء بفضلى (جرول) و (جرير)
ولو كنت أدركت النواس لم يقل « أجارة بيتينا أبوك غيور »
وما ضرنى أنى تأخرت عنهم وفضلى بين العالمين شهير
فياربما أخلى من السبب وبذ الجياد السابقات أخير

ويسود هذا النوع من الفخر شعر البارودى ، ويبين فيه أنه محسود
المكانة ، وأنه فريد عصره وواحد دهره كما يقول :

فإن أكن عشت فرداً بين آصرتى فهأنأ اليوم فرد بين أندادى
بلغت من فضل ربي ما غنيت به عن كل قار من الأملاك أو باد
فما مددت يدي إلا لمنح يد ولا سعت قدمي إلا لإسعاد

✠ الزهد : ولعل قوله فى الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التى غلبه فيها
اليأس على أمره وهو وحيد شريد يعانى غصص الفراق والنفى . وإلا فهذه
النفس الطموح التى خاطرت وغامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت ونعمت
بالحياة كانت بعيدة عن الزهد فى الحياة ولعلها لم تزهد إلا مرغمة ، وعلى كل
فما قاله فى الزهد قليل مما يدل على أنه أثر لنوبات كانت تعتريه فيتشاءم من الدنيا
ويتذكر الموت ، والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغواية والجهل ،
ويذكره بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء أصحاب عروش وضياع ذهبوا وذهبت

دنياهم الحافلة بالذات ، وعمرت منهم القبور ، ولم يزد عنهم الموت ما لهم ولا جاههم
إلى آخر هذه المعاني التي استنفدها من قبل أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس
وأضرابهما من مثل قوله :

كل حي سيموت	ليس في الدنيا ثبوت
حركات سوف تغني	ثم يتلوها خفوت
وكلام ليس يحلو	بعده إلا السكوت
أيها السادر قل لي	أين ذاك الجبروت ؟
كنت مطبوعاً على النظم	ق فما هذا الصموت ؟
ليت شعري أحمود	ما أراه أم قنوت ؟
أين أملاك لهم في	كل أفق ملكوت ؟ !
زالت التيجان عنهم	وخلت تلك التخوت

X ومما يقتضيه هذا الموضوع مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد مدحه
بقصيدة طويلة يتوسل فيها بمجاهه ويطلب شفاعته ، ويرجو الرحمة والمغفرة
من الله بسببه ويقول :

هو النبي الذي لولا هدايته	لكان أعلم من في الأرض كلهم
أنا الذي بت من وجدى بروضته	أحن شوقاً كطير البانة الهزج
هاجت بذكراه نفسي فاكنتس ولها	وأني صب بذكر الشوق لم يهيج
يارب بالمصطفى هب لي - وإن عظمت	

جرائمى -- رحمة تغني عن الحجج	
ولا تسكني إلى نفسي فإن يدي	مغلولة ، وصباحي غير منبلج
مالي سواك وأنت المستعان إذا	ضاق الزحام غداة الموقف الحرج

الحكمة : وقد أكثر البارودي من قول الحكم ، ومعظمها حكم غير مبتكرة
 وقع عليها السابقون ، وصاغها البارودي صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم
 وقد وردت له كثير من الأبيات السائرة التي صارت كأنها أمثال كقوله :
 ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب
 وقوله :

وقليلاً ما يصلح للمرء للجد إذا كان ساقط الأجداد
 وقوله :

لعمرك ما في الدهر أطيب لذة من اللهو في ظل الشببية واليسر
 وقوله :

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر وإنما صفوه بين الوري لمع
 وقوله :

إذا ساء صنم المرء ساءت حياته فما لصروف الدهر يوسعها سباً
 وهي حكم قريبة المعنى مأخوذة من تجارب عادية ليست فيها فلسفة عميقة ،
 ولا تدل على مذهب في الحياة ومصيرها ومصدرها ، أو على نظرة عامة شاملة
 للكون ، وإنما هي نظرات عابرة ليس فيها تحليل دقيق ، ولا سبر لأغوار الحياة
 والمجتمع ونفسيته .

وبعد فهذه معظم الموضوعات التي تكلم فيها البارودي وقد عقبنا على كل
 موضوع بكلمة موجزة ، وعرفنا إلى أي حد مشى البارودي في ظل القدماء
 وإلى أي حد تميزت شخصيته ، وبرزت خصائصه ، وفي شعر البارودي هنات
 هنات : وهذه الهنات قليلة لا تقدر في منزلته ولا تغض من شأنه ، وبعض
 هذه الهنات يرجع إلى :

١ — لغويات : فاستعمل البارودي كلمات كثيرة غير موجودة في المعاجم ولا يعين عليها الاشتقاق الصرفي من مثل قوله (هامة نفس) فهذا المصدر بالمعنى الذى يريد أى قوة العزم غير موجود فى المعجمات التى بين أيدينا ، وقد يلتبس له تخريج بعيد ، فيه كثير من التعسف . ومن مثل قوله : (يكفيك منه إذا استحسن) يريد أحس ، ومثل قوله :

شفت زجاجة فكرى فارتسمت بها عليك من منطقي فى لوح تصويرى
فارتسمت بمعنى رسمت غير موجودة بالمعجمات ، ومعناها فى المعاجم امتثل ؛
ومثل قوله :

فكم سملوا عينا بها تبصر العلا وشلوا يداً كانت بها راية الفصر
والفعل شل لازم ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أشل الله يد فلان . واستعمله
الشاعر هنا متعدياً بنفسه ، وقد يوجد له تخريج بعيد .
ومن مثل قوله :

« تمد يداً نحو السماء خضيبة » وخضيب على وزن فعيل بمعنى مفعول أى
مخضوبة ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث إن تبع الموصوف ، ولهذا قالوا : كف
خضيب وامرأة خضيب فاستعمال خضيبة خطأ .
ومثل قوله :

فما أبصرته الخليل حتى تمطرت بفرسانها واستتلت كيف تخلص
وليس بالمعجمات استتلت ، وإنما بها تلعت بمعنى مدت أعناقها . وقد يقال
إن زيادة الهمزة والسين والتاء للطلب قياسية عند بعض الصرفيين .

٢ — وقد يخطئ البارودي فى الأساليب العربية فى مثل قوله :

إذا راطنوا بعضاً سمعت اصوتهم هديداً تكاد الأرض منه تميد

والفصيح إذا راطن بعضهم بعضاً
ولكن هذا قليل في شعره ؛ لأن لسانه طبع على قول الفصيح لكثرة
محفوظه من كلام العرب اخلص
٣ — ومن المأخذ التي كثيراً ما يُعير بها البارودي اتهامه بسرقات شعرية
تأتي في صورة أبيات أو أنصاف أبيات من مثل قوله :

على طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر
وهو من قول أبي نواس :

على طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب
ومثل قوله :

تميل من الدنيا إلى ظل مزنة لها بارق فيه المنية تلمع
فالشطر الثاني مأخوذ من قول أبي العباس :

لها عارض فيه المنية تلمع

وقول البارودي :

قد يظفر الفاتك الأولى بحاجته وليس يدركها الهيماء الخلط
مأخوذ من قول الشاعر العباسي :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطبيعات الفاتك الالهج
وقوله :

وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز بمستحسن كالحلم والمرء قادر
مأخوذ من قول المتنبي :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللثام
وهناك أبيات كثيرة تدل على نظرتة إلى أشعار القدماء ، وقد ذكرنا آنفاً

أن البارودي لم يسرق ، ولم يعتمد أخذ هذه الأبيات والسطو عليها ، وإنما كثر محفوظه ، وتأثر به كل التأثر ، ولا سيما إذا كان يعارض قصيدة لشاعر مجيد ، فإنه يجاريه حتى لقد يختلط شعره بشعره ويتعذر التفرقة بينهما ، وذلك لجودة محاكاته وسلامة طبعه ، وقد ترد على لسانه كلمات أو أبيات من أشعار القدماء دون أن يدرك ، لأنها من محفوظه . وقد عرفنا أنه لم يتعلم قواعد اللغة والصرف وغيرها وإنما صار يقرأ الشعر ويحفظه حتى مرن لسانه على قوله ، وتلك أزمة اللغة ، وطبع على الفصاحة . وكل هذه الهنات التي ذكرناها مصدرها اعتداده بنفسه واعتماده على ذاكرته وعدم دراسته المنظمة ، ولكنها تافهة لا تغض من شعره أو تضير منزلته بشيء .

٤ — هذا وللبارودي مبالغات سقيمة من مثل قوله :

وما زاد ماء الفيـل إلا لأنـي وقفت به أبـكى على الأحباب
ويكرر هذا المعنى في قوله :

وكفـكفت دمعاً لو أسـلت شـثونه على الأرض ماشك امرؤ أنه البحر
ومن مثل قوله :

إذا تنفست فاضت زفرتي شرراً كما استنار وراء القدحة اللهب
على أنها تغتفر له فإنها خيالات شاعر .

الفصل الخامس

نهضة النثر

عرفت فيما سبق^(١) كيف أن الصحافة في عصر إسماعيل نهضت بلغة الكتابة ، وحررت النثر من السجع المتكلف ، والإمعان في طلب المحسنات البديعية ، وأنها تناولت موضوعات شتى مما يمس الحياة العامة ومشكلات الشعوب ؛ بيد أن نظرتنا ثمة كانت عابرة ، لم تقف طويلاً لتتعرف خصائص هذا النثر ومميزاته الفنية ، والموضوعات المتباينة العديدة التي خاض غمارها ، والعوامل الكثيرة التي تضافرت على النهوض به ، والتي اتخذت من الصحافة منبراً يذيع على الناس فكراً جديداً .

ورأيت أن المدرسة الديوانية التي مثلها عبد الله فكري لم تتناول السياسة والاجتماع والإصلاح وأن موضوعاتها لم تتعد الأمور الشخصية أو الأدبية البحتة كرسائل التعزية والتهنئة والاعتذار والرجاء ، أو وصف منظر جميل أو آنية أنيقة الصنع ... وما شاكل ذلك مما يكون مبعثه الشعور الشخصي .

ولقد شهدت أخريات إسماعيل ، وعهد توفيق لوناً جديداً من النثر ، وأدباً ينبض بالحياة وبالحرارة رأينا نتفأ منه من قبل^(٢) وآن لنا أن نخصه بنظرة واسعة

(١) موضوعاته :

أما موضوعات هذا النثر فكانت واسعة الأفق ، وتناولت مشكلات الحياة

وما يهم الشعوب وما يبعث على اليقظة والنهضة وتراها ممثلة في :

١ — الدفاع عن الشعوب المظلومة التي ظلت تنن تحت نير العبودية والعسف قروناً مديدة ، لا تعرف كيف تراجع الحاكم في حكم أبرمه ولو كان ظالماً ، ولا كيف تثور وتشكو ، وتنن وتتوجع وتسمع شكاتها للعالم ، والحاكم سادر في غلوائه ، يمتص دماءها ، ويسخرها لأهوائه وشهواته ، ولا يفكر في نفعها إلا بمقدار ما يعود عليه هو من الفائدة ، استمع للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كيف يصور لك حال مصر قبل أن يشيع هذا الأدب الجديد ، والفكر الجريء في أرجائها : « إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ، ومن يستغيبه عنه في تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانتة وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبدية في إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمتة ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم . وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية — ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد علي باشا الكبير وإبراهيم باشا لم يشعر الأهالي بشئ من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف . ومع أن إسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية

لأن مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل ، ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة خير غير التي يوجه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال «

وكان الأدب صدى لهذه الحياة البئيسة التي تقبر فيها الحريات وتغل العقول يتغنى بما قام به هذا الحاكم الظالم من أفعال وضيعة ، ويصور سيئاته حسنات ، وسخافته آيات ، وحماقته معجزات . ولكن الأدب الجديد أخذ ينظر إلى هذه الشعوب ، ويجعل خيرها غاية ، فيهاجم من اعتدى عليها ، ويبين للناس سوء حالهم ومواقع بؤسهم ، ويعرفهم أدواءهم وطرق علاجها ويقف للحكام بالمرصاد يذيع سيئاتهم ومظالمهم ويهاجمهم في غير هوادة أوقف ، ويشجع أفراد الأمة على المطالبة بحقوقهم ، وألا يخشوا بأس الحاكم وجبروته ، لأنه مدين بقوته لهم ، وبغناه وضياعه لكدهم وكدهم ، استمع كذلك إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده كيف يحرض الأمة على خلع نير العبودية ، والحد من سطوة الحاكم الغاشم ، وينعى عليه جهله وسفالته :

« إن الأمة التي ليس لها في شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في مصالحها ولا أثر لإرادتها في منافعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتدوالها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها ، فهو تابع لحال الحاكم . فإن كان حاكمها عالمًا حازمًا أصيل الرأي ، على المهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ورفع فيها منار العلم ، ومهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها أبواباً للتفهن

في الصنائع والحدق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلى بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة ، وإيلاء الضيم ، والأنفة من الفذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة ، وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير .

وإن كان حاكمها جاهلا ، سيئ الطبع ، سافل الهممة ، شرها مغتلاما ، جباناً ضعيف الرأي ، أحق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبواباً للعدوان فمتغلب القوى على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة ، ويغلب اليأس فتمتد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة . عند ذلك إن كان في الأمة رمق من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها وأراد الله بها خيراً ، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهممة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة ، واستمصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياح بذورها ، وأجزاءها السامة القاتلة بين جموع الأمة فتميتها وينقطع الأمل من العلاج ^(١) »

بمثل هذا الأدب أخذ المصلحون ينادون الأمم المستكينة للذل ويوقظونها من سباتها العميق ، وينددون بما عليه أبنائها من جبن وخور ، فلا يغضبون لكرامة امتهنت ، ولا يشعرون لعفاف ثلم ، وشرف دنس :

« الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناها ، هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها ، هو الذى وهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف

قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل ثير العبودية الثقيل ، يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والتذليل بالجلد ، ويوطئ الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة عليه ؛ يرى الجبان وعمر المذلات سهلاً ، وشظف العيش فى المسكنات رفهاً ونعياً « من يهن يسهل الهون عليه ما لجرح بميت إسلام » (١)

وإذا جاوز الحاكم حده ، وطغى وبغى واستبد ، وباع بلاده للأجانب الطامعين ، والمستعمرين الغاصبين ، ونكل بالأحرار المفكرين كما فعل نوبار باشا مثلاً حين طلب إبعاد الزبير باشا من مصر ، وحين خارب اسم رياض باشا المصلح ، وحين مكن للإنجليز فى وادى النيل ، فإن زعماء الإصلاح لا يترددون فى التحريض على قتله ، وتخليص الأمة منه :

« إني أتعجب وكل ذى إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والحجازيين واليمنيين ؛ ألا يوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده ويتقدم بصدرة ، ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمئى فيبطل هذه الصفة وينقض هذه البيعة ، ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية ويرفع الحجاب عن واجبات الملية ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ! إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل فى ذل ، ويعيشون من خوف العبودية فى العبودية ويتجرعون مرارات سكرات الموت فى كل لحظة خوفاً من الموت . لا الدين يسوقهم

إلى مرضاة الله ، ولا الحمية تدفعهم إلى ما به فخار الإنسان » (١)

وأنصت إلى السيد جمال الدين الأفغانى كيف يثير فى النفوس الحمية ، ويريدها متمردة على الطغيان والعسف والهوان ، وينعى على المصريين خورهم واستكاثتهم إلى كل من يحكمهم ؛ فقد روى سليم بك عنحورى عن السيد جمال الدين قوله : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم ومواد غذائكم التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم معرضون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير الفخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمة ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لکم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سميوة ، وحصون دمياط ؛ فهى شاهدة بمنعة آبائكم وغرة أجدادكم .

هبوا من غفلتكم !... اصحوا من سكرتكم !... عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء .

بل كان السيد جمال الدين فى غاية الجرأة يحرض على الثورة علانية فى

كلمات ملتهبة تثير الهمم الخاملة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتحرك العقول الجامدة من مثل قوله من خطبة له بالاسكندرية قبيل خلع الخديو اسماعيل :
 « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ، وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » .

٢ — الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى في الحكم ، حتى تشعر الأمة أن مقدراتها بيدها ، وحتى تأمن جانب الحكم وعيبتهم بكنوزها وأرزاقها ، بل مقاصرتهم على استقلالها وحريتها ، وحتى لا تدع للأجانب حجة يتكثرون عليها في إشرافهم على الحكومة وإدارتها .

وقد رايت طرفاً مما قاله البارودي الشاعر في الشورى . ولقد كانت هذه الروح التي تجلت في شعر البارودي قبساً من نار مشتعلة في نفس جمال الدين الأفغاني وصحبه وحواريه من أمثال محمد عبده وعبد الله نديم ، وأديب إسحاق ، استمع إلى هذا الحوار بين توفيق باشا وبين السيد جمال الدين الأفغاني وقد طلبه للمثول بين يديه في قصر عابدين :

قال توفيق باشا : « إني أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ؛ فيلقون أنفسهم في تهلكة » .

فأجاب جمال الدين : « ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراداه ؛ ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذي تنظرون به

إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصيح هذا المخلص ، وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة لتسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم» . (١)

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، مبرهنًا على أن الأمة المصرية بلغت حدًا من النضج يؤهلها لأن تتولى أمورها بنفسها :

« ومما تقدم سرده تعلم أن أهالى بلادنا المصرية دبّت فيهم روح الاتحاد ، وأشرقت نفوسهم منه على مدارك الرأى العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الإهمال ، ويستيقظون من نومة الأغفال ، وقد صرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار حتى اشرأبت مطامعهم إلى بث أفكارهم فيما يصلح الشأن ويلىم الشعب ويجمع للمتفرق من الأمور ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية ، فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم طريق الشورى والتعاقد فى الرأى» (٢)

٣ — محاربة الاستعمار ، وإثارة الحمية الوطنية فى نفوس الشعوب المستذلة التى غلبت على أمرها وقادها ملوكها وزعمائها إلى الدمار والبوار ، بينما العدو يترص بهم الدوائر ، فلما لاحت الفرصة انقض على الفريسة كالوحش السكارى يوسعها نهشًا وعضًا ، حتى خرت تحت قدميه دامية الجسد هامة الفكر تنظر بعينين ملوؤا الرعب والذلة .

وقف هذا الأدب يصرخ فى هذه الأمم صرخات مدوية علها تفيق من

(١) خاطرات جمال الدين لمحمد باشا الخزومى .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ج ٢ ص ٢١٧ — ٢١٨

سبابتها ، وتنهض لمحاربة عدوها وتتنبه إلى الختل والغيلة والغدر والحيلة ، وشتى الوسائل الزائفة التي عمد لها الطامع الجشع من وعود مصيرها الخلف ، وموائيق غايتها النقص ، وأيمان يتبعها الخنث . كل ذلك حتى يمكن له في البلاد فيمتص دماء أهلها ويسخرهم لطاعته عبيداً غير مأجورين : وفعلة غير مشكورين :

« بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته خصوصاً في المسلمين منهم ، فلوك أنزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوو حقوق في الإمرة حرّموا حقوقهم ظلماً ، وأغزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء وأغنياء أمسوا فقراء وأصحاء أضحوأ سقاماً وأسود تحولت نعماً ، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين في أطماعهم خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوى المطامع فيها . حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لا تألفه فخارت ألبابها ، وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العربية فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب ، بل طوفان المصائب على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا^(١) . واستمع لهذه الفئة المصلحة اليقظة كيف تتنبه لهسكايد الإنجليز وصنائعهم في مصر ، وتفصح حيلهم : « نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ما ذكرناه في العدد السابق ، ونشرته بعدنا جريدة (الدّبا) وسائر الجرائد الإنجليزية ، وهو أن يكوى وليّ القاصر (عباس) بعد خلع أبيه فينال بسطة في السلطة ، وإطلاقاً في الأمر والنهي ، وعلم أن

هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الإنجليزية على تملك مصر ، وهي محتاجة في ذلك إلى كل من ليس له وطن ولا دين ولا جنس في مصر ، فهي في شدة الاحتياج لنوبار باشا . وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات إن قلت : لا ، فلا ، أو قلت . نعم ، فنعم ، فهو في غضبه ورضاه تابع لما يليق إليه ، فعلم نوبار باشا أن خديوياً مثل هذا يمكن أن يكون واسطة في تمكين الإنجليز من مصر من حيث لا يشعر ، وبتقديمه هذه الخدمة لهم يبني لنفسه من العزة قصرأ شاهقاً » (١)

واستمع كذلك إلى أديب إسحاق تلميذ جمال الدين الأفغانى ، وأحد الألسنة التى أطلقتها تفدد بالاستعمار وحيله ، كيف ينبه المصريين إلى خداع الإنجليز ، وتخديرهم المصريين بتخفيض الضرائب حتى يمدحوا أيامهم ، ويوازنوا بينهم وبين حكاهم المتعسفين فيرجحون في كفة العدالة ، وقد أشارت بعض الصحف بما قدم الإنجليز من عمل ، فثارت ثأثرته وقال :

« فهل خفى عن تلك الصحف أن ليس من شفقة الصياد على الطير إلقاؤه الحب بين يديها ؟ أو لم تعلم أن القائل بهمجية المصريين ، المعتقد بانحطاط مداركهم ، لا يطعمهم هذا الفتات إلا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم والتهام ثروتهم !

كلا ! إن الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لا تستطيع التصريح علماً بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره النور ، فإذا حاولت الجرائد إظهاره سارع إلى إطفائه بتعطيلها وإغائها .

يا أهل مصر : إني محدثكم حديثاً غريباً : إذا كان أمراؤكم خياركم ،

وأغنياؤكم أسخياءكم ، وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها .

٤ — السعى في إصلاح المفاسد الاجتماعية ، فالفقر الذى يذوى الشباب الغض والإهاب النضر ويذل النفس الأبية ، ويطوح بالأنفة والكبرياء بعيداً حين تصرخ المعدة الجائعة صرخة تنهار على إثرها النفس المتجلدة قد جثم على صدور كثير من أبناء الشرق ؛ يكدون ويكدحون لفئة قليلة من الأغنياء ، يبعثون على موائد الفساد ما جمع هؤلاء المساكين فى حمارة القيظ وصبارة الشتاء ، وهم يبيتون على الطوى ، وأبناؤهم يتضاغون من المسغبة والفاقة ، ويتضورون من الجوع والعري ، ويتلونون من السقام والأوصاب . والجهل الذى بنى أعشاشه فى رؤوس الجهرة من أبناء الشرق ، وباض وفرخ ، وملا الدنيا خرافات وخزعبلات يجب أن يحارب وتفتح لأبناء الأمة مغاليق الأمور حتى يعيشوا كالأناسى . إن الفلاح المسكين كان نهباً للمرابين والمستغلين يأكلون ظلماً وعدواناً ما سعى لتحصيله بنكد النهار وسهر الليل . استمتع لعبد الله نديم بصور لك هذا الجهل بالحساب ، ووقوع هذا الفلاح البائس فى أحابيل شياطين الفرنجة من المرابين والأفاقين ، وكيف يضاعفون ديونه ظلماً ، وينهبون ماله جهراً ، وهو لا يدرى من الأمر شيئاً كأنه سائمة ترعى . وقد ساق عبد الله نديم هذه المحاورة بين الفلاح والمرابى باللغة العامية حتى يبين خداع هذا اللص الكبير ، وسذاجة هذا الجاهل الغر : ذهب المزارع إلى المرابى ليقترض مائة جنيهه بفائدة قدرها عشرون فى المائة ، فقال المرابى : حسن ! سأخصم من المائة عشرين فتستحق ثمانين جنيهاً ، وأضيف الفائدة وقدرها عشرون فىكون الدين مائة وعشرين ، ووافق الفلاح لجهله

بالحساب ، وبذلك أخذ ثمانين جنيهاً ليسددها مائة وعشرين ؛ وحين السداد جاء بكل ما أنتجته أرضه فاشترى المرابى بأبخس الأثمان ، وخرج الفلاح بعد بيع محصوله الكبير مديناً بمائتي جنيه في حين أن المرابى لو قدر المحصول كما يجب لسدد الفلاح دينه ودفع له المرابى فوق ذلك مائة جنيه ، ولكنه الجهل والغش ويحارب المصلحون زبرج المدنية الخلاب ، ولألاءها الخداع ، والفتنة التي أوقعت المصريين في شباكها ، فراحوا يلتمقون في نههم بالغ نفايات الحضارة الأوروبية العفنة يحسبون أنها تمديناً ، ونسوا دينهم وأخلاقهم الكريمة وعاداتهم الطيبة .

لقد جهد هؤلاء المصلحون والمفكرون في أن ينيروا للأمة سبيلها ويبصروها عاقبة السير في ظلماء الجهالة ، ويحثون على التعليم ، بل يشيدون المدارس ، ويخطبون في كل مكان على الأمة تستجيب لندائهم ، فتمرق من شرك الجهل ، وأحاييل الضلالة .

ونمت في الشعوب الجاهلة التي ظلت قروناً تخضع لسيطرة العتاة الجبارين صفات رديئة كالنفاق ، والرشوة ، والكذب ، والخداع ، والتراخي في العمل . إلى آخر هذا الثبت الشنيع من نقائص الأمم المغلوبة على أمرها ، حتى ماتت فيها روح الكرامة والعزة ، وكثير من المحامد التي لا تستطيع النمو في جو خائق بعثير الظلم ودخانها ؛ ولذلك عمد الكتاب المفكرون في هذه الحقبة إلى التشنيع على هذه الرذائل وتبشيعها لدى أفراد الشعب كي يقلعوا عنها .

وهكذا امتد أفق الكتابة إلى جميع الأغراض السياسية والاجتماعية ، وكانت الصحف خير معوان على بث هذه الآراء الجريئة ، والإرشادات النافعة ،

والنصائح الثمينة التي حركت الهم وأثارت العزائم ومهدت الطريق لنضج الأمم العربية والإسلامية .

وكان بجانب هذه الأغراض السياسية والاجتماعية موضوعات أدبية بحتة ، من وصف وتعزية وتهنئة ، وتحدث عن الأمور المعنوية كالجمال والعاطفة والذوق والسعادة وما شاكل هذا . وقد حاول بعض الكتاب أن يرشد الناس إلى ما تقتضيه صنعة الكتابة من أمور ، وما تتطلبه من جهود كأديب أسحاق ، وقد بين في مقالاته (١) شروط الكتابة السليمة وأنواعها . فيقول الشيخ خليل اليازجي في الإنشاء .

« الإنشاء ملكة راسخة في النفس يعين عليها سلامة الذوق وطول المزاولة ، والناس فيها طبقات متفاوتة مرجعها في الأكثر إلى بدهة الخاطر وذكاء البصيرة وغزارة المادة ، وله أحكام إذا راعاها المجيد نبغ فيه ، وإذا راعاها الضعيف استأنس بها ، فأعانتته على الجرى فيه » (٢)

ومن رسالة لعبد الله نديم يشكر صديقاً على كتاب وصله منه (٣) :

« لببيك كوكب الصبح ، دام نذاك ، وسعد بك نسيم الصبا ، طاب شذاك ، وأهلا بك يا نور النهار ، ومرحباً بك يا نور البهار ، فإني أرقى للقاء مذ سمعت بالإسراء ، وما زلت أسأل عن ركبكم في منازل البدر ، وأستفهم منه ركبان النجوم حتى مطلع الفجر ، فالشعري تقول : تركتهم بتلك المرحلة ، وعطارد يقول : تقدمتهم بمنزلة ، والمريخ يقول : أناخوا ركائبهم ، والمشتري يقول : أثاروا نجائبهم ، والدجى تقول : ليلهم قمرى ، والزهرة تقول هم أولاء على أثرى ،

(٢) بحالى الغرر ص ١٠ ج ٣

(١) بحالى الغرر ج ٣ ص ٥

(٣) سلافة النديم ص ٤٥

وكل ذلك وأنا هائم كحاطب بليل حتي طلعت على من جانب السحر سهيل ،
فهمت بتقبيله فأبى ، وارتفع عني ونبا ، فأشرت له بتلطف وأنشدته بتعطف :
سهيل انعطف وانزل بساحة مغرم يراك بعين طول ليلتها عبّري
عسى يأخذ الأخبار منك عن الآلى سيصلى بهم جمر الغضا ولك البشرى»
ومن هذه النماذج التي سقناها إليك تستطيع أن تدرك إلى أى حد وصل
النثر الفني في هذه الحقبة التي نتحدث عنها ؛ بل إنه سار إلى سبيل الكمال
حقيقاً حتى يومنا هذا ، لم يرجع القهقري منذ تكونت هذه المدرسة الإصلاحية
ومنذ أثمرت نهضة إسماعيل العلمية والأدبية ، بل تراه قد زاد فنوناً ، وتنوعت
موضوعاته ، وتعددت نظراته إلى الأشياء ؛ لكثرة ما قرأ الكتاب من الأدب
القديم ، وما اطلعوا عليه من آداب الغرب . ولهذا النثر مميزات وخصائص
وطابع يعرف به ، ويختلف عما شاهدناه من الكتابة الديوانية .

ب — سميراته :

إذا كانت الأحداث السياسية ، وتقلباتها الكثيرة ، والثورات العنيفة ،
ويقظة الشعوب الشرقية والإسلامية ، قد وضعت أمام الكتاب مادة خصبة
غزيرة ، وجعلتهم يخوضون في شتى الموضوعات ؛ وإذا كانت الحال الاجتماعية ،
وما عليه الناس من فقر وجهل ومرض وانحلال قد دعت زعماء الإصلاح الاجتماعي
إلى تشخيص الداء ، ووصف الدواء ، وحث الهمم على التخلص من تلك الرذائل
فإن ثمة عوامل أخرى نهضت بالنثر من حيث أسلوبه وألفاظه . وقد مر بنا
ما قدمه إسماعيل ورجاله للنهضة الأدبية من وسائل كالمدارس ، والمكتبات العامة
وانتشار الصحف ، وتشجيع المطابع على إحياء تراث الآباء والأجداد ، والقيام

بترجمة شئ من أدب الغرب . وقد أضفى كل هذا على النثر طابعاً خاصاً ، فخلصه في الغالب من المحسنات البديعية التي كانت شائعة في الكتابة الديوانية وصرف الأدباء همهم إلى العناية بالمعاني لا إلى تنميق الألفاظ ، اللهم إلا في الموضوعات الأدبية البحتة ، وخلا النثر من المبالغات الممجوجة والأخيلة السخيفة وانصرف عن المقدمات الطويلة التي كثيراً ما تستهلك جهد الكاتب والقارى جميعاً دون بلوغ الغرض الذي سيق له الكلام .

وكان من أثر هذا كذلك تغير طريقة الكتابة طوعاً لتغير طريقة التفكير من تقصير الجمل ، وفصل العبارات ، وحبس كل واحدة منها على أداء معنى واحد واعتماد لون طريف في ترتيب الكلام وتبويبه ، ومسوق المقال في الغالب لأداء فكرة واحدة ، واستحداث صيغ جديدة لأداء معان جديدة ، والتجوز بكثير من المفردات لإصابة ما لا تطوله بأصل الوضع اللغوي .

ولقد رأيت من النماذج التي سقناها إليك أن موضوع هذا النثر : اجتماع ، أو سياسة ، أو أدب ، ولقد تميز كل نوع من هذه الموضوعات بسمات عامة اقتضتها روح الموضوع وطريقة علاجه .

١ — فالنثر الاجتماعي يتطلب صحة العبارة ، وبالضرورة البعد عن الزخرف والزينة ، ووضوح الجمل ، وترك المبالغات ، وسلامة الحجج وإجرائها على حكم المنطق الصحيح ؛ لأن الغرض منه معالجة الأمر الواقع ، فلا ينبغي استعمال الأقيسة الشمرية ، ولا الخيال المجنح ، اللهم إلا في المقامات التي تقتضى استفزاز الجماهير ، وإثارة عواطفهم ، وتحسيسها للاقلاع عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بنفع عام ، على أن يكون ذلك بقدر ، فإن الأغراض الاجتماعية إنما تجرى في حدود الحقائق الواقعة على كل حال .

وقد رأيت أن هذا النوع من النثر قد خلا من السجع المتكلف ؛ لأن
 الاهتمام باقتناص السجعة قد يفوت على الكاتب الغرض الذي يرمى إليه ،
 وقد يذهب المعنى في سبيل سجعة متكلفة ، بل قد حمل بعض الكتاب في هذا
 العصر على هذا السجع فقال أديب أسحاق مع أنه كان ممن يسجعون أحيانا :
 « ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء في الجاهلية وصدر الإسلام إلا ما كان
 منه عفو القريحة فواصل غير مقناة ، أو ما يعزى إلى الكهان والمشعوذين ،
 مما يراد به الإيهام والإيهام ، فلما استولت العجمة على الألسن ، وضعفت قوة
 الاختراع في الأذهان سرى داؤه في المكتبة إلى هذا العهد ، فعدل الكتاب
 عن الكلام الفحل واللفظ الساذج والأسلوب الطبيعي إلى هذه الأسجاع
 الملفقة البالية ، يتناقلونها خلفاً عن سلف ، ويطيّلون بها الكلام بلا طائل سترأ
 لقصورهم في ابتداء المعاني وإيضاح وقائع الحال من طريق البلاغة والإيجاز » (١)
 والانصراف عن السجع والزخرف في هذا النوع من النثر بدعى ؛ لأن
 الفكر منصرف إلى تفتيق المعاني ، وسوق الحجج ، وضرب الأمثلة لا إلى
 الجرى وراء كلمة أو سجعة .

٢ — النثر السياسي أو الصحفي ، ويمتاز بالسهولة والوضوح بحيث يكون
 معناه في ظاهر لفظه ؛ لأن الصحف تخاطب الجماهير ، ويقرؤها الخاصة والعامة ،
 وتتحدث إلى الجهال كما تتحدث إلى المتعلمين ، هذا إلى أن قراءها إنما يبتغونها
 للساعة ، فلا محل للارتفاع بعبارتها والتعمق في معانيها مما يقتضي من القارى
 كد الذهن ، وإرهاق العصب .

وإذا كان النثر الاجتماعي ينبغي أن يجري الاحتجاج فيه على الأقيسة المنطقية ، لأنه يعتمد على القضايا العلمية والحقائق الواقعة ، فإن النثر الصحفي لا يلتزم فيه ذلك ، بل يلجأ إلى الأدلة الخطابية ؛ لأنها أنفذ في إقناع الجماهير من سواها إذ تقوم النزعات السياسية في الغالب على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية .

وليس في هذا النثر احتفاء بالأسلوب ، أو تخير للألفاظ ، أو جنوح إلى الخيال ، أو تعمق في المعنى ، وإنما هو التصوير السريع ، وليس فيه تحقيق علمي منظم مبني على الاستقراء أو ذكر المقدمات الوافية ، ويكثر فيه التكرار ، وعدم ترتيب الفكرة .

وهناك صحف خاصة ، أو مجلات علمية وفنية ، ويلحق بها الأبواب التي تحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون ، فهذه ينبغي التأنق في عباراتها والإيفال في معانيها تحقيقاً للغرض المقسوم بها من تعليم العلوم وترقية الآداب ، ولا يقبل على قراءة مثل هذه المجلات إلا المتعلمون .

٣ — النثر الأدبي ، وهو أشد أنواع النثر حاجة إلى تخير اللفظ ، والتأنق في النظم ، حتى يخرج الكلام مشرقاً منيراً ، لطيف الموقع في النفوس ، حلو النبرة في الأذان ، لأن الموسيقى اللفظية أثراً كبيراً في الأذهان . وهو أدنى أنواع النثر إلى الشعر ؛ ولهذا لا ينكر منه البديع ، على ألا يكون من الكثرة بحيث يستهلك ذهن القارئ ، وبحيث لا يستكره على النظم استكراهاً ، ولا تساق الجملة لمجرد اصطياده ، بل إن خيره ما جاء عفواً .

ويقتضى التأنق في اللفظ ، وجودة السبك ، وتفتيق المعاني ، معرفة بأسرار اللغة ، ووفرة محصول من المفردات ، وخبرة بالكلام الجيد ، واستظهار

كثير من المنثور والمنظوم ، هذا إلى طبيعة موالية ، وحس مرهف ، وذوق رقيق ، وفطنة إلى مواطن الجمال .

وعلينا بعد إذ سقنا إليه أمثلة من أنواع النثر ، وعرفناك بخصائصه ومميزاته ، أن نطلعك على سير موجزة لأعلام البيان في هذا العصر ، وما برز فيه كل منهم .

١ - السير بمجال الدين الأفغانى :

وإذا أردت أن تقف على الروح التي تكمن من وراء هذا الأدب الحى ، والتي بعثت في الشرق الإسلامى كله حيوية دافقة ، وهزته هزة عنيفة أيقظته من نومه الطويل ، وعرفته كيف يطلب حقه من الأقوياء العتاة ، وكيف يدفع عن نفسه جور الظلمة القساة ، فاعلم أن هذه الروح تمثلت في السيد جمال الدين الأفغانى ، من يدين له الشرق الإسلامى بيقظته القومية والفكرية في العصر الحديث .

رجل فرد ، استطاع بما أوتي من عزيمة جبارة تنهار أمامها العروش وتزلزل الممالك ، وتتقوض الحصون ؛ وبما أوتي من فكر نير مشرق ملهم يتقشع أمام ضوئه الوهاج حندس الجهل ، وغياهب الظلم ؛ وبما أوتي من لسان ذرب طلق حاد مطواع يدفعه شعور متقد ، وعاطفة متأججة ، وإحساس مرهف ، وحماسة عارمة فيلهب بهذا اللسان ، وذياك الشعور كل من ينصت إليه ، فيحيل البليد نشيطاً ، والجبان جريئاً ، والخاذل مقداماً ؛ استطاع هذا الرجل وحده بهذه القوة أن يخلق قادة وزعماء ، وأن يكون جيلا من الناس يسرون بأمرهم إلى حيث أمل السيد وصوب ، فكان بعمله أقوى من الحكومات العتيدة الفتية . وهكذا يأبى الله إلا أن يضرب للناس أمثلة على بالغ قدرته ، وعظيم

إعجازه في كل جيل . وقد مر بك ما قاله الشيخ محمد عبده عن حالة مصر قبل أن يهبط واديها جمال الدين ، وكيف أن بعثات محمد علي وإصلاحاته ، ونشاط اسماعيل وتقديراته ، وإطلاع بعض شباب مصر وشيوخها على حضارات الأمم الأوروبية وغيرها لم يؤت ثماره ، ولم يبعث في الأمة هذه الروح المتوثبة ، ولم يحرك خامد العزائم ، وينصب المثل العليا أمام الشعوب تهدف إليها في سيرها وتحث الخطى نحوها ، وإنما وجد ذلك كله على يد جمال الدين . فأى رجل كان هو ؟

شعلة متقدمة من الذكاء ، وسرعة الخاطر ، وقوة العارضة ، شديد الرغبة في الإصلاح ، وإنهاض الأمم الإسلامية ، وتحطيم الأغلال والقيود التي جعلتها في مسغبة ومذلة وجهل ومرض وانحلال ، كان ثورة عنيفة على الظلم والقهر والجبروت قابله السلطان عبد الحميد الطاغية في (يلدز) فطلب منه أن يكف عن هجانه على شاه العجم فقال السيد : « إنى لأجلك قد عفوت عنه » ، فارتاع السلطان لهذه الكلمة الجرئية ؛ عفا « السيد » عن الشاه ذى الحول والسلطان : أجل فالسيد أقوى منه بأساً وأعظم قدراً ، وأقدر على النكاية ؛ إنه حرب شعواء تطوح بالتيجان وتدك العروش . ويجلس السيد جمال الدين بحضرة عبد الحميد ، وهو يداعب مسبحته غير حافل بمن تعودت الأبصار أن تخشع في مجلسه ، وتطأطئ الرؤوس فرقاً ورعباً منه ، ونهبه إلى هذا كبير من رجال الحاشية بعد مغادرة عبد الحميد للمجلس فقال له : « إن السلطان يلعب بمسقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بمسبحته كما يشاء ؟ » فارتاع الرجل ، ويهرب من سماعه هذه الكلمة التي لم يجرؤ إنسان أن يرفع بمثلها أو بما هو أقل منها صوتاً في البلاد الإسلامية .

ولد السيد محمد جمال الدين في قرية (أسعد آباد) من قرى (كنر) ببلاد الأفغان سنة ١٢٥٤ هـ - ١٨٣٩ م من أسرة شريفة تنسب إلى الإمام الترمذى المحدث المشهور ، وترقى إلى الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما . وانتقل به والده إلى كابل وهناك تلقى تعليمه ، فدرس مبادئ العلوم العربية والتاريخ ، وعلوم الشريعة ، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ، وفلسفة ، وكذلك العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك ، ودرس نظريات الطب والتشريح ؛ ثم سافر إلى الهند ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، واطلع على علوم الرياضة في الطرق الحديثة ، وقدم الحجاز للحج ، وقضى في رحلته إلى مكة سنة ، فأفادته الرحلة خبرة بالشعوب الإسلامية ، وأحوالها الاجتماعية ؛ ثم رجع إلى بلاده ، واشترك في مؤامرة سياسية مكنت بعض الأمراء من التغلب على عرش الأفغان ، فعظمت مكانته لدى هذا الأمير ؛ ولكن عصفت الأحداث بأميره هذا ، وحاول خلفه الانتقام من السيد جمال الدين ، ففطن لمساكيد غادر بلاده إلى الهند فصر ، ومكث بمصر أربعين يوماً ، ومن ثم يم صوب الآستانة فذاع صيته بها ، وعلت مكانته حتى انتخب بعد مدة وجيزة عضواً في مجلس المعارف الأعلى ، ولكن آراءه الأصلحية الجريئة ، وأفكاره الحرة التي لم يألها الناس في عصره بعثت في نفوس رجال عبد الحميد الهلع ، وتآلب عليه كثير من علية القوم ، ولا سيما شيخ الإسلام فجاه الأمر بمغادرة البلاد خشية أن يشعل في عرش عبد الحميد الحريق .

فقدم السيد جمال الدين مصر ، ودخلها في مارس سنة ١٨٧١ ، ومكث بها ثمانى سنوات كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى الشرق العربي والإسلامي ، فقد حاول جمال الدين من قبل أن يغرس تعاليمه ، وينفخ في الشعوب

الشرقية من روحه ، ولكن وجد أرضاً مجدبة ، وشعباً ميتة لم تستمتع
لندائه ، وما أن نزل مصر حتى فتحت له ذراعيها ، وحبيت له الإقامة بها والتف
حوله لغير من أبنائها ، من كل تواق للحرية محب للعلم حريص على نفع وطنه
وإنهاض قومه ، وتجاوبت روحهم وروحه : وجدوا فيه المعلم الفذ والمفكر الجريء
وصاحب العقل المستقيم ، ووجد فيهم تلامذة بررة ، وعقولا خصبة ، ونفوساً
تتحرق شوقاً للحرية والعدل .

كانت هذه السنوات الثمان مليئة بالأحداث ، فقد غرقت مصر في ديونها
التي اقترضها اسماعيل ، وبدأت مطاعم إنجلترا وفرنسا ظاهرة جليلة ، فأنشئ
صندوق الدين وفرضت الرقابة الثنائية واستحالت هذه الرقابة إلى مشاركة في
الحكم ؛ إذ دخل وزارة نوبار باشا وزيران أوربيان أحدهما فرنسي والآخر
إنجليزي ، يشرف الفرنسي على وزارة الأشغال ويصرف الإنجليزي وزارة المال^(١) ،
وأي احتلال أبشع من هذا ؟ إن الذي يصرف المال قوام علي شئون الدولة ،
ومن يتولى وزارة الأشغال مهمين على تقدم الأمة ، فكان عجباً ألا ينفمس السيد
جمال الدين في السياسة من أخص قدمه إلى قمة رأسه ، وهو الذي حاول من
قبل أن يثل عرشاً ، وينصب ملكاً ، ويصلح من شئون عبد الحميد المستبد
الطاغية .

جاء جمال الدين مصر وهذه ظروفها ، ووجد من اسماعيل العظيم صدرأ
رحباً ، لأنه رأى فيه العالم المشهور بفلسفته وعلمه ، فوجوده بمصر ربح لا يقدر ،
وهو في نظره أجل وأنفع من بعض المعاهد العلمية التي أنشأها ، لأنه معهد حي
حذكته التجارب وأنضجته الحوادث ، ولم يكن السيد قد عرف بآرائه السياسية
المتطرفة بل غلبت عليه الصبغة العلمية ، ولم يكن اسماعيل يخشى على حكمه

أحداً ، وهو الحاكم الذى لا يراجع فى حكم ، والذى يتصرف فى أقدار البلاد دون رقيب أو حسيب ، وكان مجلس الشورى آلة مطواعة فى يده ، لا يجهر باعتراض ، أو يجروء على مخالفة ، ثم إن إسماعيل كان يتحدى الدولة العثمانية فى ذياك الوقت ، ويتوق جهده إلى الاستقلال بأمر مصر ، وقد رأى أن الآستانة قد ضاقت رحابها بالسيد جمال الدين ، وخافت من آرائه وتعاليمه ، فلتبرهن مصر على أنها أقوى من تركيا ، وأكرم نفسها ، وأقدر على هضم آراء جمال الدين من أي بلد فى الشرق ، ولم يكتف إسماعيل بهذا الترحاب بل أجرى على السيد راتباً شهرياً زيادة فى إكرامه .

وأخذ هذا العقل المنظم الجبار يشع النور فى كل مكان يحله صاحبه ، فدروس منظمة يلقيها فى بيته على صفوة مختارة من حواربيه أمثال محمد عبده وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وكانوا جميعاً طلبة بالأزهر حينذاك ، وكانت هذه الدروس منطقاً وفلسفة وتصوفاً وهيئة ، مثل كتاب الزوراء فى التصوف ، وشرح القطب على الشمسية فى المنطق ، والهداية والإشارات وحكمة العين وحكمة الإشراق فى الفلسفة ، وتذكرة الطوسى فى علم الهيئة القديمة . وهى كتب قديمة تمثل علماً قديماً دونها أربابها فى العصور الأولى للدولة العربية ، ولكن الروح التى درس بها جمال الدين هذه الكتب ، والطريقة التى عرض بها هذه المباحث والتعليقات التى كان يفيض فيها عقب كل مقالة أو بحث ، والاستطرادات التى تدعو إليها مقتضيات العصر وظروفه هى التى حبت هذه الدروس وتلك الكتب لهؤلاء التلاميذ الأذكياء ، وجعلت من دروس جمال الدين نبغاً صافياً يغترف منه الطلبة علماً وفلسفة ووطنية واجتماعاً وحججاً قوية لرد المارقين عن جادة الدين ، ووجدوا فيه شخصية لا تتردد

في إصدار الأحكام العامة على القضايا المعروضة .

وبجانب هذه الدروس المنظمة كان للسيد مجلس آخر بأحد المقاهي القريبة من حديقة الأزبكية ، حيث يلتف حوله أنماط شتى من الراغبين في التزود من علمه وفكره ، يجلسون إليه ويطرحون عليه أسئلة في مختلف الموضوعات ، وهو يجيب إجابات العالم المحقق « لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يظهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر في الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم فاستيقظت مشاعر وتنبت عقول ، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصاً في القاهرة » (١)

في هذه الحلقة أنشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب ، ولكنها كانت روحاً مشعة تبدد دياجير الغفلة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتلهب الإرادات الخاملة وتفتح الأذهان المغلقة ، وفيها تخرج محمود سامي البارودي ، وعبد السلام المويلحي ، وأخوه إبراهيم المويلحي ، ومحمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحاق وغيرهم ، وفي هذه المدرسة العامة ، استعرضت حال الأمة الاجتماعية والسياسية ، وحقوقها وواجباتها ، وأدواؤها ودواؤها ، وانتقدت الحكم ، وبثت التعاليم الوطنية ، وفشت روح القدس من الأجانب وتدخلهم في شئون البلاد مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد . كان جمال الدين يقضى بياض نهاره في بيته يختلف إليه أخصاء تلاميذه ، وما أن يقبل الليل حتى يخرج متوكئاً على عصاه إلى هذا المقهى فيجد في انتظاره

(١) من ترجمة الإمام الشيخ محمد عبده له .

الطبيب والمهندس والأديب والشاعر والمعلم والكيماوى وغيرهم ويظل يحدّثهم بشغف وقوة حتى يمضى جزء كبير من الليل .

ولم يكتف جمال الدين بهذه المدرسة العامة ، ولا بالدروس الخاصة ، بل حاول أن يسيطر على الحياة السياسية ، فانضم إلى جماعة (الماسون) وبها الطبقة الممتازة من أبناء الأمة ، لعله يستطيع أن يريهم النور ، ويبصرهم حقيقة ما هم فيه ، وما عليه بلادهم وكيف يستطيعون نفعها بما لهم وجاههم ؛ ولكن وجد الحفل الماسونى يأبى أن يقتحم ميدان السياسة ، ويتعرض للمسائل العامة ، والقضايا الهامة ، فثارت ثائرتة وأخذ ينقد أعضاءه نقداً لاذعاً ، ويتهم بهم هذه الكلمات الجوفاء التى اتخذوها لهم شعاراً مثل « الحرية والمساواة ومنفعة الإنسان ، والسعي وراء ذلك صروح الظلم وتشديد معالم العدل المطلق » فكيف نتحقق معانى هذه الكلمات إذا لم يشتغل الحفل (الماسونى) بالسياسة . ولما أخفق فى بعث هذه النار الهامدة فى نفوسهم الميته استقال ، وكوّن محفلاً آخر للشرق الفرنسى ، وأخذ الأعضاء يزيدون حتى بلغ عددهم ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين ، ونظمهم شعبياً مختلفة : فشعبة للعدل ، وأخرى للمالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجيش وهكذا ، حتى تُدرس أحوال البلاد جميعها وتعرف وجوه النقص ، وما يتطلبه الإصلاح من أعمال .

وبذلك أراد جمال الدين أن يسيطر على عقول العلماء فى بيته ، وعلى أئمة المستنيرين فى مقهاه ، وعلى أزمة السياسة فى محفله ، ويأبى إلا أن يصبغ مصر المتعلمة غنيها وفقيرها بأرائه وتعاليمه ، ويدفعها فى الطريق التى رسمها .

أثره بمصر :

١ — أراد فى درسه النظامى أن يعود الطلبة حرية البحث ، ويطلعهم على

آفاق جديدة من التفكير وفهم العالم ، وأن يوجد شخصيات تبحث وتنقد وتحكم ،
 وألا تقف عند حد النص كأنه تنزيل من الله سبحانه ، وكانت طريقته في هذه
 المدرسة جذابة شائقة ؛ إذ يفيض في شرح المسألة ويعلق عليها من عنده ثم يقرأ
 النص بعد ذلك ، فإذا هو واضح كل الوضوح . وعلى العكس من ذلك كانت
 طريقة الشيخ محمد عبده ، إذ كان يقرأ النص أولاً ، ثم يعلق عليه بعد ذلك .

٢ — وأراد في مدرسته العامة أن يعلم الشعب كيف يسترد حريته المفقودة
 وكرامته المهدرة ، وكيف يحاسب حكامه حساباً عسيراً على تصرفاتهم ، وكيف
 يتنبه إلى دسائس المستعمرين الجشعين ونواياهم ، وكيف يعيش هذا الشعب عيشة
 تليق بالإناسي .

٣ — وأراد في ميدان السياسة أن يغير هذا الحكم المطلق الذي يستبد فيه
 الحاكم بأمره ، ويستنهين بشعبه ، ويتصرف في أموره وأرواحهم تصرف السيد
 في حر ماله وعبده ؛ أراد أن يشترك الشعب في حكم نفسه بنفسه ، وأن ينوب عنه
 ممثلون نيابيون يرعون مصالحه ويسهرون على إسعاده .

وقد كان له في السياسة كذلك مقصد أسمى من هذا وعنه عبر الشيخ محمد
 عبده بقوله : « إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها ،
 وتنبيهها للقيام بشئونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ،
 وللدين الجنبى مجده ، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية ،
 وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية ، وله في عداوة الإنجليز شئون
 يطول بيانها » .

٤ — وقد استعان على تحقيق هذه الأهداف — وإن لم تتحقق كلها
 ولا سيما السياسية منها — بتكوين جماعة من الكهول والشبان حبيب إليهم

الكتابة ، ورسم لهم خطتها ، وأوحى لهم بالمعاني الجديدة التي يكتبون فيها ، وشجعهم على إنشاء الجرائد ، يكتب فيها بنفسه ، ويطلب إلى من يتوسم فيه المقدرة والمنفعة أن يكتب فيها ، ومن مقالاته في جرائد أديب إسحاق ما كان يوقعه باسم (مظهر بن وضاح) ، وطلب إلى الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقاني وغيرها أن يشتركا في تحرير جريدة (التجارة) التي أنشأها أديب إسحاق ، وفي هذه الجريدة كتب السيد جمال الدين مقالان أحدهما «الحكومات الشرقية وأنواعها» ، والثاني بعنوان «روح البيان في الإنجليز والأفغان» ، وكان لهذين المقالين صدى بعيد ولكن جريدتي أديب إسحاق (مصر والتجار) ضايقا رياض باشا بروحهما الجديدة وأسلوبهما الملتهب ، وأفكارهما الجريئة فأغلقهما . وقد تدخل كذلك في تحرير «الوقائع المصرية» وطلب إلى الكتاب أن يدبجوا مقالاتهم في موضوعات معينة تمس حياة الأمة في صميمها ، فيقول الشيخ محمد عبده : «إن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتعلمهم شهواتهم ، ولا يردده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصيح الأمة له بالقول والفعل»

وتراه يحرض الصحفي اليهودي «يعقوب صنوع» على إصدار جريدته التهمكية (أبي نضارة) ويشجعه على الاستمرار في النقد الذي يلذع به إسماعيل . وقد كان لهذه المقالات أثران : أحدهما تنبيه الأذهان إلى المسائل الحيوية وتعويد الناس الجراءة على الحكم ومطالبتهم بالنصفة والعدل ، وتبيان مكائد الأجانب وجشعهم ، وثانيهما تكوين جيل من الكتاب متمكن من اللغة ، قدير على الإسهاب وشرح العضلات ، من غير لجوء إلى المحسنات والزخارف ، خبير بتفتيق المعاني وتوليد الأفكار ، متحرر من السخافات والجود ، متبعا في ذلك

سنن أستاذه جمال الدين الذى يقول عنه الشيخ محمد عبده : « له سلطة على دقائق للعانى وتحديداتها وإبرازها فى صورها اللائقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفككت عقدها . كل موضوع يلتقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنفاته ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعرىات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع » .

ويقول فى موضع آخر : « كان أرباب العلم فى الديار المصرية ، القادرون على الإجابة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد ، على ضعف فيه ، ومصطفى باشا وهبى ، على تخصص فيه ، ومن عدا هؤلاء ، فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها ، ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصرى ، لا يشق غبارهم ، ولا يوطأ مضارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصنعة ، وما منهم إلا أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه أو قلد المتصلين به » .

وقد مريبك ما تميز به أسلوب هذا النثر فى موضوعاته الثلاثة : الاجتماع ، والأدب ، والسياسة .

جمال الدين والثورة :

لم يكن جمال الدين على وفاق مع إسماعيل فى أخريات أيامه ، بل كان ناقماً عليه لاستبداده وإسرافه ، وتمكينه بسياسته للأجانب فى البلاد ، وكان يتوسم

الخير في توفيق ؛ إذ كان يجتمع به وهو ولي العهد ، ويرى ميله للأخذ بنظام الشورى ، ونقده لسياسة أبيه وإسرافه ، وقد اجتمعوا في محفل الماسونية ، وتعاهدا على إقامة النظام النيابي .

بيد أن توفيقاً لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم ، وسرعان ما تنكر لمبادئه ولأصدقائه ، فلم يدخل نظام الشوري ، ولم يحسن معاملة السيد جمال الدين الأفغاني ؛ بل استمع لأقوال الوشاة من الإنجليز وسواهم ؛ إذ حرضوه على إخراجهم من مصر ، فاستجاب لهم ، ولم يكن كريماً في معاملة هذا العبقري الشريف ؛ بل استعمل معه غاية الغلظة والقسوة والجفاف ، فساق إلى دار الشرطة بليل بعد انصرافه من مقهاه بغير غطاء أو فراش ، وبات ليلته كما يبيت اللص الأفاق على أرض الخفر ، ثم هرب إلى السويس حيث رحلت به سفينة إلى الهند ، وهكذا حرمت مصر مصدر خير كبير لها ، وجازت هذا النابغة على فضله جحوداً وجفوة .

ومن العجيب أن يضم مجلس الوزراء الذي أصدر أمره بنفيه بحجة أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » اثنتان أعجب بهما وتوسم فيهما الخير : توفيق باشا ، والبارودي ، وكان ألمه بالغا غاية للنكسة التي أصابت البارودي وقد كان يؤمل فيه كل خير ، ويعده ليوم عصيب في تاريخ مصر ، وقد ظلت هذه الآلام تحز في نفسه حتى أخريات حياته فقد زاره الأمير شكيب أرسلان وهو بالآستانة ، ويدور الحديث حول ما روي من أن العرب عبروا المحيط الأطلس قديماً وكشفوا أمريكا بدليل الأهرامات الموجودة ببلاد المكسيك ؛ فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان كونوا بنى آدم أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا في خيال

ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه من خمول وضعة . إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف آباؤنا ؟ نعم ! قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاد كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آباءكم إلا أن تفعلوا فعلهم إن المسلمين قد سقطت همهم ، ونامت عزائمهم ، ونامت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم هي شهواتهم . هذا محمود سامي البارودي عاهدني ثم نكث معي وهو أفضل من عرفت من المسلمين » .

والحق أن موقف البارودي من السيد جمال الدين لا يمكن الدفاع عنه . وإذا كانت مصر قد حرمت شخص جمال الدين فقد ظلت تعاليمه وروحه الثورية مشتعلة ، وقد انتقل منها قبس إلى كل من اتصل به ، يتطلعون إلى نظام جديد في الحكم حتى قامت الثورة العربية ، وكثير من أقطابها مدينون بأفكارهم وحماستهم للسيد جمال الدين .

أقام السيد جمال الدين بحيدر أباد بعد أن أخرج من مصر ، وهناك ألف كتابه في الرد على الدهريين ، وفيه يثبت أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران ، ويبطل فيه مذهب (داروين) في النشوء والارتقاء ؛ لأن هذا المذهب قد أثار موجة من الإلحاد والزندقة كادت تودي بالحياة الروحية في الشرق وهي كل ما بقي له من تراث السلف ، بعد أن نال منه الدهر غايته . وبين في هذه الرسالة كذلك أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ؛ كل منها ركن لوجود الأمم . أما العقائد فالأولى : التصديق بأن الإنسان مَلَك أَرْضِي وأنه أشرف المخلوقات ، والثانية : يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل يخالف له فعلى ضلال وباطل ، والثالثة : يقينه بأن

الإنسان جاء إلى الدنيا كي يكمل كمالاً يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى . وأما الخصال الثلاث : فهى الحياء والأمانة والصدق . وبين أن الأسلام يتميز على غيره من الأديان بمزايا عديدة : منها صقل العقول بالتوحيد وتطهيرها من لؤثة الأوهام ، ومخاطبته العقول حتى تؤمن فلا يقبل الاعتقاد بدون دليل ، وحرصه على تعليم الأمة ذكوراً وإناثاً .

ولما أخفقت الثورة العربية ، ودخل الإنجليز مصر أبيح له أن يذهب أنى شاء فى غير بلاد المشرق فاختر أوربا ، وزار لندن ثم انتقل إلى باريس ، ووافاه إليها تلميذه الأكبر محمد عبده ، وكان منفياً ببيروت وهناك أصدرهما معاً :

جريدة العروة الوثقى :

وهى دليل آخر على أن عزيمة السيد لا تفتر ، وعلى أن اليأس لم يبلغ فى نفسه مبلغاً يثنيه عن أداء رسالته . وقد كان من رأى الشيخ محمد عبده أن هذا الجيل من المسلمين ، الذى يدعونه للرشاد واليقظة جيل فاسد لا رجاء فيه ، وأن الأولى أن تنشأ مدرسة يربى بها عدد محدود من خيار الشباب يقودون الأمة فيما بعد لما فيه خيرها ونفعها ، واسكن هذه الفكرة لم ترق للسيد ، ورأى فيها تثبيطاً للهمم ، وكأنى به يتعجل قطف الثمرة لهذه الغراس التى أودعها المتصلين به ، وأصر على أن يوجه الدعوة إلى الجيل الحاضر من الناس فى صورة جريدة العروة الوثقى ، يكون له فيها الفكر المدبر والعقل المسيطر ، والشيخ محمد عبده القلم الحر واللسان المعبر ، ولميرزا محمد باقر الترجمة من الصحف الأوربية ، ونقل كل ما يهم الشرق والإسلام ؛ وصدر من الجريدة ثمانية عشر عدداً ، وكانت شعلة ملتهبة متوهجة من الحماسة والآراء الحرة الجريئة ، وكانت حرباً شنها

جمال الدين وزميله على الاستعمار الجشع ؛ وكان طبيعاً أن يحاربها الاستعمار خشية أن تفسد عليه تفردة بالغنيمة وقتله الشعوب التي وقعت في قبضته ، فمنعها من دخول الهند ومصر . ولما شعر السيد وزميله أن الأعداد لا تصل إلى أصحابها إلا في النادر ، وأنه قد حيل بينهم وبين وصول صوتهم إلى آذان الناس في مصر والشرق عطلوها ، وإن لم يمت أثرها حتى اليوم .

عود إلى الرمزة :

لما عطلت الجريدة ، انفرط عقد هذه الجماعة الصغيرة المجاهدة ، فرجع الشيخ محمد عبده وميرزا باقر إلى بيروت ، وطلب شاه العجم السيد جمال الدين فلبى دعوته عليه يحد ميدانا صالحاً للجهاد ، وأرضا خصبة لغرس تعاليمه ، وملكا شهما مستنيراً ينفذ آراءه فيكون هو الأمل المنشود ، ولكن هيهات وملوك ذاك الزمان ما ألفوا أن يشاركهم في سلطانهم أو جاههم أحد ، ولذلك سُمّ الشاه ناصر الدين صحبة السيد ودبت في نفسه الغيرة منه لازدياد مكانته عظما ، ولما أحس جمال الدين أنه أخذ يتنكر له استأذن في الزحيل ، ويم صوب روسيا حيث قضى بها ثلاث سنوات يحرك روسيا ضد إنجلترا ، ويشن هجمات متتالية شديدة على شاه الفرس كي يقر نظام الشورى ، ولما سأله القيصر عن سبب عداوته للشاه أجاب بأنه نظام الشورى الذي لا يرتضيه ، والذي لا أنفك أدعو إليه ما حييت فقال القيصر : إن الشاه على حق ، فكيف يرضى ملك أن يتخكم فيه فلاحو مملكته ، فقال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير الملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداءه يترقبون له الفرص ، فلم يعجب القيصر هذا الحديث ؛ وكان من الطبيعي ألا يعجبه وهو المستبد الذي لا ينازعه سلطته

منازع ، ولذلك عمل على إبعاده من روسيا .

ومن ثم توجه السيد إلى باريس ، وفي طريقه إليها تقابل مع الشاه مرة ثانية ، واعتذر للسيد عما حدث ، ووعد أن يمهّد له طريق الإصلاح إن هو عاد معه ، وتمنّع السيد جمال الدين ، ولكن رغبته في الإصلاح وحرصه عليه جعلته يقبل الرجوع إلى طهران . وفيها أخذ يعدّ العدة للإصلاح وإقامة العدل ، هو ومن التف حولّه من العلماء والعظماء ، والشاه يظهر استعدادّه لتقبل هذا الإصلاح ، ولكن الصدر الأعظم في تركيا خشي أن تمكّن نظام الشورى في فارس أن تسرى عدواه ، فوسّوس للشاه ، ونقّره من هذا الإصلاح ، بدعوى أن ذلك يحدّ من سلطانه ، ويتركه إمعة لا رأى له في بلاده ، فتجهّم للسيد جمال الدين ، ولكن هذا لجأ إلى ضريح ولي في بلاده (شاه عبد العظيم) وهو حرم من دخله كان آمناً ، ووافاه فيه جم غفير من العلماء والزعماء ولقنهم دعوته ، وملاً قلوبهم إحناً وبغضاً للشاه ونظامه فاغتاز هذا وأرسل جنده إليه ، واقتحموا عليه الضريح غير مبالين بحرمته ، ولا بمرض السيد ، وفي ذلك يقول : « سحّبوني على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة ... ثم حملتني زبانية الشاه وأنا مريض — على برذون ، مسلسل ، في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقنتني حجفلة من الفرسان إلى خانقين » ومنها سافر إلى البصرة وهو في أشدّ حالات المرض ، وكاد يقضى عليه لولا رحمة الله به .

ولكن هذا المكافح أبى أن يتقبل هذه الإهانة ، وأقسم ألا يكف عن الشاه حتى يسقطه من عرشه وقد برّ بقسمه ، وذلك بتحريضه العلماء والزعماء ، وتعيده مساوئ الشاه ، وتجسيمه أخطائه ، ولا سيما حين تعاقد مع شركة

إنجليزية للدخان ، واضطر الشاه إلى فسخ العقد ، ودفع تعويض مالى كبير ، فكان ذلك أول خطوة فى الانتقام .

وأخيراً ذهب السيد إلى لندن وأصدر مجلة شهرية سماها « ضياء الخافقين » بالعربية والإنجليزية ، وكان يكتب بها مقالات بامضاء (السيد الحسينى) .

خاتمة المطاف :

ثم رأى السلطان عبد الحميد أن يدعو إليه جمال الدين خشية أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة فيزيد في قوته ، وأرسل عبد الحميد رجاله يغرون السيد بالسفر إلى الآستانة ، ويمنونه الأمانى الحلوة حتى استجاب لدعواه فكان بها كأنه فى قفص من ذهب ، يحصون عليه حركاته وأقواله ، وإن لقي من السلطان حظوة عالية . بيد أن الحاشية ولا سيما أبو الهدى الصيادى ذلك الداهية المحتال الذى أتقن فن الدس والمؤامرات وتمكن من قلب السلطان حتى أصبح قوة غالبة ؛ قد أفسدوا السلطان عليه وما لبث عبد الحميد أن اصطدم بأراء السيد وجراته ، ولم يكن السيد يدع فرصة إلا حرضه فيها على الإصلاح ، وإقصاء الخونة والجبناء من حاشيته ، ولكنه لم يستجب لشيء من هذا . ولما قتل شاه العجم سنة ١٨٥٦ على يد أحد تلاميذ السيد ، اشتدت الريبة فى جمال الدين وضيق عليه حتى صار محبوساً فى قصره ، ولما أراد الرحيل ترضاه السلطان خشية أن يشنها عليه حرباً شعواء فى الخارج ، وهو تحت سمعه وبصره أهون ، ثم مرض السيد بالسرطان فى فمه ومات ، وشاعت الأقوال بأنه مات مسموماً ، أو أن الطبيب أهمل فى علاجه عمداً ^(١) وكانت وفاته فى ٩ من مارس سنة ١٨٩٨ ، ودفن فى

قبر حقير كما يدفن أقل الناس ، وطمست معالم هذا القبر إلى أن قيض الله له رجلاً
إمريكياً بحث عنه حتى وجده فجده ، وبني عليه حاجزاً حديدياً وشاده بالرخام
وكتب على أحد وجوه الرخام اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ؛ وفي وجه
آخر العبارة الآتية : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم الخير
الأمريكانى المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦ ^(١) » وهكذا خدت هذا الشعلة
المتوهجة ، وإن ظلت آثارها حتى اليوم في نفوس من خالطوه وأخذوا عنه ،
وفي نفوس تلاميذهم وأتباعهم والأجيال التي تأثرت بهم .

نبر من آرائه :

١ - - - مر بك في ثنايا هذه الترجمة الموجزة شيء من آراء السيد جمال الدين ،
وهناك بعض من أفكاره وتعاليمه ونظراته إلى الحياة جديدة بالنظر ، فقد كان
في أول حياته طموحاً ، ذا خيال واسع ، وأمل عريض شمل الإنسانية جمعاء ،
حتى دعاه ذلك إلى التفكير في السبب الذي يدعو الناس إلى الاختلاف والخصام ،
ويدعو الدول إلى الحروب والعداء وهذه تفكيره إلى أن السبب الأول هو تعصب
رجال الدين في كل ملة ، وسوء توجيههم للشعوب ، وشحن قلوبهم بالحق والباطل والبغضاء
لكل من خالف دينهم ، وفي هذا يقول : « ورجعت إلى أهل الأرض ، وبحثت
في أهم ما فيه يختلفون فوجدته الدين ، فأخذت الأديان الثلاثة ، وبحثت فيها
بحثاً مجرداً عن كل تقليد منصرفاً عن كل تقييد مطلقاً للعقل سراحه » ووجد أن
الأديان الثلاثة تتفق في الغاية والمبدأ وأنه « إذا نقص في الواحد شيء من أوامر
الخير المطلق استكملته الثاني — وإذا تقادم العهد على الخلق ، وتمادوا في الطغيان ،

وساءت السكهان فهم الناموس أو أنقصوا من جوهره آتاهم رسول فأكمل لهم ما أنقصوه ، وأتم بذاته ما أهملوه » ، وإذا كانت الأديان متفقة في المبدأ والغاية فما الذى يحول بين أهل هذه الأديان وبين الاتحاد ؟ إن اتفاقهم ووحدتهم تكفل السعادة للبشرية ؛ وبعد ذلك يقول : « وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً وأخط أسطراً ، وأحبر رسائل للدعوة ، كل ذلك وأنا لم أخاطب أهل الأديان كلهم عن قرب ، ولا تعمقت فى أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد ، وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف » . ولكن سرعان ما أدرك أن دون هذا الاتحاد أهوال وأهوال ، ولقد نسى قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ؛ ولذلك خلقهم » وأن من يتعرض لهذه الدعوة سيرمى بالكفر والإلحاد ، والخروج عن جادة الدين ، وقد رمى بذلك فعلاً ولهذا باء بالإخفاق وقال : « انقلبت أفراحي بالخيال أتراحاً ، ورجعت عن نظريتي والفشل ملء إهابي وجبتي » (١) .

وتطامن فى أهدافه ، ووجد أن الشرق المسكين أولى بالرعاية والعناية ، وأن إصلاح العالم كله محال ؛ ولذلك عكف على جهاده فى سبيل هذا الشرق وكان متألماً لبعض الخلافات الدينية بين أبناء الملة الواحدة كالسنة والشيعة .

(٢) وكان يرى ألا موجب لسد باب الاجتهاد فى الدين ؛ بل على المسلمين إذا أرادوا التقدم ، أن يستعملوا عقولهم ، ويستنبطوا كما استنبط أسلافهم أحكاماً تتماشى مع زمنهم وبيئاتهم ، ويقول : « ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد ، ومن قال لا يصح لمن بعدى أن يجتهد ليمتدحه فى الدين ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم

العصريه وحاجات الزمن وأحكامه ؟ . إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا
ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما
حواه القرآن ليس إلا قطرة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » (١)

وإذا تأملت أهداف جريدة العروة الوثقى التي ذكرها في المقال الافتتاحي
أدركت إلى حد ما بعض آراء جمال الدين في إصلاح الشرق ، وقد عرفت أن
جمال الدين كانت له الفكرة التي يعبر عنها محمد عبده في الجريدة . وهاك بعض
بعض هذه الأهداف والآراء :

(١) بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط
والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، ويستتبع ذلك
بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التي أفسدت حالهم ، وعمت عليهم طريقتهم ،
وإزاحة الغطاء عن الأوهام التي حلت بهم .

(ب) إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح ، وإزالة ما حل بها
من اليأس .

(ج) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها أسلافهم وهي ما تمسكت
به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

(د) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم
وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا متمسكين
بأصول دينهم .

(هـ) تقوية الصلابة بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ،

وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

وكان جمال الدين يعتز بشوقيته وبلغته ، ويشمئز من هؤلاء الذين يتنكرون لقوميتهم ولغتهم ؛ فإن هذا التنكر يساعد المستعمر ، بل هو أثر من آثار تعاليمه التي يرمى بها إلى الخط من شأن كل ما هو شرقي و « لإضعاف لغة القوم ، والتدرج بقتل التعليم القومي ، وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس في لسانهم العربي أو الفارسي أو الأردو الهندي آداب تؤثر ، ولا في تاريخهم مجد يذكر » . ولقد بلغ ببعضهم السفه « أن ينفروا من سماع لغتهم ، وأن يتباهوا بأنهم لا يحسنون التعبير بها ، وأن ما تعلموه من الرطانة الأعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية »

وقد عرفت فيما سبق كفاحه في سبيل حرية الشعوب ، ومطالبته بنظام الشورى ووقوفه أمام الحكام المستبدين كالجليل الأشم في جرأة وعزة نفس ، واستنهاضه الهمم ؛ كي تقوى دولة إسلامية تكون النواة التي يلتف غيرها حولها وبذلك يعاد مجد الإسلام ويقف قوياً أمام مطامع الغرب وعسفه .

لقد كان جمال الدين عالماً ومفكراً وفيلسوفاً ومصلحاً اجتماعياً ، أشرب قلبه حب بلاده ودينه ، وأرسله الله في هذه الحقبة من التاريخ ليبيد دياجير الجهل ويبعث الحياة في النفوس . ولقد أرغم خصومه على احترامه بصراحته وجرأته ، ولقد رأيت كيف ضاقوا به ذرعاً في كل مكان ؛ لأنه كان حرباً على الجهل والظلم والقسوة والطغيان ، ولقد أقر له الغربيون بالفضل حتى لقد قال عنه (رينان) وهو من هو في كرهه للمسلمين : « وقد يخيّل إلى من حرية فكر الأفغانى ونبالة شيمه وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أني

أرى أحـد معارفـي من القدماء وجهاً لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد
أو واحداً من العظام الذين ظلوا قروناً عدة يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار »

أسلوبه في الكتابة :

لم يكن جمال الدين مفطوراً على اللغة العربية مطبوعاً على أساليبها الفصيحة ؛
لأنها ليست لغته الأولى ، وإنما تعلمها تعلماً ، ولم يكن حظه من آدابها كثيراً ،
ولم يتذوق منازع بلاغتها بقدر كبير ، ولكنه أفادها فائدة جلية بإرشاد تلاميذه
إلى التحرر من القيود الثقيلة التي كانت ترسف فيها الكتابة الإنشائية من
محسنات بدیعة مختلفة ، وسجع متكلف ممقوت ، واستعارات غريبة وغير ذلك
عما أفسد المعنى ، وستر الأفكار عن الوضوح والجلاء ، كما أرشدهم إلى تجنب
المقدمات الطويلة ، وطبعي أن يصرفهم إلى الاهتمام بالمعاني ، لأن هناك أشياء
كثيرة يريدون الإبانة عنها ، والإفاضة فيها ، ولا يتسع هذا النثر المقيد لكل
تلك المعاني ولا يستطيع إيضاها كاملة ، ولقد رأيت فيما سبق نماذج من هذا النثر
دبحها تلاميذه ، أمثال محمد عبده وأديب إسحاق ، وقد قال أديب عن أسلوبه
الذي تأثر فيه بـمعالم جمال الدين : « رأيت . أن أصرف العناية والاجتهاد إلى
تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة ، لتقرير المعنى في الأفهام ، من أقرب
وأعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً من
الكلام ما كان غريباً وحشياً أو مبتذلاً سوقياً ، فإن التهافت على الغريب عجز ،
وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء . إذا سرى في القراء والمطالعين
أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم ، والتنازل إلى ألفاظ
العامة يقضى بإماتة اللغة وإضاعة محاسنها ، وإن في لغة القوم لدليلاً على حالهم »

وهذا الوصف الذى ذكره أديب إسحاق لنثره هو أثر من تعاليم جمال الدين
 وسترى من النموذج الذى سأعرضه عليك من نثره أن جمال الدين وإن لم يكن
 من المطبوعين على أساليب العربية الجميلة ، إلا أنه كان ينتزع البلاغة انتزاعاً
 فترى لقلمه سطوة لا تراها لكثير من الأقلام ، وقد مر بك ، ما قاله الشيخ محمد
 عبده فى قدرته على تفتيق المعانى والاحتفال بها ، ومن مزايا أسلوبه كثرة الجمل
 الاعتراضية ، والفصل بين فعل الشرط وجوابه أو المسند والمسند إليه بفواصل
 طويلة ، وهذا ناشئ من ترتيب فكره وتعوده على الأساليب الفارسية والأعجمية
 هذا وقد وفيما موضوعات النثر فى ذلك العصر حقها من الكلام ، وبينما
 الأسلوب الذى تميز به كل منها ، فألقى عليها نظرة لتقف على أسلوب جمال الدين
 فقد كان المرشد للكتاب ، وإن لم يكتب هو إلا القليل ، ومن هذا القليل
 الرسالة الآتية التى بعث بها إلى عبد الله باشا فكرى يعتب عليه — وقد بلغه أن
 رجلاً ذمه أمام الخديو على مسمع من فكرى باشا فسكت ولم يدافع عنه ، وهى
 من النوع الأدبى ولذلك احتفى بأسلوبها أيما احتفاء ، وفيها تتجلى خصائص
 أسلوبه عامة :

« مولاي : إن نسبتهك إلى هواده فى الحق وأنت — تقدست جبلةك —
 فطرت عليه ، وتخوض الغمرات إليه ، فقد بعث يقينى بالشك ، وإن توهمت
 فيك حيداناً عن الرشد ، وجوراً عن القصد ، وأنا موقن أنك لا زلت على
 السداد غير مُفرط فى الحق ولا مُفرط ؛ فقد استبدلت علمى بالجهل — ولو قلت :
 إنك من الذين تأخذهم فى الحق لومة لائم ، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم ،
 وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر ، ولو ألب الباطل الكوارث المردية ، وأجرى
 عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسى وكذبى من يسمع مقاتلى ؛ لأن العالم

والجاهل ، والفطن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك ، وتقاوة سريرتك
وانفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت ، لا تفارق المكارم
ولو اضطرت ، وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر أبداً ، ولا تصدر
عنك نقيصة قصداً ، ولا تهين في قضاء حق ، ولا تني عن شهادة صدق ، ومع
هذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمري ، وعرفانك بسيرتي وسري ،
أراك ما ددت عن حق كان واجباً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك
رعايته ، وكتمت الشهادة ، وأنت تعلم أني ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً
ولا أسررت لأحد في خفيات ضميري ضراً ، وتركنتي وأنياب الفذل اللئيم (فلان)
حتى نهشني نهش السبع الهرم العظام ؛ ضعينة منه على السيد ابراهيم اللقاني ،
ولم أعرف من أعدائي أحزاب (فلان) .

ما هكذا الظن بك ولا المعروف من رشدك وسدادك — ولا يطاوعني
لساني — وإن كان قلبي مذعناً بعظم منزلتك في الفضائل ، مقرراً بشرف مقامك
في الكمالات — أن أقول : عفا الله عما سلف ؛ إلا أن تصدع بالحق ، وتقيم
الصدق ، وتظهر الشهادة ؛ إزاحة للشبهة ، وإدحاضاً للباطل ، وإخزاء للشر
وأهله ، وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل . ثم إني يا مولاي أذهب
إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم ، وداعياً لكم ، والسلام عليكم وعلى
أخي الفاضل البار أمين بك .

جمال الدين الأفغاني

٨ صفر سنة ١٣٠٠

٢ — الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده :

و إذا كان جمال الدين قد أبعده الظروف القاسية ، وجنود القدر والاستعمار

عن مصر وهي أحوج ما تكون إليه ؛ فقد ظلت بها روحه الوثابة ، ومصر في ذياك الوقت قلب الإسلام الفابض ، وأمل العروبة الغض ؛ لأن تركيا — وهي مقر الخلافة — كانت عجوزاً مشلولة الأطراف ، جافة الفؤاد ، يابسة العود ، تعتلج في أحشائها الوسوس والدسائس ، ويسيطر عليها خلفاء شبعوا من اللذائذ المادية حتى بشموا ، وانغمسوا في حمأة الشهوات حتى شرقوا ؛ والشام قد هجرها المستغيرون الأحرار ، واستوطنوا مصر فراراً بنفوسهم الأبية أن يذلهما الظلم ، ويجرحها الحيف والاضطهاد ؛ وبقيّة أقطار العروبة في سبات عميق ، أو يقظة قريبة من الوسن ، قد أعدتها تركيا بأدوائها ، فهي تترنح تحت فتكات الأمراض الاجتماعية وآلامها المبرحة ، وتسكاد تسلم الروح إعياء وهزالاً .

أجل ! قد بقيت روح جمال الدين بمصر ترفرف على واديهما في شخص محمد عبده (١) وهو شيخ من صميم ريف مصر ، أرسله أبوه إلى الجامع الأحمدى ليتعلم كما يتعلم كثير من الناس بعد أن حفظ القرآن ، ولكنه ترمّد على هذا التعليم بعد سنة ونصف حاول فيها أن يفك طلاسم (الآجرومية) فأعيقه الحيل ، فأيقن أنه غبي ، وأنه غير مستعد لتلقى العلم ، وصمم على العمل في الحقل كما يعمل إخوته وأهله ؛ بيد أن والده أكرهه على الاستمرار في طلب العلم فهرب إلى أحد أخوال أبيه وهو :

(١) ولد محمد عبده بقرية « شنرا » بمديرية الغربية سنة ١٢٦٦ هـ — ١٨٤٩ م وانتقلت به أمه إلى بلدة أبيه « عبده خير الله » بحالة نصر بمديرية البحيرة بعد ولادته بقليل وكان أبوه ذا مكانة ملحوظة في قريته يمتاز بقوة الجسم وصحته ، وبشيء من سعة الرزق والكرم والاستنارة ، وقد ورث عنه محمد عبده كل هذا .

وقد ترك محمد عبده ترجمة حياته في وثيقتين إحداهما كتبها استجابة لصديقه الشاعر الرحالة الانجليزي « وفرد سكاون بلنت » وفيها شيء عن أصل أسرته وجزء من تاريخ حياته ، والثانية ما نقله عنه الشيخ رشيد رضا لإجابة على أسئلة وجهها إليه .

الشيخ درويش :

والشيخ درويش من الشخصيات التي أثرت في عقل محمد عبده وفي نفسه وفي خلقه ، وحددت له أهدافه في الحياة ؛ ولا يذهبن بك الظن ، فمتخيل أن الشيخ درويشاً هذا فيلسوف أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، أو أنه عالم من علماء التربية الأفاضل ، فلم يكن — علم الله — إلا شيخاً صوفياً سليم العقيدة ، نير البصيرة ، على حظ قليل من العلم ، وكثير من التجارب ؛ فقد تعلم على السنوسي بطرابلس ، وجاب بعض الأقطار يتلقى على رؤساء الصوفية طريقة الدعوة وسياسة النفس .

جاء محمد عبده إلى الشيخ درويش هارباً (٢) من العلم وكان في الخامسة عشرة من عمره ، فتياً قوياً مغرمًا بركوب الخيل واللهم مع أمثاله من الشباب ، ولكن الشيخ درويش تلقاه كما يتلقى الطبيب المريض ، وعالج هذه العقدة التي كوتتها (الآجرومية) في نفس الفتى ، وأعطاه كتاباً سهلاً في المواعظ والأخلاق ولم يكن للفتى صبر على القراءة ، وسرعان ما مل المجلس ، ولكن الشيخ درويشاً أخذه برفق وتؤدة ، وكان يفسر له ما يقرأ ، فوجد الفتى فيما قرأ لذة ، وانصرف عن اللهو ، وعكف على قراءة الكتاب ؛ ويقول في ذلك : « وطلبت منه (يوماً) إبقاء الكتاب معي ، فتركه ، ومضيت أقرأه ، وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت علامة لأسأله عنها ، إلى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب ، وهوى ينازعني إلى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سأله عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة

(١) مع العلم أنه كان قد تزوج وصمم على المكث بالبلدة ، ولكن والده أمره بالذهاب إلى طنطا بعد أربعين يوماً من زواجه .

في المطالعة والميل إلى الفهم . ولم يأت اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلى ما كنت أحبه من لعب ولهو ونفخخة وزهو ، وعاد أحب شيء إلى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم » (١)

وهكذا استطاع الشيخ درويش أن يحل العقدة النفسية ، ويعيد للفتى ثقته في نفسه وفي ذكائه ، ويرغبه في العلم . وقد أفاد الفتى من ذلك درساً لم ينسه مدى حياته ، وهو أن الأزهر بحاجة إلى الإصلاح الشامل في كتيبه التي تدرس وفي المعلمين الذين يقومون بالتدريس ، وكان هذا أحد أهدافه في الحياة كما سنرى وقد أفاد من الشيخ درويش درساً آخر وقر في نفسه وبدل من قيم الأشياء والناس عنده فلم يعد يهتم بالتفوق المادى والغنى والجاه ، بل علمه أن الإنسان الكامل في هذه الحياة هو من آمن وعمل صالحاً سواء كان غنياً أو فقيراً ؛ وعلمه كذلك أن الإسلام الصحيح يتنافى مع الأخلاق المنحلة والفساد ، لأنه عقيدة وعمل ، لا ألفاظ تقال ، ثم علمه كذلك أن الإسلام دين سهل سمح ، وأن مصدره الذى يجب أن يؤخذ منه هو القرآن وحده (٢) . وظلت هذه الدروس التي تلقاها في صباه تنمو وتترعرع في نفسه حتى صارت مبدءاً يسمى إليه وغاية يصبو إلى تحقيقها .

وليس هذا كل ما فعله الشيخ درويش من توجيه لتلميذه ، بل كان يلقاه

(١) وبهذا برهن الشيخ درويش في قريته على أنه أقدر من علماء الأزهر في هداية الطلاب وتحبيبهم في القراءة . ولقد كان مشايخ الصوفية في الماضى رسل هداية وتبشير وعلى أيديهم أسلم كثير من وثني السودان وزنوج غابات أفريقية ، وهم الذين نشروا الإسلام في كثير من بقاع الأرض فأين منهم متصوفة زماننا الذين لا هم لهم إلا ملء البطون وكثر الأموال ؟ (٢) كان الشيخ درويش تلميذاً للسنوسيين كما رأينا ، وهؤلاء كانوا يتبعون مذهباً شبيهاً بالمذهب الوهابي ، وهو الرجوع بالإسلام إلى بساطته الأولى ، متجنبين البدع وتفسيرات المتأخرين وزياداتهم في العقائد والفروع .

في الإجازات الصيفية بعد عودته من الأزهر ، ويلومه على عزالته وعدم الاختلاط بالناس ودراستهم وإفادتهم بما عرف ، وكان يغشى به المجالس ويحمله على أن يتحدث إلى الناس ويحجب عن أسئلتهم ويكون لهم مرشداً ؛ لأن العلماء الذين يضمنون بعلمهم على الناس لا خير فيهم . وقد بقي الشيخ محمد عبده حتى مات وهو يعمل بهذه النصيحة ، ويرشد الناس كباراً وصغاراً ، رعية وساسة ، فرحم الله الشيخ درويشاً لقد أدى للإسلام ولمصر وللشرق خدمة جليلة .

في الأزهر :

وتحول الشيخ محمد عبده من الجامع الأحمدى إلى الأزهر ، وكان الأزهر في ذاك الوقت على حالة من الفساد لا تطاق وحسبك أن تقرأ تقريراً وضعه الشيخ عبد الكريم سلمان (١) عن هذا المعهد وحال أساتذته وطلبته ، ومدة الدراسة فيه (٢) ، وحال العلم ، فإن الكتب التي كانت تدرس به من نتاج العصور المتأخرة يدرسها أساتذة لا يفهمون الغاية منها ، ولا يستطيعون كتابة أربع جل صحيحة (٣) ، وكان به كثير من ضيق الفكر الذين يرمون الناس

(١) لم يحمل التقرير اسم الشيخ عبد الكريم ولكن اشتهر بأنه له ، وفيه أعمال مجلس إدارة الأزهر من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ إلى سنة ١٣٢٢ هـ وهي مدة اشتغال الشيخ محمد عبده في مجلس الأزهر .

(٢) كانت إجازات الطلاب كثيرة في مولد السيد البدوي ، والدسوقي ، ويوم عاشوراء والمولد الحسيني ، ومولد الشافعي ، والعفيني والشرقاوي ، وهذا عدا الأعياد الإسلامية والمولد النبوي ورمضان والأعياد الرسمية ، ولم تكن مدة الدراسة تزيد عن ثلاثة أشهر ونصف يخرج منها يوماً الخميس والجمعة من كل أسبوع .

(٣) وقد مر بك وصف عبد الله فكري لهم في ص ١١٤ من هذا الكتاب ، وقد كان الشيخ أحمد الرفاعي يدرس في ذلك الوقت كتاب المطول في البلاغة ويعترف أنه لا يحسن أن يكتب خطاباً ولو غير بليغ لأن هذا من عمل تلاميذ المدارس المدنية (أحمد أمين بك بمجلة الثقافة العدد ٣٨٨) ، واعتذر أحد أكابر العلماء للشيخ الإمامي عن حضور ولية في رمضان فكتب رسالة الاعتذار على ورقة من أوراق العطار وأخطأ فيها عشرة أخطاء نحوية ، (محمد عبده لمحمد صبيح ص ٦٥ ، وتقرير الشيخ عبد الكريم سلمان)

بالزندقة والكفر جزافاً مثل الشيخ عايش ؛ ولكن كان به من هياتهم الظروف
لأن يتسع أفقهم بعض السعة كالشيخ البسيوني ، والشيخ حسن الطويل وكان
ذكياً حكيماً له نظرات في الحياة صائبة يقرأ الفلسفة فيرمى بالزندقة .

كانت هذه حال الأزهر العلمية حين وفد إليه محمد عبده ، ناهيك بالقذارة
التي كانت تلوث المسجد وصحنه ، ودورة مياهه ، وأروقته ، والفوضى الخلقية
التي كانت سائدة بين طلابه . وأخذ الشيخ محمد عبده يدرس العلوم المتداولة
بالأزهر حينذاك من نحو وفقه وتفسير ، أما العلوم الحديثة فلم يكن يسمع عنها
الأزهر ورجاله ، ومن يتعرض لها فهو كافر في عرفهم مارق عن جادة الدين .

وكان الشيخ درويش حينما يعود الطالب الفتى إليه يسأله عما درس بالأزهر
في عامه ، وبعد أن يستمع إليه قليلاً يسأله : ما درست المنطق ؟ ما درست الحساب
ما درست الهندسة ؟ فيجيب الشيخ محمد عبده بأن هذه الدروس لا يرى
الأزهريون تعليمها ، فيقررله هذا الصوفي المنزوي في قريته بأن كل العلوم يجب
أن تعلم ، وعلى الطالب أن يسعى إليها في أي مكان ، ويقول له : « إن الله هو
العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل
وأعدى أعداء الحكيم هو السفیه ؛ وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم
والحكمة فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ، ولا شيء من الجهل بمحمود لديه
إلا ما يسميه بعض الناس علماً ، وايس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما
إذا قصد من تحصيلهما الإضرار بالناس » فأى رجل كان الشيخ درويش هذا ؟
وعلى أى حال من الجهل كان الأزهر ؟

التمس الشيخ محمد عبده بعض هذه الدروس التي وجهه إليها مرشده عند

الشيخ حسن الطويل^(١) ، بيد أن هذه الدروس لم تشبع نهم نفسه ، على الرغم من طرافتها ، وذكاء مدرستها وسعة مداركه وإنما كانت مثيرة لنفوس الشيخ محمد عبده ، تبعث فيها الرغبة إلى الاستقراء والتعمق والوصول إلى الحقائق الواضحة بدون تردد أو التواء ، وأن تستشف ما وراء هذه الألفاظ القديمة ، وأن تصل هذا العلم القديم بالحاضر الجديد ، وتحل مشكلات الحياة عامة ومشكلات مصر ، خاصة . ولم يكن ذلك ميسوراً عند الشيخ حسن الطويل ، وإنما تهيأ لمحمد عبده أن يدرك هذه الغاية عند أستاذه الأكبر جمال الدين الأفغاني حين وفد على مصر وقد تحابا وتصادقا ، ووجد جمال الدين في محمد عبده التربة الخصبة الحية التي تحمّل تعاليمه عملاً صادقاً قوياً لا ينقص منه شيء بل يزيد على مرور الأيام نماءً ، ووجد محمد عبده في جمال الدين الأستاذ الذي كمل له ما كان يشعر به من نقص ؛ فإذا كان الشيخ درويش قد لقننه شيئاً من التصوف سابقاً فقد كان تصوفاً خيالياً تحول على يد جمال الدين إلى تصوف عملي ، وإذا كان الشيخ درويش قد بعث فيه الجرأة لمواجهة الناس والتحدث إليهم وبتعاليمه بينهم ، فقد مكّنه جمال الدين من اختيار الموضوعات الصالحة التي يتكلم عنها ، وأفسح أمامه أفق الإصلاح فتعددت شعبه وميادينه من دينية وخلقية واجتماعية ، ثم إن جمال الدين حرصه

(١) وكان الشيخ حسن الطويل من الشخصيات الفذة في عصره ، ذا ذكاء حاد ، ومعرفة بالرياضيات وكان مدرساً بدار العلوم ، وقد بلغ من مهارته في الرياضيات أن كان يحل لطلبتها ما أشكل عليهم من تمرينات الهندسة ، وكان على معرفة بكتب الفلسفة القديمة وبالدنيا والسياسة وكان ذا شجاعة في الكلام بما يعتقد ولو حرم منصبه بدار العلوم ؛ وزهد في الدنيا حتى لا يهتم منها شيء يلبس ثياباً رخيصة ، ويأكل قليلاً ، ويدعى إلى موائد الأغنياء للافطار في رمضان فياً كل من طبق القول ويزهد فيما عداه ، ويطرد من دار العلوم لكلامه في السياسة فينفق عليه صاحب مقهى بلدى فلما عاد إلى عمله سلمه الشيخ حسن الطويل مرتبه لينفق عليه منه كما كان يفعل وهو مطرود ، وكان يدرس في الأزهر الفلسفة والمنطق .

على استخدام سلاح آخر في ميدان الدعوة ، غير الخطابة والمشافهة ، ألا وهو سلاح القلم ؛ حتى تسير دعوته مشرقة ومغربة ، فتشمل القريب والبعيد ، وحتى تكون متقنة رائعة تغذيها التؤدة والفكر الناضج والمنطق . وقد فتن محمد عبده بجمال الدين وبدروسه وبروحه المتوهجة وحماسته العارمة ، ونشاط فكره ونظراته للحياة ، ووجد فيه ما لم يجده عن حسن الطويل ، فلابدع إذا رأيناه يكتب بخط يده على نسخة من كتاب قديم : « وكان الفراغ من قراءته وتقريره عند لسان الحق ، وقائد الخلق إلى جناب الحق ، خلاصة من تجلّى بالحكمة ، ومنمقذ الضالين في تيه الجهالة والغمة ، محيي الحق والدين أستاذنا السيد جمال الدين » ، وكان يلقبه بـ « الحكيم الكامل والحق القائم » .

وكان جمال الدين يبادل محمد عبده حباً بحب وإعجاباً بإعجاب ، فقال عند ما رحل من مصر سنة ١٨٧٩ : « لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالماً » . وهي كلمة تدل على مبلغ اعتقاد هذا المصلح الكبير في تلميذه ، وقدرته على تنفيذ تعاليمه والقيام بالدعوة إليها من بعده ؛ وقد روى الخزومي في خاطراته أن جمال الدين لم يكن يذكر اسم محمد عبده إلا مقترناً بكلمة « الصديق » أو « صديقي الشيخ » ، ولما اعترض عبد الله نديم على ذلك وقال له ذات يوم : « أيها السيد ما غفلت مرة عن إضافة لفظ الصديق إلى الشيخ محمد عبده ، كأنه لم يكن لك بين الناس صديق غيره ؛ إذ نراك تنعت من سواه بلفظ صاحبنا أو فلان من معارفنا ، أجاب جمال الدين بقوله : وأنت يا عبد الله صديقي ، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ محمد أنه صديقي على الضراء ، وأنت صديقي على السراء » ؛ ويعترف محمد عبده بأنه مدين بالشيء الكثير لجمال الدين ويقول : « إن أبي وهبني حياه يشاركني فيها (أخوأي) على ومحروس ، والسيد جمال الدين

وهبني حياة أشارك فيها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين ؛
وقد صرت بك كلمته في قدرة جمال الدين على تفتيق المعاني وكيف يتكلم في
كل فن كأنه من كبار أساتذته .

ومنذ اتصل محمد عبده بجمال الدين ابتداء اتصاله بالحياة العامة ، والجهاد في
سبيل إصلاح الأمة ، وهو بعد طالب في الأزهر ، لم ينل شهادة تجيز له التدريس
فقد كتب في (الأهرام) في السنة الأولى من صدورهما بعض مقالات دلت على
روحه ، وقدرته وجرأته مثل « الكتابة والقلم » و « المدبر الإنساني والمدبر العقلي
الروحاني » و « العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية »^(١) . ولخص
بعض دروس أستاذه في الفلسفة بجريدة (مصر) التي كان يصدرها أديب
إسحاق ، وكان من الطبيعي أن يثير هذا ضجة حول ذلك الشيخ الأزهرى
الجرىء فمن معجب به ومن حاقد عليه ، ومن جامد ساخط يرميه بالزندقة

وأخيراً تقدم الشيخ محمد عبده لنيل شهادة العالمية ، وقد تأمر الممتحنون
عليه قبل مثوله أمامهم ، وعزموا على ألا يمنحوه العالمية ، بيد أنه خيب أمهم بعلمه
ومهارته في تصريف الكلام وسعة اطلاعه وسرعة بديهته ، ووجد من الشيخ
العباسي المهدي عطفاً ، واستطاع الشيخ العباسي أن يقنعهم بوجوب منحه (الشهادة)
ولكن أصروا في عناد على أنه لن ينالها من الدرجة الأولى واكتفوا بأعطائه
الدرجة الثانية^(٢) في غرة رجب ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لرشيد رضا ج ٢ ص ٣٧ - ٥٧ ،
وستكلم عن هذه المقالات فيما بعد من حيث قيمتها الأدبية

(٢) وقد رجع الأزهر فيما بعد ذلك بست وعشرين سنة عن هذا القرار ، ومنح الشيخ
محمد عبده في سنة ١٩٠٤ العالمية من الدرجة الأولى ، وكان شيخ الأزهر إذ ذاك الشيخ
على البيلاوي .

وتصدى الشيخ محمد عبده بعد ذلك للتدريس بالأزهر ، وأثار حوله ضجة كبيرة فالشيخ عlish يهم بضربه لأنه رجح مذهب المعتزلة في مسألة من المسائل على مذهب أهل السنة ، وتراه يتحدى علماء الأزهر جميعاً بإعطاء مائة جنيه لمن يبرهن على (أن الله واحد) وينظرهم إلى الغد ، ويفتح الدرس ويسأل الحضور وقد توافدوا أفواجا عن العالم الذي يريد مائة جنيه ويقرر في حجج دامغة وحدانية الله ، ويسود الصمت ، واضطرب القلوب ، وتقلب الأبصار مدة غير وجيزة ، ثم يبدأ هذا العالم الصغير درسه غير تارك شبهة إلا وضحاها ولا حجة إلا أوردتها ، ولا عويصاً إلا حله ، فترك في بعض القلوب فرحة ، وفي كثير من القلوب غصة وكان يخص بعض مريديه بدروس في منزله تختلف نوعاً ما عن دروس الأزهر فيدرس لهم (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه ، ويقرأ لهم كتاب (التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية) للمؤلف الفرنسي (جيزو) وقد عربه (حنين نعمة خورى)

ثم عين الشيخ محمد عبده في أواخر سنة ١٨٧٨ مدرساً للتاريخ بدار العلوم ولم يدرس ملخصاً من ابن الأثير أو الطبري أو ما شا كلاهما من الكتب القديمة ولكن عمد إلى (مقدمة ابن خلدون) يبسط في درسه آراء هذا النابغة في أصول المدنية والاجتماع ، وألف لطلبته كتاباً في «علم الاجتماع والعمران» فقد ولم يعثر عليه (١)

محرر الوقائع المصرية :

ثم دارت الأيام دورتها وعزل إسماعيل عن العرش ، وتولى توفيق ، ونفى السيد جمال الدين كما عرفت من قبل ، وتسلم محمد عبده راية الإصلاح بعد

أستاذة ووجد في رياض باشا مشجعاً وحامياً فعينه محرراً للوقائع المصرية ، وجمع الشيخ حوله بعض النابهين من الشباب (١) وأنشأ بالجريدة (الرسمية) قسماً أدبياً تنشر به المقالات الإصلاحية والاجتماعية . وقد كانت الجريدة تفرض على أعيان البلاد وموظفي الدولة ، ويجدون بها قرارات جافة ركيكة العبارة و « أراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة في ذاتها ، تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تضمنته من الأوامر واللوائح ، فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير إكراه ، وكان قد أحس بتوجه الأفكار إلى طلب شيء من طلاوة العبارة ، ووفرة المعنى وحسن الانتقاد » (٢)

ووضع الشيخ (لأئحة) للجريدة الرسمية وجعلها مشرفة على كل ما يصدر في البلاد من كتب وصحف وحق إنذار هذه الصحف عربية أو أجنبية ، ومعاقبها بالتعطيل الدائم أو المؤجل كي يلزمها « الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب مع إطلاق الحرية لها في تبين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب بدون خوف » كما أعطت هذه اللائحة لرئيس تحرير الوقائع الحق في انتقاد جميع إدارات الحكومة حتى وزارة الداخلية التي يتولاها رياض باشا ؛ وذكر السيد رشيد رضا أن « أول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والإدارات فأخذت بتبيين وجه الخلل بها وإضرارها بفهم المعاني المطلوبة ، ثم ترسم الطريقة المثلى التي يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلزام باللغة العربية من موظفي الحكومة وحضهم رؤسائهم على مكاتب الجريدة الرسمية مستتراً أيوب الإدارات ؛ واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين

(١) أمثال سعد زغلول ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم الهلباوى ، ومحمد خليل

والسيد وفا .

(٢) من كلام الشيخ محمد عبده قبل أن يتولى رئاسة تحرير الوقائع .

أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير « (١)

وبهذا صار محمد عبده مشرفاً على الأداة الحكومية جميعها ، تراجعها جميع الإدارات في كل ما لديها من الأعمال الهامة والتي تنوى عملها . وقد اشتدت حملته على وزارة المعارف وتبيان ما بها من خلل وفوضى وسوء إدارة ، فأدى ذلك إلى إنشاء (مجلس أعلى) لها واختير به عضواً ، وكانت الوقائع المصرية منبراً تذاع منه تعاليم جمال الدين في العدل والتربية الخلقية والإصلاح الاجتماعي ، فيتكلم عن الفقر ومشكلته وعن (وخامة الرشوة) وعن (العفة ولوازمها) وعن (القوة والقانون) وعن (منتدياتنا العامة وأحاديثها) (٢) وغير ذلك من المقالات الاجتماعية الإصلاحية ، بيد أنه لم يخض في المسائل السياسية وأعل ذلك لأن رياض باشا هو رئيس الوزارة ، وله عليه يد لا تنكر ، أو لأنه كان يعتقد مذهب رياض في التدرج وعدم الطفرة ، وظل بمنصبه هذا إلى أن قامت الثورة العراقية .

محمد عبده والثورة :

كان محمد عبده يختلف مع جمال الدين في طريقة الإصلاح ، فبينما الأول يريد أن تقفز الأمة قفزاً ، وتمتع بالشورى والحرية على يد مجاس نيابية يشرع لها القوانين وتكون الحكومة مسؤولة أمامه ، كما تكفل في ظل حرية الفرد الشخصية ، إذاً محمد عبده وأصحابه يرون أن الإصلاح لا ينتج إلا إذا تربت الأمة وتعلم أبنائها كيف

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول . هذا وقد أُنذر محمد عبده مرة مدير جريدة مشهورة بتعطيل جريدته إذا لم يخر لها محرراً صحيح العبارة في مدة معينة ، فأسرع مدير الجريدة إلى تنفيذ ما أراد رئيس تحرير الوقائع . وتعقب الجريدة مرة مدير بنى سويف وانتقدته اسقاداً مرأاً فأصدر أمره بعدم دخولها وراجع وزارة الداخلية في أمرها فنصرت الجريدة عليه ونشرت فعلته في منشور عام .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الثاني ص ٦٨ وما بعدها إلى ص ٢٢٥

يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وأن يسير الإصلاح تدريجياً في كل ناحية ، حتى في العادات » وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها ثم بطلب بعض التحسينات فيها لا تبعد منها بالمرّة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرق بالتدريج حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرق وأعلى من حيث لا يشعرون ^(١) . وكان يرى أن الشرق إنما ينهض على يد مستبد عادل يحكمه خمس عشرة سنة « يصنع فيها ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً » مستبد « يُكره المتناكرين على التعارف ، ويلجئ الأهل إلى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذي يحكمه » ، وكان هذا رأى رياض باشا .

وانقسمت الأمة فريقين ، فريق يود النهضة السريعة والإصلاح العاجل ويتزعمه شريف باشا وهو كما صوره محمد عبده « من أقوى عوامل النهضة » التي (انقلبت إلى فتنة) في رأيه ، ومن السنة هذا الفريق وأسلحته البتارة أديب إسحاق ، وفريق يود النهضة البطيئة المتدرجة ويتزعمه رياض باشا ويناصره في رأيه محمد عبده ^(٢) .

ولما قامت الثورة على يد العسكريين وتزعّم عرابي مطالب الذين يريدون

(١) من مقالة للأستاذ الإمام تحت عنوان (خطأ العقلاء) . انظر تاريخ الأستاذ الإمام

ج ٢ ص ١٢٣

(٢) كتب محمد عبده مقالات في الشورى وقد كانت من وحي جمال الدين ولم يكن مؤمناً بها بل كان يرى أن تنشأ أولاً المجالس البلدية ثم بعد سنين تأتي مجالس الإدارة لا على أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية .

الجلس النيابي ، وانضم إليه كثير من زعماء الأمة وفي مقدمتهم سلطان باشا ، وعبد الله نديم ، وامتزجت مطالب الجنود بمطالب الأهالي ، وطلب العدالة بين الضباط بطلب الحكم النيابي بإلغاء الاستبداد لم يكن محمد عبده من المحبذين لهذه الثورة أو العاملين فيها ؛ لأنه كان يكره عرابي باشا ، ويعتقد أنه شهم في الكلام ضعيف في الحرب ، أليق به أن يكون واعظاً للعوام من أن يكون زعيم أمة ويقول فيه : « كان أحمد عرابي ينظر إلى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو إلى عدوه ، وكان يحقرهم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ، ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئاً في الكثير منهم ، وكان أجراً إخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة »

ولكن على الرغم من هذا لم يكن محمد عبده مشايعاً للثورة في أول الأمر ؛ لأنه لم يكن معتقداً بها ولا في صلاح الأمة لأن تقوى أمورها بيدها ، وأخذ يناهضها ويقول : « ليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد ، فذلك بمثابة تمكين القاصر في التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد » . ويقول مرة أخرى ، وكأنه كان يتكلم بلسان القدر : « إن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع ؛ لأنه ليس تصويراً لاستعداد الأمة ومطلبها ، ويخشى أن يجر هذا الشعب على البلاد احتلالاً أجنبياً يسجل على مسببه اللعنة إلى يوم القيامة » .

ولم يكن محمد عبده من الموالين لتوفيق باشا حتى يتهم بأنه ناهض الثورة من أجله ، ولكنه كان مستقل الرأي ؛ وبعد مدة لم يستطع أن يقف مسلوب اليد

والأمة كلها في صف واحد وهو وفئة قليلة في صف ، ورأى أن المسألة تتعلق بكرامة الأمة بعد أن تدخل الأجانب ، واستعان بهم توفيق ، فانضم الأمة وصار قوة روحية للثورة يأخذ الموائيق ويحرر بيانات الثوار للشعب والدول ، ومحض قومه للتجنيد ويحسمهم للقتال ، ولا يدخر في سبيل ذلك وسعاً ، وكان يستعين بالوقائع (وهي الجريدة الرسمية) على نشر أفكار الثوار .
وأخيراً أخفقت الثورة وسجن محمد عبده مائة يوم وحقق معه وحكم عليه بالنفي فاتخذ بيروت ملجأ .

بعم الثورة :

وفي بيروت التف حوله العلماء والأدباء ودرس في المدرسة السلطانية وكانت أشبه بمدرسة أولية فارتفع بها حتى صارت مدرسة عالية ولكن مقامه بها لم يطل ؛ إذ طلب إليه أستاذه جمال الدين أن يلحقه في باريس فلبى دعوته (١) وأصدرها معاً مجلة (العروة الوثقى) وقد مر بك شيء كثير عنها ونبذ من مقالاته بها . وهنا تعجب كيف تغيرت لهجة الشيخ محمد عبده في (العروة الوثقى) ولم يعد ذلك المصلح المتأني الذي يأخذ الأمور بالرفق ، ويسعى للإصلاح في هواده بل نراه ثورة متأججة وذات قلم عنيف ، كما اتسع غرضه ، ولم ينظر لمصر وحدها بل شمل العالم الإسلامي كله . الحق أن الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى لم يستطع أن يقاوم تأثير جمال الدين عليه ، وناهيك بجمال الدين قوة وحماسة وناراً مشبوبة .

وعطلت (العروة الوثقى) بعد ثمانية عشر عدداً ، وسافر جمال الدين إلى

(١) لم يتجاوز سنه حينذاك أربعة وثلاثين سنة .

إيران ، وعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت ، وقد أخفق مرتين : أخفق في الثورة
العراقية ، وأخفق في استمرار العروة الوثقى . ولذلك أخذ على نفسه ألا يشتغل
بالسياسة وآلى إلا أن يكون معلماً أو مصلحاً ببيروت . فالتف حوله مريدوه ،
وشرح لهم نهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان ، وأخذ يفسر لهم القرآن الكريم
على النحو الذي اتبعه بعد بمصر من غير أن يتقيد بكتاب أو تفسير خاص ، بل
اتخذ آيات القرآن مجالا لوصف أدواء المسلمين وعلاجها ، ودرس الفقه على
المذهب الحنفي بالمدرسة السلطانية . وهناك ألف رسالة التوحيد ، وصار يكتب
بعض المقالات في جريدة (ثمرة الفنون) مشابهة لمقالاته في الوقائع المصرية (١)
كان محكوماً عليه بالنفي ثلاث سنوات ، ولكنه مكث ببيروت ست سنوات
وذلك لأن توفيقاً كان غاضباً عليه (٢) ، وكان يجهر بخطيئة توفيق في حق الوطن
ويقول (٣) : « إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ؛ لأنه مهد لدخولكم
(أي الإنجليز) بلادنا ، ورجل مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب لا يمكن أن
نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص
منكم ربما غفرنا له ذنبه — إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية »
فكان من العسير أن يعود إلى مصر في عهد توفيق ، بيد أن رياض باشا
عاد إلى الوزارة وكان من الذين يجلون الأستاذ الإمام ويعتقدون فيه النفع والخير

(١) ووضع في هذه الأثناء لائحتين : واحدة في إصلاح التعليم الديني بمدارس المملكة
العثمانية ورفعها إلى شيخ الإسلام بتركيا ، وفيها يقرر أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة
والجهل بأصل الدين وأن ذلك أضاع أخلاقهم وأفسدها ؛ ووضع لائحة أخرى رفعها إلى والي
بيروت تتضمن إصلاح سوريا ووصف سوء حالها بانهيار المدارس الأجنبية بها ، واقترح تعميم
المدارس الوطنية وإصلاح التعليم الديني والعناية به ، وهكذا برهن على أنه مصلح في كل مكان
يحل به .

(٢) لأن محمد عبده جاهر بخلع توفيق في أثناء الثورة

(٣) من حديث له مع مكاتب (البول ميل جازيت) وهو بالإنجليزية .

لمصر ، فمالبت أن سعي لدى توفيق هو و بعض ذوى النفوذ (١) حتى عفا عنه ،
وكان عفواً قريباً من الاعتذار .

بعد العودة من المنفى :

عاد محمد عبده إلى مصر فوجد الأمور قد تغيرت وصار الحل والعقد بيد
الإنجليز ، ولم يعد الخديو صاحب الأمر والنهي كما كان من قبل ، ورأى نفسه
وهو المصلح ذو المشروعات الحية في النهوض بالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية
أن يعتمد على سلطة تؤيده وتهيء له الاستمرار في إصلاحه ، فسالم الخديو
— على الرغم منه — واستعان بالإنجليز على الإصلاح المنشود . ولا نعجب بعد
هذا إذا صار جمال الدين حانقاً عليه ، ويرى فيه الرجل الذى تنكر لمبادئه
ومد يده لأعدائه يهادنهم ويسالمهم . ورث محمد عبده من جمال الدين آراءه
الإصلاحية الاجتماعية ، وورث عبد الله نديم وسعد زغلول ومصطفى كامل
آراءه السياسية . وقد ظل محمد عبده متمسكاً بسياسة التقرب من الإنجليز
والاستعانة بهم حتى آخر حياته ، وكان هذا مثار الطعن فيه والغض من شأنه
ولكنه كان يصدر فيه عن عقيدة وجراءة فقد استفقت مرة في الاستعانة بالأجانب
فكان من فتواه : « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على
جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين »

(١) المعروف أن من الذين توسطوا في طلب العفو عنه الأميرة نازلى وكانت ذات مكانة ،
والغازى مختار باشا ، ثم اللورد كرومر وقد كان له الفضل الأكبر في عودته والعفو عنه ،
وفي الواقع لم يعف عنه توفيق إلا بضغط الإنجليز . فأى صلة كانت بين محمد عبده وتلميذ
جمال الدين والإنجليز ؟ — يظهر أن أصحاب محمد عبده حين طلبوا عودته إلى مصر تمهدوا بالألا
يشتغل بالسياسة ، ثم إن كرومر وهو الداهية السياسى رأى أن يجذب نحوه ذلك العالم الجليل
ويأمن شره ما دام لن يشتغل بالسياسة وهذا ما جعل جمال الدين يحنق عليه ويلومه أشد اللوم
حتى قطعت العلاقات بين الأستاذ وتلميذه ، لأنهما اختلفا في الوسيلة .

ونسى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » وأمل محمد عبده بعد عودته أن يرجع إلى التدريس ويتصل بالنشء ، ويربى طائفة من الشباب ، يعدم للغد ، ويحملون بعده راية الإصلاح ، ولكن أبى عليه توفيق ذلك ؛ وعين قاضياً أهلياً ، ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف ، ووجد نفسه في بيئة غريبة عنه تُدلُّ بمعرفتها للغة الفرنسية والقوانين الأجنبية فدفعته نفسه الطموح إلى أن يكمل هذا النقص ، وبدأ يتعلم الفرنسية ^(١) وهو في سن الأربعين أو ما قاربها ، وقد استطاع بعد مدة أن يتقنها وترجم منها كتاب التربية لسبنسر بعد أن نقل من الإنجليزية إلى الفرنسية . وروى لطفى باشا السيد أن محمد عبده هو الذي كان يجول لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنسي (تين) في كتابه المشهور عن (الذهن)

وقد رأى الأستاذ الامام فائدة تعلم اللغة الأجنبية ولمسها وفي ذلك يقول : « ثم إن الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة أوربية هو أنني وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا إذا كان يعرف لغة أوربية . كيف لا ! وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الأرض ، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للاخلاص من شر الشرار منهم ؟ »

(١) وروي أن المعلم أتى له بكتاب في قواعد اللغة الفرنسية فقال له : « ليس عندي وقت لأن أبتدىء ، وإنما عندي وقت لأن أنتهى » ، وناول المعلم كتاباً (لألكسندر ديوما) وقال له : « أنا أقرأ وأنت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو على ، والنحو يأتي في أثناء العمل . وهكذا أتملت الكتاب ، وكتاباً بعده وثالثاً عقبه ، وكنت أطلع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسى في بيتي خالياً فتعلمت مبادئ اللغة الفرنسية ، وحصلت منها ما يمكنني من القراءة والفهم ، ولكن ما كنت أستطيع الكلام »

واشتهر محمد عبده بعدله في القضاء ، ونظره إلى روح القانون ، وعدم تقيده
بألقاب والألقاب ، وقد ساعدته دراسته للشريعة الإسلامية في هذا كل المساعدة

إصرار الأزهري :

مات توفيق وتولى عباس سنة ١٨٩٢ م ، وقد عاد لتوه من أوربا فتي ممتلئاً
حماسة وغيرة وحباً للخير ورغبة في إنهاء مصر من كبوتها ، وتخليصها من
الاحتلال ، فغير رجال حاشيته وجمع حوله أقوياء الرجال حتى ضايق الإنجليز
فأخذوا يكيدون له . ورأى محمد عبده أن يستفيد من حماسة عباس ، فتقرب منه
وبسط له آراءه في الإصلاح ، وهو إصلاح يتناول جهات لا تهتم الإنجليز في شيء
وهي الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وليكن البدء بالأزهر ، وارتاح
الخدو للشيخ وكلفه بوضع تقرير مشروع الإصلاح ، وسرعان ما وافق عليه .
وكون مجلس إدارة الأزهر برئاسة الشيخ حسونه النواوي وعين محمد عبده ،
وعبد الكريم سلمان عضوين به ، وهكذا أتاحت للشيخ الفرصة التي طالما
نشدها للإصلاح . ولكن هل استطاع الإصلاح ؟ !

إنا نقول كما قال أحمد بك أمين (١) : « يا لله وإصلاح الأزهر ! ما حاوله
أحد ونجح ، ولا الشيخ محمد عبده ، لأن كل المحاولات كانت تتجه إلى هامش
الموضوع لا أساس الموضوع ، وكانت عن سبيل استرضاء أهله والخوف من أي
قلق واضطراب ، وهم يترغمهم طائفة ألفت القديم حتى عدته ديناً ، وكرهت
الجديد حتى عدته كفراً ، وعاشت في المغارات فلم تر ضوءاً ، وأفتت عمرها في فهم
لفظ ، وتخرج جملة وتأويل خطأ فلم تر حقائق الدنيا ، فإذا أتى المصلح سمم أهله

الجو حوله ، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب
والمشكل لا يحل إلا بالعلاج الحاسم وهو أن يتبع الأزهر الحكومة تبعية
الجامعة ، ويستقل استقلالها ويخضع في نظمه لما ترشد إليه عموم التربية الحديثة
وبرقى برقيها ، ثم ينفذ ذلك من غير خشية .

وأضيف إلى هذا أن بالأزهر اليوم وفي كل حين ثروة معنوية عظيمة تضيع
هباءً وتوجه وجهة خاطئة ولا تفيد منها الأمة شيئاً ، ولو حاولت هذه الجامعة
الأزهرية إلى جامعة مدنية ينفق عليها من الأموال الموقوفة على الأزهر ، ويتعلم
الطلبة فيها بالجان لما حرمت الأمة هذه الثروة العظيمة ، ولنبلغ من أبنائه الطيب
النطاسي ، والمهندس الفذ ، والرياضي القدير ، والصيدلي الماهر . أما الدين
فتخصص له طائفة تسد الفراغ وتلي شئونه من وعظ وإمامة وغير ذلك .
لقد اتجه الأزهريون اليوم إلى الوظائف ، ولم يعودوا يطلبون العلم لذاته كما كان
يفعل أسلافهم ، فواجب على الأمة والحكومة أن تعد لهم الإعداد الصالح لهذه
الوظائف وتتولى شئون الأزهر بحزم وتنهض به نهضة تليق باسمه وتاريخه ،
فيتعلم أبنائه اللغات الأجنبية فإذا جادلوا في الدين جادلوا بالحجة القوية وعرفوا
مواطن الضعف عند سواهم ، وإذا درسوا الفلسفة والمذاهب الحديثة فتفتحت
أمامهم سبل الاطلاع ، على أن تتجه جمهورهم إلى التعليم المدني وبذلك تفيد
الأمة من هذه الثروة المعنوية الضائعة ، ومصر بحاجة إلى أكثر من جامعة .
حاول الإمام محمد عبده إصلاح الأزهر ، فلم يصالح سوى الشكل من زيادة
مراتب العلماء ، ووضع لائحة كُسي التشريف ، والامتحان ومساكن الطلبة .
ولكن حين ابتداء ينظر إلى الدراسة وطرقها والكتب التي تدرس والمناهج
وجد العقبات أمامه حجة وأخفق في محارلانه ونفض يده من الإصلاح .

لقد كان كارهاً للطريقة الأزهرية في معالجة الدروس والشروح والحواشي والتقارير وعلاك الألفاظ ، وقد عرفنا آنفاً كيف كادت هذه الطريقة أن تحرم مصر إمامها ومصلحها ، ولقد قال له يوماً الشيخ البحيرى مدافعاً في مجلس إدارة الأزهر عن هذه الطريقة : « إننا نعلم الطلاب كما تعلمنا » فقال الشيخ محمد عبده « وهذا ما أخاف منه » فقال البحيرى مستنكراً : « ألم تتعلم أنت في الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقى العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟ ! » فأجاب الإمام : « إن كان لى حظ من العلم الصحيح الذى تذكر ، فإننى لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغى ما علق به من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة »

وهذه كلمات تدل على مرارة وألم ، وعلى أن الشيخ لم يرفى الأزهر وعلومه ورجاله ما يبشر بالنجاح ، فليت شعرى هل تغير الأزهر كثيراً منذ محمد عبده حتى اليوم ؟!

وتولى محمد عبده منصب الإفتاء ، وأضفى عليه وجاهة دينية وجلالا ، وكان فى منصبه هذا جريئاً ، يصدر الفتاوى التى يرى فيها الجامدون زندقة وإلحاداً ، وهو يراها اجتهاداً وتجديداً وتمشياً مع روح العصر بما لا يخالف حقيقة الدين وجوهره^(١). ولم تكن العلاقة بينه وبين الخديو عباس طيبة ؛ لأن عباس

(١) من ذلك فتوى (الترنسفال) وهى إجابة عن ثلاثة أسئلة : أحدها بقر يضربه النصرارى على رأسه بالبلطة حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ، فأفتى الشيخ بحل هذا اللحم ، وكانت للفتوى ضجة لأن علماء الأهرم يقولون هى الموقودة التى حرم الله أكلها والشيخ يقول : إن الموقودة هى ما ضربت بشيء غير محدد كالخجارة والخشب حتى ماتت وهذه ذبحت قبل موثها وثانيهما : يوجد أفراد فى بلاد الترنسفال يلبسون القبعات لقضاء مصالحهم ، وتمكنهم القبعة من جنى بعض الفوائد ، فهل يجوز ذلك أولاً ؟ فأفتى الشيخ بالجواز ورأى أن لبس القبعة إذا لم يقصد به الخروج من =

يراه مسلماً للإنجليز مستعيناً بهم وفي ذلك جرح لوطنية الخديو والتجاء إلى خصومه ، وكان الشيخ محمد عبده يعتقد في مهادنة الإنجليز والاستفادة منهم ، ويرى في عباس رأياً آخر وهو أنه جشع محب لجمع المال ولو من دماء رعاياه ، وقد اصطدم به مرتين أولاهما : حين أراد استبدال أرض ، فأبى عليه الشيخ ذلك ورأى أن هذا الاستبدال ليس في مصلحة الوقف ، وحمل مجلس الأوقاف الأعلى على رفض هذا الاستبدال إلا إذا أُعطى للوقف عشرون ألفاً من الجنيهات تعويضاً لهم . وثانيهما : حينما أراد الخديو منح بعض رجال حاشيته (كسوة تشريفة) ، ولم يكن هذا المنح منسجماً مع اللوائح ، فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ أمر الخديو وإعطائها المستحق ، ولما اجتمع العلماء لدى الخديو وأخذ يؤنب شيخ الأزهر على ذلك انبرى له الشيخ محمد عبده ، وطلب منه إذا أراد التنفيذ أن يغير اللائحة وينسخ القانون السابق ، فاشتاق عباس غضباً ووقف إيذاناً للعلماء بالانصراف . وقد كان لهذا كله أثر في الحملات الشديدة والمساكيد التي دبرها عباس للشيخ ، وإيعازه للصحافة بالتشهير به وانتهاز فرصة فتاويه الجريئة ورميه بالكفر والإلحاد ، وكلما هم الخديو بعزله من منصب الإفتاء صرح كرومر بأنه لا يوافق على عزله مهما كانت الأحوال ما دام موجوداً . كل هذا ومحمد عبده ماض في مشروعاته الإصلاحية بالأزهر والمحاكم والأوقاف ، وكان الحزب الوطني يناوئه ويحمل عليه بشدة لأنه كان يشايع الإنجليز ويتخذهم أعوانه ، وكان الإمام يرى أن مصطفى كامل مخطيء في صلته بالخديو لأن عباساً لم يكن

= الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفراً ، وإذا كان اللبس لحجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه وتيسير مصلحة لم يكره ذلك . وقد أثارت عليه هذه الفتاوى حملات شديدة من الجهلة ومن خصومه السياسيين ، والثالث : يصلى الشافعية خلف الحنفية بدون تسمية ، ويصلون خلفهم العيدين فهل تجوز الصلاة ؟ ولم يكن لهذا السؤال ضجة كبيرة كغيره

مخلصاً في وطنيته ولا هم له إلا جمع المال وإبداعه بالمصارف الأجنبية خشية أن يعزله الإنجليز فجاءه ، وقد قال محمد عبده في وصف مقالات مصطفى كامل « إنها مجموعة نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف » .

والحق إن التباين كان شديداً بين عقلية الإمام وعقلية الزعيم الشاب من حيث طريقة التفكير واتخاذ الوسيلة . ولا نستطيع أن ندافع عن موقف الشيخ محمد عبده من الإنجليز واعتماده عليهم إلا بأن الخديو هو الملموم في ذلك ؛ لأنه لم يمكن هذا المصلح الكبير من السير في إصلاحاته ، ولأنه أراد أن يلتهم مال الوقف بدون مبرر ، وفي مال الوقف قسم كبير جداً للأزهر ، وكلما حاول عباس أن يعيث به وقف له محمد عبده بالمرصاد ، وحب المال ضعف بشري عام ، وكان في عباس أضعف شيء فيه ، ولكن دفاعنا هذا لا يبرر لجوء الشيخ إلى خصوم وطنه وخصوم دينه مهما كان الإصلاح المنشود وقيمه ، وما كان له أن يستعين بهم حتى ولو ظل الأزهر على ما هو عليه ، وهل بعد هذه التضحية استطاع أن يصلح الأزهر ؟ كلا ! وقد اعترف بإخفاقه .

ولكن هل تقضى هذه الزلة السياسية علي كل ما لمحمد عبده من مجد ؟ اللهم لا ، فقد شاركه في رأيه السياسي حينذاك كثير من زعماء الأمة كسعد زغلول ، وفتحى زغلول ، وحسن باشا عاصم ، ومحمود باشا سليمان ، وسلطان باشا وغيرهم ، إلا أنه تعرض للهجمات أكثر منهم ؛ لأن الخديو رأى فيها قوة واعتداداً بالنفس ، وعقبة في سبيل مطامعه فأب عليه العلماء الرجعيين والصحافة المأجورة هزلية وجدية .

وأخيراً اضطر محمد عبده إلى الاستقالة عقب خطبة ألقاها عباس عند توليته

الشيخ الشريفي مشيخة الأزهر^(١)، دل على عظم حنقه وسخطه على محمد عبده وتعريضه به .

لم يكن محمد عبده صنيعة الإنجليز ، أو ممن يتناولون أجراً منهم ، أو ممن يستعدونهم على قومهم ، ويشجعونهم في أطاعهم الاستعمارية^(٢) ، وإنما كان يرى أنه مصلح ولا بد له من عضد يسنده في إصلاحه ويشجعه على السير به قدماً في طريق الكمال ، ولم يجد في عباس هذا العضد ؛ لأنه كان مشغولاً بنفسه ويجمع المال وبأهوائه الخاصة ، فلجأ إلى الإنجليز ، وهذا اجتهاد منه أخطأ فيه ، بيد أنه لا يطوح بكل ماضيه وآرائه ، فالعظيم لا يُنظر إليه من ناحية واحدة ، بل لابد من رؤية جميع خصائصه وميزاته ، وقد كان محمد عبده إماماً في الإصلاح الاجتماعي ، ورائداً فذاً من رواد النهضة الفكرية .

لقد كان ممكناً أن يلتقي عباس ومحمد عبده ومصطفى كامل^(٣) ، وينهض

(١) وجاء في هذه الخطبة : « إن الأزهر أسس على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر الدين في مصر وجميع الأقطار العربية . . . ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً واكن من الأسف رأيت فيه من يخالطون الشغب بالعلم ، ومساائل الشخصيات بالدين ، ويكثر من أسباب القلاقل . . . وأول شيء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماءؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف العقائد وشغب الأفكار ، لأنها مدرسة دينية قبل كل شيء » ثم ذكر أنه قبل استقالة السيد علي البيلوي رعاية لصحته وأنه مستعد لقبول كل استقالة من سواه وممن « يحاول بث الشغب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأقوال » ويرى أن مثل هذا الشخص يجب أن يكون بعيداً عن الأزهر .

(٢) كما فعل سلطان باشا ، وعمر باشا لطفي ، وكان يكرههما لموقفهما هذا .

(٣) كان مصطفى كامل يعتمد على عباس مالياً فكان من دعاة ، ولعل هذا مما عاق اتصال الشيخ بالزعيم الشاب ، وروى رشيد رضا « أن الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل التقيا على باخرة حملتهما إلى أوروبا وقال الزعيم للإمام : إذا قبلتني من مرديك فإن خدمتك للإسلام ومصر تكون مضاعفة ، وأهدى له كتباً بالفرنسية وأخذ يزوره بعد عودته إلى مصر ، ولكن الاتصال لم يدم بينهما » .

الثلاثة بمصر وبالإسلام وبالشرق العربي كله ، ولكن لم يتم هذا ، كما لم يتم اجتماع محمد على والسيد عمر مكرم ومحمد بن عبد الوهاب من قبل ، واضطهد محمد على الزعيم الروحي لمصر عمر مكرم والمصلح الديني الكبير محمد ابن عبد الوهاب وحاربه في نجد ، وهكذا تكررت المأساة على يد أحد أحفاده بعد خمسين سنة .

وفاء :

استقال محمد عبده من الإفتاء وقد آمن بعجزه عن إصلاح الأزهر عجزاً تاماً ، ولم يلبث بعد ذلك مدة وجيزة حتى أحس بالمرض ، فعزم على السفر إلى أوروبا طلباً للشفاء ، ولم يحل مرضه بينه وبين أداء ما يقوم به من أعمال جليلة في مجلس الشورى وفي الجمعية الخيرية الإسلامية ، وامتحان دار العلوم ، وإعداده مشروع مدرسة القضاء ، وإعداد مشروع الجامعة المصرية ؛ بيد أن المرض ألح عليه . واختلف فيه الأطباء ، هل هو المعدة ؟ أو الكبد ؟ ثم ظهر أنه السرطان الذي مات به من قبل أستاذه جمال الدين ، فأشاروا عليه بعدم السفر وفي يوم ١١ من يولييه سنة ١٩٠٥ انطلقاً هذا المصباح الوهاج عن ست وخمسين سنة برمل الإسكندرية ، واحتفل بتشييع جنازته رسمياً ، وكان حفلاً رائعاً لم تشهد مصر مثله من قبل وكان عباس متغيباً عن مصر ، فلما عاد وسمع بعظم الحفل واشترك الحكومة فيه أنب كل من أسهم في هذا .

أثره في النشر :

لا نريد أن نتعرض هنا لأرائه الاجتماعية والسياسية والخلقية بالتفصيل ،

وقد مر بنا ما يعطينا عنها فكرة واضحة ، وإنما الذي يعنيننا حقاً هي آثاره في الكتابة والنثر . وقد عرفنا أنه ابتداء يكتب في الصحف ، وهو بعد طالب في الأزهر ، وقد طرأ على أسلوبه الكتابي تغيير كثير منذ المقالة الأولى التي أرسلها لجريدة (الأهرام) ^(١) حتى انتقل إلى جوار ربه ؛ ولحمد عبده أثر عظيم في النثر العربي سواء في أسلوبه هو وجعله مثلاً يحتذى ، أو في الأعمال الجليلة التي قام بها لخدمة النثر والكتابة :

١ — أما أسلوبه فنراه يعنى به عناية زائدة ، وإذا قرأت ما كتبه في جريدة الأهرام تجده متأثراً بالكتب الأزهرية وخاصة ما ألف في الفلسفة الإسلامية من حيث الموضوع وطريقة علاجه ، وتجده كذلك لا تفوته سبعة ، وإن تكلف في سبيلها المشاق ، ويقدم لموضوعه بمقدمات طويلة تبذل نفس القارئ وتستهله . وهالك مثلاً على هذا الأسلوب من مقالة (الكتابة والقلم) : « ولما انتشر نوع الإنسان في أقطار الأرض ، وبعد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، وموائيق المعاهدات ، احتاجوا إلى التخاطب في شئونهم ، مع تنافى أمكنتهم ، وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل إذاً لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدىء المرسل وما يعيد ، وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد ، بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد الغريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ورمية من غير رام . . فالتجئوا إلى استعمال رقم القلم ووكلوا الأمر إليه فيما به يتسكلم » .

وهذا النوع من النثر قد وفيناه بحثاً فيما سبق .

ثم لما اتصل بجمال الدين ، ورأى منه قدرته على تصريف المعاني ، وعلى ابتداع أفكار جديدة وقرأ معه بعض كتب الفلسفة والمنطق ، وخاض في الموضوعات الاجتماعية والسياسة ، تدفعه إلى الكتابة عاطفة جياشة وشباب فتى ، وأثر متقد من نفس أستاذة جمال الدين ، لم يجد وسيلة إلا أن يتخلص من السجع والكلف به وأن يتجنب المقدمات الطويلة ، وأن يرتب الموضوعات ترتيباً منطقياً ، ويكثر من استعمال الأقيسة والبراهين ، ويقلب الفكرة على شتى وجوهها ؛ وترى في كلامه قوة وحرارة إيمان بما يكتب ، وهذا النوع من النثر يتجلى في مقالات (الوقائع المصرية) . وقد تدرج في إصلاح أسلوبه حتى اشتد وقوى ، ثم بلغ درجة عظيمة من المتانة ، وبرزت فيه هذه المزايا التي ذكرنا في مقالات (العروة الوثقى) ، فمن نثره في الوقائع المصرية قوله في التربية بالمدارس : « من المعلوم البين أن الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمسكاتب ، والعناية بشأن التعليم فيها إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكن المتربي من نيل كمال السعادة أو معظمتها ما دام حياً وبعد موته ، ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات ، وإبعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تحدث لها ملائكة التمييز بين الخير والشر والضر والنافع ، ويكون النظر بذلك سجيّة لها ، أي يكون لنور العقل نفوذ تام يفضّل بين طيبات الأشياء وخبائثها » .

وهو أسلوب المصالح الاجتماعي وقد عرفت خصائص هذا النوع من النثر قبل ، ولم يكن يعتمد فيه الشيخ محمد عبده إلى تفخيم الألفاظ وانتقائها ، وحبك الجمل واستوائها ، وقد يستعمل أحياناً كلمات عامية أو دخيلة للتعبير عما يريد

إذا لم تسعفه الكلمة العربية .

أما مقالات (العروة الوثقى) فقد صرت بك نماذج كثيرة منها فلا داعي
لذكر جديد .

ثم صرن أسلوب الشيخ محمد عبده واشتد قلعه ، من كثرة ما كتب ،
وما تناول من موضوعات وما تأثر به من تجارب وقراءة ، وبلغ أسلوبه غاية
في مقالته التي يرد بها على (هانوتو) ، وكان وزيراً لخارجية فرنسا ، وقد بحث
في كلماته الأسباب التي تدعو المسلمين إلى النفور من الحكم الأجنبي ، وهل من
وسيلة لتحبيبهم في فرنسا ؟ وإذا لم تفلح الوسائل فلا مناص إذاً من إبادة
أو إجلائهم عن ديارهم حتى يخلو الجو لفرنسا . وقد تعرض للإسلام ، ولماذا كان
المسلمون غير مسيحيين ، ووازن بين الإسلام والمسيحية ، وتعصب لدينه ، ونشرت
جريدة (المؤيد) مقالته فرد عليه الشيخ محمد عبده ردّاً مفجعاً تجلت فيه نضاعة
الفكرة ، وصدق العاطفة ، ومثانة الأسلوب ، وقوة الحجّة ، وسلامة البرهان ،
مع بساطة في التركيب ، وسهولة في الألفاظ وطالت المساجلة بين (هانوتو)
والشيخ محمد عبده ، وانتصر فيها الإمام انتصاراً بالغاً وكانت من الأسباب التي
مكنت له مقامه بمصر بعد عودته من المنفى ، ووضعته في مركز الصدارة من مفكرى
الأمة والذادة عن الدين .

ويقول في إحدى هذه المقالات : « إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين
فطارت بها إلى المدينة الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع
ضوءها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها
عدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، واليوم يرعى أهل أوروبا ما نبت في
أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة

العلم والحرية وطوابع المدنية الحاضرة » .

هذا ولم يعن محمد عبده بأسلوبه فحسب بل حاول أن يحمل الكتاب على العناية بكتاباتهم وله في هذا المضمار ، وفي النهوض بالكتابة آثار منها :

١ — مكن له منصبه في الوقائع المصرية من الإشراف على الجرائد والمجلات ومراجعة ما يحرره كتبة الدواوين في شئون الحكومة ، وقد مر بك كيف أنذر صاحب إحدى الجرائد بالتعطيل إن لم تغير أحد كتابها أو تحمله على تحسين أسلوبه ؛ وقد التف حوله فريق من طليعة كتاب مصر والشرق ، وأفسح لهم في الوقائع المصرية ، يدبجون المقالات الاجتماعية والأدبية والسياسية بإرشاده .

٢ — وفي بيروت شرح نهج البلاغة ليسهل على الناس قراءته والإفادة منه ، وشرح مقامات بدیع الزمان الهمداني ونشرها حتى تكون زاداً يتغذى به طلاب الأدب ، ومن ينشدون قوة الأسلوب وسلامة التعبير .

ولما عاد إلى مصر كانت دروسه في البلاغة تختلف عن تلك الكتب التي أفسدتها عجمة مؤلفيها ، واختار من كتب البلاغة دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، وكان السبب في نشرها لينتفع الناس بهما .

٣ — وأنشأ جمعية لإحياء الكتب العربية نشرت المخصص لابن سيده ، وفي نشره تيسير على طلاب اللغة ؛ لأنه من معجمات المعاني ، فقد يكون بذهنك المعنى ولكن يعوزك اللفظ المعبر عنه فتلتزمه في المخصص وفي أمثاله من المعجمات ؛ وقام بتصحيح المخصص العالم اللغوي الشهير الشيخ محمد محمود الشنقيطي وقد حماه الشيخ محمد عبده ، وشجعه على الإقامة بمصر ، ولولاه ما بقي .

٤ — وعهد إلى الأستاذ سيد بن علي الموصفي في تدريس كتب الأدب بالأزهر أمثال الكامل للمبرد ، وديوان الحماسة لأبي تمام ، وكانت هذه الدروس

غريبة عن الأزهر ولا عهد له بها ، وقد تلمذ على المرصفي عدد كبير من أدباء مصر البارزين اليوم أمثال المنفلوطي ، وطه حسين ، والزيات ، والزناقي وغيرهم فهم أثر من آثار توجيهه وإرشاده .

وبهذه الوسائل استطاع محمده أن يقدم للنثر العربي خدمة جليلة ، ويوجه الكتاب إلى العناية بما يكتبون ، غير مقيدين بذلك السجع السخيف ، ومنصرفين إلى المعاني وتفتيقها ودراسة الموضوع دراسة جيدة تفيد القارئ . وتجدى على الأمة .

هذا ما كان من أثره في النثر ، ولا يسعنا ونحن نختتم هذه العجالة عن محمد عبده إلا أن نقرر أنه أيقظ في مصر الشعور الديني ، والرغبة في الإصلاح الاجتماعي ، وأن الأولى بالمسلمين أن يعتمدوا في الإصلاح على أنفسهم ، ويدعوا الفخر بماضيهم ؛ ودعا إلى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عرف بالعقل . كما دعا إلى الاجتهاد ، وعدم الوقوف بالتشريع ومسائل الدين عند الحد الذي قرر من قرون عديدة ، وذلك لكي نواجه المسائل الجديدة بتشريع ديني سليم قبل أن تغلب على أمرنا . وكان يرى أن أكبر سلاح في الدنيا هو العلم ، وأكبر مقوم للأخلاق ومهذب لها هو الدين ، والدين الإسلامي لحسن الحظ يتمشى مع العقل ، ويحض على مكارم الأخلاق ، ويفسح صدره للعلم .

لقد خلف محمد عبده تلاميذ بررة تأثروا بتعاليمه وظلوا رداً طويلاً من الزمن يفتخرون بانتسابهم إليه وبالأخذ عنه ، ومنهم سعد زغلول ، وحافظ إبراهيم وإبراهيم المويلحي ، والهلباري ، ومصطفى صادق الرافعي بمصر وإبراهيم اليازجي وأحمد الحمصاني بسوريا وعدد كثير سواهم ممن حملوا لواء الإصلاح بعده وكان لهم الأثر البالغ في أوطانهم ونهضتها .

أعجوبة من أعاجيب عصره ، يقف وحده في كل ما تميز به من سجايا ، لا يدانيه فيها امرؤ من أهل زمانه ؛ ويخيل إليك وأنت تقرأ سيرته أنك أمام رجل من رجال الأساطير ، يروعك بذكائه الخارق ، وقوة عارضته ، ومتين حجته ، وشجاعته الفائقة ، وبجياته المليئة بالأحداث ، وبما بلغ من شهرة ، وبما حارب من أبطال ، وبما أفزع من دول ، ولم يكن في حسب جمال الدين وعلمه ، ولم يدرس ما درس محمد عبده و وإنما نشأ في بيئة فقيرة^(١) ؛ فعانى البؤس وشظف العيش ؛ ولكن الله الذي يهب العبقري لمن يشاء ، أودع حظاً كبيراً منها في رأس عبد الله نديم ، وزوده بنفس شجاعة ، ويد سخية ، وكانت هذه الخلال رأس ماله الذي واجه به الحياة ، وقد استطاع أن يسجل اسمه لامعاً في سجل الخلود .

دراسة ومجارب :

لم يرق لعبد الله العلم الذي وجدته بمسجد الشيخ إبراهيم باشا ، وهو علم شبيه بما كان يدرس في الأزهر حينذاك ، ووجد في جفاف العلوم ، وعقم الطريقة ؛ ورداءة الكتب وركاكة عبارتها ما نفره من الأزهر المصغر ؛ وحُبب إليه نوع آخر من الدراسة تهواه نفسه ، وينسجم مع ما أودع فيها من مواهب ، فغشى مجالس الأدباء ، يسمع شعراً وزجلاً ، ونوادر وقصصاً فتتمتز نفسه طرباً ، ويتمنى

(١) كان أبوه مصباح إبراهيم نجاراً في أول أمره ، ثم خبازاً ، ويحصل من مخبزه على الكفاف من العيش . ويعول أسرة كبيرة العدد ، يعيش في مسكن متواضع . وقد أرسل ابنه عبد الله إلى المكتب ، ثم إلى مسجد الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية ، وغاية ما يرجوه منه أن يتعلم قليلاً ثم يعود إليه ليعاونه في مهنة .

أن يكون أحد هؤلاء الشعراء أو الزجالين ؛ وكانت له ذاكرة حادة تلتقط كل ما تسمع فوعى كثيراً .

وقد كان لهذا أثر كبير في حياته الأدبية ، ولا سيما وقد خالط أبناء الطبقة الفقيرة وجمهرة الشعب ، ووقف على عاداتهم وأمثالهم ونواذرهم وظرفهم وسرعة بديهتهم ، فتأثرت بذلك نفسه الحساسة ، وذوقه المرفف .

ولكن هيهات أن يرضى أبوه بهذه الدراسة غير المنتظمة وهو رجل يكدر ويتعب لينال الكفاف وكان يؤمل أن يرى ابنه عالماً كبيراً كهؤلاء الذين يرى الناس يقبلون أيديهم ، أو على الأقل يساعده بما تعلم من حساب ولغة ، فلما بدت هذه النزعة تفيض منه يده ، وأخذ عبدالله يعول نفسه ، وتعلم فن الإشارات (التلغرافية) ، وأتيح له بعد أن أتقن هذا الفن أن يشغل وظيفة بقصر والدته الخديو إسماعيل بالقاهرة ، فشاهد الغنى والجاه ، وألواناً من الحياة والعيش لم يرها من قبل ؛ شاهد العز في أوجهه ، كما عرف الفقر في أبشع صورته من قبل .

وعاوده بالقاهرة حنيفه إلى مجلس الأدباء والشعراء ، فصار يجد في البحث عنهم ، فتارة يذهب إلى الأزهر ، ويطلع على ما أخذ رفاقه (١) ، وأحياناً يغشى منازل الأدباء ويتعرف عليهم ويستفيد منهم ، فتوثقت صلته بالبارودي ، وعلى أبي النصر ، وعبد الله فكري ، ومحمود صفوت الساعاتي ، والشيخ أحمد الزرقاني ، ومحمد بك سعيد بن جعفر مظهر باشا الشاعر النائر ، وعبد العزيز بك حافظ (٢) ؛ وغيرهم من الأدباء أو محبي الأدب ، فاتسعت ثقافته الأدبية بهذا الاختلاط ،

(١) وكان من رفاقه الخالصاء الشيخ حمزه فتح الله .

(٢) وقد دجج عبد الله نديم مقالا في هؤلاء الأدباء أثني فيه عليهم ووصف كلا منهم

بعض النعوت والمدايح ، راجع سلافة النديم ج ١ ص ٢٤ .

وعرف مزاياء كل منهم ، ووقف على فنه ، وشاركهم في مجالس أنسهم وطربهم ومطاراتهم فأضاف إلى خزينة أدبه ما وعاه في هذه المجالس من طرف وملح ورواية .

ولكن مقامه بالقاهرة لم يطل ؛ إذ زل قلبه - وهو في الوظيفة فأغضب خليل أغا (١) للمشرف على القصر ، وناهيك به في ذلك الوقت جباراً ، لا يرد له أمر ، وبذلك فقد عبد الله وظيفته ، وضاعت عليه القاهرة بما رحبت ، فضرب في البلاد هائماً على وجهه حتى وصل إلى (بداوى) بمديرية الدقهلية ، وأخذ يعلم أبناء عمدتها القراءة ، ولكن هذا العمدة ضن عليه بالأجر ، فنارت نائرة عبد الله نديم ، وأخذ يصوغ في هجاء هذا العمدة ألواناً مقذعة من الهجاء كانت أول ما عرف من أدبه ، واكتشف في نفسه أديباً ذا سطوة في القول ، حاد اللسان عنيف الخصام ، حاضر البديهة .

ثم نراه في المنصورة يتجرف في (العصائب) ويجمع حوله الأدباء والشعراء فأكل الربح ورأس المال الذي جاد به عليه أحد الكرماء ، ووجد نفسه بعد مدة في دكان مملوء بالشعراء خلو من السلع ؛ فهام على وجهه مرة أخرى بالبلاد حتى وصل إلى طنطا إبان مولد السيد البدوى واتصل بشاهين باشا كنج (٢) ، وكان رجلاً ذا جاه يجمع حوله الأدباء والظرفاء ، وله بيته منتدى يضم أنماطاً شتى من

(١) وهو خصى كان ذا حظوة عظيمة لدى إسماعيل وأمه ، وكانت إشارته حكم وطاقته غم كائنه كافور الأخشىدى أو يزيد

(٢) وقد وقع له مع شاهين باشا حادثة تدل على مبلغ بديهة عبد الله نديم واستعداده الأدبي فقد قال هو عن نفسه : « كنت بمولد السيد البدوى ومعى السيد على أبو النصر والشيخ حلاوة وجلسنا على قهوة الصباغ تفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما استلفت أخاه إلينا ، وخصانا بالكلام ، فأخذنا يمدحنا واحداً فواحداً إلى أن جاء دورهما إلى فقال أحدهما يخاطبني :

ذوى اللسن والنكتة والفكاهة ، وقد مكث عبد الله نديم في ضيافته مدة ينعم
 بكرم وأدب وراحة ، وكان واسطة العقد يبهز الناس بأدبه وطلاقة لسانه ،
 وسرعة بديهته ، وكان يتعداه الأدياء ، ويحاولون تعجيزه ، ولكنه يقهرهم بمواهبه ،
 وقد روى أن بعضهم اقترح عليه أن يعارض دالية المتنبي المشهورة التي مطلعها :
 أقل فعالي بله أكثره مجدد وإذا الجدد فيه نلت أو لم أنل جد
 وادعى المقترح أنه لا يتأتى لشاعر أن يعارض المتنبي في قوله بهذه القصيدة :
 ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته يد

= أنعم بقرشك يا جندي والا اكسنا امال يا أفندي
 إلا أنا وحياتك عندي بقى لي شهرين طول جيعان
 فقلت على سبيل المزاح :
 أما الفلوس أنا مديشي وانت تقول لي ما امشيشي
 يطلع على حشيشي أقوم أملس لك لودان
 ولما بلغ شاهين باشا ذلك وأنى غلبت هؤلاء الأدبية ، طلب شيخهم ، ووعدته إن غلبوني
 يعطهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين (سوطاً) ، واجتمع لذلك
 حشد من الناس كبير ، وابتدأ كبيرهم فقال :
 أول كلامي حمد الله ثم الصلاة على الهادى
 ماذا تريد يا عبد الله قدام أميرنا وأسيادى

فقلت :

إني أريد أحمد ربى بعد الصلاة على المختار
 وإن كنت تطمع في أدبى أسمعك حسن الأشعار
 دعنا من الأدب المشهور وادخل بنا باب الدعمك
 ندخل على أسيادنا بسرور ونغم الخير والبركة
 هيا احتكم في البحر وشوف فن النديم ولا فنك
 ولوقت نسمع يامتخوف أحسن أدب وحياء دقنك

فقلت :

وهكذا استمر عبد الله نديم يساجل هؤلاء الأدبائيه حتى أخفهم ، وتجد ثباتاً لا بأس به
 بعجلة الأستاذ كتبه النديم بنفسه ، ونقله أحمد باشا تيمور في كتابه (تراجم أعيان القرن
 الثالث عشر وأوائل الرابع عشر) .

فقبل النديم التحدى ، وأنشأ قصيدة مطلعها :

سيوف الثنا تصدا ، ومقولى الغمد ومن سار فى نصرى تكفلها الحمد

ومنها يعارض بيت المتنبي :

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا يعارضه غر ويفحمه وغـد

ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها الحمد

وليس هذا شعراً صادراً عن عاطفة أو فكرة ، وإنما هو مهارة لسانية ،

وإظهار لمقدرة كلامية ، وقوة عارضة ، وتوقد خاطر ؛ وأثر الصنعة والتعمل بادٍ

عليه ، ولكن الشعر فى عصر عبد الله نديم كان كذلك .

ثم عاد إلى الاسكندرية فى سنة ١٨٧٩ ، بعد أن غاب عنها طويلاً ، ووجد

الأمور والأحداث قد بدلت حديث الناس وسمهم ، ولم يعد الشعر وروايته ،

والأدب ودرايته هى ما يشغل المستنيرين بمصر عامة ، والاسكندرية خاصة ،

وإنما كان يشغل الناس حينذاك إسراف إسماعيل وتهوره ، وتدخل الأجنبي

فى شئون البلاد وتجهره ، ووجد بالإسكندرية جمعية سرية تسمى (مصر الفتاة)

تنقد إسماعيل وأعماله صراحة ، وتعتبر عن آلام الأمة وآمالها ؛ ووجد الصحف

قد تغيرت لهجتها ، وصارت بفضل تعاليم جمال الدين ميداناً تغير فيه الأفلام

المرهفة الحادة على الظلم والعنفوان ، والاستبداد والقسوة ، وتطلب الشورى

وإنصاف الشعب . ورأى عبد الله نديم أن هذا الأدب الجديد ينسجم مع نفسه

فألقى بنفسه فى هذا التيار تيار السياسة القوي حتى صار من قواد الأمة السياسيين ،

ورائداً من رواد الوطنية الأوائل ، فأخذ يغذى الصحف بمقالاته السياسية ،

وحوّل هذه الجمعية السرية إلى جمعية علنية تعمل فى ضوء النهار ، وسماها الجمعية

الخيرية الإسلامية ، وقد مر بك شئ عنها ، وكان من أغراضها تأسيس معاهد

للعلم يربى فيها النشء تربية وطنية ، ويلقنون العلم بطرق حديثة تحببه إليهم ،
وتعرس في نفوسهم المثل العليا ، وتعودهم قيادة الأمة وإرشادها ، ولذلك عمد إلى
تشجيع تلاميذ المدرسة على الخطابة ، فصاروا ينشئون الخطب بأنفسهم وهو يصلحها
لهم ، ويزج بهم في الحفلات يخطبون ، فتدرب على يديه فريق ممن يحسنون
الكتابة ويحميدون الخطابة . ولم يكتف بهذا بل كان يؤلف روايات تمثيلية
في نقد بعض العيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه أمام جمهور المتعلمين بالمدينة
كرواية (الوطن وطالع التوفيق) و (العرب) ، وقد حضرها الخديو توفيق
تشجيعاً له ، ولقي نجاحاً ملحوظاً أثار عليه حسد بعض الناس .

ولم يلبث أن ترك الجمعية الخيرية ومدرستها حين ظهر بها خلل نسب إليه ،
فتفرغ للصحافة وأنشأ جريدة « التنكيت والتبكيت » (١) ، يدبج فيها مقالات
ظاهرها هزل وباطنها جد يصور فيها عيوب المجتمع المصري تصويراً شائناً بأسلوب
تهكمي لاذع ، ويطلب من القراء أن يعاونوه في تحريرها بقوله : « كونوا معي
في المشرب الذي التزمته والمذهب الذي انتحلته : أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية
وأمثال أدبية وتبكيت ينادى بقبح الجهالة وذم الخرافات ، لنتعاون بهذه الخدمة
على نحو ماصرنا به مُثَلَّة في الوجود من ركوب متن الغواية واتباع الهوى اللذين
أضلانا سوء السبيل » . وسنتعرض لهجها وطريقة كتابته بها فيما بعد ، وحسبنا
أن نقول الآن : إن أسلوب هذه الجريدة ، والموضوعات التي عالجتها ، والحرارة
التي كتبت بها هذه الموضوعات ، والجرأة الأدبية التي تمثلت في صراحتها وهجائها
على كثير من قلاع الفساد بمصر حببها إلى جمهرة القراء ، وبغضها إلى المنافقين
وأدعياء الوطنية .

ثم قامت الثورة العراقية في الظروف التي علمتها من قبل ، وصادفت هوى في نفس النديم ؛ لأن مبادئها كانت تنادى بالإصلاح السياسي والاجتماعي الذي طالما دعا إليه في جريدته ، ووجد الثوار أنفسهم في حاجة إلى خطيب ذلق اللسان ، حاضر البديهة ، جياش العاطفة ، مصري غيور على وطنه ، يكون لسانهم الناطق ، وداعيتهم المحبوب ، فلم يجدوا خيراً من عبد الله نديم فألحوا عليه حتى شايعهم فكان معهم كما أرادوا وزيادة ، وطلب منه عرابي أن يغير اسم جريدته^(١) ويسميا (الطائف) تيمناً باسم طائف الحجاز ، وتفاؤلاً بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب الشدياق .

وابتدأت الطائف قوية عنيفة اللاهجة تنقد إسماعيل نقداً مرأ ، وتشرح للناس كيف أسرف ، وكيف استولى على الأراضي ، وتصور بؤس الفلاحين في السخرة — أيام إسماعيل^(٢) — والعذاب المهيّن الذي يصبه الرؤساء على الناس ويلهبون ظهورهم بالسياط في سبيل الجباية ودفع الضرائب ، ويضيف إلى كل ذلك ما رآه بنفسه من مشاهد دامية ، وقلوب قاسية ، ورؤساء يزدادون غلظة طمعاً في الترقية . وما لجأ عبد الله نديم إلى كل هذه الموضوعات إلا ليبرر طلب الثوار الحكم النيابي ضماناً للعدالة ، وجبا للاستبداد وعهوده ؛ وطلب الثوار من وزارة الداخلية أن تعتمد الطائف لسانهم المعبر فوافقت على ذلك ، وصارت

(١) وكان آخر عدد صدر من التنكيت والتبكيّت في ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ هـ ، وصدر منها عمانية عشر عدداً

(٢) لأن من حسنات رياض باشا الذي تذكر له أنه ألغى السخرة في أوائل عهد توفيق كإقامة الجسور على النيل أيام الفيضان ، وحفر الترغ من غير أجر ، وكان كثير من الملاك يسخرون الفلاحين في أرضهم بدون أجر فمنعهم رياض من ذلك منعاً باتاً فأثار حفيظتهم ، ولعل ذلك ما جعل محمد عبده ينظر إليه دائماً بأنه المستبد العادل الذي يجب أن يحكم البلاد خمس عشرة سنة حتى يصلح شئونها .

الطائف مقياساً لتطور الثورة ، فتارة تذب الأوربيين وتحمل عليهم حملات شعواء لتدخلهم في شئون البلاد ، وآونة تصب نقمتها على توفيق ؛ لأنه مكن لهم في مصر ، وغض الطرف عن ازدياد نفوذهم ؛ وكان النديم في الطائف يداس في أخبار الثورة والقتال تهدئة للناس ، فيصور الهزيمة نصراً ، حتى تمت الهزيمة ، وأسقط في يد الثوار .

ولم يكن الطائف وحده هو الذي يدعو إلى الثورة ويحرض عليها ، ويشجع الناس على التطوع والتبرع ، بل كانت خطبه المؤثرة وحماسته المتدفقة ، وقدرته على تصنيف الكلام ، ومخاطبة كل طائفة بالأسلوب الذي تفهمه ، من أشد العوامل على إشعال نار الثورة ، وازدياد لهيبها^(١) . فلا بدع إذا جد في إثارة الطلب حين أخفقت الثورة ؛ إذ رأى فيه توفيق والإنجليز المحرض الأكبر للثوار ، وناشر آرائهم بقلمه ولسانه ، ولكنه اختفى من وجه السلطة فلم يعثر عليه ؛ لأنه كان يعلم جد العلم أنه لن يغفر له ذنب ، أو تقال له عشرة إذا أسر ، ولن يجديه الإنكار فتيلاً فأقواله ماثورة ، وخطبه مشهورة ، والطائف خير شهيد ، وسيكون العقاب صارماً أليماً . لقد ذل كثير من كبار الثوار والتمسوا الرأفة وعلى رأسهم عمراى ، ولكن عبد الله نديم أثر التشرد والاختفاء على إحناء الرأس ، وذلة الطرف ، وهو إنما خاض الثورة عن إيمان وعلم .

وقصة اختفاء النديم وحيله التي ضلل بها السلطة ، على الرغم من المكافآت التي رصدتها لمن يأتي به ، جديرة بأن توضع في رواية تمثيلية ، وستكون رواية غاية في القوة ، لأنه أجاد التفكير إجادة يعجز عنها أمهر الممثلين اليوم في بلاد (الخيالة) ، واسمعه يصف بإيجاز هذا التنكر الذي دام تسع سنين ، وهو بمصر لم يبرحها ،

(١) كان يخطب في كل مجتمع ، في الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفي حفلات الأفراس ، فما يكون مجتمع إلا ويطلع فيه عبد الله نديم خطيباً هو وجماعة من تلاميذه .

ويمرق من بين يدي رجال الحكومة ، وصنائع الإنجليز دون أن يدركوه ، أو يعرفوه : « خرجت من مصر مختفياً فدرت في البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلّم في كل قرية باسنان يوافق دعواي التي أدعيها ، من قولي إني مغربي أو يمني أو مدني أو فيومي أو شرقاوي أو نجدى ، وأصلح لحيّتي إصلاحاً يوافق الدعوى أيضاً ، فأطيلها في مكان عند دعوى المشيخة ؛ وأقصرها في آخر عند دعوى السياحة — مثلاً — وأبيضها في بلد ، وأحمرها في قرية ، وأسودها في غزبة » وقد تغيرت الأسماء التي انتحلها^(١) ، والناس في عجب

(١) فتارة اسمه الشيخ يوسف المدني ، وتارة الشيخ محمد الفيومي ، وأحياناً سى الحاج على الغربي ، وكان إذا ادعى أنه مغربي تكلم بلسان مغربي محكم ، أو مدني فكذلك . وادعى مرة أنه عالم يمني ، وكان بالقرشية عند أحمد باشا المنشاوي ، وزادت شهرته حتى بلغت رياض باشا — وهو الرجل الذي يطارده ويضع له الأرصاد في كل طريق ، ويقف المال في سبيل أسرهِ لإرضاء لتوفيق — فأرسل سعد زغلول ليسأله عن مثل ورد ذكره في بعض الجرائد ولم يفهمه ، فقابل سعداً على أنه عالم يمني وفسره له .

وقد استعان على تضليل الحكومة بإشاعة سفره إلى خارج القطر على لسان صديق فرنسي كان يثق به ، ونقلت كل الجرائد خبر سفره هذا ، فصدقت الحكومة وعفت رجال الأمن على إهمالهم وتمكينه من الهرب ، وقد وجد عطفاً زائداً من كثير من الناس فأعانوه على الاختفاء ، وأمدوه وخادمه بالمال ؛ ففدأت عليه مرة عيد أضحى وهو في (برية المندرة) يسكن الحقول ، لا أحد معه إلا زوجته ، ولا يجد القوت الضروري ويأتيه خادمه يشكو البؤس والفاقة ، وإذا برجل من أهل البر والمروءة يملأ بيت النديم قحاً وعسلاً وسمناً وثياباً من أطلس وحرير للزوجة وللخادم وزوجته .

ولكن مرت عليه مع ذلك أيام حالكة السواد ، مليئة بالمصائب ، فقد أختفى مرة في قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم ، يرشح الماء من أرضها لقربها من ترعة ، ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صغير به ذبالة يملأ الحجرة دخاناً ، وقد مكث بهذا السرداب ستة أشهر ، وكان إذا أراد الكتابة صنع المداد من سناج السراج مع قليل من قرظ السنط ، ويتخذ أقلامه من الحجناء . كل هذا وهو صابر لا يشكو ولا يتململ . وكان في أول أمره شديد الحنين لأمه وأبيه وأخيه لا يعرف ما صار وإليه ، فلما خف عنه الطلب ، وبُعثت الحكومة من العثور عليه ، تمكن من الاتصال بأهله اتصلاً منتظماً . وكان =

من أمره ، فالمقدرة مقدرة النديم ، ولكنه يختلف عنه في الشكل والصوت
واللهجة ، فيقولون : سبحان الله جل من لا شبه له .

وقد أتيج له من الفراغ وهو في اختفائه هذا ما مكنه من مواصلة دراسته ،
وشغل نفسه بالتأليف وقرض الشعر ، وقد ألف في كثير من العلوم ، وفي هذا
يقول من رسالة لصديق له : « تارة أشغل بكتابة فصول في علم الأصول ، وأجمع
عقائد أهل السنة ، بما تعظم لله المنة ، وحينما اشتغل بنظم فرائد في صورة قصائد ،
ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة في فنون مختلفة ، وآونة أكتب في التصوف والسلوك
وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب في العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ،
ومرة أطوف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ، ويوماً أشغل بشرح أنواع
البديع في مدح الشفيع ... وقد تم لي الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ،
فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنة
والمنة ، أناني كنت أكتب هذه العلوم في ذلك الوقت المعلوم ، وقد كنت أشغل
من مرضعة اثنين ، وفي حجرها ثالث ، وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربى
عشرة وليس له تابع » .

وانتهى به المطاف إلى بلدة (الجزيرة) فعرفه عمدتها وكتب أمره ، ولكن أحد
جواسيس الحكومة عرفه ، فوشى به طمعاً في المكافأة^(١) ، وأطبق عليه رجال
الشرطة ، ولم يستطع النجاة بحيلة المعهودة ، فسلم نفسه^(٢) ومن حسن حظه لم

حريصاً على ما خلفه بيته بالأسكندرية من كتب ومؤلفات ، ولكنها ضاعت بالسكة الحديدية حين
وضعها أبوه في صناديق وهو مهاجر من الثغر بعد ضربه بالمداغم إلا إنجليزية ، فلما اشتد الزحام
بالقطار عمد رجال السكة الحديدية إلى التخلص من البضائع ليفسحوا المجال للناس فألقوا بهذه الصناديق
المملوءة كتباً وهم لا يعلمون قيمتها عند عبد الله نديم .

(١) كان ميعاد المكافأة قد انتهى فلم يتل المبلغ شيئاً .

(٢) كان اختفاؤه في ١٢٩٩ هـ والقبض عليه في ١٣٠٩ هـ .

يفحصوا عن أوراقه ؛ إذ كان في بعضها هجاء مقذع لتوفيق ، ولو تنبهوا لذلك لكان أمره غير ما عرفنا . ثم أرسل إلى طنطا للتحقيق معه ، وكان الخلق قاسم بك أمين فأكرمه وواساه وأمدّه بالمال من عنده ؛ ثم صدر أمر توفيق بالعفو عنه وإبعاده عن مصر ، فاختر (يافا) دار إقامة ، وطوف ما شاء له هواه في فلسطين وعرف كثيرا من بقاعها^(١) .

ولما مات توفيق وتولى عباس عفا عنه ، وسمح له بالعودة إلى مصر ، فرجع إليها سنة ١٨٩٣ وأنشأ جريدة (الاستاذ) فكانت صفحة مجيدة في تاريخ الجهاد القومي ؛ لأن علاقة الخديو عباس بالإنجليز كانت سيئة ، وكان يجمع حوله الوطنيين وكبار المفكرين كما علمت آنفا ؛ وأخذ القديم يناصر عباساً بكل ما أوتي من قوة ، وكان في استطاعته أن يمنح للسلم ويهادن الإنجليز ، ويعين في أعظم المناصب بالمعارف أو الأزهر ، وهو كفء أديب ولاكن أبت عليه نفسه العفة ، ووطنيته المتقدمة أن يلين لعدوه مهما كانت سطوته ، ومهما كانت الأيام قد حاربتة في الماضي ، ولقى إبان اختفائه من عنت وآلام .

شهر قلمه في وجه الإنجليز غير مبال بهم وبسلطانهم القوى بوادي النيل ، فأثار بذلك حفيظتهم وخافوا إن تركوه وشأنه أن يتسع الخرق ، ويفسد الأمر ويعيد هاجزاً ، فأوقفوا مجلته ، ورحلوه إلى يافا^(٢) منفيّاً بعد أن منحوه أربعمائة دينار ،

(١) وكان في أول أمره يرتدى الشاب الإفريقية المألومة ، فلما ظهر بعد الإخفاء لبس الجبة والقباء ، واعتم بعمامة خضراء إشارة إلى الشرف ، ولكن كثيراً من ذوى الخبرة يتكرون هذا النسب ، ولعل هذا الادعاء لشعوره بضعة نسبة فأراد أن يستره بهذه الصلة .

(٢) وقد ودع قراءه في آخر عدد صدر من مجلة الأستاذ ١٣ من يونية سنة ١٨٩٣ بكلمة مؤثرة قال فيها : ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب ، والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظمة والجلال ، وإن كان المبدأ صعباً وكدرّاً في أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلاً :

أودعكم والله يعلم أنني أحب لقاءكم والخلود إليكم
وما عن قلبي كان الرحيل وإنما دواعي تبديت فالسلام عليكم

وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر ، واشتروا عليه ألا يكتب شيئاً بشأن مصر ، ولم ينفعه الخديو ، ويحول بينه وبين النفي لأنه كان مغلول اليد والسلطة كلها بيد الإنجليز .

ولم يكن بيافا أسعد منه حظاً وهو بمصر ، إذ وشى به جماعة لدى السلطان عبد الحميد فأمر بإبعاده ، فعاد إلى الإسكندرية وهو في حيرة من أمره بعد أن لفظته بلاد الدولة العثمانية ، بيد أن الغازي مختار باشا تشفع له عند عبد الحميد حتى سمح له بالسفر إلى تركيا وهناك التقى بأستاذه الأكبر جمال الدين ، وكان كلاهما في أسر وإن اختلف القفصان ، فجمال الدين في قفص من ذهب ينسجم مع حسبه ومكانته ، والنديم في قفص من حديد يليق بمقامه .

وعين النديم مفتشاً لمطبوعات وهي وظيفة اسمية تكفل له راتباً مقداره خمسة وأربعون مجدياً ، وطبعي أنه لم يزاوِل العمل بمهنته تلك ، وهي أبعد الوظائف عن طبعه وحرите ؛ وفي الآستانة عادى أكبر قوة بها في ذيك الوقت وهو أبو الهدى الصيادي^(١) وأعله تأثر في عداوته له بجمال الدين ، وقد عرفت من أمرها معاً بعض الشيء ، أو لعل الصيادي — وهو الأرجح — كان عدواً لكل حر كريم . ولم يعبأ النديم بسطوة الصيادي وجاهه وقدرته علي الانتقام ، وهو رجل كانت له في كل مكان عيون تنقل له الأخبار ، وقد اصطنع بمعرفة كثيراً من عظماء الدولة فهم طوع يديه ورهن إشارته ، وقد سخر كل ما بتركيا لخدمته ، وكم نفذ أمره وأبطل أمر السلطان ، وكم تدال على عبد الحميد فبالغ في

(١) الصيادي سوري من حلب فقير من المال والحسب دفعته المقادير إلى الآستانة ، وكان ماهراً ذكياً وسيم الحيا ، ماضي العزيمة استطاع أن يتغلب على السلطان عبد الحميد ويخضعه لمشيئته ، بأحلامه وتفسيراته والطرق ومشيئتها ، وربط نسبه بأعلى نسب وادعى أنه قرشي هاشمي ، وحياته وأعماله تمثل دوراً هاماً أشبه بدور راسبوتين عند قيصرية الروس .

لمسترضائه . ولكن النديم لا يهمه الصيادى ولا عبد الحميد ، وأخذ يخوض فى سيرته بلسان حاد بذىء ، ووضع فيه كتابا سماه (المسامير) كله هجو مقذع فاحش لا يشرف الصيادى ، ولا يشرف النديم ؛ وحاول الصيادى أن يعثر على هذا الكتاب ، وادعى أن به هجوا لعبد الحميد ، ولكن بحشه ذهب أدراج الرياح . وهربه (جورج كرتشى) الذى كان متصلا بجمال الدين وعبد الله نديم إلى مصر ، ثم طبعه .

وأصيب النديم بالسل بعد ذلك بقليل ، واشتدت عليه العلة فمات فى الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٤ ، العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ ، ودفن بتركيا وهو فى الرابعة والخمسين من عمره .

آثاره ، وأثره :

ولعلك قد أدركت من هذه السيرة أن النديم قد جرب كثيراً من مشغول الحياة ، وعرف حلوها ومرها ، وخالط الفقراء والأغنياء ، وعاشراً أصنافاً شتى من مختلف الأجناس وعرك الدهر حتى استحصدت مرته ، وقويت شكيمته ، وإني أدعه يسرد تجربته بنفسه فستعیننا فى تعرف أدبه ، قال : « أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومن يتألمون ، وماذا يرجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين وألمت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جمّاً من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب ممن ثبتت أقدامهم فى وظائفهم ، وعرفت كثيراً من الغربيين ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية

المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة
أو السياسة ؛ وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت
بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بقراءة
الجرائد مدة ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلجت
حينها ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت
هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء ، وكسائي نحول الشيخوخة
في زمن بضاضة الصبا ، وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ،
فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا
تسعة وثلاثين !

ولو عاش النديم — مع تجربته هذه التى قلما تتاح لأديب ، ومع ذوقه
المرهف ومواهبه العديدة وقدرته على التعبير — فى عصرنا هذا وعرف ألوان
الأدب ، وفنونه ، واطلع على طريقة الغرب وأساليبه من قصة ومسرحية ،
وأفكار لكان أديباً عالمياً ممتازاً تفاخر كل أمة بانتسابه إليها . ولكنه كان
متعلقاً إلى حد كبير بأذيال الماضى ، يكتب بأسلوب مقيد بصنوف عديدة من
الأغلال ، ولم تكن كنوز المعانى قد حطمت أغلاقها ولا ألوان الأدب الغربى
العديدة قد عرفت ودرست . ومع ذلك فالنديم يعد فى الطليعة من رواد
الأدب الحديث .

أما آثاره فيحدثنا أحمد سمير مترجم حياته ، بأن النديم « لما كان فى يافا
أول مرة بعث إلى محرراً يكلفنى به أن أطلب ديوان شعره الصغير من صديقه
المرحوم عبد العزيز بك حافظ ، فلما قصده وجدته مصاباً فى قواه العقلية بما لم
يدع للطلب مجالاً . ثم كتب إلي كتاباً ثانياً بأن ديوانه الأوسط عدم . بك ن

فطلبته منه ، فاعتذر بأنه ضاع ، فلما أنبأت المترجم بذلك أرسل إلى في مكتوبه الثالث أنه إنما طلبهما ليحرقهما براءة منهما ومن أمثالهما ؛ لأن فيها هجراً كثيراً وختم المكتوب بهذه العبارة : [قد خلعت تلك الثياب الدنسة ، ولبست ثوب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطيراً)] .

وهذه قصة تذكرنا بما كان من الشيخ على الليثي من قبل ، وبمكانة الشعر عند هؤلاء القوم ، وفي الواقع إنه لم يكن شعراً بالمعنى الذي نعرفه اليوم ، ولكنه كان كما ذكرنا من قبل ، نظماً تظهر به المقدرة على التعبير والمهارة اللسانية ، وتصريف الكلام وسنرى نماذج من هذا الشعر فيما بعد ، وقد بقي لنا قليل ينبيء عن نوع هذه الدواوين التي لم يعثر عليها .

أما نثره ، فقد كتب مقالات شتى في التنكيت والتبكيك ، وقد وعدنا بالرجوع إليها ، لننظر في موضوعاتها وقيمتها . وحسبنا أن نتصفح العدد الأول منها وقد حرره النديم بقلمه فنجد مقالات شتى تمس حياة الأمة وتعالج مشكلاتها . فقال عنوانه : « مجلس طبي لمصاب بالأفرنجى » ، وهي قصة شاب قوى الجسم سليم البنية ، جميل الطلعة ، لطيف الشكل ، نشأ تحوطه العناية وتكلاؤه الرعاية ، ويدلله أهله ويحمونه حتى لا تصل إليه يد عدو ، ولا حيلة محتمل ؛ ولكن استطاع دجال ماهر أتقن فن الخداع والحيلة أن يقسل إليه ، وأن يوهم أهله أنه من ذوى الورع والتقوى ، فأمنوا بجانبه ، وأسلموه له ، فأخذ يعرضه في الأسواق والطرقات وجلب له من الغواني الحسان من تعارض الشمس بحسنها وتكسف البدر بنورها ، يغازلن أهله بنغمات تحرك الجبان ، فانهرف الأهل إليهن ، وتركوا مراقبة الفتى المليح ، فانفرد به ذلك المحتمل الخداع ، وأغرى به الفتيات للملاح ، فتمنع حينئذ ، وعصمه حياؤه وطهر نشأته زمناً ، ولكن رأى أن الإغراء

شديد ، والخصم عنيد ، وأن لا قبل له بهؤلاء الشياطين ، ولا سيما وقد وجد أهله
 عاكفين على التزلف لهؤلاء النسوة ، والتدله في جهن ، فسار في الطريق التي
 رسمها من قبل هذا المنافق الدجال ، فها هي إلا رشفة كأس حتى أصيب بالداء
 الأفرنجي (الزهري) فاصفر لونه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت
 عيناه وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبايح تنفر منها الطباع ، وفطن إليه بعض
 أهله فلما رأى مابه بكى وانتحب ، وأخذ يذرف العبرات ويصعد الزفرات ، ويافظ
 الحشرات ، وجمع له الأطباء يشخصون داءه ، ويركبون الدواء عليه يبرئه من علته
 ويقف سريان الداء ، وأقبل أهله متلهفين لسماع نصيح الأطباء ورأيهم فيه ،
 فطلبوا إليهم الهدوء والسكون ، ومساعدتهم في خدمته ، وتنظيف محله وتطهير
 أعضائه وحفظه حتى لا يقربه غريب ولا يمكن أجنبي من الوصول إليه فيفسد
 العلاج ويسعى في إتلافه أكثر مما صنع هو وقومه ؛ وأخذ أهله يعملون بمشورة
 الأطباء ويبذلون الجهد في وقايته وصيانيته .

وهذه قصة رمزية تصور ما كان من إصابة مصر على يد إسماعيل وإسرافه
 وتدخل الأجانب في شئونها ، والمراقبة الثنائية ، وصندوق الدين ، وتصور كذلك
 ألم الناس من هذا المرض الأفرنجي ، وأملهم في النجاة بسعى العقلاء وتفكير
 المستنيرين . وتوريته (بالأفرنجي) عن هذه المصائب التي حلت بالبلاد
 تورية بارعة .

وترى بالعدد الأول من التفكيك والتبكيك مقالا آخر بعنوان (عربي تفرنج)
 وهي قصة شاب من صميم الريف ، أبوه فلاح مسكين ، لم يستطع أن يعلمه ،
 بل تركه جاهلا يساعده في حقله ويأكل البصل ، ولا يرى اللحم إلا في العيد ،
 ثم مر به أحد التجار فأغراه على أن يدفع به إلى المدرسة ولما أتم تعليمه بمصر

أوسل إلى أوربا ، وعاد إلى بلاده متفكراً لأهله ، مستقبها عادات قومه ، مهجناً طريقتهم في التحية ، مستفهماً بقعة عن اسم البصل الذي طالما أكله لأنه نسي الاسم العربي ، ولم يعد يتذكر إلا الاسم الفرنسي ^(١) ، ولما شكوا أبوه إلى أحد النابهين قال له : « ولدك لم يتهذب صغيراً ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حق لغته ، ولا قدر شرف أمته ، ولا ثمرة الحرص على عوائد الأهل ولا مزينة الوطنية ، فهو وإن كان تعلم علوماً إلا أنها لا تفيد وطنه شيئاً » :

وهذا داء استشرى في مصر بعد النديم ، وحاكى كثير ممن درسوا في بلاد الغرب أوربا في كل شيء حتى هجنت عاداتنا وتقاليدنا ، وفقد شبابنا كثيراً من مقومات الوطنية الصادقة ؛ وإن كانت هذه الفتنة قد ابتدأت تخف وتنبه الأمة إلى التمسك بلغتها وعاداتها ومزاياها ، وتعزز بها .

وبلى ذلك قصة جماعة من الموسرين اجتمعوا في بيت أحدهم ، ودخل عليهم فوجدهم مهوتين صامتين لا يتكلمون ولا يتحركون ، ولا يرفعون أبصارهم ، فظن أول الأمر أن رب الدار قد رزى بخطب قادح ، وقد أتت هذه الجماعة لتواسيه ، وعقد الحزن ألسنتهم ، وران على قلوبهم فتركهم واجين ، ولكن خاب ظنه هذا ، فسأل هل ثمة معضلة عويصة عرضت لكم وأنتم تبحثون تقدم أوروبا في الصناعات ، وانتشار تجارتها ، وكيف تصل مصر إلى هذه المنزلة ، فأجابوا بالنفي ، فقال : ربما تفكرون فيما يزيد ثروتكم ويعود بالنفع والخير عليكم وعلى أمتكم ، فقال رب الدار : هذا أمر لا يهمننا فإن البلاد إذا تقدمت أو تأخرت

(١) وقد ساق النديم هذه القصة بطريقة الحوار بين هذا الشاب 'لمرور الذي أسماه (زعيط) وبين والده ، وذكر فيها كثيراً من الكلمات العامية حتى يعطى اللون الخاص الذي يريده ، وكان يذكر بطريقة تهكمية لاذعة هذه الكلمات الفرنسية التي يلوكلها هذا الدعي مثل كلمة (بون أريشى) عند التحية و (أنبون) يريد البصل وهكذا .

لا تفيدنا شيئاً أحسن مما نحن ، وأما عن ثروتنا وزيادتها فعندنا من الثروة الكفاية ، وهكذا صار يسألهم وهو في حيرة من أمرهم حتى اكتشف أنهم إنما اجتمعوا لتعاطى (الكيف) ، والمنهات وغير ذلك ، وعللوا لاجتماعهم هذا بأن (الكيف) لا يُفرح إلا إذا تعاطاه الإنسان في مجلس أنس . ويختم النديم هذه القصة التى سماها (سهرة الانطاع) بقوله : « هكذا تكون حال من لم يتهذب صغيراً فإنه يخرج أسير شهواته بعيداً عن إدراك المعانى جباناً بليداً غيباً » .

ثم يتعرض فى كلمة أخرى لهؤلاء الذين يلتفون حول القصص بالمقهى يسمعون قصة عنتره ويتجادلون ويتحزبون لأبطال القصة ؛ ولما رآهم القصص منصفين إليه أخذ يفتري عبارات ينسبها إلى عنتره ، وكلمات يعزوها إلى عماره ، وكل فريق يرشوه حتى ينتصر له بتلفيق كلام يصف فيه فوز حزبه ، وأخيراً انتهت الليلة بأسر عنتره ، فقام من الجمع رجل قدم للقصص عشرة جنيهات ليخلص عنتره من أسره فأبى ، فانهال عليه شتماً وسباً ، وتذكر أن عنده قصة عنتره ولكنه أمى ، فذهب إلى ابنه قبيل الفجر وأيقظه ، وهول فى مصيبتة التى لحقت به تلك الليلة ، حتى ظن الولد أن أمه ماتت ، أو أحد إخوته توفى ، أو تجارة أبيه صودرت ، فلما علم أن الأمر يتعلق بعنتره أخذ يهون على والده الأمر ، ويصف القصة بالتلفيق والكذب ، فانهال عليه والده ضرباً بالعصا وطرده من البيت .

ثم يقص أمر المزارع والمرابى ، وقد ذكرناها آنفاً ، ويتبع ذلك بقصة غنى كبير بنى بيتاً واعتنى بأثاثه ورياشه ، ثم دعا فريقاً من أصدقائه لزيارته ، ولما وصلوا إلى المكتبة سأل أحدهم عن الكتب التى يهواها ، فأجاب بما يدل على الجهل ، وأنه لا علم له بالكتب وما تحتويه ، وكل ما فى الأمر أنه زار أحد العظماء ووجد ببيته خزانة كتب ، عليها ستارة خضراء ، وبجانها منفضة من الريش ،

والخادم يمسح زجاج الخزانة كل يوم فظن أن هذا طراز جديد في تأييث البيوت
فحأكاه فيه دون أن يعرف شيئاً عن الكتب وما تحتويه فدل على عظيم جهله
وعلى أن التقليد الأعمى مضر بالإنسان مزر بمكانته .

أجل ! ضم العدد الأول من المجلة كل هذه الموضوعات التي تصور عيوباً شائعة
لا يزال بعضها فاشياً ، وتصف الدواء لهذه العلل الاجتماعية ، ولكن بأسلوب
الوعظ والإرشاد ، وإن كان ممزوجاً بكثير من التهمك اللاذع والسخرية المرة ،
والكلمات القارصة ؛ وقد فطن النديم إلى أن التعليم والنقد من طريق القصة
يحمل القارئ على متابعة القراءة ، ويرى مصير أشخاص القصة فيتعظ بهم ،
وبذلك يجدى النقد ويؤتى ثمرته ، ولذلك أكثر منه . ولم يصنع هذه القصص
في عبارات منمقة مزوقة بليغة متخيرة الألفاظ ، ولكن ساقها في أسلوب سهل
وكثيراً ما عمد إلى اللغة العامية يعبر بها عن مراده ، لعله أن في الناس الجاهل
والعالم ، والعامية والخاصة ، ولكل أسلوب يلائمه فموضوع « الداء الإفرنجي »
موضوع سياسى رمزى لا يفهمه إلا الخاصة ولذلك صيغ صياغة أدبية بلغة سليمة .
أما موضوع المزابى والمزارع ، وموضوع سماعى القصص فمكتوبة للعامية ولذلك
لجأ إلى اللغة العامية يعبر بها حتى يفهمها هؤلاء فيتعظوا .

إن النديم في هذه الموضوعات قدير على الحوار ، وتراه يبالغ حتى يستفز
شعور القارئ ، ويجعله يشمئز من هؤلاء الجهلة الذين يصور حالتهم ، وتراه كذلك
يستنفذ المعانى ويستقرئ الأسباب ، حتى يكون الحكم ، أو النهاية باللغة العظة .
ولو فطن النديم إلى المسرحية الهزلية وصور هذه الشخصيات فيها لكان (موليير)
العرب ؛ لأن عنده القدرة على التصوير ، وخلق الشخصيات واتهمك عليها
والمبالغة في تبشيع المثالب والعيوب ، وهذه كلها تعده لأن يكتب مهزلة متقنة .

ومن الموضوعات التي كتب فيها بمجلته فيما بعد موضوع الخطابة ، وأثرها في تاريخ الإسلام ، وفائدتها في تهذيب الشعب وتربيته ، ورأي أن خطب الجمعة مينة لا تمت إلى الحياة التي يحياها الناس بصلة ، تتكلم في أمور بعيدة عن مشكلاتهم الاجتماعية والخلقية والسياسية كل البعد^(١) ، واقترح أن يحضر خطب الجمعة فئة من ذوى الفكر السديد والرأى الرشيد ، وتوزعها الحكومة على خطباء المساجد وتبرع هو فوضع نموذجاً لخطبة منبرية ، ضمنها الحث على الاهتمام بشؤون البلاد والمحافظة على حقوقها ، والدعوة إلى الائتلاف للتغلب على الخصم الأجنبي ، وعلى الأخطار التي تهدد بالوادي ، والاتحاد بين المسلمين والأقباط ، والتذكير بمجد مصر السابق ، ومعاملة الأجانب بالحسنى حتى لا تتخذ سوء معاملتهم ذريعة للتدخل الأجنبي ، وغير ذلك من الأمور التي يرى أن الحاجة ماسة إلى التكلم فيها لأول عهد توفيق ، ومن قوله في أثر الخطابة وفائدتها :

« ألسن الخطباء تحيي وتميت ، حكمة إذا عقلت معناها وقفت على سر الخطابة وحكمة حدوثها ، وعلمت أنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن . وكانت الخطابة في الأعصر الخالية غير معلومة إلا في أمتي العرب واليونان فكانت ساحتها في جزيرة العرب عكازاً ، ومنابرها ظهور الأبل ، وهذه الساحة كانت معرضاً للأفكار تجتمع فيه الخطباء والبلغاء والشعراء وأم كثيرة من المجاورة للجزيرة فيرق الخطيب ظهر ناقته ويشير بطرف رداءه ، وينثر على الأسماع درراً وبدائع ، ثم يباريه آخر ويعارضه غيره فتتضارب الأفكار وتتنبه الأذهان ، وتحيا لهم ،

(١) من العجيب أن تسعين في المائة من خطباء المساجد اليوم لا يزالون على الحال التي وصفها النديم وخطبهم بعيدة جداً عن التأثير لأنها لا تمس الحياة في صميمها ولا تعالج مشكلات الناس ، وكل جمعة أحس بضيق وخرج من جراء ما أسمع من خطب مينة .

وتتحرك الدماء ، ويرجع كبار القبائل وأمرائها لما يشير إليه الخطيب إن صلاحا وإن حرباً ، ولم يقتصروا في خطاباتهم على مسائل الحرب والصلاح ، بل كانوا يخوضون بحار الأفكار فلا يتركون ملة إلا شرحوها ، ولا يذرون فضيلة إلا احتوا عليها ؛ حتى إنهم كانوا يحفظون أسماء الحكماء منهم وأهل المآثر فيذكرونهم في هذا المعرض إحياء لتمدنهم وتخليد لأسمائهم ؛ لئلا يجهل الآتي سيرة الماضي فتفتر لهم ، وتحمد الدماء وتتغير الطباع .

٣ — وأما مقالاته بالأستاذ فكانت صرخة أخرى مدوية حاول بها إيقاظ مصر كي تتنبه لما يحرق بها من أخطار ، وعالج في هذه المقالات موضوعات اجتماعية وسياسية وخلقية لم تخطر على بال أحد من قبل ، فتراه يتكلم عن التعليم وأثره في الحضارة والعمران وما يجلبه الجهل من الآفات الاجتماعية والعلل الخلقية ويعدد هذه المثالب ويبين أثرها في تأخر الأمة ، وتارة يحث أبناء مصر على الاتحاد والتآزر والالتفاف حول الوطن والأمير والسلطان ، والتنكر للأجانب مهما كان شأنهم ، والتحذير من غواياتهم ، وهو أول من دعا إلى أن مصر يجب أن تكون للمصريين لا لتركيا ولا للأوربيين ، فكانت لفتة وطنية لا تخرج إلا من قلب عامر بحب بلاده ، ولا سيما في ذلك الزمان الذي لم تفكر فيه أية دولة عربية في هذا المعنى ، وإنما كانت الفكرة الوطنية عندها غامضة تربط مصيرها بمصير تركيا ، ولم تكن الفكرة جلية كما يجب عند القديم ولكنها خطرات الوطنى المتحمس جعلته يفكر مثل هذا التفكير ، وإن كنا نراه أحيانا يشايع الرأي السائد ، ويدعو للسلطان والالتفاف حوله من مثل قوله : « هذه يدى فى يد من أضعها ؟ ضعها فى يد وطنيكي ، واعقد خنصر يكما على محبة أمير البلاد ، مرتبطة هذه المحبة بمحبة أمير المؤمنين ، وإلا فقطعها خير من وضعها فى

يد أجنبي يستميلك إليه بوعود كاذبة وحيل واهية ، يظهر لك سعيه في صالحك وحبه لتقدمك ، ويرهبك بأوهام لا توجد إلا بينك وبينه ، ويفرك بدعوى انفراده بالسلطة عليك ، وبعد الدول عنك ، ويضلك بنسبة أمرائك للقصور ، وحكامك للجهل والظلم ، ويصور لك الأباطيل في صورة حق يخذلك به ، ويحول أفكارك الشرقية إلى أفكار غربية تأخذها وتقول بها ، فتكون يده القوية وعونه الأكبر على ضياع حقوقك وإذلال إخوانك ، واسترقاق أهلك ونزع سلطة أميرك وسלטانك وأنت لا تشعر بشيء من هذا »

وقد يفسر كلام النديم بدعوته للسلطان والحض على الولاء له ، بأنه ولاء ديني ، بينما الولاء لأمير البلاد ولاء وطني ، وهذا هو ما أرجحه ، فإن النديم اشتهر بدعوته الجريئة (مصر للمصريين) ولم يسبقه إليها أحد ، وإذا تعارض الدين والوطنية ، فضل الوطنية على الدين ؛ لأن جاذبية الوطن عنده أقوى من جاذبية الدين ، ويعمل لذلك تعليلاً فلسفياً في مقالة نفيسة بالأستاذ هي (تجاذب الجنسيات والأديان) يقول فيها : « لو وقعت حرب بين عربي وعجمي تماثلاً دينياً هربت الطباع إلى الجنسية فترى عربياً في أقصى الأرض يفرح بانتصار مثيله على العجمي والعكس بالعكس » ويعمل لاتحاد الأقباط والمسلمين بمصر ومحبة كل فريق للآخر بقوة الرابطة الجنسية ، فإن كثيراً من مسلمي مصر أقباط أسلموا ، فنداء الدم بليغ وفي هذا يقول : « وأقرب الأماكن إلينا مصر التي نحن فيها ، فإنها بلاد إسلامية مختلطة بقليل من الأقباط الذين تجذبهم الجنسية إلى كثير ممن تولدوا ممن أسلم من سابقهم ، وتدفعهم الوطنية إلى التلاصق بالمجموع بجاذبية الوطنية والآفة وطول المعاشرة » ، وهذه خطرات وطنية صادقة العاطفة عميقة الفكرة ، بعيدة النظر ، ولقد قال ولي الدين يكن عن عبد الله نديم :

وإنما أحدث بيننا الخلاف أنه كان عدواً للعثمانيين وهو من قدماء من يقولون :
« مصر للمصريين ، ونحن نقول مصر للعثمانيين »

لقد انفرد عبد الله نديم ببدائه هذا ، ولم يجاره في دعوته زعماء السياسة من
بعد ، فهذا مصطفى كامل وهو من هو في مناوئته للإنجليز وبعثه للشعور الوطني ،
ومحاربه الاحتلال الأجنبي لم تنضج عنده الفكرة الوطنية كما نفهمها اليوم ، فلم
يقبل إن مصر للمصريين بل قال : « حقاً إن سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكام
السياسات وأرشدتها ، فضلاً عن الأسباب الداعية لهذا التقرب فإن العدو واحد
ولا يليق بنا أن نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه أعداؤنا على تجزئة
دولتنا ، ولا غرو إن كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن إلا أبناءها المستظلون
بظلها الوريث المجتمعون حول رايته ... وقصارى القول إن الراية العثمانية هي
الراية الوحيدة التي يجب أن نجتمع حولها ، ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد
والائتلاف فلنتحد قلباً ولساناً » (١)

استطاع النديم في جريدة الأستاذ أن يذنبه الأفكار إلى موضوعات حيوية
وأن يجادل ويناقش ويشير العقول ويخلق الرأي العام ، ويدعو زعماء الثورة
العربية الذين أذلم الاحتلال ، وغلبهم الخوف منه إلى البروز والعمل في سبيل
مصر ، ويدعو إلى تأليف الأحزاب حتى تكون لكل جريدة حزبها الذي
تنافح عنه ، ولكل حزب منهجه في الإصلاح . وقد وقف من الأجانب عامة
ومن الإنجليز خاصة موقفاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض ، أما الإنجليز فهو
عدوهم اللدود ، يصورهم صوراً منكراً ، ويدعو الشعب لتأييد توفيق والائتلاف
حوله ، وأما سواهم من المرتزقة الذين هاجروا في سبيل القوت أو الثروة فينصح

بعدم الأمان لهم ، وبالبعد عنهم إلا إذا برهنت التجربة على إخلاصهم « فعليك بمن إذا حلت المصائب وآب النازحون إلى مقارهم فراراً من مشاركتك في همومك كان قسيمك في النكبات ، يتناول معك حمل الخطوب ، ويحملك إذا ضعفت ويبرك إذا احتجت ، ويعودك إذا مرضت ، وينصرك إذا خذلت ، ويدفع معك عدواً يحاربك ، ويحفظ معك وطناً لزمته ، ويصون لك عرضاً تبذل الروح في حمايته » والجمهرة من الأجانب في نظره متسولون إذا أعطيتهم مدحوك ، وهم يمدحونك طالما يجدون عندك نفعاً « ومن كانت هذه صفته يصدفه عنك الغير بلقمة يزيدها ، فإذا زاده ديناراً على أن يقذفك ويهجوك أضحك الناس بما يفتره عليك »

الحق إن النديم في الأستاذ كان معلماً جليلاً للوطنية المتطرفة كما يفهمها جيله وكان مخلصاً في نصحه ، وثابتاً على مبدئه منذ الثورة واندلاعها لم يلن للخطوب أو بطاطيء الرأس لعدو فكان أكبر مثل يحتذيه الزعماء من بعد .

٤ — رسائل أدبية ، ومقالات في موضوعات شتى احتفى بأسلوبها احتفاء زائداً ، وقد جمع منها أحمد سمير في سلافة النديم مقداراً صالحاً للحكم عليها من حيث منزلتها الأدبية . فمن ذلك رسالة (لواء النصر في أدباء العصر) وفيها يصف من تعرف عليهم من أدباء مصر أمثال البارودي وصفوت الساعاتي ، وعبد العزيز حافظ ، وعبد الله فكرى وسوام .

ومنها رسالة (التنور المسجور) في المفاخرة بين السفينة و (الوابور) ، ومنها الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض الأدباء في أمور خاصة .

١ - التزم عبد الله نديم في مطلع حياته الأدبية ذلك الأسلوب المسجوع المتكلف ، يكثر فيه من ألوان البديع ولا سيما الجناس ، ويظهر فيه مهارته اللغوية وقدرته على تأليف الكلام ، في جمل قصيرة الفواصل ، كثيرة المترادفات ، ويعمد في أغلب الأحيان إلى الخيال والمبالغات المزدولة ، وأحياناً يأتي بجمل لا معنى لها ولكن اقتضاها السجع مثل قوله في مطلع رسالته يصف كلامه : « حديقة معاني ، ونادى مغاني ، وبستان أفكار » فهنا جمل مترادفة ، والجملة الوسطى لا معنى لها .

ومن الجمل المترادفة والجناس المتكلف قوله من الرسالة السابقة : « فكاهة نفوس ، وزينة طروس ، هزلها أدب وجدها طرب ، إن سئلت أوجزت ، فإن سألت أعجزت ، لو أقت لها حكماً ، وجدها كلها حكماً » .

ومن المبالغات التسخيفة ، والوصف المتكلف قوله يصف أديباً : « رامى نبال وعظه إلى الأحشاء ، ومفوق سهام بديعه إلى الإنشاء ، حامل لواء العلوم العقلية ، وقائد جيوش الفنون النقلية ، مطلع شمس الأمانى ، ومبارز فرسان المعاني ، إن ألف لم يتكلف ، بل يجعل الانحجام الزينة الكلام ، وإن نثر كَرَّ بهجوم على سرايا النجوم » .

فهذا الأديب في حرب دائمة مع الأحماء بنبال وعظه ، ويفوق سهام بديعه إلى الإنشاء ويحمل لواء العلوم العقلية ، واللواء يقتضى الجيوش ؛ وهكذا تراه يحمل معدات الحرب ويستعملها ، وكثيراً ما يعمد إلى هذا الأسلوب ، ويكرر هذا المنهج كقولته : « وكيف لا يكون لسانى قوس البديع ، وكلامي سهم السريع » .

وأنت باريه وراميه ؟ أم كيف لا يكون مقامى الحصن المنيع وقدرى العزيز
الرفيع وأنت معلميه وبانيه ؟ »

وله فى مطلع حياته كذلك رسائل التزم فيها ما لا يلزم من ألوان السجع إظهاراً
لبراعته ، وعرضاً لقدرته ومهارته ، فتارة تراه يأتى بمجموعة من السجعات كل اثنتين
متشابهتين فى القافية ، وفى ختامها سبعة من قافية مختلفة ، ثم يكرر هذه القوافى
بالترتيب الذى ساقها به أولاً ، وتارة يفرد هذه السجعات ثم يعيدها بعد خمس
جمل أوست على الترتيب الأول ، وأحياناً يلتزم فى السبعة الثانية أن تكون
آية من آيات القرآن ، ومن النوع الأول قوله : « لعبت به الأشواق فى مصارع
العشاق لعب الراح بالأرواح فى مجلس الأنس ، وجرت به الأتواق (١) فى
ميادين الأذواق جرى السحاب والأرواح فى حومة الشمس »

ومن الثانى قوله : « منحتنا اللهم سلامة الروح فله الحمد على هذه المنحة
حمداً بلا عد ، ووهبتنا صحة لب البيان فلك الشكر على هذه الصحة شكراً بلا حد
يلوح بدره ، ويفوح عطره ، روح هو عين الحياة ، ومدد العقل ، واب هو
منطق الشفاه ، وسند النقل طال عمره وجمال أمره »

ومثال النوع الثالث الذى يأتى فيه بسبعة وآية قرآنية تكمل المعنى قوله من
رسالة كتب بها إلى صديقه الموهوب محمد بن العزيز بك حافظ تنبيهاً له حينما رآه
يجمع ببعض المغاربة ويشغل معهم بخرافات باطلة : « لا حول ولا قوة إلا بالله
اشتبه المراقب بالله ، واستبدل الخلو بالمر ، وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر
بالخزف ، وانخر بالحشف ، وأظهر كل لئيم كبره فى ذلك لعبه . سمعاً سمعاً !
فالوشاة إن سعوا لا يعقلوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فكيف تشترون

(١) تاق إليه توقاً بفتح فسكون : « تالفاً بفتح فاء » : « تالفاً بفتح فاء »

منهم القار في صفة العنبر ، وقد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ؟ وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزجر ، ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر « إلى أن يقول له : « وأنت يا عزيز العليا ووحيد الدنيا ، قد بينت لك فعلهم ، فما رحمة من الله لنت لهم ، لكنهم طمعوا في عميم قولك ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، أتراهم يعقلون كلامك أم يفهمون ، امرأك إنهم في سكرتهم يعمهون »

ومعظم رسائله الأدبية من هذا الطراز الذي يكثر فيه من ألوان البديع ويلتزم السجع ، ويفتن في عرضه ، وتراه لا يمدح رسالة وصلت إليه إلا بأن البديع فيها قد كمل نظمه ، والسجع قد لطف من مثل قوله « إذا قرأت لفظه ، وسمعت وعظه ورأيت ما فيه من المرقص والمطرب ، والمنعش والمعجب ، وتلوت ما فيه من الرقائق ونظرت ما حاز من الدقائق علمت أنه معجزة المتنبئ وإن تأخر زمانها ، وفطنة المعري ، وإن بعد مكانها . كيف لا وعطر نرجس بلاغته أزرى بطيب الرياحه وحسن دمية بيانها نبه على ضيق الخزانة ، وانسجام رقائق كلماته أغنى عن البديعيات ورقة لطف سجعاته تاهت على الارتقيات (١) » .

وهذا النوع من النثر بما فيه من تلاعب وافتنان في الازدواج والفواصل والسجعات تقليد لمقامات الحريري وما ورد على مثالها من الرسائل ؛ ومما يؤيد هذا الاتجاه عند النديم أنه كتب رسالة على لسان أحد أصدقائه يطلب إليه

(١) نسبة إلى الدولة الأرتقية ، وأول من أسس الدولة الأرتقية معين الدولة سقمان بن أرتق بعد أن استولى على حصن (كيفا) سنة ٤٩٥ هـ من الأمير موسي التركاني ، وكان أرتق جد معين الدولة مملوكا من ممالك السلطان ملكشاه السلجوقي ، وأحد قواده ، والأرتقيات القصائد والمدائح التي كان يقولها الشعراء للملوك هذه الأسرة ، واستمرت الأسرة الأرتقية حتى القرن التاسع الهجري .

فيها أن يرأسه ، ويشترط أن تكون رسائله مشتملة على أفانين خاصة من البديع وغيره ، وينفذ النديم الشرط فيضع عدة رسائل منفذاً بها شروط صديقه التي ذكرها في قوله : « أحب أن تتواصل إلى رسائلك ، وتسامرني ورسائلك ، بشرط أن تكون أسطرها عشرين فما فوق ، وأن يكون بعضها في غزل وعشق ، وبعضها نكتة أدبية ، وبعضها فوائد عربية ، هذه محاوره ، والأخرى مسايير ، تارة ظرائف خمرية ، ومرة لطائف عمرية ، وهكذا ترشف من كل دن ، وتسطف في كل فن ، على أن تكون بحكايات ما طرأت الأفكار ، ولا خرجت من الأوكار ، وتلتزم الجناس في الفقر ، وألا تأخذ من شعر غيرك إلا بيتاً أو بيتين » وقد استجاب النديم لهذا الطلب فوضع عدة رسائل متكلفة لا معنى لها ، وقد أثبت منها (أحمد سمير في السلافة) رسالتين .

والشعر الذي يرصع به هذه الرسائل وأمثالها — وهو كثير بحيث لا تخلو منه رسالة — شعر يمثل هذا العمل من مثل قوله يتلاعب بلفظ النوى :

لست المـلـول مع التـدال والنوى إن لم يكن روحى على هجرى نوى
ما دام يـرـضى مُنـيتى فقد اسـتوت عندى الإقامة فى شـبين أو نوى
أطعمته أتمـار درى كلها وغذيت من ثمر الحبة بالنوى

ويأتى النديم أحياناً بتعبيرات غريبة شاذة متكلفة الاستعارات كقوله : « وطلاؤه مرمر البدر معجون بليلة القدر » وأحياناً يأتى بتعبيرات فى منتهى اللطف كقوله : « واختلسنا النوم من جفون الزهر » أو قوله : « وأرق من خفر فى بكر » .

وشعر النديم الموجود قليل ، وهو كثره الأدبى مصنوع متكلف ، يشبه إلى حد كبير شعر أبى النصر وعلى الليثى ، مع فارق واحد ، وهو قوة السبك ،

ولكنه لا يختلف عن شعرهما في الصياغة والزخرفة والمعاني ، ومن أحسن ما روي له قوله في الغزل :

سلوه عن الأرواح فهي ملاعبه وكنوا إذا سل المهند حاجبه
وعودوا إذا نامت أراقم شعره وولوا إذا دبّت إليكم عقاربّه
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده فلو أتلّف الأرواح منذاً يُطالبه
أراه بعيني والدموع تكاتبه ويحجب عني والفؤاد يراقبه
فهل حاجة تدني الحبيب لصبه سوى زفرة تثني الحشا وتجاذبه
فلا أنا ممن يتقيه حبيبه ولا أنا ممن بالصدود يعاتبه
ولو أن طرفي أرسل الدمع مرة سفيراً لقلبي ما توات كتائبه
وتراه يستعمل التأريخ الشعري كقوله يؤرخ موت توفيق وهو بيافاً من قصيدة أرسلها إلى مصر يرثيه بها على الرغم من أنه نفاه :

فلأثك الجنات قالت أرخوا توفيق في غرّ النعيم السرمدي ١٣٠٩
ومن شعره قوله من رسالة كتبها لأحد أصدقائه أيام أن كان بالمنفى وفيها يظهر ألمه ويندب سوء حظه :

يا صاحبي دع عنك قول الهازل واسمع نصيحة عارف بالحاصل
أجهل تجد صفو الزمان فإنه من قسمة القدم النجي الجاهل
ودع التعقل بالتفـل يستقم أمر المعاش فخطه للغافل
وارض البلادة تغتم من بابها مالا وجاهاً بعد ذكر خامل
وإذا أبيت سوى العلوم فلا تضق بحروب دهر لا يميل لفاضل
قلب تواريخ الألى سبقوا تجد دنياك ما قيدت بغير الباطل

ومن شعره قصيدة في الفخر يظهر فيها ولوعه بالبديع وفيها يقول :

أُحسبنا إذا قلنا بلينا بلينا ، أو يروم القلب لينا
نعم للمجد نقتحم الدواهي فيحسب خامل أنا دهيـنا
تداولنا فنقهرها خطوب ترى ليث العرين لها قرينا
إلى أن يقول :

ولسنا الساخطين إذا رزينا نعم يلقى القضا قلباً رزينا
فإننا في عداد الناس قوم بما يرضى الإله لنا رضىنا
إذا طاش الزمان بنا حلما ولكننا نهينا أن نهينا

وله قصيدة طويلة من رواية الوطن التي مثلها أمام الخديو توفيق ، وفي هذه القصيدة يبكت المصريين على افتخارهم الدائم بأبائهم بينما هم في خمول وتقصير فتركوا الصناعات والعلوم ، واستمروا الصفات التي تذلل الشعوب وتضعها ، وقد قال القصيدة معارضة لنونية ابن زيدون المشهورة ، وفيها يقول :

هذى معالمنا تبكى وتنشدنا قول ابن زيدون إذ قامت تعزينا
« بنتم وبنا فما ابتلت جوانمنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا »
قل للنفوس التي ماتت بلا أجل أين القلوب التي كانت تجاريننا ؟
أين العلوم التي كانت توصلنا باب السعود فصارت من أعاديننا ؟
أين الصنائع ؟ أين العارفون بها ؟ أين الديار التي كانت لأهلينا ؟
كانت وكانوا وصار الكل في عدم واستعبدتنا بما نهوي أمانينا
إذا سمعنا خطيباً ذا كراً حكاما قلنا له غرة الآباء تكفيننا

وحسبنا هذا القدر من شعره فهو يعطينا صورة عن منزلته في الشعر وعن فهمه له .

٢ — أما مقالاته في التنكيت والتبكيك ، وأسلوبه الـكتابي في هذه

الصحيفة ، فقد ذكرنا آنفاً أنها احتوت موضوعات للخاصة يكتبها بأسلوب أدبي محرر من السجع ومن ألوان البديع ، ويتوخى فيها السهولة ، « ليست منمقة بمجاز واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة برقة قلم محررها ، ونخامة لفظه وبلاغة عبارته ، ولا معربة عن غزارة علمه وتوقد ذكائه . ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجئك إلى قاموس الفيروزا بادى ولا تلزمك مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر لك معانيها ، فهى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى » ومن أمثلة موضوعات الخاصة مقالته المشهورة (مجلس طي على مصاب بالأفريقي) وفيها يقول : « كان هذا المصاب صحيح البنية قوى الأعصاب جميل الصورة لطيف الشكل ، ما رآه فارغ القلب إلا صبا ، ولا سمع بذكره بعيد إلا طار إليه شوقاً ، نشأ فى العالم روضة ، ودار به أهله يحفظونه من الأعداء ، ويدفعون عنه الوشاة والرقباء ، وقد مات فى حبه جملة من العشاق الذين خاطروا فى وصاله بالأرواح والأموال ، وكما وصل إليه واحد سحره برقة ألفاظه وعذوبة كلامه ، وسلب عقله بهجة يحار الطرف فيها ، وعزة لا يشاركه فيها مشارك » وأنت ترى أسلوباً خالياً من السجع ليفرغ كاتبه إلى المعانى التى يريد بها ، ويسير فى سهولة ووضوح .

وهناك موضوعات للعامة كتبت باللغة العامية الدراجة بمصر حتى يفهموها ، ويعملوا بها ، كموضوع المزارع والمرابى ، وموضوع «عربى تفرنج» ويقول فى الأخير : « ولد لأحد الفلاحين ولد فسماه زعيط ، وتركه يلعب فى التراب ، وينام فى الوحل حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة ، فسرجه مع البهائم إلى الغيط

يسوق الساقية ويُحوّل الماء ، وكان يعطيه كل يوم أربع حَنَدَوِيلات ، وأربعة أنحاخ بصل ، وفي العيد يقدم له اليخني ليمتعه بأكل اللحم والبصل .
وأما أسلوبه في الأستاذ فهو أسلوب صحفي أدبي يمتاز بالسهولة والتدفق ، والخلو من السجع والبديع والمجاز ، وقد مر بك نماذج منه .

ويلاحظ أن النديم يستعمل الأسلوب الخبري المتميز بالخطابي في معظم كتاباته ، وهو أسلوب يصلح للوعظ ، وتراه كثير التهمك والسخرية في موضوعاته الاجتماعية ، يلجأ إلى الحوار في الموضوعات التي كتبها للعامة ، وكان يُنطق كل شخص بما يوافق طبعه وصنعتة ودرجة علمه ، مما يدل على خبرة واسعة بالناس وطبائعهم ولغة حديثهم ، وله مقالات اختار لها عناوين من العامية الدارجة تدل على تمكنه من تفهم البيئة الفقيرة وانغماسها ، وعلى روح الفكاهة والسخرية عنده مثل : « الشنة ورنه في أولاد مصر الزنة » ومثل : « حاوريني يا طيطة في الطربوش والبرنيطة » و « شد الدبلاق في أكتاف أهل بولاق » وإن كانت المقالات نفسها مفقودة مع دواوين شعره .

منزلة :

اشتهر عبد الله النديم بالخطابة ، وتملكه لناصرية القول ، فكان لسان الأمة في عهده ، بخطبه المملوءة حماسة وقوة وصراحة ، يذيعها في كل مجلس بكل مكان لا يكل ولا يمل ، وقد استطاع بهذا أن ينشر آراءه في أكبر عدد ممكن من الأمة وأسهم في تكوين رأي عام — سواء بخطبه أو بقلمه — يؤمن بحكم الشورى ، ويشور ضد الأجانب ، ويتطلع إلى إصلاح المفاسد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وإذا كان السيد جمال الدين رسول الخاصة في هذه المعاني ،

فعبد الله نديم أوتي المقدرة واللباقة على أن يبسط آراء جمال الدين ونظريات الإصلاح المنشود في كل نواحي الحياة ، حتى يفهمها العامة ، من الفلاح في حقله والتلميذ في مدرسته ، والصانع في دكانه .

وقد شهد بمقدرته على الحديث والخطابة وبراعته في تنميق الكلام كثير من ذوى الخبرة بوجوه الكلام ، فهذا جمال الدين الأفغانى ، وهو من عرفت ذكاء وقوة عارضة ، ومقدرة على الحديث يقول : « إنه ما رأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن وصفاء القريحة ، وشدة العارضة ، ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إن خطب أو كتب » (١)

وتيمور باشا العالم المحقق يقول في الترجمة التى كتبها له (٢) : « كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة إذا أوجز ود الحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلاً في ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا » .

ويقول عنه جورجى زيدان (٣) : « أما أخلاقه فإنه كان براً بوالديه وذوى قرابته وقصاده ولولم يكن يعرفهم ، فما أقرض أحداً شيئاً وطالبه به ، ولا رد يوماً سائلاً ، ولا خضع لعظيم قط ، وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأوساطهم ، وكان ذكياً فطناً قوى الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً ، وكاتباً ثائراً » .

ويقول عبد الرحمن بك الرافعى (٤) : « وهو الزعيم الوحيد بين العربيين الذى استمر في جهاده السياسى ونضاله عن مصر في عهد الاحتلال ، وهى ميزة

(١) سلافة النديم ص ١٧ .

(٢) تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد باشا تيمور ص ١٧ .

(٣) مشاهير الفرق ج ٢ ص ١١١ (٤) الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ص ٥٣٧ .

كبرى انفردها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية ، وانطفأت فيهم شعلة الأمل والحماسة والجهاد . أما هو فقد ظل على عهده واستمر يجاهد ويناضل حتى آخر نسمة من حياته ، وهذا وحده يدل على مبلغ علو نفسه ، وقوة شخصيته ؛ إذ لم تنل منه الشدائد ، ولم يضعف إزاء المحن والكوارث ، ولم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلاً .

ويقول عنه الأستاذ أحمد أمين بك^(١) : « طالما غذى الناس بقلمه ، وهيجهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم ، وحير رجال الشرطة ، وأقلق بال السياسة ، ونازل خصومه من رجال الصحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل ، ولا على أى حال كان حتى هدأه الموت الذى يهدى كل ثائر ، ومهما أخذ عليه فقد كان عظيماً ... وكانت جريدة « الأستاذ » هى الأستاذ لمصطفى كامل تعلم منها الاتجاه والعمقة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف . »

ويقول الأستاذ العقاد^(٢) : « ولقد كان عبد الله النديم خطيباً مطبوعاً ، ومحدثاً ظريفاً من الطراز الأول كما شهد له عدوه وصديقه ، وكان إذا كتب فكاً نما يرتجل الخطابة بسهولة منجاة وتدفق كلامه ، وتناسق عباراته ، إلا حين يكتب الخطب المنبرية أو المقامات المصنوعة ... على أنك قد تقول ما بدا لك فى شعر عبد الله نديم وفى خطبه وفى كتابته وفى تحقيقه العلمى وملكاته الأدبية ، ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه أنه كان أعجب نموذج من نماذج الشخصيات فى تاريخ الأدب المصرى الحديث . »

أما نحن فقد أصدرنا حكماً عليه فى هذه الترجمة ، ووفينا أدبه درساً ، وبيننا خصائصه كما ظهر لنا من آثاره القليلة التى أبقي عليها الزمان .

(١) مجلة الثقافة العدد ٢٨٩ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٩٣ - ٩٦ .

الفصل السادس

الاتصال بالأدب الأجنبي

مر بك في الفصول السابقة شيء عن الترجمة في عهدى محمد على وإسماعيل ، وكيف أن الاتجاه في عهد محمد على كان علمياً بحثاً لحاجة النهضة إلى العلوم ، وأن الآداب لم يكن لها إلا نصيب ضئيل ؛ ثم جاء عصر إسماعيل وزاد الاهتمام بالآداب ، وترجمت بعض الكتب الأدبية في عصره . ولكن منيت مصر بعد ذلك بالاحتلال الإنجليزي ، وازداد نفوذ الأجانب ، وفرضت اللغة الإنجليزية فرضاً على قلامذة المدارس المصرية ؛ واتصل الأدب العربي ، والفكر العربي اتصالاً مباشراً بالفكر الغربي ، وقد كان لهذا أثر في الاتجاه الذي سلكه الأدب العربي حتى يومنا هذا ، وسنرى إلى أي أحد أثر الأدب الغربي في الفكر العربي وفي ألوان الأدب واتجاهاته وأساليبه شعراً ونثراً ، وإن كان هذا الفصل لا يتسع لكل هذا ؛ لأن الأدب الأجنبي لا يزال حتى اليوم يغذى أدبنا العربي ، وظهرت منذ الثورة العراقية حتى الحرب العالمية الثانية آثار عديدة لعشرات من الكتاب والشعراء يتضح في كثير منها ذلك الأثر الأجنبي في صور شتى ؛ وستكون دراسة هذه الآثار ، وترجمة أصحابها في الأجزاء التالية إن شاء الله . وحسبنا هنا أن نسجل الخطوات التي دفعت بالأدب العربي إلى هذا النهج ، وأن ندرس بعض الألوان الجديدة التي قدمت للقارئ العربي في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

١ - الترجمة والتأليف :

رأينا آنفاً أن الثقافة الأجنبية التي نهلت منها مصر منذ عصر محمد علي كانت الثقافة الفرنسية ، وأن مدرسة رفاة بك من الترجمة والمربين لم يهتموا بالثقافات الأجنبية الأخرى إلا قليلاً ، وكان معظم رجال البعثات في عصرى محمد علي وإسماعيل يذهبون إلى فرنسا ويعودون متشبعين بالفكر الفرنسى وبالثقافة الفرنسية ، ولكن كان كل شيء ينقل إلى اللغة العربية من طب وهندسة وعلوم رياضية وعسكرية وما شاكل هذا ، فانتسعت اللغة العربية ، وزادت ثروتها بما بذل العربون في سبيل مدّها بالكلمات الجديدة ، أو إحياء الكلمات القديمة التي تحقق غرضهم ، ولو استمرت النهضة العلمية في هذا الاتجاه ، وحمل العلماء والأدباء ورجال الفن والقانون الذين يلجئون إلى الثقافات الأجنبية المختلفة ويتزودون من معينها ، وينقلون من آثارها ، على تعريب كل ما يفيدهم ، لأصبحت اللغة العربية اليوم من أقوى اللغات على تمثيل الحضارة الحديثة وإبرازها في صورها المتباينة ، ولأخذت الكلمات العربية صبغاً عربياً خاصاً على مر السنين وتركزت معانيها بكثرة استعمالها ، وسهل على الجامعات العربية تدريس شتى العلوم ، وأحدث النظريات باللغة العربية .

~~ولكن للأسف ! أبى الإنجليز حين دخلوا مصر إلا أن يرغموها على تعلم لغتهم في مدارسها الابتدائية والثانوية والعالية ، وصار حظ اللغة العربية من اليوم المدرسى ضئيلاً ؛ ولم يفعل الإنجليز ذلك دفعة واحدة ، وإنما مهدوا له تمهيداً بطيئاً . . .~~

دخل الإنجليز مصر في سنة ١٨٨٢ ، بعد أن ازداد نفوذ الأجانب ، وقويت

شوكتهم وعظمت شركاتهم ، وبعد أن فرضت الرقابة الثنائية ، ودخل الوزارة المصرية وزيران أجنبيان ، وشعر المثقفون المصريون بتغلغل الأجانب في كل مصالح مصر ، ورأوهم معتدين بلغاتهم وبجنسياتهم ، وأن مدارسهم وإرسالياتهم تجتذ في تدريس اللغات الأجنبية ، ومن يتخرج فيها يكون له التفوق في ميادين الاقتصاد والسياسة ؛ فأدى كل هذا إلى اهتمام مصر — حتى قبل الاحتلال الإنجليزي — بتعليم اللغات الأجنبية في مدارسها ، وقد تقدم على باشا إبراهيم ناظر المعارف في سنة ١٨٨٠ يطلب إنشاء مدرسة تسمى (دار العلوم التوفيقية) لتخرج مدرسين في اللغات الأوروبية وسائر العلوم الغربية ، على غرار دار العلوم العربية ، وكانت مدرسة الألسن لا تزال موجودة ، ولكن ضعف التعليم فيها ؛ إذ ألغيت منها اللغة التركية والألمانية ، واقتصر على تعليم الإنجليزية والفرنسية والعربية .

وفي سنة ١٨٨١ تقرر إنشاء مكتب للترجمة والتحرير تولى إدارته حينئذ أديب إسحاق السكاتب المشهور ، ثم تحول هذا المكتب إلى مدرسة المعلمين الخديوية في سنة ١٨٨٩ ؛ كي تخرج مدرسين مصريين لتعليم اللغة الإنجليزية بالمدارس الابتدائية . ولما ألغيت مدرسة الألسن أنشئ بدلهام مدرسة الإدارة والحقوق سنة ١٨٨٦ — وكان غرض الإنجليزية جعل الثقافة المصرية ثقافة ديوانية بحثة — وقد ظلت كذلك أمداً طويلاً حتى بعد أن كفوا أيديهم عن التدخل في وزارة المعارف ؛ لأن المشرفين على نظم التعليم بمصر كانوا متشبعين بمبادئ هذه المدرسة الديوانية ولذلك صار الموظف المصري عبداً لوظيفته ، إذا فقدها ، أو خرج إلى ميدان الحياة ، صار كالسمكة جف من حولها الماء ، وإنما اختط الإنجليز هذا النهج حتى لا يفتن المصريون إلى الأعمال الحرة ، والنهوض ببلادهم عن سبيل التجارة والاقتصاد ، وينفرد بها الأجانب عامة والإنجليز خاصة ، وحسب المصري أن

يوفر لهؤلاء الدخلاء الطمأنينة والرفاهية والنظام ، وله من الأجر لقيمت تقيم ضلبيه ،
وحياة دونها حياة الخدم والأجراء . أما الربح الوفير ، والعيش الرغيد ، والعربات
الفارهة ، والقصور الشاحخة ، والتجارة العالمية فهي وقف على هؤلاء الأفاكين
الذين دخلوا ديارنا ضيوفاً فاستبدوا بثروتها المادية والمعنوية ، وتمججوا في
معاملاتهم لأبناء البلاد ، يمشون في تيه وخيلاء ، وصالف وكبرياء ، حتي تنبت
مصر لهم ، وكفت من غلوائهم ، وألغت امتيازاتهم .

أجل ! كان هذا بعض ما رسمه الإنجليز للشعب المصري ، وأشرفوا على
تنفيذه ، فإن مدرسة الحقوق حينما أنشئت ، قسمت قسمين : ابتدائي وعالي ،
بعد الابتدائي المحضرين والمترجمين ، وأصناف الموظفين لأقلام الكتاب والنيابة
بجميع المحاكم ، وأقلام قضايا الحكومة والوزارات ، وشتى المصالح التي تحتاج
لأشخاص عندهم معلومات قانونية ؛ ويعد القسم العالي لوظائف الكتاب من
الدرجة الأولى والثانية ، ووكلاء النيابة وما شاكل هذا .

ولم يفكر المستعمرون — طبعاً — في إنشاء المدارس التي تعد شبان مصر
لميدان الحياة العملي من تجارة وزراعة وهندسة وصناعة وغيرها ، وليتهم حافظوا
على لغة البلاد ، وهي مصدر عزتهم ، ورمز وطنيتهم وقوميتهم ، وإنما عمدوا
في سنة ١٨٨٨ إلى الغرض من شأنها ، والحد من تعليمها ، وإفساح المدي أمام
اللغات الأجنبية ، وهالك ما أورده أمين باشا سامي في كتابه (التعليم في مصر)
خاصاً بهذا التحول الخطير وهو في صورة تقرير مقدم من وزارة المعارف — وبها
المستشار الأجنبي — إلى الخديو : « إن تعليم اللغات الأجنبية التي لها في هذا
العصر من الأهمية ما لا يخفى بمصر خاصة ، لم يأت إلى الآن في مدارسنا
بالنتائج المطلوبة ، وليس ذلك لتقصير من المعلمين ، أو فتور في همهم ، فإنهم في

الواقع أهل لما عهد إليهم من الوظائف ، غير أن الوقت المخصص لتعليم هذه اللغات غير كاف ، حتى تكتسب التلامذة ملكة استعمال اللغة ، ويسهل عليهم التكلم بها ، وهو أمر لا يمكن الحصول عليه إلا بعد تمرين طويل مستمر . فلتلاني هذا الأمر بقدر الإمكان تقرر أن مواد العلوم الجارية تدريسها الآن باللغة العربية تعلم من الآن فصاعداً بمعرفة مدرس اللغة الأجنبية ، إما باللغة الفرنسية ، وإما باللغة الإنجليزية . فإذا درّس التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية بلغات أجنبية ، وضم هذا إلى تعليم اللغة المقصودة بالذات سهل نيل المقصود » .

ثم أُنْغِيت بعد ذلك اللغة الفرنسية من المدارس الأميرية الابتدائية ، وحلت محلها اللغة الإنجليزية ، وإن بقي للفرنسية بعض القوة والانتشار لكثرة المدارس التبشيرية التي تتخذها أساساً للتعليم بمصر .

وفي سنة ١٨٩٨ رأت الحكومة — أوراى المستعمر — أن يغير منهج مدرسة الطب ، وأن يحول بينها وبين الرسالة العظيمة التي اضطلعت بأدائها منذ عصر محمد علي ، ألا وهي نقل الطب الغربي الحديث إلى اللسان العربي المبين ، فعين لها مدير إنجليزي أدخل بعض الإصلاحات فيها ، واشترط لنجاحه في مهمته أن تكون لغة التدريس بالمدرسة هي الإنجليزية ، فأجيب إلى طلبه ، وعطلت الترجمة ، وصار كل الأساتذة من الإنجليز ، وظلت الإنجليزية هي لغة الطب بمصر حتى يومنا هذا .

وإذا كانت اللغة العربية قد حوربت في كل معهد ، واشتد ساعد اللغات الأجنبية ولا سيما الإنجليزية ، فقد استطاعت بما كمن فيها من قوة أن تصمد المحنة ، وأن تسترد سلطانها المفقود بعد لآي ، وأن ترغم العدو الغاصب على

الاعتراف لها بالحياة ، وأنه ليس من السهل القضاء على لغة ذات تاريخ مجيد ،
وتراث عتيق ، ودين سماوي مكنين كاللغة العربية .

ظهرت سطوتها أول الأمر حينما اضطرت المحاكم الأهلية إلى تعيين مترجمين
بين القضاة الأجانب ، وبين الأهالي والمترافعين لأول عهدها سنة ١٨٨٣ ؛
إذ لم تجد الحكومة من بين المصريين أكفاء يلون شئون القضاء . ولقد أدي
إنشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٦٦ ، وإنشاء المحاكم الأهلية بعد ذلك إلى نهضة
قانونية قوية بمصر فوضعت القوانين ، وكثرت عليها شروح العلماء (١) .

وترجمت كتب كثيرة من الفرنسية في هذا الباب مثل : أصول النواميس
والشرائع لبنتمام نقله فتحي باشا زغلول (٢) وهو في الخامسة والعشرين من عمره ،
وحقوق الملل ومعاهدات الدول للأمير أمين أرسلان ، والظعن في الأحكام

- (١) من ذلك : ١ - توضيح المشكلات في شرح قانون المرافعات لأحمد باشا عفيفي .
٢ - وشرح قانون التجاره لعبد العزيز باشا كحيل ، ويوسف باشا وهبه ١٨٨٥ .
٣ - ورسالة في قوة الأحكام المدنية لعبد العزيز باشا كحيل ١٨٨٩ . ٤ - طلبه الراغبين
في بيان حقوق الدائنين لعبد العزيز محمد ومحمد توفيق نسيم ١٨٩٣ . ٥ - شرح الأموال
على القانون المدني لمراد فرج ١٨٩٣ . ٦ - شرح باب إثبات الديون وإثبات التخلص
منها على باشا ذو الفقار ١٨٩٣ . ٧ - رسالة في تزوير الأوراق لفتحي باشا زغلول
سنة ١٨٩٥ ؛ وغير ذلك كثير . راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٤ ص ٢٦٢
(٢) ولد سنة ١٨٦٣ بمصر ، ودرس الحقوق بها ؛ واشتغل بالقضاء حتى وصل إلى
وكيل لوزارة العدل . قال فيه المنقلاطي : « إنه نابغة الأمة العربية علما وفضلا ، ونادرتها
ذكاء وفهما ، وأقدر كتابها على الترجمة الصحيحة التي لا يضيع فيها معنى ، ولا يضطرب فيها
لفظ ، وما انتفعت هذه الأمة في عصرها الحاضر بعلم أحد من علمائها انتفاعها بمؤلفاته ومترجماته
ويمتاز في كتابته بالبيان والإيضاح والدقة في وضع الألفاظ بإزاء المعاني ؛ فلا يتجاوز لإقليلا ؛
ولا يتخيل إلا نادراً ؛ ولا يغرب ، ولا يتندر بحال من الأحوال » مختارات المنقلاطي ص ١١١
وقد ترك أحمد فتحي زغلول ثروة علمية عظيمة من المؤلفات والتعريب في القانون والإدارة
والاجتماع فترجم روح الاجتماع لجوستاف لوبون ، وتطور الأمم لجوستاف لوبون ، وسر
تقدم الإنجليز السكسونيين لأدمون دومولان ، وشرح القانون المدني وكرم من أجله (١٩١٣)
وله كتاب المحاماة ١٩٠٠ ، وتوفي فتحي باشا سنة ١٩١٤ .

بطريق النقض والإبرام ترجمة عزيز خانكي سنة ١٩٠٠ .

ووضعت المعاجم القضائية لتيسر على المشتغلين بالقضاء والحماية الاطلاع على المواد اللازمة أو الأوامر العالية ، ومن أشهر هذه المعاجم : قاموس الإدارة والقضاء لفيليب جلاد في ست مجلدات سنة ١٨٩٩ ، والقضاء المصري الأهلى لإبراهيم الجبال وهو معجم للقواعد القانونية المأخوذة من أحكام المحاكم الأهلية . وصدرت مع هذه التراجم العديدة ، والمؤلفات الكثيرة ، مجلات قضائية من أشهرها مجلة الحقوق لأمين شميل ، ثم آلت لإبراهيم الجبال ، ومجلة الأحكام لنقولا توما ، ومجلة القضاء للشراباتي وغيرها .

إن هذه النهضة القانونية قد أفادت اللغة كثيراً ، وأضافت إلى المعجم العربى عشرات الكلمات الاصطلاحية ، وابى العلماء دعوة فتحنى زغلول حين أهاب بهم أن يهيمثوا لغتهم للحياة الجديدة ، ورسم لهم الطريق الصالحة بقوله : « عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ، ولا تتأخروا فاستم وحدكم فى هذا الوجود ، ولا تقدم لكم إلا بلفظكم ، فاعتنوا بها ، وأصلحوها وهيئوها ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ، ثم لا تقفوا بها موقف الجود ، والعجمة تهددها على السنة العامة ، وهى لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة ، وأقيموا فى وجه هذا السيل الجارف سدا من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة ، والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين (١) » .

ومع هذه الفائدة الجليلة التى أحرزتها اللغة العربية بهذه النهضة القانونية ، فإن من المؤسف حقاً أن تهمل الشريعة الإسلامية وأحكامها ، وأن يغلبنا الأجانب

(١) مختارات المنفلوطى ص ١١١ من مقال لفتحنى باشا زغلول بعنوان « ما هبة اللغة » .

على أمرنا ، ويتمكنوا من حملنا على التفكير للقانون السماوى الذى يتمشى مع الغرائز الإنسانية ، والطبيعة البشرية ، وبرهنت الأيام على أنه أعدل القوانين وأقواها وأرحمها . إن القوانين الوضعية ، ولا سيما القوانين التى وضعت لأناس سوانا لهم عادات وتقاليد وبيئة غير ما نحن عليه ، لم تصلح المجتمع المصرى بل أفسدته ، ولو حاول المصلحون فى مصر تنظيم أحكام الشريعة الإسلامية ووضعها فى مواد حسب أبواب القانون ، ووازنوا بينها وبين غيرها من القوانين ، واجتهدوا فى استنباط الأحكام ووصلوا الماضى العتيق بالعهد الجديد ، لبرهنوا على أنهم من أمة لها كرامة ، وبها حرص على تراثها ، والسير بنهضتها فى السبيل المستقيم ، أما عملهم هذا فهو مسخ وتشويه للأمة ، وتقليد سخيف هو عنوان الضعف ، والشعور بالخزى أمام الأجانب ، وعدم القدرة على الدفاع عن مقومات شخصيتنا .

ولقد حاول بعض العلماء فى ذلك الوقت ممن كان لهم شعور صادق بهذه الكارثة أن يبرهنوا لهؤلاء الأجانب على أن الشريعة الإسلامية تستطيع أن تهض بالمجتمع العصرى كل النهوض ، وأن بها من الأحكام ما يجعل الأمم الإسلامية فى غنى عن قانون نابليون أو القانون الرومانى ، وهاك عمر بك لطفى^(١) يضع باللغة الفرنسية بعض مواد الشريعة الإسلامية ليدحض دعاوى هؤلاء المغرورين بمدنيتهم الزائفة ومن اف لفهم ممن لم يعرفوا حقيقة الشريعة الإسلامية . ومن هذه المؤلفات التى قدمها عمر بك لطفى بالفرنسية للموازنة :

(١) أصله من أسرة مغربية ، ولد بالإسكندرية سنة ١٨٦٧ ، وتعلم بها ، ثم جاء القاهرة ودرس الحقوق وتقلب فى مناصب الدولة حتى صار وكيلا لمدرسة الحقوق ، وكان له نشاط بارز فى ميدان الحياة فأنشأ كثيراً من النقابات الزراعية وغيرها ، وأنشأ نادى المدارس العليا ، وله فى هذا الباب كتاب لإنشاء شركات التعاون . ومن أشهر مؤلفاته غير ما ذكرنا كتاب الامتيازات الأجنبية وكان أول كتاب من نوعه فى اللغة العربية ، وتوفى عمر بك لطفى سنة ١٩١٢ .

١ — الدعوى الجنائية في الشريعة الإسلامية ، وقد أعجب به الفرنج أياماً إعجاب .

٢ — حرمة المساكن .

٣ — وحق المرأة .

٤ — وحق الدفاع .

إن الاتجاه الذي سلكه العراق منذ سنوات حين انتدب الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا لوضع قانون للمحاكم العراقية مستنبط من الشريعة الإسلامية ، اتجاه سليم يدل على يقظة وإدراك صحيح لقيم التراث الإسلامي ، وحرص على عدم المسخ والفناء في الأمم الأجنبية .

وظهرت قوة اللغة العربية كذلك ، وأنها تستطيع أن تتحدى الاستعمار ، وتسير في النهج العريض الذي خطه محمد علي ، وعبد الله اسماعيل ، على الرغم من العقبات التي أقامها الإنجليز أمامها : في رغبة العلماء والأدباء في أن يعرفوا أبناء أمتهم كثيراً من أسس الحضارة الغربية ، لعلهم أن الاستعمار مهما كان جارحاً عنيفاً لا يستطيع أن يستولى على إرادة العلماء ويمنعهم من الاستمرار في تغذية اللغة العربية بهذه النفائس . وقد شملت الترجمة في هذا العصر الذي نؤرخ له ألواناً جديدة من الفكر الغربي ، فهناك (الاقتصاد السياسي) ، وكان العرب يعلقون عليه علم المعاش ومن الكتب التي وضعت أو ترجمت في هذا الموضوع :

١ — كتاب الاقتصاد السياسي أو فن تدبير المنزل لخليل غانم ١٨٧٩ .

٢ — أصول الاقتصاد السياسي لوفله جرجس ١٨٨٩ ، وهو مقتبس من كتب أجنبية عديدة .

٣ — كتاب الاقتصاد السياسي لجيفونس نقلته جمعية التعريب سنة ١٨٩٢ .

٤ — مبادئ الاقتصاد السياسي تأليف محمد حسين فهمي .

٥ — الموجز في علم الاقتصاد لـ (بول لروابوليه) نقله حافظ إبراهيم و خليل مطران في خمسة أجزاء بأمر حشمت باشا ناظر المعارف سنة ١٩١٣ .

وهناك (علم الاجتماع) وقد مر بك كيف بدأ هذا العلم على يد جمال الدين ومدرسته وكيف شخصت أدواء الأمة الاجتماعية ، ووصف لها الدواء على يد أديب إسحاق وعبد الله نديم ومحمد عبده ، ولكن ما كتبه هؤلاء لم يبين على أصول علمية ثابتة ، وقواعد مقررة ، وإنما كان وليد الخبرة والملاحظة والتجربة ، وكان لا بد للنهوض بهذا العلم من دراسته عند علماء الغرب ونقل آثاره ، مع تطبيق نظرياته على المجتمع المصري وعاداته وتقاليده وشرائعه وبيئته .

وليس علم الاجتماع غريباً عن اللغة العربية ، فإن ابن خلدون في مقدمته قد وضع له أسساً مقينة ونظريات سليمة بنى عليها مونتسكيو^(١) وسواه أبحاثهم ، ثم تطور هذا العلم في الغرب واتسعت موضوعاته ، ونظمت أبحاثه ، وقد فطن لذلك

(١) سبق ابن خلدون بنظرياته الاجتماعية علماء الغرب فنظرية التقليد الاجتماعي مثلاً التي قال بها ، وملخصها انتقال العادات والطباع بين الأجيال والأمم المختلفة لميل النفس إلى اعتقاد الكمال فيمن تنقاد إليه كما بين الأبناء وآبائهم والتلاميذ وأساتذتهم ، بنى عليها (جبريل تارد) كتابه (قوانين التقليد) ، وفي كتاب مونتسكيو (روح القوانين) *Esprit des Lois* تجد أثر ابن خلدون واضحاً كقوله بضرورة الحكومات ، وأثر البيئة في الناس وعاداتهم ، وكقوله بتقسيم الناس إلى طبقات حسب مكانتهم الاقتصادية ، وقد شابه الاشتراكيين في قوله : بأن « الطبقات تسعى لاستثمار بعضها بعضاً استناداً إلى مالها من السلطة الاجتماعية السياسية فإن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق والجاه داخل على الناس في جميع أبواب المعاش فإذا كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشئ عنه كذلك » وإذا أردت المزيد من آراء ابن خلدون الاجتماعية والموازنة بينها وبين آراء علماء الغرب ومن معرفة مكانته لدى الغربيين فارجع إلى : ١ ابن خلدون ، منتخبات لجليل صليبا ، وكامل عياد .

٢ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين

٣ — ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي في القرن الرابع عشر للعلامة فون فيسندنك وترجمة محمد عبد الله عنان

٤ — كتاب روبرت فلنت في تاريخ التطور العلمي Robert Flint

علماء مصر فترجم فتحى زغلول كما مر بك كتابى روح الاجتماع ، وتطور الأمم
لـ (غوستان لوبون) ، ونقل كذلك تقدم الإنجليز السكسونيين ، وهو من
الكتب الممتعة التى قرأناها بشفف ، ونقل محمد زكى صالح كتاب نشوء الاجتماع
لـ (بنيامين كد) .

ومن الكتب الاجتماعية الذين أفادوا هذا العلم ، وحاولوا إصلاح الأمة
عن طريق الدرس والتمحيص والتحليل ، والاستقراء والاستنباط ، السيد عبد
الرحمن الكواكبي^(١) ، ومن كتبه النفيسة التى بهرت أبناء جيله ، وصار له
أكبر الأثر فى اليقظة القومية بالشرق .

١ — طبائع الاستبداد .

٢ — أم القرى .

وقد وضع كتبه فى شكل روائى ، وفيها تحليل دقيق للأمراض الاجتماعية
والسياسية ، وفيها حملات شديدة على الحكومة العثمانية ، وفيها علاج إيجابى
سليم لأدواء المسلمين . وامتاز الكواكبي فى كتابته بالذكاء ، والتخصص ، والعمق
والرزانة ، ولو أتيح له أن يعرف لغة أجنبية فيطلع على أبحاث علم الاجتماع عند
الغربيين لكان له — مع غزارة فكره وصدق نظره — منبع فياض .

ومن المشكلات الاجتماعية التى أثرت فى هذه الفترة ، وكان لها دوي عظيم
مسألة الحجاب والسفور ، ومركز المرأة فى المجتمع . ولقد أدى اختلاطنا الشديد

(١) من أسرة حلبيه مشهورة ، نشأ ميالا للعلم شغوفاً بالسياسة ، وحرر مدة فى جريدة
الفرات الرسمية ثم أنشأ جريدة (الشهباء) ، وتقلب فى مناصب الحكومة ، ولما رأى ما فيها
من فساد أخذ ينقد رجال الدولة العلية ، فاضطهده ففر إلى مصر ، ورحل إلى بلاد كثيرة
كزنجبار والحبشة وأواسط جزيرة العرب والهند ، ثم عاد إلى مصر واستقر بها حتى توفى
سنة ١٩٠٢ راجع مشاهير الشرق ص ٣٥٠ ج ١ (طبعة ثانية) ومجلة الثقافة العدد ٣٠٧

بالأجانب ، وتطلعنا إلى محاکاتهم في كل شيء ، والسير على نهجهم في مدنيّتهم — إلى ظهور هذه المشكلة ؛ وكان بعض المفكرين يرى سفور المرأة المسلمة ومساواتها بالرجل في كل شيء ، مغالاة منهم في المحاكاة ، ولكنهم لم يجرؤوا على الجهر بأرائهم أمام جمهور المسلمين في ذلك الوقت لتمكن عادة الحجاب من النفوس ، حتى ظهر قاسم أمين^(١) فنشر كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ، وقد كان لهما أثر بليغ في الحياة المصرية ، وإن لم يظهر هذا الأثر سريعاً ، بل ظلت المرأة مدة يتجاذبها السفور تارة والحجاب تارات ، حتى خلعتة أخيراً ولم يعد له أثر إلا في بيئات محدودة .

أما (الأدب) وهو الذي يعنينا في كتابنا هذا أكثر من سواه ، فقد اشتدت فيه حركة التعريب ، ولا سيما الروايات والقصص ؛ وقد عرفت فيما سبق أن الكلية الأمريكية ببيروت أسست سنة ١٨٦٦ ثم أسست الكلية اليسوعية بعدها بقليل ، وقد كان لهاتين الكليتين أثر بارز في توجيه النشء إلى القصة الغربية ، ولما هاجر كثير من نصارى لبنان إلى مصر حيث الحرية والشهرة والثروة أخذ هؤلاء المهاجرون يترجمون القصص الأوربي ويذيعونه في الناس ، وكانت بيروت قد شهدت من قبل قيام (مارون نقاش) يؤلف بعض المسرحيات

(١) من أصل كردى . نزع أبوه إلى مصر في عهد إسماعيل ، وانتظم في الجيش المصرى وارتقى إلى رتبة أمير آلاى ، وولد قاسم بمصر ودرس القانون ، وتولى مناصب القضاء حتى صار مستشاراً بالاستئناف ، وتوفى سنة ١٩٠٨ . والمرأة الجديدة مدينة له بالشيء الكثير فهو الذى شق لها طريق التحرر كما تريد . وإن لم يكن أول من نادى بذلك ، فقد عرفنا أن رفاعة الطهطاوى نادى بتحرر المرأة وتعليمها ، ولكن الزمن والبيئة والأمة كانت كلها غير مستعدة لتلبية دعوته حينذاك . فلما أتى قاسم أمين وجد من المسلمين من يستجيب له ، وقد سارت المرأة في سفورها شوطاً بعيداً أكثر مما قدر قاسم أمين أو أراد .

أو يقتبسها من الأدب الغربي مثل مسرحية البخيل لـ (موليير) ، وكان يدعو فنه هذا «الذهب الأفرنجي المسبوك» ، وكان لما رون ابن أخ اسمه سليم نقاش رحل بعد موت عمه إلى مصر ، وسعى فيها حتى أنشأ مسرحاً وفرقة : وظهر بمصر في ذلك الوقت رجل يهودى اسمه «يعقوب روفائيل» أسس مسرحاً عربياً بالقاهرة ترجم له عشرات الروايات الفرنسية الغرامية بلغة عامية ركيكة ، وظل المسرح منذ ذلك الوقت يعتمد على الروايات الأجنبية الممصرة ، وأحياناً يضع له بعض المؤلفين مسرحيات لا تمثل الحياة المصرية في شيء ، وبها كثير من عادات الغرب وتقاليده ولم يتجه المسرح وجهة إصلاحية إلا نادراً مثل ما صر بك من روايات عيد الله نديم وأضرابه .

على أن الاهتمام بالمسرح وبالتمثيليات لم يكن كبيراً ، وإنما عنى المترجمون بنقل القصص الغربى بأنواعه وألوانه ؛ ومن أقدم الذين اشتغلوا بترجمة القصص نجيب حداد اللبناني^(١) فنقل إلى العربية رواية صلاح الدين تأليف (ولتر سكوت) ورواية السيد Cid تأليف كورنى (Corneille) وسماها (غرام وانتقام) ، ورواية (هيرنانى) تأليف هوجو ، وسماها (حمدان) ورواية روميو وجوليت تأليف شكسبير وسماها (شهداء الغرام) ، ورواية البخيل لـ (موليير) ، ورواية الفرسان الثلاثة تأليف اسكندر دوماس فى أربعة أجزاء طبعت لأول مرة سنة ١٨٨٨ . وفى أواخر القرن التاسع عشر (يونيو سنة ١٨٩٧) حضر إلى مصر كل من نقولا رزق الله ، و خليل مطران ، وطانيوس عبده ، واشتغلوا بالصحافة ، ثم التحق نقولا بجريدة الأهرام ، وعكف على ترجمة الروايات بأسلوب سهل جذاب ، وفى

(١) ولد سنة ١٨٦٧ واشتغل بالصحافة فخر فى جريدة الأهرام إلى سنة ١٨٩٤ ثم اعتزلها وأنشأ (لسان العرب) بالأسكندرية وتوفى سنة ١٨٨٩

سنه ١٩٠٤ ترجم رواية (سقوط نابليون الثالث) في أكثر من ألف صفحة ، وقد استهوت هذه الروايات الفاشئة في مصر والبلاد العربية ، فأقبلوا عليها ! إقبالا شديداً ، وأخذ بعض المسلمين يقلد هؤلاء المترجمين حتى لقد أنشأ أحدهم مجلة باسم (مسامرات الشعب) يحشد فيها كثيراً من القصص الرخيص . وأخرج نقولا رزق الله^(١) « سلسلة الروايات الجديدة » وكان العدد يحتوى على شذرات من الشعر القديم ، وقصصاً قصيرة إلى جانب الرواية الرئيسية ، وأنشأ طانيوس عبده مجلة الرواى ، وفيها أخذ في تعريب الروايات الشهيرة مثل (فوست) و (الملكة إيزابو) .

وترجم فرح أنطون^(٢) (الكوخ الهندى) و (بول وفرجينى) و (أتالا) وغيرها من الروايات . كما ترجم خليل مطران كثيراً من روايات شكسبير التمثيلية . وكان من الطبيعي بعد أن كثرت هذه الروايات في أيدي الشباب والرجال أن يبدأ الأدباء في محاكاتها ، وكان أول المقلدين وأنشطهم جرجى زيدان^(٣) فدحا في تأليف الروايات منحى (ولتر سكوت) الإنجليزى ، واستمد من التاريخ العربى قصصه وأبطاله ، وغير في حقائق التاريخ وبدل حتى يدخل عامل التشويق والتتابع القصصى ، وأخرج عدداً كبيراً من هذه القصص التاريخية منها :

(١) توفى نقولا رزق الله في مارس ١٩٠٥

(٢) توفى فرح أنطون في ١٩٢٢

(٣) ولد بيروت سنة ١٨٦١ ، ودرس اللغة الإنجليزية في مدرسة ليلية مدة خمسة عشر شهراً ، وفي ١٨٨١ خطر له أن يدرس الطب ولكنه لم يتم دراسته بالكلية الأمريكية ، ونال شهادة من الخارج في الصيدلة ثم أتى مصر ، وتولى تحرير جريدة الزمان سنة . ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً بقلم الخبايا ، ثم رجع إلى بيروت عضواً في الجمع العلمى الشرق فدرس العبرية والسريانية ، وزار إنجلترا في سنة ١٨٨٦ ، وتردد طويلاً على (المتحف البريطانى) بلندن ، ثم عاد إلى مصر وساعد في تحرير المقتطف ، ولكنه استقال بعد مدة ، واشتغل بالتدريس سنتين وفي سنة ١٨٩٢ أنشأ الهلال وتوفى سنة ١٩١٤ .

فتاة غسان ، وأرمانوسة المصرية ، وعذراء قریش ، وغادة كربلاء ، والحجاج ،
 وفتح الأندلس ، وشارل وعبد الرحمن ... الخ هذه السلسلة الطويلة التي بلغت ثمانية
 عشر كتاباً مستمدة من التاريخ الإسلامي ، وأربع قصص أخرى مكتوبة كلها
 بأسلوب صحفي ، خالية من التحليل النفسي ، والنظريات الفلسفية ، وما هي إلا
 تاريخ في قالب قصة لم تكمل شروطها الفنية ، وتاريخ لم يحافظ فيه على الحقائق ،
 وإن كانت الحقائق التاريخية ليست شرطاً في القصة التاريخية كما نرى عند (سكوت) ،
 وكما نرى عند شكسبير في (أنطوني وكليوباترة) و (يوليوس قيصر) وغيرها
 من الروايات والمسرحيات التاريخية ، ولكن هذه قصص فيها نفحة الأديب
 وخيال الشاعر ، وعبقرية الفنان ، وليست سرداً تاريخياً مكتوباً بأسلوب صحفي .
 ومثل زيدان في هذا سليم البستاني^(١) في رواية (زنوبيا وبدور) وغيره ممن
 سلكوا هذا النهج التاريخي ، وزيدان أسلم من سواء عاقبة . ثم ظهرت بعد ذلك ،
 وللأسف ، قصص رخيصة تملق النزعات الدنيا عند الشعوب ، وتقرأ لقتل الوقت ،
 وتمثل كثيراً من وجوه الحياة الإنسانية الخزيرة ، فالإجرام بأنواعه وطرقه ،
 والعشق السافل ، وما شاكل ذلك من نواحي الضعف الإنساني ، ولا سيما في
 المدنية الغربية المسمومة قد زحفت في صورة قصص مزرية بالأدب مطوحة به في
 مهواة سحيفة ، مضللة عقول النشء ، ومفسدة لأهوائهم وأخلاقهم وباعثة منازع
 الشر والإجرام على طريقة رعاع باريس وغوغاء لندن ، وصعاليك برلين وشطار
 نيو يورك : من أمثال (الوص الشريف) ، و (جونسون) ، و (ملتون توب)
 و (طرزان) ، وغير ذلك مما لا يخرج عما كان متداولاً في مصر إبان عصور

(١) توفي في سنة ١٨٨٤ وبذلك سبق زيدان في تأليف القصص التاريخية وله كذلك

الضعف من قصة (أحمد الدنف) ، و (دليلة المحتالة) ومغامرات العيارين والشاطار ، وإن اختلف اللون والزمان والحوادث ، ولكن الفكرة واحدة والنهج متشابه ، والغاية السلوى وقتل الوقت ، وتملق النزعات الدنيا . وأين هذا من الأدب ؟ .

وظل هذا الفيض من السخف يغمر المطابع العربية حتى قامت الحرب العالمية الأولى ، واستمر بعدها ولا زال للآن ، ولكننا نكتفي بمتبعه عند هذا الحد ، ولنا في الكلام عن القصة ومنزلتها في الأدب عودة قبل أن نفرغ من هذا الفصل إن شاء الله ، وحسبنا أن نقول هنا كلمة طالما رددناها في هذا النوع من الاتجار بعقلية الجماهير: لقد تفتحت أعيننا في الصبا فإذا نحن في بيداء موحشة نخبط في دورب ملتوية ونعرج يمنا ويسرة بعيدين عن جادة الحق ، وأبواق الثقافة الدخيلة يقودون القافلة إلى مصرعها الوخيم ، وينفثون فيها السموم المخدرة حتى تستكين لهم وتسلم قيادها ، وهي في غفلة عما انطوت عليه جوانحهم ، جاءوا وهي ترزح تحت أصفاد الجهل والانحلال ، وأرادوا مسحها وتشويهها ؛ حتى تناسى ماضيها وتفقدا ما كمن فيها من عزة وأنفة .

جاءوا بقصص خليع يشير الشهوة ، ويقتل الحياء ، ويلطم وجه الفضيلة والشرف ، ويوحى بالإجرام والفسق ، وجاءوها بمهازل تمثل على المسارح باسم الفن ، وبأدب موبوء بزلزل العقيدة ، ويخدش وجه العفاف ويعرض على الناس باسم القصة . إنه أدب نفل ، وورد آسن ، وغذاء عفن ، التقطه من يتجرون بعقلية الجماهير ، ومن وقعوا وقوع الذباب على الفضلات الفاسدة من نفايات الحضارة الأوربية وقدموه لقومهم في شكل زرى .

إن النفوس المريضة ، والعقول الهزيلة هي التي يخلبها الزيف ، وتقويها

المظاهر الخداعة ، والقلوب الخالية من الإيمان هي التي تهيم بالأباطيل فتعتسف الطريق ، وتنفذ في سرايب البهتان ؛ وإذا أرادت أمة أن تنهض وتنشأ جيلاً طموحاً فتياً صدف وعفت عن هذه الآداب المرقعة ، والقصاص الهزيلة ، وجدت في تثقيف الجمهور وتهذيبه فلا تترضاه أو تملقه ، أو تناشد عواطفه الجامحة الفانية طمعاً في ثروة زائلة . وجاه مؤقت ، وعليها أن تقود هذا الجمهور الساذج إلى المعين العذب فتشذب خلقه ، وتروض نفسه ، وتطبعه على الخير وتزوده بما ينهض به .

لم نعرض أدواء الأمم الأجنبية ومثالبها على جمهور قرائنا ، وقد وضع هذا القصص الغريب لبيئات غير بيئتنا ، ولعلاج مشكلات لا وجود لها عندنا ؟؟ إن القصة سلاح ذو حدين ، واستعماله يحتاج إلى مهارة وخبرة ، وقد أساء المترجمون استعماله فطعنوا قومهم ومجتمعاتهم الطيبة في الصميم ، وجنوا عليها جناية لا تغتفر .

ولعلك أدركت مما سبق كيف أن الأدب الأجنبي قد طغى تياره واشتد ، فالمدارس تفرض فيها اللغة الإنجليزية في كل الدروس ، ولا يعنى إلا درس العربية والدين ، والأدب أخذ يغرف من بحور الغرب دون تحراً وتدقيق ، وجمهرة المثقفين تجد فيما ينقل إليها صوراً من حياة الغرب لم تعهدها ، والغرب هو الممتلك القاهر ، والنفوس تشرب لمعرفة عاداته وسرقوته وكثيراً من ألوان حياته .

ظلت المدارس المصرية خاضعة لهذه السيطرة الأجنبية حتى تولى سعد زغلول وزارة المعارف في سنة ١٩٠٦ ، ونازع المستشار الإنجليزي (دانلوب) سطوته وجبروته ، وألزمه حده لا يتعداه ، ثم عمل جاهداً على غسل هذه الوصمة ، والرجوع بلغة التدريس إلى العربية ، فكان له ما أراد ، وكانت حسنة لا تنسى لأنها أعادت التيار إلى مجراه القديم ، وأخذ العلم الحديث يتدفق في هذا المجرى كتباً

طريقة التأليف ، بارعة العرض جذابة الأسلوب ، وسار نهر العربية زخاراً صوب السكّال حتى يومنا هذا .

وبقى درس اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي درساً أصيلاً في المدارس ، يقف منه الشباب على لوف من التفكير الأوربي ، وكان لهذا أثره العميق في الفكر العربي والنتاج الأدبي فيما بعد .

ب — المستشرقون :

ومن أهم العوامل في النهضة الأدبية الحديثة ، والاتصال بالفكر الأوربي بجانب الترجمة ما قام به المستشرقون من جهد في سبيل اللغة العربية وآدابها ، وبحث العقيدة الإسلامية ومذاهبها ، ونشر ما عفت عليه الدهور ، وأغفلته يد النسيان من كنوز اللغة العربية .

اتصل الغرب بالشرق بادي الأمر حينما كان الشرق في عنفوان صولته ، وقة مجده يغص بالمدارس الجامعة ، ويزخر بالكتب الثمينة ، ويشمخ بعلمائه وفلاسفته ورياضيينه ؛ وكانت أوروبا لا تزال في سنة من النوم حينما فرغ الشرق أو كاد من يقظته الطويلة وجهاده العنيف في سبيل العلم والمدنية ؛ ولما استيقظت أوروبا قليلاً ، تلفت فوجدت شعباً غريباً يعمر جزءاً خصباً من قارتها ، وقد أحاله جنة فينانة ترف فيها العلوم والفنون والآداب ؛ فتطلع أهل أوروبا إلى الأندلس منذ ذلك الحين ، يرمقونها بعيون دهشة ، وأفواه فاغرة ، وبودهم أن يعرفوا بعض ما عليه أهلها من علم .

وطئت أقدام العرب كثيراً من أرض القارة الأوربية ، وعبرت بعضها عبور المسافرين أو المغامر أو التاجر ، ووقفت في بعضها وقفة الفاتح القادر ؛ فعبروا فرنسا

عبوراً سريعاً ، وامتد طوفانهم إلى أودية (بوردو) ، وتآلب عليهم أو شاب
أوربا من فرنسيين وألمان وسواهم حتى انحسر طوفان العرب عن فرنسا غب معركة
(بواتييه) أو بلاط الشهداء ، بيد أن مقامهم قد طال نوعاً ما في جنوب فرنسا
من جهة البحر الأبيض المتوسط ، وتركوا ثمة آثاراً في صميم الحياة الفرنسية تدل
على طول المسكث والعشرة ولا سيما في مقاطعة (بروفانس) وقد امتد نفوذهم منها
حتى سويسرا عبر جبال الألب .

وأقاموا بصقلية قرنين ونصف من الزمان ، وتركوا من المساجد والآثار في
(بالرمو) ما يشهد بعزم وثروتهم وحضارتهم ؛ واحتلوا أكثر مرافئ إيطاليا
خطراً ، واستولوا على كل جزر البحر المتوسط . وفي كل بلد يحلون به ينشرون
لغتهم ودينهم وآدابهم وحضارتهم ، ولم يكن من السهل التخلص من ثقافتهم
وآثارهم حتى بعد جلائهم عن بعض تلك البلاد والثغور ، ولا أدل على ذلك من
صقلية فقد ظلت لغتهم في بلاط ملوكها وعلى ألسنة أهلها بعد نزوحهم عنها بقرون .
وقد بلغ من سلطانهم أن ملوك صقلية تزيوا بزى العرب ، ورأس وزارتهم وقاد
جيوشهم وأشرف على أمورهم عرب أقبح ممن تخلف في الجزيرة بعد نزوح
جمهرتهم ، وهالك ابن جبير يقول في رحلته المشهورة حين زار صقلية سنة ١١٨٧ :^(١)
في عهد الملك غليوم : « شأن ملوكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال
المسلمين ... وهو كثير الثقة بهم وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله ،
حتى أن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين ، وعليهم قائد منهم ... ومن عجيب
شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وشعاره على ما أعلمنا أحد المختصين
به (الحمد لله ، حق حمده) » .

ولا عجب فإن العرب في ذيك الوقت، قد بلغوا شأواً عظيماً من الحضارة ، وكان أهل أوربا في أشد الحاجة لمعوتهم وثقافتهم ، وهالك (دوزي) يؤكد بعد أن وقف بالدرس على كنه الحضارة العربية في الأندلس : « أنه لم يكن في كل الأندلس أحمى يوم لم يكن في كل أوربا من يعرف القراءة والكتابة إلا الطبقة العليا من القساوسة » ، وصارت جامعة طليطلة قبلة الطلاب من كل بقاع أوربا في القرن الثاني عشر حتى بعد أن تقلص ظل الملك العربي عن معظم بلاد الأندلس ، وبقيت العربية لغة الثقافة والمعاملات والعقود حتى سنة ١٥٨٠ ، وظلت بعض قرى بلنسية تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر . ولسنا الآن في صدد تبين أثر العرب في الحضارة الأوروبية وآدابها وغنائها وموسيقاها ، وحسبك أن تعلم أن الفلسفة الإسلامية ظلت تدرس في جامعات أوربا حتى سنة ١٦٥٠ وأن أرسطو لم يكن يفهم إلا بشروح ابن رشد ، وأن طب ابن سينا كان غاية كل مشغل بالطب في أوربا أمداً طويلاً ، وأن مئات الكلمات العربية التي تنبئ عن الحضارة والعلم قد دخلت اللغات الأوروبية واستعجمت من مثل قيثارة وقطران وأميرال وشراب ، وزعفران ، وكافور ، وقرمز ، وصك ، ورزمة ، وإكسير ، وكيمياء ، وجبر ، وساقية ، وما شاكل ذلك . وهم الذين علموهم صناعة الحرير والخز والغلائل الموشاة ، وصناعة السلاح والزجاج والخزف المذهب ، والفسيفاء ، والبلور والورق والأصباغ والأدهان والمعادن ، وعلم الجبر والحساب بأرقامه .

واتصل الغرب مرة أخرى بالشرق إبان الحروب الصليبية ، التي شنها متعصبة المسيحيين حينما أنسوا في عرب الأندلس ضعفاً ، وظلت نحو قرنين وطوفان جنود أوربا يتكسر على صفاة حماة الإسلام ، ويرتد ، ثم يعود أشد مما كان بأساً ، فتقابل به صدمات تخفف من غلوائه ، وهكذا حتى خمد ؛ ولكن

خلف هذا الاتصال الطويل آثاراً بعيدة الغور في كل من المغاربة والمشاركة ،
أما المغاربة فدهشوا من حضارة العرب في بلادهم ووجدوا أشياء كثيرة لاعهد لهم
بها ، فقلدوا المشاركة في لبس الدروع الخفيفة المنسوجة وفي استخدام الموسيقى
العسكرية ، واصطنعوا السيوف والرماح ، وأخذوا عنهم فن بناء الحصون
وحفر الخنادق ، وإقامة الاستحكامات ، واستعملوا النار لنقل أخبارهم في الليل
والحام الزاجل لنقلها بالنهار ، وأخذوا كثيراً من أصول الهندسة ، وتأثيث المنازل
بالطنافس والتمارق والسجاد والأواني الخزفية وغيرها .

إن الفلسفة اليونانية التي يعتز بها الغرب ، وعليها بنى حضارته وثقافته ،
إنما وصلت إليه عن طريق العرب ، فهم الذين حفظوها وشرحوها وعلقوا عليها
وأضافوا إليها فلسفتهم وأراءهم ؛ فلما استيقظت أوربا وجدت الطريق ممهداً
فسارت في المدنية بخطى واسعة .

كان هذا استشرافاً غير منظم ، نشأ عن الاختلاط ، ولم ينتج عن الدرس ،
أما الاهتمام بالعلوم العربية ودراستها فقديم يرجع إلى القرن العاشر الميلادي
واهتم ملوك أوربا بأداب العرب وعلومهم ، وأول من فعل ذلك فردريك الثاني
ملك صقلية سنة ١٢٥٠ ، ثم ألفونس ملك قشتالة فقد جمع الأخير المترجمين كما
فعل المأمون من قبل ، وأمر بترجمة كتب العرب ، وكانوا ينقلونها إلى الأسبانية
ثم إلى اللاتينية ، وشاع خبر هذه التراجم فخافه كثير من ملوك أوربا ، ومضت
القرون الوسطى والثقافة العربية من طب وهندسة وفلسفة وجبر وحساب وكيمياء
وصناعة وأدب ^(١) هي عماد الثقافة الأوروبية ، ولكن ما لبثت أوربا أن تخطت

(١) بلغ ما ترجم من الكتب العربية في القرون الوسطى أكثر من ٣٠٠ كتاب
منها ٩٠ في الفلسفة والطبيعات ، و ٧٠ في الرياضيات ، والنجوم ، و ٩٠ في الطب و ٤٠ في
الفلك والكيمياء .

دور التعلم ، ومهت في شتى أنواع العلوم ، وبنت على هذا القديم الذي نقلته
ومحصته ودرسته دراسة عميقة علماً جديداً لا يزال في نمو واطراد ، وهو عماد
الحضارة الغربية اليوم . ومع أن أثر العلوم والآداب العربية لا يجحد فإن هذا
الأثر قد ضعف على مر الأيام^(١) ، واستقلت العلوم والآداب الأوروبية ، وصارت
مرجعاً ومعيناً ، وتراثاً شائعاً للإنسانية . ومع كل هذا فقد تجدد نشاط الغرب
في الاستشراق خلال العصور الحديثة ، وظهر هذا النشاط في صور عدة :

١ - الجمعيات الأسبوعية :

وهي جمعيات أنشأها المستعمرون أول الأمر لدراسة شئون الدول التي

(١) لا مرء في أن الأدب الأوروبي قد تأثر بالأدب العربي خلال العصور الوسطى ،
وظهر هذا الأثر في صور شتى ، فنرى الشعر الغربي يقتبس القافية من الشعر العربي بعد أن لم
تكن معروفة في الشعر اليوناني أو اللاتيني (legacy of Islam, P373) . والطروبادور نوع
من الشعر الغنائي الغزلي الرقيق ، وقد ظهر في جنوب أوروبا في القرون الوسطى ، وهو يشبه
إلى حد كبير في أوزانه وقوافيه ومعانيه وحرارته الشعر الغزلي العربي ، ولا سيما الغزل العذري
وكلة (طروب) عربية لا شك فيها . والقصص العربية والحرفات والأمثال والنوادر كان لها
أكبر الأثر في الأدب الأوروبي حينذاك ، ومن أهم الكتب التي ترجمت كلية ودمنة في القرن
الثالث عشر ، وكان النواة التي نشأ من حولها أدب قصص عن الحيوان والطير ، وإذا وازنت
بين أشعار (لافونتين) وبين قصص كلية ودمنة تجد الاقتباس واضحاً وقصص بوكاشيو
(دى كاميرون) عليها طابع عربي ظاهر ، ولما ترجم ألف ليلة وليلة سنة ١٧٠٤ احتفى به
الأدباء الأوروبيون احتفاء شديداً ، واقتبسوا منه ، ونسجوا على منواله ، وظهرت قصص المغامرات
من أمثال روبنسن كروزو لدانييل ديفو ؛ وكثير من القصص الأوربية المشهورة نجد فيها
النفحة العربية والخيال الشرقى ، خذ مثلاً (زاديغ) لفوليتراً أو الكوميديا الإلهية لدانتى فإنك
تلمس أثر رسالة الغفران قويا في الملحمة الإيطالية ، ولم يكن هذا التشابه مجرد مصادفة ، بل
الأمر أعمق من هذا . ومن أشهر الآثار التي تنسم بالطابع الشرقى العربي ديوان الشاعر
العالمي (جيته) المسمى ديوان الشرق والغرب

ومسرحية كورنى (السيد) ومسرحية راسين (باجازيت أي بايزيد) من أثر هذا
لاتصال الثقافتين .

يحكمونها ، وتعرف لغاتهم وآدابهم ونفسياتهم ، حتى يكون حكمهم مبنياً على أسس متينة . ومن أقدم هذه الجمعيات تلك التي أُنشئت في بتافيا عاصمة جاوا سنة ١٧٨١ ، ومن أشهرها الجمعية الآسيوية الملكية بلندن ، وقد أسست سنة ١٨٢٣ ، ونظيرتها الفرنسية ١٨٢٠ . ولكل من الجمعيتين مجلة مشهورة تعنى بالأبحاث الشرقية والإسلامية والعربية ، وتقوم أحياناً بطبع كتب لم تنشر من قبل أو إخراجها بتعليقات قيمة ، ومن ذلك نشر المجلة الآسيوية الإنجليزية لمقامات الحريري ، وترجمان الأشواق لابن عربي (ترجمهما نيكلسون) . وقد اعتنى الفرنسيون خاصة في مجلاتهم بالمذاهب الإسلامية فبحثوا في الدروز والشيعة والإسماعيلية والوهابية والنصيرية وما شاكل ذلك .

وحذا كثير من الدول حذو إنجلترا وفرنسا في إنشاء الجمعيات الآسيوية فصار لأمریکا الجمعية الشرقية ، والألمانية الجمعية الآسيوية ، وفي إيطاليا والنمسا كذلك .

٢ - المؤتمرات :

ومن مظاهر نشاطهم المؤتمرات التي يعقدونها في إحدى مدنها المشهورة ، ويؤمها المستشرقون من كل دولة ، وكثير من الأدباء والعلماء في الدول الشرقية ، وتلقى فيها البحوث ، ويتناقش المؤتمر في شتى المسائل ، ويطلعون على ما قام به كل من الخدمات في سبيل الإستشراق ؛ وأول مؤتمر عقده المستشرقون هو مؤتمر باريس سنة ١٨٧٣ ، وتكررت بعد ذلك المؤتمرات حتى زادت عن العشرين ، وقد أخذت مصر في العصر الحديث تشترك في هذه المؤتمرات ومن أول من اشتركوا فيها عبد الله فيكرى ، وحمزة فتح الله ، وحفنى ناصف .

٣ - المكتبات :

ومن العجب أن كثيراً من نفسائس الفكر العربى والإسلامى ليس فى البلاد العربية ، وإنما اكتنزه الغربيون فى مكاتبهم ، وقد جمعوا كثيراً من هذا التراث فى خلال العصور الماضية ، أيام محن المسلمين بالأندلس وصقلية وفرنسا وإيطاليا ، وأيام الحروب الصليبية ، وأيام أن دخلوا بلادنا غزاة فاتحين ، أو تجاراً مستعمرين ، وحرصوا على اقتناء النسخ النادرة ، والكتب الثمينة ؛ حتى تجمع فى هذه المكتبات ما يزيد على مائتين وخمسين ألف مجلد ، ومن أشهرها : مكتبة برلين ، وباريس ، ولندن ، ولبزيج ، وليندن ، وأكسفورد ، وأدنبرة ، وليننجراد .

وقد عز على كثير من أدباء العرب وعلمائهم أن يظل هذا التراث النفيس غريباً محبباً فى مكاتب أوربا ، فأخذوا منذ تفهوا يغشون هذه المكتبات وينقلون بعض المخطوطات القيمة ، أو يصورونها ؛ وقد اهتمت بذلك جامعة فؤاد الأول ، ورصدت لهذا العمل الأموال وبعثت العلماء لهذه الغاية ، ومن أشهر الذين اهتموا بهذا وجلبوا عشرات الكتب النادرة أو صورها المرحوم أحمد باشا تيمور .

٤ - معاهد اللغات الشرقية :

وفى العواصم الكبرى بأوربا مدارس للغات الشرقية ، يرد منها لها طلاب أوربيون يدرسون اللغات كي يتمكنوا من العيش ببعض بلاد الشرق تجاراً أو موظفين أو سياحاً أو مستعمرين ، كما يؤمها اليوم كثير من أبناء البلاد الشرقية والعربية ، يتزودون من علم كبار المستشرقين ويأخذون عنهم طرق البحث ،

والاستنباط . ومن أشهر هذه المعاهد مدرسة اللغات الشرقية بلندن وباريس وبرلين . وكل مدرسة تحوى مكتبة قيمة ، وتعنى بدراسة اللهجات وتسجيل الأصوات ، ويدرس بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ما يزيد عن ثلاثين لغة .

٥ — أشهر المستشرقين المحدثين :

١ — دى ساسى الفرنسى توفى سنة ١٨٣٨

منشئ الجمعية الآسيوية الفرنسية ، وكان من أعظم المستشرقين وأصبرهم على الدرس وخلف عدة آثار تشهد بفضلها ، من ذلك : ترجمة لسكيلة ودمنة ، ومقامات الحريري ، ورحلة عبد اللطيف البغدادي ، وألفية ابن مالك ، والبردة وكتاب النقود المقرئى ، وكتاب الحمام الزاجل لابن الصباغ ، وترجم كثيراً من أشعار العرب كقصيدة الطغرائى : يا خالى البال ، وله مؤلف فى تاريخ العرب أيام الجاهلية ، وآخر عن ديانة الدروز . وهو الذى أنشأ مع تلامذته المجلة الآسيوية Journal Asiatique

٢ — كاترمير Quatremère ١٨٥٧

وهو من تلاميذ دى ساسى الفرنسيين ، ومن أعماله : نقل تاريخ الممالك المقرئى ، وطبع مقدمة ابن خلدون فى ستة أجزاء بالعربية والفرنسية ، ونشر منتخبات من أمثال الميدانى متناً وترجمة ، وترجم المعلقات السبع . ومن أبحاثه المشهورة بالمجلة الآسيوية ما كتبه عن النبطيين والعباسيين ، وكتاب الأغاني والفاطميين ، وذوق الشرقيين ، وغير ذلك من الأبحاث المفيدة التى تدل على نشاط جم ، وصبر بليغ .

٣ — مونك Munk ١٨٦٧

وهو ألماني يهودي درس على دي ساسي ، وقدم مصر فجمع مخطوطات كثيرة منها تاريخ الهند للببروني . ومن آثاره : تأثير اللغة العربية في اللغة العبرية بعد التوراة ، وبحث ونقد في ديانة الدروز ، ومجموعة في الفلسفة العربية واليهودية (وهو كتاب نفيس) .

٤ — دي برسفال de Perceval ١٨٧١

وهناك أب وابن بهذا الاسم ، وكلاهما اشتغل بالعلوم الشرقية ، وإنما نعى بهذا التاريخ الابن ، وقد قام برحلة إلى لبنان ومكث به ثلاث سنوات ، وعين أستاذاً للعربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم للفصحى في معهد فرنسا . ومن آثاره : المعلقات السبع ، وبأكورة تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات ، وقد طبع مراراً .

٥ — رينان Renan

وقد درس اللاهوت في أول نشأته ، وتعمق في اللغات الشرقية ، وقام برحلة في بلاد الشرق العربي . ومن مؤلفاته : تاريخ اللغات السامية في جزئين . وكتاب ابن رشد وقد علق عليه بقوله : « لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو » ، وتاريخ فيزيقية .

٦ — دي فو de Vaux

واشتهر بأبحاثه الرياضية والفلسفية ، ومن أحسن كتبه : مفكرو الإسلام في خمسة أجزاء . وكتاب الفلسفة الشرقية ، وترجم قصيدة ابن سينا في النفس ، وترجم تائية ابن الفارض .

٧ — Massignon

وهو من المستشرقين المعاصرين ، وعضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية ،

ومن أكثر المستشرقين نشاطاً ، وأطولهم باعاً ، وقد كان أستاذاً لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية ، وتعلم أول أمره في الجزائر وتونس وفاس ، ورحل إلى العراق ، وجاب كثيراً من الأقطار العربية . ومن آثاره المهمة : أخبار الحلاج والصوفية ، والأمثال البغدادية للطالقاني ، وكتاب سراكش في القرن السادس عشر ، وله بحوث طيبة في دائرة المعارف الإسلامية .

٨ — لثي بروقتسال Provençal

وهو كذلك من المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ، ولد بالجزائر سنة ١٨٩٤ ، وقد انتدب أستاذاً زائراً بجامعة فؤاد الأول ، ومن أشهر آثاره : إسبانيا المسلمة في القرن العاشر ، والحضارة العربية في إسبانيا ، ووثائق غير منشورة عن تاريخ الموحدين ، وتقويم للسير الأندلسية في القرن الثالث عشر ، وقد عاون في طبعة الذخيرة لابن بسام من مطبوعات جامعة فؤاد الأول .
أما المستشرقون الإنجليز فمن أشهرهم :

١ — كارليل توفى سنة ١٨٠٥ وهو صاحب كتاب الأبطال المشهور

٢ — إدوارد لين Lane

وقد قدم مصر سنة ١٨٢٥ ودرس عاداتها دراسة طيبة ، حتى لقد لقبه أصدقاؤه بمصر بمصور أفندي لكثرة تقليده المصريين في معيشتهم . ومن أجل آثاره : معجمه المشهور سواء العربي أو الإنجليزى ، ومعجمه العربي نموذج احتذاء من قام بعمل المعاجم بعده ، ومن آثاره كذلك : كتاب عن أخلاق المصريين وعاداتهم ، وهو تحفة جميلة ، وقد ترجمه أخيراً الأستاذ عدلى نور بالرسالة

٣ — وليم رايت Wright ١٨٩٩

ترجم رحلة ابن جبير ونقدها وعلق عليها ، ومن أشهر كتبه وأعمها نفعاً : كتابه

في النحو وقد طبع مرات ، وله كتاب جيد في الموازنة بين اللغات السامية Comparative Grammer ، واشترك مع (دوزي) في إخراج نفح الطيب المعقري ، ونشر كتاب الكامل للمبرد ، وكتاب تلقيب القوافي لابن كيسان ، وكتاب أخبار الرواد ، وترجم كريمة ودمنة ، وهو صاحب أبحاث الأدب السوري في دائرة المعارف البريطانية

٤ — إدوارد براون Browne توفي سنة ١٩٢٩ .

وكان أستاذاً بجامعة كمبريدج للعربية والفارسية ، ومن آثاره : الطب عند العرب ، وتاريخ الأدب الفارسي ، ونشر كتاب مذاكرة الشعراء لدولتشاه ، وكتاب نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب ، والصحافة والشعر في إيران الحديثة .

٥ — السير توماس أرنولد T. Arnold .

وهو أول أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ومن مؤلفاته العظيمة ذات الأثر الجليل : كتابه الدعوة إلى الإسلام ، وقد ترجم إلى كثير من اللغات ، وقتنا بترجمته ، ونشر جزء كبير من هذه الترجمة بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٩ ، ولكن حالت دون نشره عوامل مختلفة ، وقد تمت ترجمته إلى العربية ونشر في هذه السنة على يد بعض الأساتذة . وفيه يظهر توماس أرنولد دون تحيز سر انتشار الإسلام وعظمته .

٦ — مرجوليوث ، وقد اكتسب شهرة كبيرة في البلاد العربية ، ونشر معجم الأدباء لياقوت الحموي ، ونشوار المحاضرة ، وديوان ابن التعاويذي ، وحجاسة البحتری ، وترجم فصولاً من التمدن الإسلامي لجورجي زيدان .

٧ — نيكلسون ، وهو كذلك من أشهر المستشرقين وأبعدهم صيتاً ، ولا سيما في أبحاثه عن التصوف الإسلامي ، وله في ذلك كتاب في ثمانى مجلدات ، ونشر

ترجمان الأشواق لابن عربي ، وترجم لابن الفارض في المجلة الأسوية ، وفكرة الشخصية في الصوفية ، وله كتاب مشهور في تاريخ الأدب العربي ، وتوفي نيكلسون منذ عامين .

٨ - جب Gibb .

وهو من أشهر المستشرقين الإنجليز ، وقد درسنا عليه بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وهو عضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية وله عناية فائقة بالأدب الحديث في مصر والشام ، وله أبحاث عن الفتوحات العربية في آسيا الوسطى وعلاقاتها ببلاد الصين ، وصار محرراً لدائرة المعارف الإسلامية ، وله خبرة واسعة ببلاد الشرق العربي .

أما المستشرقون الألمان فقد كان الحافز لهم على الاستشراق في مبدأ الأمر الاشتغال بالمسائل الدينية ، وترجمة التوراة فاضطروا إلى دراسة العبرية ثم العربية . وبعد ذلك حفزتهم عوامل سياسية وتجارية إلى الاهتمام باللغات الشرقية ، وإن لم يتهمياً لهم أن يكونوا مستعمرين لهم أملاك واسعة وإمبراطوريات شرقية مترامية الأطراف كالأفريقيين والإنجليز . ومع هذا فقد نبغ منهم عدد أفادوا الدراسات الشرقية والإسلامية فائدة لا تنكر ، ومن أشهرهم :

١ - فريتاخ توفي سنة ١٨٦١ .

تعلم على دى ساسى في باريس ، واشتغل بالتدريس في جامعة (بون) ، ومن آثاره : ديوان الحماسة لأبي تمام مع شرح التبريزي وبترجمة لاتينية ، وأمثال لقمان ، وأمثال العرب ، وأمثال الميداني بترجمة لاتينية ، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه ؛ وله معجم عربي لاتيني في أربعة أجزاء . وطبع معجم البلدان لياقوت مع فهرس قيمة وتذييل .

٢ - فلوجل توفي سنة ١٨٧٠ .

ومن آثاره : نشر كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة مع ترجمة لا تينية في سبع مجلدات ، ودراسة عن الكندي الفيلسوف العربي ، ونشر كتاب التعريفات للجرجاني وأتبعه بدراسة عن ابن عربي ، ومدارس العرب النحوية حتى القرن العاشر ، ونشر الفهرس لابن النديم كذلك .

٣ - فليشر توفي سنة ١٨٨٨ .

مؤسس الجمعية الشرقية الألمانية ، وقد نشرت هذه الجمعية كثيراً من الكتب القيمة مثل معجم البلدان تصحيح (وستنفلد) وشرح المفصل لابن يعيش تصحيح (يان) ، وكتاب الآثار الباقية للبيروني تصحيح (سخو) .

ومن آثاره : ترجم ألف ليلة وليلة في تسعة مجلدات ، وتفسير القرآن للبيضاوي وعجائب المخلوقات للقزويني .

٤ - وستنفلد سنة ١٨٩٩ .

ومن آثاره : مختلف القبائل ومؤلفها محمد بن حبيب ، وتاريخ مكة الأزرق ، وأخبار قبط مصر للمقرئ ، وجغرافية مصر للقلقشندي ، وتاريخ الخلفاء الفاطميين ، وتاريخ الإمام الشافعي ، ومعجم ما استعجم للبكري ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وتاريخ أطباء العرب ، وديوان علقمة الفحل ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد ، ومعجم البلدان لياقوت في جزئين ، وآثار البلاد للقزويني وطبقات الحفاظ للذهبي ، وغير ذلك من الكتب القيمة وكلها تدل على نشاط وافر ، ورغبة صادقة في خدمة الأدب العربي والتاريخ الإسلامي .

٥ - نولدكه توفي سنة ١٩٣١ .

ومن آثاره : قواعد اللغة العربية ، وتقارب اللهجات ، وتاريخ القرآن ،

ودراسة عن المعلقات ، وتاريخ عمرو بن الورد ، وتاريخ الفرس والعرب في عهد الساسانيين ، وله مختارات شعرية من العصر الجاهلي والإسلامي الأول ، وجمعت مقالاته في مجلدين فبلغت خمسمائة مقالة .

ولم يقتصر الاستشراق على علماء هذه الدول ، بل نرى في معظم البلاد الأوربية وفي أمريكا مستشرقين لهم باع طويل في نشر الكتب وتصحيحها وترجمة بعضها إلى لغاتهم ، حتى ولو لم يكن لهم مطمع استعماري ، أو مقصد تجاري أو تبشيري ، ومن هؤلاء المستشرقين :

١ — كراتشكوفسكى الروسي^(١) (ولا يزال حياً) وقد عنى عناية خاصة بالأدب العربي الحديث ، وانتدب أستاذاً بجامعة فؤاد ، ومن آثاره التي يقال إنها لا تقل عن الثلاثمائة بين مصنف ومترجم ومفسر : الرواية التاريخية في الأدب العربي المعاصر ، نشرت سنة ١٩١١ ، ونشر مخطوطتين مجهولتين عن الجغرافية وعلم الفلك في الحبشة وأسبانيا المسلمة ، والمتنبى وأبي العلاء ، وطبع كتاب البديع لابن المعتز بتفسير وتعليق ومقدمة في ثمانين صفحة .

٢ — دوزى الهولندى توفى سنة ١٨٨٣

ولد بليدن ، وهى من أشهر المدن اهتماماً بنشر الكتب العربية ، ومن أشهر مؤلفاته : تاريخ الإسلام في إسبانيا في أربعة أجزاء ، بدأه بدرس القبائل العربية في العصر الجاهلي ، ثم على عهد النبي عليه السلام ، ثم عصر الأمويين ، وتخلص إلى الأندلس فأرخها من سنة ٧١١ إلى ١١١٠ ، وله كتاب « كلام كتاب

(١) راجع ترجمته بالتفصيل إذا شئت في كتاب (المستشرقون) لنجيب العتيق ص ١٣٢

وما بعدها .

وقد اعتمدنا في الكلام عن المستشرقين على هذا الكتاب ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، وتاريخ الآداب العربية للأب لويس شيخو

العرب في دولة العباديين في ثلاثة أجزاء » ، ومن أجل آثاره ملحق للمعاجم العربية ذكر فيه الألفاظ التي لم ترد بها ويقع في جزئين ، ومما نشره تاريخ ابن زيان ، وتاريخ المعجب المراكشي ، وجغرافية الأدرسي

٣ — دي جويه de Goeje المتوفى سنة ١٩٠٩ وهو هولندي ، وقد اشتهر بنشر المؤلفات العربية الهامة بعد تصحيحها وضبطها ، فمما نشره : فتوح البلدان للبلاذري ، وديوان مسلم بن الوليد ، والمكتبة الجغرافية العربية في ثمانية مجلدات ، وتاريخ الطبري الكبير في خمسة عشر مجلداً مع فهرس قيمة ، وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (وهو أقدم المخطوطات العربية بأوروبا بعد القرآن) ، ونشر كذلك رحلة ابن جبير ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، وأحسن التقاسيم المقدسي البشاري ، والأعلاق النفيسة لابن رسته ، وجزءاً من تجارب الأمم لابن مسكويه ، وجغرافية الأصبخري ، ورسالة حي بن يقظان ، والتمدن الإسلامي لجرجي زيدان ، وسيرة الرسول (عليه السلام) لابن هشام . . . وعشرات الكتب والمخطوطات القيمة .

٤ — جولد زيهر الهجري — توفي سنة ١٩٢٦

وهو إسرائيلي تبحر في اللغة العربية ، والشريعة الإسلامية ، وله فيهما أبحاث تدل على سعة اطلاع ، وطول باع ، ومن أشهر آثاره : العقيدة والشريعة في الإسلام وقد ترجم أخيراً إلى العربية ، وكتاب آداب الجدل عند الشيعة ، والفقه العربي ، والتقنية في الإسلام ، ونشر كتاب المستظهر في فضائح الباطنية وفضائح المستظهرية للغزالي ، وغير ذلك من الكتب التي تدل على اهتمامه بالعقائد والمذاهب .

هذا وقد اشتهر في كثير من الدول بعض أفراد من المستشرقين مثل :

سانتالانا ، ونلينو ، وجويدى الكبير ، وجويدى الابن فى إيطاليا (١) ،
والبارون كريمير والدكتور مولر فى النمسا ، وفنديك ، وماكونلد ، وشارلز آدمس
فى أمريكا وكزيمرسكى فى بولندا ، وبول كراوس فى تشيكوسلوفاكيا (٢) ،
وبركلن فى ألمانيا .

أثر المستشرقين :

تفرغ المستشرقون للبحث ، ومنحتهم أمهم المال والوقت ، وتحت أيديهم
المكاتب العامة بالأبحاث وبالخطوط النادرة ، وكلهم يعرف عدة لغات
غربية وشرقية ؛ فكان من الطبيعى أن تنقسم آثارهم بسمات التحقيق والمثابة
والاطلاع ، والموازنة ، ومراجعة الأصول والخطوط ، ووضع الفهارس وغير
ذلك مما كان مفقوداً فى الكتب العربية .

ولقد مهدوا السبيل أمام الباحثين بنشرهم الخطوط الثمينة فى طبقات
أنيقة مصححة ، مزدودة بتعليقات نفيسة ، وبفهارس تيسر الاطلاع وتجمع
الأشخاص والأماكن ، والموضوعات . واشتهروا بتحقيقاتهم اللغوية ، وبأبحاثهم
فى أصول اللغات ، وفقه اللغة ، والساميات ، وباكتشافاتهم الأثرية فى بلاد
العرب ، وقد غيرت هذه الاكتشافات كثيراً من نظريات التاريخ وحقائقه

(١) وكل هؤلاء المستشرقين كانت لهم صلات وثيقة بمصر ، وقد درسوا فى جامعة فؤاد
الأول ، وفى الجامعة المصرية القديمة ، واشتهر سانتالانا بأبحاثه الفلسفية ، ونلينو بأبحاثه
الفلكية والتصوف ، وجويدى الكبير بالأدب والتاريخ وباللغة الحبشية والحميرية وجويدى الابن
بأبحاثه فى الأدب وفقه اللغة ، والعقائد والمذاهب الإسلامية

(٢) انتدبته الجامعة المصرية للتدريس بها من سنة ١٩٣٦ حتى انتحاره فى سنة ١٩٤٤
واشتهر بأبحاثه عن الفرق الدينية وتراجم رجالها ، وقد اعترف له كثير من المستشرقين
بالفضل والدأب

المتداولة . وامتازت أبحاثهم بحسن العرض ، وبالتدقيق العلمى ، وبالنظرات الشاملة . وأهم أثر للمستشرقين يتضح فى الكتب العربية التى ألقت على غمط كتبهم ؛ ولا يهولنك هذا ، فهم كما ذكرت لك قد أتقنوا طرق البحث فى لغتهم ، وطبقوها على الدراسات الشرقية التى يضطلعون بها ، وعندهم من الوقت والمال ما يمكنهم من حسن الإخراج وجمال الأداء .

إن الدراسات الأدبية ، وتاريخ الأدب بصورته التى نعرفها اليوم هى أثر من آثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم ؛ ولا تعجب فالكاتب العربية منذ طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي وما أتى بعده من كتب التراجم كمعجم الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان لم تبحث فى الأسباب والعلل والنتائج والبيئة والظواهر السياسية والاجتماعية ، وتفاعل الأديب وعصره كما نرى اليوم فى الدراسات الأدبية ، وإنما كان الأديب وحدة منفصلة لا تربطه بغيره روابط ومن الكتب التى ظهرت فى هذه الحقبة التى نؤرخ لها (أى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) وتجلت فيها آثار المستشرقين وطريقة بحثهم بل وكثير من آرائهم وأحكامهم وأبحاثهم :

١ — كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، وقد اعتمد فيه على بروكلمان الألمانى فى كتابه تاريخ الأدب العربى ، ولم يقف بروكلمان عند القرن التاسع عشر بل أصدر ملاحق عديدة يسجل فيها تطور الآداب العربية فى عصرنا هذا ، وينقد معظم الأدب الذى تصدره المطبعة العربية ويتتبع الأديب منذ نشأته ، ويسجل تطورات أدبه .

٢ — كتاب الأب لويس شيخو فى الأدب العربى إبان القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين ، وكتابه هذا محاولة أولية لحكاية المستشرقين

في كتاباتهم ، وفيه كثير من طرق البحث القديمة ، ويمكنك أن تدرك الفرق بين ما يكتب اليوم وما كتبه الأب شيخو منذ ربع قرن .

- ٣ — وتاريخ أدب العرب لمصطفى صادق الرافعي ، وهو من الكتب التي تدل على غزارة علم ، وسعة اطلاع ، وبذل كثير من الجهد ، ولكنه لم يباغ في بعض أحكامه وطريقة عرضه ما بلغت الأبحاث الأدبية بعد ، ويعد في الطليعة من الكتب التي ألفت على الطريقة الحديثة ، وقد وفق فيه مؤلفه لكثير من المعجمات والأحكام الصائبة . مع أن الرافعي لم يكن يعرف إلا القليل من اللغات الأجنبية .
- ٤ — وآداب اللغة العربية في العصر العباسي للشيخ أحمد الإسكندري .
- ٥ — وبلوغ الأرب في أحوال العرب للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى (١) .

٦ — وعلم الأدب لحفنى بك ناصف .

٧ — والاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربي .

وكانت هذه الكتب بواكير الدراسات الأدبية التي نحا فيها الكتاب العرب منحنى المستشرقين وتأثروا بهم في منهج أبحاثهم . ولكن لم تر الجامعة

(١) صاحب هذا الكتاب السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى ولد سنة ١٢٧٣ هـ ، ١٨٥٦ م ودرس على الطريقة الأزهرية الكتب اللغوية والدينية ، ولكن كتابه هذا يعد للآن كتاباً قوياً في مادته ويدل على علم صاحبه وقدرته على التأليف ، وهو من المراجع القيمة في أحوال عرب الجاهلية ، وقد قدمه لمؤتمر المستشرقين في استوكهلم سنة ١٨٨٩ ، ونال به الجائزة الأولى من المؤتمر . وقد احتل كتابه هذا مكانته اللائقة به في عالم التأليف ، ولا يزال حتى اليوم حجة في موضوعه ، ينتفع به كثير من طلاب الأدب ، على الرغم من أن البيئة التي نشأ بها المؤلف كانت متأخرة . هذا وقد توفي السيد محمود شكرى الألوسى سنة ١٣٤٢ هـ ، ١٩٢٤ م ببغداد ، وحسبه هذا الكتاب ذكرى طيبة وعملا صالحا . راجع تاريخ حياته وبقية آثاره وأشعاره في أعلام العراق للسيد محمد بهجة الأثرى .

المصرية القديمة ، ولا جامعة فؤاد الأول عقب إنشائها غناء عن المستشرقين ، فأخذت تندبهم للقيام بالتدريس فيها ، ونشر طرقهم السديدة في البحث بين طلاب الأدب . ولقد ظهر هذا الأثر جلياً واضحاً في الأبحاث التي تلت ذلك ، ولا زلنا سائرين في هذا الطريق ، نعتمد على أنفسنا مرة ، ونستأنس بآرائهم مرة ، والبحوث الأدبية تكثر وتنوع ويظهر عليها أثر التحقيق العلمي السليم . ولعلك تسأل : أترى المستشرقين أعلم منا بلغاتنا وبأصول عقائدنا وفرقنا الدينية ، وهل هم معصومون من التعصب والخطأ ؟!

في الحق إن كثيراً من المستشرقين على حظ كبير من العلم والمعرفة ، ولكن الأمر الذي يهمننا نحن ليس العلم ، وإنما المنهج وطريقة الاستقراء والاستنباط والدرس وتكوين الحكم بعد الموازنات ، ومراجعة الأصول والخطوط وكل ما قيل حول الموضوع ؛ ولقد ذكرت لك آنفاً أن مكتبات أوربا تحوى مائتين وخمسين ألف كتاب عربي بين مخطوط ومطبوع ، وهذه الثروة الهائلة حرية أن تتيح لمن يعيش معها — وقد كفلت له أسباب البحث الأخرى — أن يتسع اطلاعه ويعمق نظره ، ويقرب حكمه من الصواب ، فلا بدع إذا كان بعض المستشرقين حجة في أبحاثهم التي تصدوا لها .

أجل ! إننا لا نبرئ كثيراً منهم من التعصب ، ولا سيما في المسائل التي تتعلق بالدين والعقيدة والجنس ، وهيئات أن يكتب أحد عن الإسلام أو عن العرب دون أن ينزع في كتابته إلى ما ينم عن تعصبه ، وقليل منهم من استطاع أن يتجرد من عواطفه ونزعاته حين البحث مثل (السير توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) .

أما في الأدب فلا داعي للتعصب اللهم إلا ما أشاعوه عن أسطورة العقلية السامية والعقلية الآرية حين كلامهم عن خلو الأدب العربي من القصة ، وتعليقهم

لهذا بذلك التعليل السخيف ، وهو عقم الخيال العربي وإجدا به (١) ، واعلمت لم تنس الضجة التي أثرت حول كتاب (في الشعر الجاهلي) للدكتور طه حسين بك ، وما ثبت من أنه تأثر فيه برأى (مرجوليوث) ، وأخذ آراء هذا المستشرق قضية لا جدال فيها ، فأنكر كما أنكر قصة إبراهيم وإسماعيل ، وشك مثله في معظم الشعر الجاهلي (٢) .

وللمستشرقين أخطاء كثيرة ، يرجع بعضها إلى جهل بالمصطلحات العربية وعدم معرفة معانيها الصحيحة ، فتضلهم هذه المصطلحات ، وتدعوهم إلى استنباطات فاسدة ؛ فكانونفا مثلاً يترجم كلمة أمي بشعبي ، وكازميرسكي يترجم قول الله تعالى للملائكة : « اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » باعبدوا آدم . وأحياناً يبالغون في التحليل والتعليل والتأويل ، ويحاولون أن يجدوا شيئاً لم يوجد قط ، فيضلون سواء السبيل ؛ فترى كازانوفاً مثلاً عند بحثه في (إخوان الصفا) يقع على نص في رسائلهم ، ويجهل في أن يستنبط منه تاريخ تأليفهم الرسائل بطريقة مضحكة أبعدته عن الصواب كل البعد (٣)

وعلى الرغم من كل هذا ، فأخطاؤهم قليلة ، وهي مغفورة لهم إذا راعينا أنهم يبحثون في ديانات غيرهم ولغاتهم وآدابهم وأخلاقهم ؛ وأخطاؤنا نحن أكثر من أخطائهم وأشنع ، ولا نستطيع أن نغفهم حقهم ، وننكر أيادهم على الأدب العربي والأبحاث الإسلامية واللغوية والاجتماعية ، ونشرهم مئات الكتب

(١) سنخس القصة بكلمة في هذا الفصل باعتبارها لونا من ألوان الأدب يزعمون أنه لم يكن موجوداً لدى العرب

(٢) راجع كتاب النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، ومقدمة الأمير شبيب أرسلان له

(٣) راجع (إخوان الصفا) لمؤلف هذا الكتاب ص ٦٨ وما بعدها

والخطوط الثمينة التي أتاحت لنا معرفة ما كان عليه أسلافنا حق المعرفة .
إننا لا زلنا نتلقى عنهم الكثير ، وسوف نظل كذلك إلى أن يتاح لنا نقل صور
صحيحة من الخطوط النادرة الموجودة لديهم ، ونسخ الكتب القيمة التي تعوزنا
في البحث ، وإلى أن يتفرغ منا العلماء للبحث الطويل الشاق دون مراعاة
الزمان والجهد كما يفعلون ، وحينئذ نستطيع أن نجاريهم في مضارهم ، ولهم فضل سبق

ج - أثر الاتصال بالأدب الأجنبي :

كان من الطبيعي أن يتأثر الشرق العربي ، ولا سيما مصر ولبنان ، بهذا
الاتصال المباشر بالأدب الأجنبي ، ففي مصر يجثم الاحتلال الإنجليزي على صدر
الوادي الخصيب ، ويشدد نفوذ الأجانب من كل دولة ؛ يفدون أفواجا ينشدون
الغنى والسعادة في هذه البلد المضيافة والأرض البكر ، وتفرض اللغة الإنجليزية
على تلاميذ المدارس المصرية ، ويعمد الأدباء اللبنانيون والسوريون الذين يعموا
صوب مصر هرباً بحرياتهم إلى الأدب الغربي ينقلون منه ألواناً شتى إلى اللغة العربية
ولا أريد في هذه العجالة أن أتقصي أثر الفكر الغربي في العقل العربي
والنتاج الأدبي ، فإن هذا الامتزاج بين الثقافتين لم تظهر آثاره الحقيقية إلا بعد
فترة طويلة من الحقبة التي نؤرخ لها ، حين شب جيل من الأدباء في هذه البيئة
التي تلتقي فيها تعاليم محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ووطنية عبد الله نديم ،
وأدب حسين المرصفي والسيد بن علي المرصفي بقصص هوجو وفولتير وراسين
وكورني وشكسبير وعشرات من قصاص فرنسا وإنجلترا وغيرهما . ولكن كانت
السمة الغالبة على أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هي ازدياد
نفوذ الأدب الأجنبي وإعجاب أبناء البلاد العربية به ، فتمنى الشعراء أن يحددوا

في الشعر ، وأن ينسجوا على منوال شعراء الغرب ، بل كان منهم من يود التحرر من قيود الشعر العربي ، ويأخذ بحرية الشعر الفرنجي ، فهتف حافظ بقوله :

آن يا شعر أن تفك قيوداً قيدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكأتم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ويقصد بالشمال بلاد الغرب ، وإن عجز حافظ عن فك هذه القيود ولم يستطع أن يخرج خروجاً تاماً على الصور القديمة مهما كانت روحه التجديدية راغبة في ذلك ^(١) ، ولكن مما لا ريب فيه أن كثيراً من المعاني الجديدة والصور الغريبة والخيال الأوربي قد ابتداءً يتسرب إلى أفكار الشعراء وأخيلتهم ، وإن لم يظهر أثره إلا بعد مدة ، وفي جيل غير هذا الجيل الذي شهد زحف الآداب الغربية أول الأمر . ولم كان بودى أن أقف هنا وقفة طويلة لأبين هذا الأثر ، ولكن موعدنا به في الجزء التالي إن شاء الله .

أما النثر فقد كان التأثير فيه شديداً ؛ لانطلاقه وعدم تقيده بقوالب وأوزان وقواف ، ولأن النثر الغربي المترجم كان السكثرة الغالبة ، ولا سيما القصة كما رأيت . وهنا يجدر بنا أن نتأني قليلاً ، فإن القصة قد صار لها في عالم الأدب العربي شأن كبير ، وكانت الحقبة التي نؤرخ لها هي حقبة الحضارة التي نمت فيها القصة ، وأخذت بعد ذلك تتفتح وتزهر وتجري على الأسنة والأقلام . والقصة هي أكثر أنواع الأدب شيوعاً في الغرب ، بل إن الأدب الغربي يتسم بأنه أدب القصة ، وليس كذلك الأدب العربي ، فلم كان هذا ؟ وهل ما يدعيه بعض النقاد الغربيين ، ويتبعهم في ذلك كثير من الكتاب العرب — من أن العقلية العربية مجذبة عقيمة الخيال ادعاء صحيح ؟ ؟ . إن هذا الموضوع يتطلب منا كلمة موجزة

قبل أن نفرغ من هذا الكتاب لأن النثر — وهو كما قلنا قد تأثر بالأدب الغربي أكثر من الشعر — قد صار له ثوبان يظهر فيهما : القصة والمقالة .

١ — الفصحة :

وموضوع القصة موضوع طويل وشائق ، فهناك تاريخ القصة ونشأتها في العالم ، وأنواع القصة من : خرافة ومثل ، وحكاية وأقصوصة ورواية ؛ ثم ألوان الرواية من : واقعية أو خيالية أو تاريخية أو نفسية إلى آخر هذه الأبحاث ، ثم هناك شروط القصة وكيفية بنائها ، وما يشترط في المقدمة والحوادث والعقدة والجو والحل ، وهل تخالف القصة القصيرة في تركيبها وإنشائها الرواية ؟ وبعد ذلك كله هناك القصص الأوربي ، والقصص العربي ، وهل الأدب العربي كما يزعم بعض الباحثين مجذب من القصة ؟ كل هذه موضوعات كنا نود البحث فيها ، وإيفائها حقها ، ولكننا كما ترى طويلة وتحتاج إلى كتاب خاص يتناول فيه القصص منذ نشأته إلى اليوم ، ويتعرض للقصص العربي بالتفصيل مبتدئاً بالعصر الجاهلي والموازنة بين خرافات الجاهلية وأساطير اليونان والرومان ، ثم يتكلم على قصص القرآن ، ثم القصص الإبداعية في العصر الأموي أي قصص الحب العذري ، ثم تأثر الأدب العربي بالأدب الأجنبية ، ولا سيما الأدب الفرنسي وظهور كتيبة ودمنة ، وقصص ابن عبدوس الجهمشياري ، والصادق والباغم ؛ ثم ظهور المقامات ، وبعد ذلك كله ظهور ألف ليلة وليلة ومقدار ما به من فن ، ومنزلة في عالم الأدب ، ويتعرض الباحث في الأدب العربي حين يكتب في كل هذا عن الأثر العربي الخالص في هذه القصص ، وعن التأثير الأجنبي فيها ؛ ليستخلص من كل ذلك حكماً على العقلية العربية . وإليك قد رأيت من إثارة هذه الموضوعات أمامك

أنها تحتاج إلى كتاب خاص ، يتكلم عنها بإسهاب ويوفىها حقها من البحث
والتمحيص ، ولعل ذلك يكون قريباً .

أما الآن فإنني أعرض للقصة من ناحية واحدة ، دعاني إليها كثرة ما ترجم
من أدب الغرب وقصصه في أخريات القرن التاسع عشر والقرن العشرين ،
ودعوى الغربيين بأنها نتاج يصعب على العرب إخراج مثله ؛ إذ ينقصهم الخيال
المبتكر والعقل الخلاق .

يدعى هؤلاء أن السبب في فقدان القصة من الأدب العربي هي البيئة التي
عاش فيها العرب دهوراً طويلة في صحرائهم المجدبة ، التي قلما يطرأ على بساطها
تغيير ، فشمسها ضاحية ، وهواؤها راكد ، لا غابات فيها تشق أشجارها أجواز
الفضاء ، وتتلون أوراقها ألواناً مختلفة تبعاً لتغير فصول السنة ، ويشعر من يغشاها
برهبة تملأ جوانحه ، وقشعريرة تسرى في بدنه ، ولا كهوف فيها تتحدث عن
شعوب اتخذتها مسكناً أمدأ غير يسير ، ثم هجرتها بعد أن تحضرت ، وخلفت
فيها آثاراً لا تزال ناطقة ، ولا سماء صاخبة متقلبة مزججة هادرة ، ولا جبال
يكسوها الثلج فيخطف البصر ويظهر جبروت الطبيعة ، وإنما هي فضاء ممتد
يسبح فيه النظر إلى مسير أيام وأيام دون أن يقف في سبيله ما يرده ، وهنا
وهناك كثبان وتلال وجبال متجهمة الأديم ، عارية إلا من الصخر والرمل ؛
فلا بدع إذا جاء الخيال السامى صورة من هذه الصحراء . وعلى العكس من ذلك
البيئة التي عاش فيها الآريون قبل أن يدخلوا إلى أوربا ، وهي شمال بلاد الهند ؛
فإن الطبيعة فيها قاسية قسوة عارمة ، والمناظر متنوعة ، والغابات كثيفة دكناء ،
والجو متقلب لا يستقر على حال فالرعود القاصفة ، والريح العاصفة ، والمطر الهطال
والبروق الخاطفة ، والسحب تتراكم في السماء كأنها جيموش يدفع بعضها بعضاً .

وقد بثت هذه الطبيعة في نفس الإنسان الذي عاش في أحضانها شيئاً من الخشية
والرعب وألمته الأساطير والخرافات ، فكان ذلك بدء القصة ، وقد اختزن
العقل الأوربي من صور هذه الحياة الأولى شيئاً غير قليل ، وكان له بهذا : الخيال
المنح ، والعقلية الخصب ، والنظرة الفاحصة ، وهذه المواهب هي عماد القصة .

فالقصة في نظرهم هي الصورة المثل التي يتجلى فيها الخيال وتظهر العبقرية ،
وخلو الأدب العربي منها فيما يزعمون دليل على ضعف العقلية العربية . وقد جاراهم
في هذا بعض أدبائنا غير مدركين ما في هذه الدعوى من خداع وأخطاء . استمع
إلى الأستاذ أحمد أمين بك وكيف يجعل من قلمه صدى لهذه الفكرة الخاطئة
فيقول عن العربي : « إن خياله محدود ، وغير متنوع ، وقلمه يرسم له خياله عيشة خيراً
من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها ؛ لذلك لم يعرف المثل الأعلى ،
لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له في لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر إليه فيما
نعرف من قوله ، وقلمه يسبح خياله الشعري في عالم جديد يستقي منه معنى جديداً
ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب » ؛ ويقول في موضع
آخر : « والمزاج العصبي يستتبع عادة الذكاء ، وفي الحق إن العربي ذكي يظهر
ذكاؤه في لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة ، والإشارة البعيدة ، كما
يظهر في حضور بديهته ، فما هو إلا أنه يفجأ بالأمر فيفجؤك بالجواب الحسن ،
ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال
متعددة ، فيبهرك تفننه في القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى ، وإن شئت
فقل : إن لسانه أوفر من عقله » (١)

هذا ما يقوله الأستاذ أحمد أمين بك ويقول مثله توفيق الحكيم (٢) . ونسي

(١) راجع فجر الإسلام ص ٤٦ ، ٤٧ (٢) في كتابه تحت شمس الفكر ص ٦٣ - ٨٤

الأستاذ أحمد أمين بك حين أنكر أن العرب عرفوا المثل الأعلى أو أشاروا إليه قوله تعالى : « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثلُ السوء ، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم »^(١) ، وقوله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »^(٢) ، وأما أن المثل الأعلى كلمة واحدة أو كلمتان فهذا لا يقدم فى القضية ولا يؤخر ، فلا الكلمة الواحدة تدل على عمق الخيال ولا الكلمتان يدلان على تقصيره ، وهذا الكلام — وللأسف — صدى لما يفترية الشعوبيون على العرب ، وما يقدمونه للانتقاص منهم والفض من شأنهم قديماً وحديثاً . ولنعد إلى القصة وإلى هذه الخرافة — خرافة العقلية السامية والعقلية الآرية . فالقصة الفنية لم تعرف فى الأدب الغربى إلا سنة ١٧٤٠ م حين ألف (رتشر دسن) قصته (باملا) ، وعدها النقاد قصة فنية ، بل عدوها القصة الأولى ، واشترطوا فى القصة الجديرة بهذا الاسم شروطاً أهمها أن تكون واقعية ، وفرقوا بين القصة وبين الشعر فى هذا الباب بقولهم : « الشعر صوت ينطق بما هو خارق للمألوف ، وبما هو أسمى من مجرى الحياة المهود ، وبالإحساس النادر الذى لا يلم بالإنسان إلا قبسات متباعدة ، فهو على الجملة يتحرك فى مجال أعلى من مجال الحياة الواقعة . أما النثر فهو — على تقيض ذلك — أداة تعبر عن الحياة الجارية المألوفة الشائعة التى لا غرابة فيها ولا شذوذ ولا سمو ... فى مقدور النثر أن يعبر عن كل هذه الأشياء تعبيراً أدق وأوفى مما يستطيع الشعر ... من هنا كان النثر أداة ملائمة للتعبير عن حوادث الحياة اليومية التى تجري على المألوف ، ولا تكون عظيمة المغزى ، ولما كانت القصة حكاية تروى بالنثر وجهاً من أوجه النشاط والحركة فى حياة الإنسان ، فغير لها

إذاً أن تقص قصة عادية عن الإنسان العادى الحقيقى كما تجرى حياته فى عالم الواقع المتكرر كل يوم «

« الحكاية النثرية المثلثى — أى القصة الجيدة — هى التى تستغل كل ما للنثر من قدرة على التعبير ، وقد علمت أن النثر من شأنه أن يعالج الواقعى المألوف ، وإذا فروعة القصة وبراعتها أن تروى حكاية الحوادث المألوفة الواقعية الجارية . . ولا يمكن لقصة بمعناها الصحيح أن تنشأ إلا إذا اهتم الناس أولاً بأجزاء الحياة وتفصيلاتها اهتماماً يحول التافه إلى شىء ذى وزن وشأن ، وإلا إذا أخذوا يستمتعون بمطالعة أوجه الحياة المألوفة كما تقع كل يوم «

« على أن القصة الفنية الصحيحة تختار بطلها رجلاً عادياً ممن أهملتهم صحائف التاريخ ووثائقه ؛ إذ ليست القصة بحاجة إلى الرجوع إلى الماضى لانتقاء أبطالها من بين أعلام التاريخ ، وأولى لها أن تقصد إلى تصوير هؤلاء الناس الذين نعيش بينهم ؛ أضف إلى ذلك أن معرفة الدقائق التى أحاطت بحياة البطل التاريخى متعذرة أو مستحيلة » (١) هذه هى القصة فى عرف النقاد الغربيين تعنى بالواقع وبالجزئيات وبالتفاصيل وتبعد عن الخيال كل البعد ، وإذا كان الأمر يحتاج إلى خيال وإلى مثل أعلى فالشعر هو وسيلة التعبير . وأظنك أدركت الغرض الذى من أجله سقنا لك رأى نقاد الغرب فى القصة ؛ لأن العرب إذا لم يبرزوا فى هذه القصة بمعناها الفنى عند الغربيين فذلك لسببين :

(١) قوة الخيال عند العرب ، وسطوة ذلك الخيال ، فهو دائماً مجنح يسبح فى عالم المثل العليا (لا كما يقول الأستاذ أحمد أمين بك) ، ويأبى أن يعنى

(١) راجع فنون الأدب تأليف تشارلتن وتعريب الدكتور زكى نجيب محمود من

بالتوافه وبالحياة الواقعية ، وبالتفصيلات والجزئيات ، وبالرجل العادى الذى أهمله التاريخ ، والذى لا يأبه له الناس ، وإنما يعمد دائماً إلى ما هو أسمى من ذلك وأجل شأنًا . ولذلك كان الشعر أعلى صور البيان عند العرب ، ومفخرة أدبائهم .

ومن العجيب أن يرجع الأستاذ توفيق الحكيم عن تعظيم شأن القصة ، ويفرق بينها وبين الأدب بقوله : « الفرق بين الأدب وبين القصة كالفرق بين المناطق العليا فى الإنسان والمناطق الأخرى ، وإذا كانت القصة تصور الإنسان فى حياته ، فإن الأدب يصور الفكر فى حياة الإنسان ، ذلك أن الإنسان ليس مجرد شخصية تتحرك فى محيط البيئة المادية من ريف أو حضر أو منزل أو مقهى أو مكان عمل مما درج القصاصون على تسميته بالحياة الواقعية ، ولكن الإنسان أيضاً فوق ذلك وأكثر من ذلك عقل يتحرك فى عوالم فكرية مرتفعة ، وهو روح يسبح فى معان شعرية سامقة . فالعناية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هو من اختصاص الأدب .. ولكن انتشار القصة باعتبارها مطالعة سهلة قد دفع الكثيرين إلى اختصار الطريق ، والهرب من الجهد ، واتخاذ القصة مركباً هيناً ، لا يكلف أكثر من سرد حوادث محلية ، وحبك مواقف ، ووصف أشخاص ، ورسم مناظر من الحياة الجارية بأى أسلوب اتفق ، ليطلق على هذا العمل الزهيد بعدئذ اسم الأدب المبتكر والخلق الأصيل (١) »

إذاً فالقضية على عكس ما يدعى الشعوبيون ، ومن انخدع بأقوالهم ، ويؤيد قولنا هذا أن العربى لما اتصل قديماً بآداب الفرس والهند لم يعجبه منها إلا النوع الخيالى الممنوع الذى ينطق الحيوان ، ويشخص الجماد ، ويخلق بعيداً

عن مستوى الحياة الواقعية وأفعال الناس وأقوالهم ؛ وقد أخذ العرب يحاكون هذا النوع من القصص حتى برعوا فيه ، وعد ابن النديم في الفهرست من كتب الأسفار والقصص التي ألفها العرب على نمط كلية ودمغة والصادح والباغم لابن الهبارية مائة وأربعين كتاباً .

ولما ترجمت المجموعة الأولى من كتاب ألف ليلة وليلة ، وكانت تحتوى ألف خرافة فارسية وتسمى (هازار إفسانة) غير فيها العرب وبدلوا ، وأضافوا إليها أشياء كثيرة حتى خرج من كل ذلك كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو ما هو عند الغربيين في الخيال الغريب ، والتأليف العجيب ، والأجواء الساحرة ، والافتنان في تصوير الشخصيات وأنواع المذات ؛ فصار مضرب المثل ، ومنبعاً ينهل منه كل من يريد أن يوصف بسعة الخيال وشروده وجوحه ؛ وقد أثر هذا الكتاب كثيراً في الأدب الغربي منذ ترجم إلى اليوم كما مر بك ، مع أن جمهرة أدباء العرب لا يعترفون بسمو أدبه ، ولا يقرون بعبقريته فنه ، بل يعدونه أدباً شعبياً يصلح للعامة في أسماهم ، والنساء في أويقات سرورهن ، والأطفال في لهوهم وأحاديثهم .

وفي العصر الحديث حين اتصل العرب بالأدب الغربي لم يرقهم منه إلا الأدب الإبداعي (الرومانطيق) الذي يصور الأبطال ، ويغرب في الخيال ، ويترجم عن العواطف الجياشة ، وظلوا حتى اليوم يعربونه ويحاكونه معرضين عن الأدب الواقعي ، مع أن الأوربيين قد نفضوا أيديهم من هذا اللون الأدبي منذ مائة سنة ، وعمدوا إلى الأدب الواقعي التحليلي ، كي يعالجوا به مشكلاتهم الاجتماعية المعقدة . كل هذا يدلنا على أنه ليس الخيال العربي ، وعدم عمقه هو الذي حال بين العرب وبين القصة الواقعية التي لا يعترف النقد الحديث في أوربا بسواها ،

بل الخيال العربى المجنح وما به من عمق هو الذى ربأ بالعرب عن أن ينزلوا إلى هذا القصص الواقعى .

وثمة أمر آخر حال بين العرب وبين هذا اللون من الأدب ، وهو أن الأدب الواقعى يعالج مشكلات اجتماعية وأخلاقية ، ويتخذ المفكرين والمصلحين الاجتماعيين مطية لبث أفكارهم ، وعرض مقترحاتهم فى المشكلات القائمة بمجتمعاتهم ، ويعرضون حلولاً يعتقدون أنها تذلل هذه المشكلات ، وتنير لأولى الأمر السبيل حين يشرعون أو يطبقون القوانين ؛ ويعمدون أحياناً إلى المسرحية ويظهرون الشخصيات التى تمثل الناس فى حياتهم المألوفة ، وأحياناً يلجئون إلى الرواية الواقعية أو الأقصوصة ويدعون الشخصيات التى يصورها تتحدث كما هى فى الحياة من غير أن يظهر المؤلف عواطفه أو يبرز شخصيته ؛ حتى تكون قصته أقرب إلى الحقيقة وأدنى من الواقع . ولم يكن المجتمع الإسلامى فى العصر الذهبى للأدب العربى أيام العباسيين وأيام أن عرفوا شيئاً من القصص الفارسى وغيره ، بحاجة إلى من يحل له مشكلاته الاجتماعية والخلقية ، ويشرع له القوانين ويبين له كيف يطبقها ، فقد كان الشرع الإسلامى قائماً ، وهو تشريع من عند الله يعتقد الناس أنه الحق والعدل ، وأنهم فى غنى عن سواه من القوانين ، وأن كل قضاياهم تحل على ضوءه ، بل لا يجوز لأحد أن يقترح تشريعاً مخالفاً أو حلاً لا يوافق الشرع ، ولذلك بطلت حاجتهم إلى مثل القصص الواقعى الذى يصور الرجل العادى فى حياته المألوفة ويحل مشكلاته ومشكلات مجتمعه .

إن أسطورة العقل الآرى وفصله على العقل السامى التى طالما ردها أدباؤنا من غير أن يفطنوا إلى ما فيها من شعوبية كامنة ، ومن غير أن يتبينوا وجه الصواب بعد أن غشى عليهم الحق ما عليه الشعوب العربية من هوان وضعف ،

فاعتقدوا باطلا أن الحق مع القوة وأن العقلية الآرية لا بد أن تكون متفوقة ما دام أصحاب هذه العقلية هم المسيطرون على شعوب الأرض . إن هذه الأسطورة تتم عن تعصب مكين في نفوس قائلها وعلى مغالطة ظاهرة ، فهذا (أرنست رينان) وهو من غلاة الشعوبيين وأشدّهم قسوة على العرب ودينهم والساميين وعقليتهم ، يقرر ما رده أحمد أمين بك ويحقر من العقلية السامية^(١) ويقول : « يبدو أن التفكير الفلسفي للبحث عن (الحقيقة) كان وقفاً على الجنس المسمى بالهندي الأوربي أو الآري الذي يمتد من الهند إلى أقصى الغرب وإلى أقصى الشمال ، والذي كان يبحث منذ أقدم العصور إلى الآن في تفسير الله والإنسان والعالم تفسيراً عقلياً . وقد ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي . أما الساميون فإنهم بدون تفكير أو تدليل — أي بدون فلسفة — وصلوا إلى أقصى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ . . . والساميون تنقصهم الدهشة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير ؛ لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء » .

ثم ينتقل إلى الخصائص الأدبية التي ميزت العرب بالشعر ووصمت غيرهم بالقصة فيقول : « والتوحيد له أثر أيضاً في الشعر العربي ؛ لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف ، فموضوعات الشعر أي أغراضه محدودة ، قليلة العدد جداً عند الساميين . والشعر العربي الذي تمثله القصيدة يعبر عن إحساس شخصي ، وعن حالة نفسية خاصة ، والأبطال في هذا الشعر نفس منشئية ، وهذه الصفة الشخصية التي تجدها في الشعر العربي والشعر الإسرائيلي ترجع إلى خاصية أخرى

من خصائص النفس السامية ، وهى انعدام الخيلة الخالقة ، ومن هنا لا نجد عندهم أثراً للشعر القصصى أو التمثيلي (١) .

ولقد أردت بهذا النص الذى سقته لك من (رينان) أن أبين التعصب الذمى الذى يوحى إلى هؤلاء الشعوبيين بمثل هذا الكلام ، فيسلمون أمة قوية لها مجدها التاريخى والأدبى كل الفضائل العقلية — وهم فى ذلك على باطل — ويتبعهم وللأسف فئة من أدبائنا ، فيكونون حرباً على قومهم . ليس ثمة فرق — كما رأيت — بين كلام (رينان) وكلام (أحمد أمين بك) إن رينان ينهى على العقلية السامية أنها لم يكن لها (ميثولوجيا) أى خرافات دينية كما عند اليونان . وليس أبعث على الضحك من التنويه بعظم العقلية اليونانية وما رزقته من عبقرية لأنها آمنت بالخرافات ، وألهمت الأشخاص والأبطال ، والتمست الطريق إلى الحقيقة فضلت سواء السبيل ، وأمعنت فى الأساطير دون أن تصل إلى الله . لقد جعل هؤلاء الباطل حقاً ، وأشادوا باليونان لأنهم أخفقوا فى الاهتداء إلى وحدانية الله التى آمن العالم بها فيما بعد على يد موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام . والى آمنت بها أوربا الآرية ، وكفرت بآلهة (الأولمب) وميثولوجيا اليونان . ولنسأل هذا السؤال : أحقاً أنتجت العقلية الأوربية فلسفة وعلماً ؟ وما نصيبها

(١) ويقول رينان فى موضع آخر . «الجنس السامى أدنى من الجنس الآرى إذا قورن به ؛ ذلك أن الجنس السامى ليست له هذه الروحانية التى عرفها الهنود والألمان . وليس للجنس السامى هذا الإحساس بالجمال الذى بلغ حد الكمال عند اليونان ، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة التى هى الصفة الغالبة عند السكتيين (سكان فرنسا وبعض البلجيكي) . وإنما يختص الساميون بالبدية الحاضرة ، ولسكنها بدية محدودة . وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم ، وهو الذى يلخص ويفسر جميع صفاتهم ؛ ففخر الساميين فى كونهم أول من عرف التوحيد ، وعندهم أخذ العالم الديانات ، والصحراء هى ملامحة الوحدة لمنظرها الواحد المتشابه » .

الحقيقي من الابتكار للمذاهب الاجتماعية ، ومن تخطيطها بناء الحضارات المتجددة في اقتصادياتها ، وقصصها ، ومثلها ، وصناعاتها ، ونظهما السياسية العالمية ؟ .
 واعلمك تعجب إذا قررنا لك أن المدنية الأوروبية الحديثة بنظمها الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية وحياتها العلمية من أثر العقلية السامية في الغالب ممثلة في بني إسرائيل الذين نزحوا إليها من مئات السنين بعد أن عاشوا طويلاً في الصحراء ، ولو كانت البيئة الصحراوية لا تنتج إلا عقولا مجذبة وخيالات ضحلة ، وفكرراً غير قادر على الخلق والابتكار ، ونفساً لا تعرف الفلسفة ولا تقدرها اظل اليهود كذلك في رحلتهم الدائمة بأوروبا مهما تغيرت بهم البلاد والبيئات .
 ولكننا نرى الأوربيين في كثير من الأحيان يعترفون للتوراة بالفضل ، وللشعب الإسرائيلي وليد الصحراء بالعبقرية والنبوغ ؛ والعقلية السامية متكافئة في اقتدارها وعالميتها ، واللغة العبرية والعربية توأمان نشأتا من أصل واحد . وهذا (رينان) يقول : « ليس في ماضى النوع الإنسانى ما يثير اهتمام الفكر الفلسفى سوى تاريخ ثلاثة شعوب : تاريخ إسرائيل ، والتاريخ الإغريقى ، والتاريخ الرومانى ! » .

وتقول جورج أليوت القصاصة الإنجليزية : « الجنس اليهودى مازال يعد القلب الخفاق فى الحياة البشرية ، بل هو الذى يظهر لها العالم تحت رداءه المنطقى المعقول » .

وما بالناس نقص عليك أقوال الأوربيين ، ولا نسوق لك الأمثلة الحية الصادقة على أن اليهود هم الذين أسسوا الحضارة الأوروبية الحديثة ، وهم قادة الفكر فيها حتى اليوم ، على الرغم من أنهم قلة مضطهدة .

إن الفلسفة فى ألمانيا ابتدأت فى القرن السابع عشر حين ظهر فيها الفيلسوف

اليهودى باروخ (سبنوزا) (١) فى أمستردام ، بعد أن درس ما جاء به فلاسفة قومه من أمثال ابن ميمون ، وابن عزرا ، وفلاسفة ابن جبريل الصوفية ، وموسى القرطبي وغيرهم من فلاسفة اليهود بالآندلس . وهو الذى يقول فيه هييجل الفيلسوف الألمانى : « لن تكون فيلسوفاً إلا إذا درست سبنوزا أولاً » (٢)

وكما بدأ سبنوزا الفلسفة الحديثة فى ألمانيا ، وبنى على نظرياته أو حاول الرد عليها من أتى بعده من فلاسفة الألمان أمثال (كانت ، وهيجل ، وشوبنهاور ، ونييتشه) ، فإن كارل ماركس ١٨١٨ ، وماكس نوردو ١٨٤٩ اليهوديين قد توجها هذه الفلسفة النظرية التى ابتدأت تؤتى ثمارها فى القرن العشرين ، فهيجل الألمانى ، وكارل ماركس اليهودى — واضع كتاب رأس المال ومنشئ أول جمعية شيوعية ^{ثورية} ، ومؤسس جماعة العمل الدولية ، ومؤلف المتن الاشتراكي فى السياسة الاقتصادية — قد بعثا الشيوعية . وفى كارل ماركس اليهودى يقول برنرادشو الفيلسوف الإنجليزى المعاصر : « لا يدعى نبي الشيوعية عيسى أو محمداً أو لوثر أو أغسطين ، ولكنه يسمى كارل ماركس ، وتبتدىء فلسفتهم بالفيلسوف الألمانى هييجل وفيورباخ ، ويتوجها كتاب كارل ماركس رأس المال ، وهو تورااة الطبقة العاملة وإنجيلها ، ويصفونه بأنه ملهم ومعصوم ، ومحيط بكل شئ خُبراً » (٣) ولم يتجرد كارل ماركس — الذى اعتنقت روسيا بأسرها

(١) سبنوزا Spinoza ١٦٣٢ م — ١٦٧٧ ولد من أسرة برتغالية يهودية هاجرت إلى هولندا بسبب الاضطهاد الدينى الذى لقيه اليهود بعد أن رحل العرب عنها ، ومات سبنوزا فى سن الأربعين بعد أن لاقى فى سبيل فلسفته عناء كبيراً . راجع قصة الفلسفة الحديثة . ج ١ ص ١٢٨

(٢) قصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ١٢٨

(٣) راجع The Intelligent woman's Guide To Socialism, Capitalism, Sovietism, and Fascism, by. G.B. Shaw. P. 314 In Pelican Books

وعشرات الملايين في العالم تعاليمه — من يهوديته . فقد كان عضواً بالجمعية اليهودية بباريس ، وأما نوردو صاحب كتاب (الانحلال) فكان في بودابست من أكبر أعوان (تيودر هرتزل) مؤسس الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر ، وواضع خطة إنشاء الدولة اليهودية بفلسطين .

وإذا أردنا أن نعد فلاسفة اليهود ومفكرهم الذين أثروا في الحركة الفكرية بأوربا أعجزنا الحصر ، ولكن لا ننسى (فرويد) واضع فكرة التحليل النفسية ، وصاحب نظرية العقل الباطن ، وناهيك بما لها اليوم من مكانة في عالم الفكر ، ولا ننسى (برجسون) اليهودي الفرنسي شيخ الفلسفة الحديثة وصاحب نظرية مقاومة المادية في أوربا ^(١) و برناردشو أشهر الفلاسفة المعاصرين مدين بفلسفته وآرائه لأستاذه اليهودي (صمويل بتلر) صاحب المبادئ العائلية الثورية ، التي نادى فيها بإعطاء أفراد الأسرة من الأم والفتيات والعلمان حق التصرف حسب أهوائهم على الرغم من إرادة الأبوين

و (أنشتين) صاحب نظرية النسبية ، وأكبر علماء العصر الحديث يهودي قبح ، و (توماس مان) و (أميل لودفج) الكاتبان الألمانيان المشهوران من نبغاء اليهود في العصر الحاضر

إن جامعات أوربا تغص بالأساتذة الإسرائيليين ، ويسيطر اليهود على شئون المال والاقتصاد والطب وصناعة الأفلام وإخراجها ، والصحافة بأنواعها حتى لا تخلو صحيفة في أوربا وأمريكا من نفوذ يهودي إما في رأس المال أو في التحرير ، وهكذا يستولى اليهود اليوم وقبل الحرب الأخيرة ، وفي القرن الماضي على عقلية الشعوب الأوروبية فيقرءون ما يريد اليهود ، ويشاهدون في الخيالة ما يخرج اليهود .

فهل بعد ذلك يفخر الجنس الآرى بالخلق والابتكار وهو خاضع لسيطرة
أدنى العنصرين الساميين ؟ لو كانت المسألة ترجع إلى البيئة الأولى التى خرج
منها الجنس السامى ما كان لهؤلاء اليهود شأن يذكر فى قيادة الفكر الأوربى ،
وقيادة الشعوب الغربية وإخضاعها لسلطانها ، على الرغم من قلة عددهم وهوان
أمرهم .

وأما المثل الأعلى الذى يدعى الشعوبيون أنه مفقود عند العرب فحسبنا أن
نقول فى الرد على دعواهم : إن الحياة العربية فى الجاهلية كانت مليئة بأمثلة
الوفاء والكرم والشجاعة ، وكانت الفضائل والذكر الحسن هي الغاية التى
يصبو إليها كثير من أبناء الصحراء ، وكلها مثل عليا لو سارت عليها الإنسانية
اسعدت ، ولقد برهنت لك على أن الكلمة موجودة فى اللغة العربية وفى
القرآن الكريم الذى نزل على عرب الجاهلية ، ولو لم يعرف العرب هذه
الكلمة ويفهموا مدلولها ما نزل بها القرآن الكريم . على أن الغرب لا يعرف
فى لغة من لغاته كلمات كثيرة تملأ الحياة العربية ، وتفخر بها الإنسانية فكلمات
(العرض) و (المروءة) و (النجدة) ليس لها ما يقابلها فى اللغات الأعجمية

وإذا عدنا إلى الناحية الأدبية وجدنا الشعر العربى — وهو مفخرة العرب
ومحتلى بيمانهم — تكثر فيه ألوان الحكمة مصوغة صياغة متقنة ، وما الحكمة
إلا حقيقة مجردة تدل على تفهم لأسرار الوجود ، وعلى الخيال الشامل الذى
ينتظم طبائع البشر وأحوالهم ، ويصدر عليهم حكما يصلح لكل زمان ومكان ،
وينطبق على كثير منهم مهما اختلفت عصورهم وبيئاتهم

وبعد فلنسأل سؤالا آخر وهو : أحقا توجد فروق عقلية أصلية بين الشعوب ،
يمتاز أحدها بالذكاء الغالب ، والعقلية الخالقة ، والخيال المبتكر ، وتسلب الطبيعة

أحدها فهو قدم في جملته بطيء التفكير ، ليس له قدرة على الخلق والابتكار وإن أجاد التقليد ؟ ؟ . وإذا وجدت هذه الفروق العقلية بين الشعوب كما يدعى المتعصبون لأجناسهم ، المنساقون وراء عواطفهم ، فهل هذه صفات لازمة للشعب لا تتغير بتغير البيئة والزمان ؟ وعلى أي أساس وجدت هذه الفروق العقلية ؟ أى هى نتيجة البيئة الطبيعية أم البيئة الاجتماعية ؟

يقول سرل برت C. Burt في كتابه كيف يعمل العقل (١) : « إن هذه التعميمات التى تشغف بها بعض الجهات لتفضيل ما يسمونه الأجناس الآرية على السامية ، والشعوب البيضاء على الصفراء والسوداء لا يمكن الأخذ بها على علاتها . حقيقة إن ذكاء الزنجى المتوسط فى الاختبارات التى طبقت إلى الآن لا يبلغ إلا تسعة أعشار المتوسط من الشعوب البيضاء ، ولكن الصينيين واليابانيين لا يقولون عن مستوى الغرب . وقد قام اثنان من طلبتى باختبارات أثبتا بها أن ذكاء اليهود أعلى من ذكاء غيرهم . . . ونتائج بعض الباحثين فى الولايات المتحدة تؤيد هذا ... على أن هذه الفروق بين الأجناس مهما تميزت وتحددت فإنها ليست قط على درجة من العظم ، فما لاحظناه قبل بين الذكور والإناث ينطبق هنا أيضاً على الأجناس المختلفة . فالفرق الواسع فى الذكاء بين الأفراد المنتمين إلى شعب واحد أوسع وأبعد مدى من الفروق بين شعب وآخر . فإذا أردنا فروقاً بيئية بين قوم وآخرين فلنبحث عنها فى الطبع أو المزاج ؛ وهنا لا نجد مقاييس علمية نستعين بها ، ولكننا نعتمد على الملاحظة ، وما تكونه من فكرة عامة ، وهما داليلان غير مأمونين »

ويقول بعد استعراض أجناس أوروبا المختلفة ، وما بينها من خلاقات فى

شكل المججمة وتركيب الأجسام ولون الشعر والعيون ، وما يوصف به رجل الشمال من أنه مخلوق عملي ، ورجل وسط أوربا يميله إلى الحقيقة ، ورجل الجنوب يميله إلى الجمال : « ولكن العالم المدقق لا يكاد يسمع مثل هذه الدعاوى العريضة حتى يبدو عليه القلق والحذر ، فإن حقائق الطبيعة الإنسانية قلما تخضع لمثل هذا التقسيم الحاد » (٢)

وبعد أن دحض هذه الآراء المبنية على التعصب الجنسي والفخر الكاذب كدعوى الألمان أنهم « من بين الشعوب الآرية أنبل الناس جميعاً » قال : « والآن أظن أن النقطة التي نستطيع التسليم بها هي أنه لا الجنس وحده ، ولا البيئة الجغرافية وحدها بمستطاعة تحليل التفاوت بين المدنيات المتعاقبة » (٢)

لقد أقر من طعنوا في الأجناس السامية وانتقصوا عقليتهم بذكاء هذه الأجناس فـ (رينان) يقر للعربي بالذكاء وحضور البديهة كما مربك ، وأحمد أمين يعمل لهذا الذكاء بأن العربي عصبي المزاج ، « والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء ، وفي الحق إن العربي ذكي يظهر ذكاؤه في لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة كما يظهر في حضور بديهته » (٣) وقد رأيت منذ لحظة ما أثبتته اختبارات (برت) وتلاميذه من ذكاء اليهود وتفوقهم في ذكائهم « والذكاء العظيم هو الركن الأساسي في النبوغ في أي ميدان من ميادين ، وليس من الضروري أن نفترض أن موهبة الخلق الأدبي ، أو الاستمتاع بالأدب

(١) كيف يعمل العقل ج ٢ ص ١٦٧

(٢) نفس المرجع ص ١٨٠

(٣) فجر الإسلام ص ٤٤ طبعة ثانية

يتوقف على ملكة أخرى خارقة أو خارقة عن حياتنا العادية . هذه هي النتيجة التي وصل إليها وارتضاها (برت) في بحثه لطرائق سلوك العقل في الفن فقال : كل هذه النواحي من البحث أدت إلى نتيجة واحدة ، فالفنان — من حيث موهبته الخاصة رجل مزود بهبات فطرية نادرة ، غير أن الفرق في الدرجة لا في النوع ، فالمقدرة على خلق العمل الفني — كالمقدرة على تذوقه — لا تتوقف على ملكة إضافية خارجية عن مجرى حياتنا اليومية ، وهي في درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية » (١)

فإذا تقرر أن الأجناس السامية على نصيب كبير من الذكاء ، وأن الذكاء العظيم أساس النبوغ في أي ميدان من ميادينها ، وأن موهبة الخلق الأدبي لا تتوقف على ملكة أخرى خارقة . فالعربي بفطرته ومواهبه مهياً للخلق الأدبي والنبوغ ، وليس من الضروري أن يكون النبوغ هو ذلك القصص شعراً أو نثراً — وقد عرفت منزلة القصص وأي لون من ألوان الأدب هو ، وأدركت أن القصة لا تتطلب خيالا جامحاً مخلقاً عميقاً ، وأن العرب صدقوا عنها لما وهبوه من خيال واسع ، ولأن دينهم أغناهم عن النظر في حلول المشكلات الاجتماعية التي تعنى بها القصة — وقد مهر العربي في ألوان أخرى من الأدب ، بل في أعلى أنواع التعبير وأسمائها وهو الشعر . وليست القصة « إلا أحد مظاهر الخيال لا الخيال كله ، فالفخر والحاسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال (٢) » . ومع ذلك فالشعر العربي في كل

(١) راجع (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده) للأستاذ محمد خلف الله

عصوره مليء بالقصص المحبوكة العقدة الرائعة الخيال (١)

ثم هناك سؤال آخر علينا أن نسأله قبل أن ندع الكلام في هذا الموضوع ، وهو: أحقاً تبتدى الحضارة الإنسانية بعلوم اليونان وثقافتهم ، لم يسبقهم في ذلك سابق ، وأن هذه الأفكار والديانات والميثولوجيا والقوانين والفلسفة هي كلها من ابتكار اليونان وحدهم وبذلك احتلوا هذه المكانة السامية في التاريخ ، وبهم تميزت الشعوب الأوربية ، وفاقت غيرها ؟

(١) خذ مثلاً قصيدة الخطيئة الآتية وعلى الرغم من شهرتها فسندكرها عل بعض الناس لا يعرفها :

ببدا لم يعرف بها سدا كن رسما
يرى البؤس فيها من شقاوته نعى
ثلاثة أشخاص تخالهمو بهما
ولا عرفوا البر مذ خلقوا طعما
فلما رأى ضيقاً تشمر واهما
بحقك لا تحرمه تا الليالة اللحما
أيا أبى اذبحنى ويسر له طعما
يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
وإن هو لم يذبح فتاه فقدما
قد انتظمت من خلف مسجلها نظما
على أنه منها إلى دمها أظمى
وأفرد فيها من كنانته سهما
قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما
ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدي
وما غرموا غرمأ وقد غنموا غنا
لضيفهمو والأم من بشرها أما

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل
أخى جفوة فيه من الأنس وحشة
وأفرد فى شعب عجوزاً لزاءها
حفاة عراة ما اغتدوا خبز ملة
رأى شبحاً وسط الظلام فراعته
وقال : هيارباه ! ضيف ولا قرى
فقال ابنه لما رآه بحيرة
ولا تعتذر بالعدم عل الذى ترى
فروى قليلا ثم أحجم برهة
وبينا ما عنت على البعد عانة
عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها
فأمهلها حتى تروت عطاشها
غثرت نحوص ذات جحش سمينة
فيا بشره إذ جرهما نحو أهله
وباتوا كراماً قد قضا حق ضيفهم
وبات أبوهم من بشاشته أبا

وقصيدة زهير فى الصيد : (وغيث من الوسمى حوتلاع) وقصيدة امرئ القيس ويومه بدارة جلجل ، ومعاقبة عمرو بن كلثوم ، ومعظم شعر عمر بن أبى ربيعة ولا سيما قصيدته الرائية (أمن آل نعم أنت غاد فبكر) ، وقصيدة البحتري فى الذئب كلها من الشعر القصصى .

كثير من الناس الذين لم يبحثوا الموضوع ، أو بحثوه بحثاً سطحياً يقولون في غير تردد : أجل ! هذه المدنية والثقافة والفلسفة التي رويت عن اليونان هي من ابتكارهم ، والإنسانية مدينة لهم بالشئ الكثير في هذا المضمار .

ولكن هناك من شك في ذلك ، بل هناك من أثبت بأدلة يقينية أن اليونان في دياناتهم ، وآلهتهم ، وأسماء بعض هذه الآلهة ، وما تتطلبه الديانة من طقوس ، ثم في قوانينهم ، وفي آدابهم تتلمذوا على المصريين القدماء وأخذوا عنهم . وأثبت أن هوميروس في الألياذة اقتبس كثيراً من القصص المصرية بأشخاصها وخيالاتها وأجوائها . بل أخذ قصصاً مصرية معينة وأدخلها في ملحمة . وليس هؤلاء العلماء الذين قاموا بهذه الأبحاث من المتجنين على اليونان أو المبغضين لهم ، بل على العكس هم من المعجبين بهم والمعنيين ببحث آثارهم وترجمتها إلى لغاتهم وشرحها والتعليق عليها ، ولكن أطلعوا على أشعار مصرية ، وآثار قديمة ، وقرأوا هيردوت المؤرخ اليوناني المشهور ، ووازنوا بين نصوص الإلياذة ، وهذه النصوص المصرية التي عثروا عليها فوجدوا التشابه بل التطابق .

ومن هؤلاء العلماء فيكتور بيرار Victor Berard الفرنسي مترجم الألياذة وشارحها ، ثم چولنيشيف M. w. Golénicheff الروسي أحد علماء المصروولوجيا . وقد أثبت عبد القادر حمزة باشا^(١) النصوص المصرية القديمة التي عثر عليها هذان العلمان ، والتي لها مشابهة في الألياذة ، كما أورد الأدلة القاطعة التي لا يأتينا الشك على تلمذة اليونان المصريين ، ومن من علمائهم ومشروعهم وأدبائهم وهؤرخيهم أتى مصر وتأثر بما فيها من علوم ومعارف ودرس على أساتذتها وكهنتها . وهو فصل ممتع حقاً ولولا خشية الإطالة للخصناه تمة للبحث ، ولكن هذا الجزء أوشك

(١) في كتابه على هامش التاريخ المصري القديم ج ١ ص ١٢٥ — ١٧١ .

على الانتهاء وهناك بعض نقط تحتاج إلى نظرة قبل أن نفرغ منه ، وحسبنا أن نقول كما قال الأستاذ العقاد^(١) في بدعة السامية والآرية واختلاف العقليتين ، وكيف ظهرت هذه البدعة : « ونشأت في إبان ذلك بدعته الآرية والسامية ، وهي تلك البدعة التي تقضى الآريين بالسبق والرحبان في كل فضيلة من فضائل الأمم أو فضائل الأفراد ، وقد ظهر بطلانها الآن ، أو ظهر على الأقل أن الحاجز الذي أقامه مبتدعوها بين أجناس الشعوب مصطنع ملفق لا يسلم من ثغرة شك هنا ، أو ثلثة ضعف هناك بل هو ينعكس في أحوال شتى فتصبح المزية للساميين من حيث أرادها القوم للآريين . ولكن البدعة قد خدعت أناساً كثيرين في إبان نشأتها فتحدثوا عنها كتمحدث الناس بالغرائب والملح المستطرفة ، وما زالت تبجى على الأفكار ؛ حتى أوغل فيها بعض الغلاة من دعايتها فاستخرجوا منها دليلاً على رحبان بعض الأمم الأوربية على بعض ، واستثثار جماعة من تلك الأمم بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الأخرى ، فتصدى لها يومئذ من الأوربيين من ينكرها ويزيفها ، ويبالغ في السخر بها ، بعد أن كانوا يتفقون على ترويحها ، والإغضاء عنها ، حين كانت معرفتها لاصقة بالشرق وحده موقوفة عليه دون غيره » .

وحسبى الآن ما سقته من أدلة^(٢) على أن أسطورة العقلية السامية والآرية لا تثبت أمام الأدلة العلمية ، وأن القصة — على الرغم من وجودها في الأدب العربي كما هي موجودة عند كل الأمم ، وإن لم تأخذ القالب الفني الذي لم يظهر

(١) في كتاب سعد زغلول سيرة وتحية لعباس العقاد ص ١٣ — ١٤ في فصل عن العقلية المصرية وطبيعتها .

(٢) وإذا أردت المزيد فاقراً مقالة مجلة الأنصار بالعدد ٤ السنة الرابعة ، شوال ١٣٦٣

بالقصص الأوربي إلا في أواسط القرن الثامن عشر — لا تحتل هذه المكانة الممتازة في عالم الأدب ، ولا يوصف من لم ينبغ في تأليفها بعقم الخيال وجمود العاطفة وضحالة الفكر .

وكم كان بودى أن أفيض في أدب القصة ، وأبين أنواعها وأصولها وكيفية إنشائها ، ولكن هذا يحتاج إلى كتاب قائم بنفسه ، وإنما دعاني إلى الخوض في القصة على هذه الطريقة إقبال المترجمين في العهد الذي نتحدث عنه عليها إقبالاً زائداً ، وتأثر الأدب العربي الحديث بها بعد ذلك تأثراً بالغاً ، حتى دعا ذلك إلى القول بأنها لم تكن موجودة عند العرب ، وأن العقلية السامية لا تستطيع إنتاج القصة لما بها من فقر في الخيال .

٢٠ — المقالة والصحافة :

وإذا كان القرن التاسع عشر قد انقضى ، ولم تحتل فيه القصة العربية الموضوعة مكانها في عالم الأدب ، وكانت أغلب القصص التي تطبع مترجمة من شتى اللغات ، فإن المقالة منذ ابتدأت الصحافة العربية بإنشاء الوقائع المضرية ، ثم روضة المدارس ، ثم الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، قد صارت عماد الكتاب والأدباء ، والقالب المعتاد الذي يصبون فيه أفكارهم ، وينشرونها بين الناس .

ولست المقالة غريبة عن الأدب العربي القديم ، وإن تغيرت صيغها وشروطها ، فعبد الحميد الكاتب حين تكلم عن الشطرنج ، أو الصيد أو الكتابة كان يكتب شيئاً قريباً من المقالة ، والفصول الأدبية التي أنشأها الجاحظ في كتبه البخلاء ، والمحاسن والأضداد ، والحيوان ، مقالات مظلوة تنقصها شروط

المقالة الحديثة ، وإن كان هذا القول لا يرضى بعض النقاد ، بل إنهم لا يوافقون على المقالة الأدبية التي يدبجها الكتاب اليوم إذا قاسوها بمقاييس النقد الأجنبية ، ويتطلبون من المقالة أن تكون « على غير نسق من المنطق ، وأن تكون أقرب إلى قطعة مشعثة من الأحراش الحوشية منها إلى الحديقة المنسقة المنظمة » ويحتجون بتعريف (جونسون) ومكانته من الأدب الانجليزي في الذروة العليا « للمقالة بـ » أنها نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام ، هي قطعة لا تجري على نسق معلوم ، ولم يتم هضمها في نفس كاتبها » (١) ويطبقون هذا القول على المقالة الأدبية في مصرفيرون ألا يكون لها نقط ولا تبويب ولا تنظيم وهذا امرى شرط لا يوافق عليه الأدباء في كل أنحاء العالم فقد تغيرت المقالة منذ عهد (جونسون) في القرن الثامن عشر حتى اليوم ومنذ أن قال (بيكون) يصف مقالاته : « إنها ملاحظات مختصرة كتبت من غير اعتناء » ، واشترط النقاد في المقالة شروطاً أخرى غير تلك التي سار عليها (جونسون أو بيكون) ، ورأوا أن الكاتب ملزم بالتفكير فيما يريد أن يكتب قبل أن يتناول القلم ، ثم السير في موضوعه سيراً منطقياً متجنباً الفضول ، ومركزاً فكره في النقط الرئيسية ، على أن يكون لموضوعه وحدة تربط بين أجزائه ، وأن يكون واضحاً في تعابيره ، منتخِباً لـكلماته ، ولأسلوبه طلاوة وعليه جمال . وقد يحتاج المقال إلى مقدمة ، وقد لا يحتاجها ، ولكن لا بد له من نتيجة أو خاتمة ، ولا بد من تنسيق الأفكار ؛ فالأفكار غير المنسقة تدعو إلى اضطراب الكاتب في كتابته ، وعدم فهم القارئ لما يكتب ، وليست هذه الشروط — كما يقال سخريه — هي شروط الإنشاء المدرسي ، وشتان بين هذا وبين المقال الأدبي ، فإن الفكرة

(١) الدكتور زكي نجيب محمود في مقدمة كتابه أدب المقالة .

التي يراد التعبير عنها سواء كانت، في نفس طالب مبتدئ أو كاتب نابغ محتاجة إلى الوضوح وإلى التمهيد لها، ثم إلى عرضها عرضاً جيداً منطقياً يفهمه القارئ بيسر، لا أن تكون مشعثة غامضة تسير في غير اتساق ونظام، فإن ذلك قد يؤدي إلى عدم فهمها فضلاً عن أنه لا يتفق مع البلاغة في شيء^(١).

وموضوع المقال يتسع لكل شيء في الوجود من تعبير عن عاطفة أو رغبة أو راحة أو معرفة أو فكرة، أما أن يقال إن المقال الأدبي يجب أن يكون وقفاً «على التعبير عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن يفقل الأثر إلى نفوس قرائه» فقد كان ذلك شرطاً مرعياً أيام (جونسون)، وأيام أن كانت المقالة محدودة الغرض، ولكن سارت المقالة في طريقها شوطاً طويلاً، واتسع ألقها حتى شملت كل ألوان الحياة إلى أن زحزحت عن مكانتها بتقديم القصة والأقصوصة، وإن ظلت إلى اليوم لوناً محبوباً من ألوان الأدب هذا وقد تكون المقالة :

١ — إخبارية، تقص حادثة ما، أو مجموعة من الحوادث، وهي حينئذ قريبة من الأقصوصة تتخذ شكلاً قريباً من شكلها، وفيها ما يثير الشوق، ويأسر الانتباه، ويدعو إلى التقصي والتتبع. ومن المقالات الإخبارية التراجم.

٢ — وقد تكون وصفاً لحادثة أو شخص أو شيء، تعطى تقريراً كاملاً تفصيلياً عنه وعن محيطه.

٣ — وقد تكون معرضاً لفكرة وتوضيحاً لها حينما تكون الفكرة غامضة،

(١) راجع Essay writing and Rhetoric, by Egerton Smith طبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩١٣ المقدمة والفصل الأول.

وراجع مقدمة English Essays, by J, H, Lobban
وراجع لائحة من كبار الأدباء Modern Literary Essays

والموضوع معنوياً. ومهمة العرض أن يفسر لماذا حدث هذا الشيء ، أو كيف يمكن أن يحدث ذاك الشيء . والفرق بين العرض وبين الوصف أن العرض لا يأبه بالتفصيلات ولكن يعنى بالصفات العامة وبالمبادئ ، وبالمميزات التي تخص نوعاً ما ؛ وقد تذكر بعض التفاصيل أثناء العرض ، ولكنها لا تحتل المكانة الأولى ، بل تذكر لإيضاح فكرة أو تضرب مثلاً على قانون عام . فقد تصف صورة ما ، ولكن الكلام عن التصوير عرض ، وقد تصف مسجداً ما ، ولكن الكلام عن هندسة المساجد يحتاج إلى عرض .

٤ - وهناك المقالة الجدلية التي تناقش فكرة ما ، وتبين ما بها من خطأ وصواب ، وصدق وكذب ، ويكون الموضوع عادة سؤالاً يناقشه الكاتب ويجيب عنه بما يراه ؛ كسؤالنا مثلاً عن الحرب وهل هي معقولة ؟ أو عن الكذب وهل ثمة ما يبرره في الحياة ؟ أنتصديق على الشحاذين ؟

وهذه الصور هي التي تظهر فيها المقالة في الأدب الغربي (١) ، ونرى مثلاً في الأدب العربي الحديث لأنها صور طبيعية يلجأ إليها كل كاتب . والكلام عن المقالة يدعونا حتماً إلى الكلام عن الصحافة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لأن المقالة لم تظهر إلا في الصحف ، ونحن قد تتبعنا الصحافة ، في عصر إسماعيل وأوائل عهد توفيق . أما الصحافة في عهد الاحتلال فقد تكلمنا آنفاً عن مجلة الأستاذ للسيد عبد الله نديم التي أنشئت في سنة ١٨٩٢ ، وكيف كانت حرباً عواناً ، وناراً مضطربة على الاحتلال والأجانب ، ولكن هؤلاء ضاقوا به ذرعاً فأغلقوا جريدته ، ونفوه من البلاد .

وإذا كان عبد الله نديم قد ترك مصر ، وعطالت جريدته الوطنية الحرة ، فإن الأسباب التي تدعو إلى ظهور مثلها في حرارتها وصدق لهجتها ، ومحاربتها الاستعمار الإنجليزي كانت قائمة ، على الرغم من أن سياسة الإنجليز في أوائل عهد الاحتلال كانت ترمي إلى كم الأفواه ، وقتل الروح الوطنية في نفوس دعاة الحرية ؛ وإب تظاهروا بأنهم أطلقوا للصحافة العنان وتركوها حرة تقول ما يشاء^(١) ؛ لأن كرومر ممثل الاحتلال بمصر لم يكن يأبه للصحافة وما قد تثيره من سخط وتحت إمرته جيش إنجليزي جائم على صدر الوادي يبطش بكل من يحدّثه نفسه بالشغب . على أن الصحافة في رأى كرومر كانت من الهوان والضعف بدرجة لا تدعو إلى القلق والاضطراب ؛ وإذا بدر من إحدى الصحف ما يسيء إلى الإنجليز أو يشوه سمعتهم بمصر عاجلوها بالتعطيل ، ولقد مر بك كيف حاربوا مجلة العروة الوثقى ومنعوها من دخول مصر ، وعطلوا جريدة الأهرام^(٢) لتنديدها بالسياسة الإنجليزية شهراً في سنة ١٨٨٤ ، وتبطش يد الاستعمار بكثير من الجرائد لأتفه الأسباب فتعطل جريدة الوطن مع أنها موالية لهم ، وتلغى الزمان ، ومراة الشرق لأنهما من محاربي الاحتلال .

وتاريخ الصحافة في هذه الحقبة متأثر بمدة عوامل :

(١) وفي ذلك يقول جورج يونج G. Young في كتابه مصر Egypt مشيراً إلى تقرير اللورد (دفرين) ونصحه لسلطة الاحتلال بمصر أن ترخي العنان للصحافة ، وأن نصيحته قد وجدت أذناً صاغية حتى « أهمل قانون سنة ١٨٨١ إهمالاً تاماً ، ونالت مصر حرية صحفية لأعهد لشمال أفريقية أو غرب آسيا بها » انظر ص 180 — 179

(٢) كانت جريدة الأهرام تحارب الإنجليز لأنها كانت تعمل لحساب الفرنسيين ، وفي ذلك تقول جريدة الشعب (٨ مايو ١٩١٢) تصف الأهرام وسياستها : « إن سياستها عثمانية مصرية تدافع عن مصالح فرنسا في مصر سواء كانت اقتصادية أو سياسية وأحياناً تشتد في نقدها كما كثر الصحف الوطنية تطرفاً »

١ - فتركيا كانت - على الرغم من ضعفها ، وإذعانها الأمر الواقع في مصر - تحاول إثارة النفوس ضد الاحتلال الإنجليزي ؛ ضناً بمصر الغنية أن تفلت من يدها إلى الأبد . وكان كثير من المصريين يدين لتركيا بالولاء ، وهو ولاء ديني مبعثه وجود الخلافة العثمانية ، والمسلمون مكلفون شرعاً بطاعة الخليفة . وكانت هذه النزعة تملك قلوب الجماهير الغالبة من المصريين وبعض السوريين المقيمين بها . وقد ظهر من الجرائد التي تحمل لواء هذه السياسة ، وتنفض الحزم ملتها ، والسم ناقعاً ضد الإنجليز وسياستهم الاستعمارية جريدة (المؤيد) ، ثم جريدة (اللواء) .

٢ - وهناك الاحتلال البريطاني ، وهو احتلال تديره سياسة محكمة يصفها اللورد كرومر بقوله : « يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة ، ويجب أن تكون أصول أحكامنا - التي هي الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة في حكمنا ، من حيث الاعتبار السياسي والاقتصادي والأدبي - قواعد صحيحة سليمة منزهة عن الشائبة والنقص . هذا هو حجر الزاوية في بناء الإمبراطورية . إن المبرر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جلياً في حسن التصرف بما في أيدي هذه الإمبراطورية من القوى ^(١) » . وأراد الاحتلال أن يجتث نفوذ تركيا من الأساس ، ويقتلع من النفوس هذا الولاء ، وقد استطاع أن يجد لسياسته هذه أنصاراً ومؤيدين وأن يجتذب قلوباً عزيزة المال تدافع عنه أو تسكت عن مخازيه . وجد الاستعمار أنصاره بين السوريين المسيحيين الناقمين على تركيا استبدادها وغلظتها وسوء تصرفها معهم في ديارهم ، وتفريقها بين عناصر الأمة ، فرأوا في الإنجليز من يحميهم ويهطف

عليهم ، فأنشئوا جريدة المقطم^(١) تشيد بسياستهم ، وتلهج بأعمالهم ، وقد صرح أصحابها بأن غرضهم السياسى من تأسيسها معلوم ظاهر فى كل صفحة من صفحاتها ، « وهو تأييد السياسة الإنجليزية التى لولاها ما كان فى الشرق بلد يستطيع أحد أن يعيش فيه ويجاهر بآرائه وأقواله^(٢) » ، ومن هؤلاء الذين شرعوا أقلامهم فى محاربة الترك وتأييد الإنجليز سليم سر كيس صاحب جريدة (المشير) ، ويقول من مقالة بعنوان (هل مصر عثمانية؟)^(٣) : « لم أجد فى حياتي ، ولا قرأت فى مطالعاتي عن أمة تريد الانتقال من نور الاستقلال إلى ظلمات العبودية إلا هذا القسم من الأمة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني » . ومن شعره فى التنديد بظلم الأتراك قوله^(٤) :

نرجو صلاح الترك قد خابت أمانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس ا مدل عن ظلم بذاهب
فانشد معى قولا ترد ده المشارق والمغارب
ليس العجيبة فقدها بل عيشها إحدى العجائب

وقد وجد الإنجليز بجانب هؤلاء أقلاماً أخرى تناصرهم لنفورهم من الظلم التركى مثل ولى الدين يكن ، مع أنه كان تركياً صمياً لا يبغي بتركيا بديلاً ، ولكنه كان يحب الإنجليز لحمايتهم — فيما يزعم — الأحرار . وقد مر بك كيف اجتذبوا إليهم الشيخ محمد عبده وإن لم يكن من صنائعهم ، ولكنه كان من المحتمين بهم المستظلين بظلمهم ، وقد استطاعوا أن يطفئوا تلك النار الملتهبة التى

(١) ١٤ فبراير سنة ١٨٨٩

(٢) مجلة الجامعة لفرح أنطون ج ١ ص ٧٣

(٣) المشير عدد ١٠٣

(٤) العوامل الفعالة فى الأدب العربى الحديث لأنيس المقدسى ص ٨

يصحبها عليهم الشيخ على يوسف وشيعته في المؤيد ، وأن يسكتوا تلك الأقلام القوية التي تصور في جرأة وقوة فظائهم وتملاً القلوب إحناً وبغضاء عليهم^(١) . ولكن لم يستطيعوا مع كل هذا أن يجعلوا من المؤيد بوقاً يدعو لهم ، وسنعود إليه بعد قليل .

وبذلك انقسمت الصحافة قسمين قسم يشايح تركيا — وفي الغالب يدعو للخديو ويناوى* الإنجليز ، ويندد بالاسـتمـعار إما مدفوعاً بالولاء الدينى ، أو بالكراهية الانجليزية أو بتحريض دولة أجنبية مثل الأهرام وفرنسا . وقسم يدافع عن الإنجليز ويدافع عنهم ويذيع مساوى* العهد التركى ، ويتزعم بنعمة الاحتلال ، وينتقص المصريين وعلى رأسهم الخديو ، ويتمثل في جريدة المقطم ، وفي بعض الأقلام التي فتنها بريق الحرية الكاذبة التي لوح بها الإنجليز . وأكبر ظاهرة تستحق منا العناية قبل أن نفرغ من هذا الجزء ظهور جريدتين إسلاميتين كان لهما شأن عظيم في تاريخ مصر ، وفي توجيه الحركة والإصلاح الاجتماعى ، وقد أشرنا إليهما فيما سبق بإشارات عابرة ولكن سنخصص المؤيد هنا بكامة ؛ لأن الصحافة اليومية المشهورة بمصر كانت إلى ظهور المؤيد واللواء سورية تتحكم فيها نزعات وأهواء متباينة ، أما اللواء فله شأن آخر

(١) وقد قال في هذا التغير حسين شفيق المصرى صاحب (المباحث السياسية) : « المؤيد الذى يقرأ الآن غير المؤيد الذى كان المصريون يحبونه ، والشيخ على يوسف صاحب المؤيد الحاضر غير الشيخ على يوسف الذى حمل على الأعناق بعد حكم قضية التفرقات المشهورة فقد تغيرت الحال مع الصحيفة وصاحبها ، والبون بعيد بين اجتماع الوطنيين لتوقيع أم الصحف وأبى الصحفيين وبين اجتماعهم للنداء بإسقاطهما فى الحضيض الأسفل ، وليس الإقرار بهذه الحقيقة من الأمور التي تصر الوطنيين » (راجع تاريخ الصحافة العربية) للفيكونت فيليب دى طرازى

وموعدنا به في الجزء الثاني إن شاء الله ؛ لأنه أنشئ في السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والكلام عنه يطول .

المؤيد :

والفضل في ظهور المؤيد يرجع إلى سياسة الإنجليز واصطناعهم أصحاب المقطم ، فإن هذا أثار حفيظة الوطنيين ، فتقدم الشيخ على يوسف ^(١) صاحب مجلة الآداب لإخراج المؤيد جريدة وطنية مصرية وشجعه رياض باشا وكثير من زعماء مصر ^(٢) ، وغدت للمؤيد ميداناً تتألق فيه الأفلام الوطنية الجريئة تثيرها حرباً شامواً على الاستعمار الإنجليزي ، وعلى الأجانب الذين يناصرونهم ، ونازلت المقطم نزالاً عنيفاً مرراً ، فما لبثت أن راجت حتى صارت أقوى جريدة عربية في الشرق العربي كله . وأفسحت صدرها لمصطفى كامل وفئة صالحة من كتاب الشباب ، وتلاميذ جمال الدين ومحمد عبده ^(٣) . وعنيت بالمسائل الوطنية

(١) الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، ولد بقرية بلففورة بديرية جرجا سنة ١٨٦٣ من أسرة شريفة أختي عليها الدهر ، ودرس في الأزهر مدة إلا أن ميله الأدبي صرفه عن إتمام دروسه به ، وأنشأ في سنة ١٨٨٧ مجلة (الآداب) أسبوعية في ثمانى صفحات ، ولكنها اهتمت بالدراسات القديمة ، وحررت بأسلوب يعالو على جمهرة القراء ، فتعثرت في خروجها ، ثم أسس جريدة المؤيد أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ ، فكانت أول جريدة مصرية يومية كبيرة ، وراجت رواجاً عظيماً . وفي سنة ١٩١٣ أسندت للشيخ على يوسف مشيخة السادة الوفائية ، فاستقال من جريدته ، ومات بعد ذلك في سنة ١٩١٣ . وكان الشيخ على قوى العزم أديباً متلافاً وقد أثار زواجه من بنت السيد عبد الخالق السادات ضجة عظيمة ، لأن السيد عبد الخالق عده دونه في الحسب والنسب ، وشغلت الصحف بذلك وقتاً طويلاً ، وقد رمى بالتعصب الدينى ، ولكنها تهمة يشيعها من لم يفهموا سياسة ذاك الوقت والعوامل التي حركت الصحافة والدوافع التي جعلت من بعض المسلمين متعصبين .

(٢) راجع تطور الصحافة المصرية لا إبراهيم عبده ص ١٥٢
 (٣) من كتاب المؤيد المشهورين بجانب صاحبه : جميل مدور ، وعبد الحميد الزهراوى ، والشيخ عبد القادر المغربي ، ومحمد كرد على ، وعبد الدين الخطيب ، والمنفلوطى ؛ وحافظ عوض ومحمد أبو شادى وإمام العبد ، وسليمان فوزى (صاحب الكشكول) .

في جميع نواحيها ، وبالأمر الإسلامي . ولم يستطع الإنجليز أن يعطلوها كما
عطلوا الأستاذ لعبد الله نديم لقوتها وكثرة قرائها ، ولكن تمكنوا بعد مدة من
استمالة الشيخ على يوسف إليهم ، ولعل صحبته لحمد عبده قد أثرت فيه فتهج
منهجه في مسألتهم .

لقد كانت المؤيد أمل المصريين ، ومدرسة تخرج فيها عدد كبير ممن قادوا
الأمة في الصحافة بعد ذلك ، وكانت غنية منتشرة في العالم الإسلامي كله ، وهي أول
جريدة استعملت مطبعة كهربية في الشرق ، وقد احتلت منزلة كبيرة في نفوس
الناس حتى اعترف لها بهذه المكانة العدو والصديق ، ولذلك عثر على المصريين
وقوفها موقفاً سلبياً من الاستعمار الإنجليزي بعد أن كانت من أكبر خصومه ،
وإن لم تفقد قراءها ؛ لسابق فضلها وقوة تحريرها ، ولسياستها الإسلامية ، ولحسن
الدعاية لها . وفي المؤيد وصاحبه يقول حافظ إبراهيم حين أخرج للمؤيد في
ثمانى صفحات سنة ١٩٠٦ .

أحييت ميت رجائنا بصحيفة أثنى عليها الشرق والإسلام
أضحت مصلى للهداية عندما سجدت برحب فنائها الأقلام
فعلى مؤيدك الجديد تحية وعلى مؤيدك القديم سلام
ويقول ولي الدين يكن عنه :

« الشيخ على يوسف سهل التأليف ، شديد المضاء ، هو في بيانه أقرب إلى
العامة منه إلى الخاصة ، إذا غالب غلب بصوته دون روحه ، صحافي محنك .
ولمست الكتابة من عمله .

كأنما يراعه سوطه يضرب ابن جد ولا يكتب
لا تدع العجمة أسلوبه فليس في أسلوبه مغرب

ولعلك أدركت أن ولي الدين ليس ممن يحبون الشيخ ، وقد كانا على طرفي
نقيض في سياستهما كما مر بك .

وفيه قال يوسف البستاقى : « أنظر إليه بعين الصحافي فأراه عظيم البراعة
في تقليب اليراعة وشديد الحصافة في ميدان الصحافة ، ولو وجد قلمه من عواطفه
دعامة لرفعه بيدنا إلى مقام الزعامة . ولقد زاد فضله أنه من الطبقة العصامية وجهال
اللغات الأجنبية » (١) .

ويقول عنه تشارلس آدمس :

« أما الشيخ على يوسف فقد كان صحافياً ماهراً ، له دهاء يشوبه المكر
أحياناً ، وقد رفع المؤيد إلى مقام الصدارة في العالم العربي » (٢) .
وحسبنا هذه الكلمة الموجزة عن الصحافة في أخريات القرن التاسع عشر
ولنا إليها عودة في الجزء الثاني إن شاء الله ؛ لأن كثيراً من الصحف التي ظهرت
في هذه الحقبة ازدهرت ونمت في القرن العشرين ، وتأثرت بعوامل سياسية
 واجتماعية كانت وليدة أحداث ظهرت في أوائل هذا القرن .

(١) تاريخ الصحافة العربية — الفيكونت فيليب دي طرازي ج ٣ ص ٤٠

(٢) الإسلام والتجديد تعريب عباس محمود ص ٢١٧

المراجع

- إبراهيم عبده ... : ١ — تطور الصحافة المصرية
 ٢ — أعلام الصحافة
 ابن لمباس الجر كمى ... : بدائع الزهور فى وقائم الدهور
 أحمد أمين بك ... : ١ — قصة الفلسفة الحديثة جزءان
 ٢ — فجر الإسلام
 ٣ — مجلة الثقافة مقالات عن زعماء الإصلاح الاجتماعى
 أحمد تيمور باشا ... : أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر
 أحمد سمير ... : سلافة النديم
 أحمد صبرى ... : مجلة الأنصار
 أحمد فارس الشدياق ... : منتخبات الجوائب
 أحمد الإسكندرى وآخرون ... : (١) المنتخب
 (ب) المفصل
 إسماعيل باشا صبرى ... : الديوان
 إلياس الأيوبى ... : تاريخ مصر فى عصر إسماعيل (جزءان)
 أمين باشا سامى ... : تقويم النيل الجزء الثانى والثالث
 أنيس المقدسى ... : العوامل الفعالة فى الأدب العربى الحديث
 برت (C. Burt) ... : كيف يعمل العقل الجزء الثانى ترجمة محمد خلف الله
 بروكلمان (Carl Brockelmann) : Geschichte der Arabischen Litterature
 ملحق الجزء الثانى
 بطرس البستاني ... : أدباء العرب الجزء الثالث
 بلنت ... : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر. ترجمة البلاغ
 تشارلتن ... : فنون الأدب تعريب زكى نجيب محمود
 تشارلس آدمس ... : الإسلام والتجديد ترجمة عباس محمود
 توفيق الحكيم ... : (١) تحت شمس الفكر
 (ب) مقالة فى مجلة أخبار اليوم ٢٧/٣/١٩٤٨
 جاك تاجر ... : حركة الترجمة بمصر
 الجبرتى (الشيخ عيد الرحمن) : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
 جميل صليبا ... : ابن خلدون — منتخبات

- جورجى زيدان ... : (١) تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع
 (ب) تراجم مشاهير الشرق جزءان
- جومار ... : journal Asiatique عدد أغسطس ١٨٢٨
 حسن قويدر ... : نيل الأرب في مثلثات العرب
 حسين المرصفي ... : الوسيلة الأدبية
 رفاعة الطهطاوى ... : تخليص الإبريز في تلخيص باريز
 رينان (Renan) ... : Histoire Générale et Système
 Comparé des Langues Sémitiques
- زكى نجيب محمود ... : (١) قصة الفلسفة الحديثة جزءان
 (ب) مقدمة كتاب أدب المقالة
- ستودارد ... : حاضر العالم الإسلامى أربعة أجزاء ترجمة مجاهد نويهض
 سليم سر كيس ... : جريدة المشير
- سميث (Egerton Smith) : Essay writing and Rhetoric
 شو (G. B. Shaw) : The Intelligent woman's Guide
- شكيب أرسلان ... : ١ — تعليقات على هامش حاضر العالم الإسلامى
 ٢ — مقدمة النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى
- صالح مجدى ... : حلية الزمن فى وصف مناقب خادم الوطن (مخطوط)
 طه حسين بك ... : (١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تعريب محمد
 عبد الله عنان
- (ب) فى الأدب الجاهلى
- عباس العقاد ... : (١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى
 (ب) سعد زغلول سيرة وتحمية
- عثمان أمين ... : محمد عبده فى سلسلة أعلام الإسلام
 عبد الرحمن الراغبى بك ... : ١ — الحركة القومية ثلاثة أجزاء
 ٢ — عصر إسماعيل جزءان
- ٣ — تاريخ الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى
 ٤ — مصطفى كامل
- عبد القادر حمزة باشا ... : على هامش التاريخ المصرى القديم ج ١
 عبد الله فكرى ... : الآثار الفكرية
 عبد الله نديم ... : الأستاذ ، والتسكيت والتبكييت
 على أبو النصر ... : الديوان
- على مبارك باشا ... : المخطوط التوفيقية
 عمر الدسوقي ... : إخوان الصفاء

- فرح أنطون ... : مجلة الجامعة
- فون فسينديك ... : ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي ترجمة محمد عبد الله عنان
- فيليب دي طرازي ... : الصحافة العربية أربعة أجزاء
- قدرى طوقان ... : جمال الدين آراؤه وأثره — محاضرة
- كلوت بك ... : لمحة عامة إلى مصر
- لوبان (J. H. Lobban) : English Essays
- لويس شيخو ... : تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر جزءان
- محمد بهجت الأثرى ... : أعلام العراق
- محمد حسين هيكل ... : مقدمة لديوان البارودي
- محمد الحضري بك ... : محاضرات في التاريخ الإسلامى (الدولة العباسية)
- محمد خلف الله ... : من الوجهة النفيسة في دراسة الأدب
- محمد رشيد رضا ... : تاريخ الأستاذ الإمام ثلاثة أجزاء
- محمد صبيح ... : محمد عبده — كتاب القصر
- محمد عبده ... : ١ — الوقائع المصرية
- ٢ — مجلة العروة الوثقى
- محمد عثمان جلال ... : العميون اليواظ
- محمد الغمراوي ... : النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي
- محمد كرد علي ... : خطط الشام الجزء السادس
- محمد المخزومي باشا ... : خاطرات
- محمود سامي البارودي ... : الديوان
- محمود صوت الساعاتى ... : الديوان
- مصطفى لطفي المنفلوطى ... : ١ — مختارات المنفلوطي
- ٢ — ترجمة للساعاتى في الديوان
- نجيب العتيق ... : المستشرقون
- يونج (G. Young) : Egypt

الفهرس

صفحة

٨ - ٣		مقدمة
٥١ - ٩		الفصل الأول - البعث
		قبيل البعث ٩ - البعث ١٣ - البعثات ١٥ - الترجمة ١٩ -
		رفاعة بك الطهطاوى ٢٠ - أعماله بعد عودته من البعثة ٢٣ -
		رفاعة والقانون ٢٧ - رفاعة والمرأة ٢٨ - وفاته ٢٨ - صفاته
		٢٩ - الطباعة والصحافة ٣١ - الصحافة ٣٣ - الأدب في
		عهد محمد على ٣٥ - الشيخ حسن المطار ٣٦ - الشيخ حسن
		قويدر - ٣٨ السيد على الدرويش ٣٩ - المعلم بطرس كرامة
		٤٠ - الشيخ ناصيف اليازجى ٤١ - الشهاب الألوS ٤٣ -
		تعقيب ٤٤ - التأليف في عصر محمد على ٤٦
٧٨ - ٥٢		الفصل الثانى - النهضة
		التعليم ٥٢ - دار العلوم ٥٣ - الجمعيات العلمية ٥٦ - الصحافة
		٥٩ - مجلة اليعسوب ٦١ - روضة المدارس ٦١ - تعقيب ٦٥
		٦٨ - الطباعة ٦٨ - الترجمة والتأليف ٦٩ - النهضة في بلاد الشام
		٧٤ - مدارس لبنان ٧٦
١٢٢ - ٧٩		الفصل الثالث - الأدب في عصر اسماعيل
		المدارس الأدبية في ذاك العصر ٧٩ - السيد على أبو النصر
		٨٣ - الشيخ على الليثى ٨٧ - محمود صفوت الساعاتى ٩٢ -
		شعر الساعاتى ٩٨ - عبد الله باشا فكرى ١٠٤ - شعره ١٠٧

- نثره ١١٣ — آثاره ١١٩ السيد عبد الله الألوسى ١٢٠ —
 ١٢١ حسين بيهم
 ١٨٧-١٢٣ الفصل الرابع — بحث الشعر العربى
 تطور الشعر ١٢٣ — الباروى ١٢٦ — أخلاقه ١٣٣ — ثقافته
 ١٣٨ — شعره ١٤١ — القديم فى شعره ١٤٦ — الجديد فى
 شعره ١٥٣ — انشعر السياسى ١٦١ الفسيب ١٧٠ — الهجاء
 ١٧٢ — المخترعات الحديثة ١٧٥ — نظرة عامة فى شعر البارودى
 ١٧٦ — الرثاء ١٧٧ — المدح ١٧٩ — الفخر ١٨١ — الزهد
 ١٨٢ — هنات فى شعره ١٨٤ —
 ٢٩١-١٨٨ الفصل الخامس — نهضة النثر
 (١) موضوعات النثر ١٨٨ — الدفاع عن الشعوب المظلومة
 ١٨٩ — الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى ١٩٤ — محاربة
 الاستعمار ١٩٥ — الإصلاح الاجتماعى ١٩٨ —
 (ب) مميزات النثر ٢٠١ — أنواعه ٢٠٢ —
 السيد جمال الدين الأفغانى ٢٠٥ — أثره بمصر ٢١١ — جمال
 الدين والثورة ٢١٤ — جريدة العروة الوثقى ٢١٧ — عود إلى
 الرحلة ٢١٧ — خاتمة المطاف ٢٢٠ — نبذ من آرائه ٢٢١ — أسلوبه
 فى الكتابة ٢٢٥ — الإمام محمد عبده ٢٢٧ — الشيخ درويش
 ٢٢٩ — محمد عبده فى الأزهر ٢٣١ — محرر الوقائع المصرية
 ٢٣٦ — محمد عبده والثورة ٢٣٨ — بعد الثورة ٢٤١ — بعد
 العودة من المنفى ٢٤٣ — إصلاح الأزهر ٢٤٥ — محمد عبده
 والسياسة ٢٤٧ — وفاته ٢٥١ — أثره فى النثر ٢٥١ — السيد

عبد الله نديم ٢٥٧ - دراسته وتجاربه ٢٥٧ - النديم والثورة
٢٦٣ - اختفاؤه ٢٦٥ - جريدة الأستاذ ٢٦٧ - آثاره وأثره
٢٦٩ - نثره ٢٧١ أسلوبه ٢٨١ - شعره ٢٨٤ - منزلته ...

٢٩١ - ٣٦٠ ... الفصل السادس - الاتصال بالأدب الأجنبي ...

(١) الترجمة والتأليف ٢٩٢ - مدرسة الحقوق ٢٩٣ - النهضة
القانونية ٢٩٦ - كتب الاقتصاد السياسي ٢٩٩ - كتب
الاجتماع ٣٠٠ - الكواكب ٣٠١ - النهضة الأدبية ٣٠٢ -
الترجمة للمسرح ٣٠٣ - القصة والرواية ٣٠٤ - المستشرقون
٣٠٨ - اتصال الغرب بالشرق ٣٠٩ - الحروب الصليبية ٣١٠ -
الجمعيات الأسبوعية ٣١٢ - المؤتمرات الاستشرافية ٣١٣ -
المكتبات الأوربية ٣١٤ معاهد اللغات الشرقية ٣١٤ - أشهر
المستشرقين ٣١٥ - الفرنسيون ٣١٥ - المستشرقون الإنجليز
٣١٧ - المستشرقون الألمان ٣١٩ - مستشرقون مختلفون ٣٢١
أثر المستشرقين ٣٢٣ - الكتب الأدبية التي تأثرت بهم ٣٢٤ -
تعصبهم ٣٢٦ - أثر الاتصال بالأدب الأجنبي ٣٢٨ -
القصة والعقليات العربية ٣٣٠ - موازنة بين الساميين والآريين
٣٣١ رأى أحمد أمين بك ٣٣٢ - الفرق بين الشعر والنثر ٣٣٣ -
منزلة القصة في عالم الأدب ٣٣٤ - السبب في عدم اهتمام
العرب بالقصة ٣٣٤ - القصص التي يحبها العرب وبرعوا فيها
٣٣٥ رأى رينان في العقليات السامية ٣٣٨ - هل الحضارة الأوربية
من نتاج العقل الآري؟ ٣٣٩ أثر اليهود في الغرب ٣٤٠ - هل
ثمة فروق عقلية بين الشعوب؟ ٣٤٣ - هل الثقافة اليونانية أصيلة
أو مستمارة؟ ٣٤٧ - المقالة والصحافة ٣٥٠ - شروط المقالة
الحديثة ٣٥١ - أساليب المقالة ٣٥٢ - الصحافة ٣٥٣ - المؤيد ٣٥٨

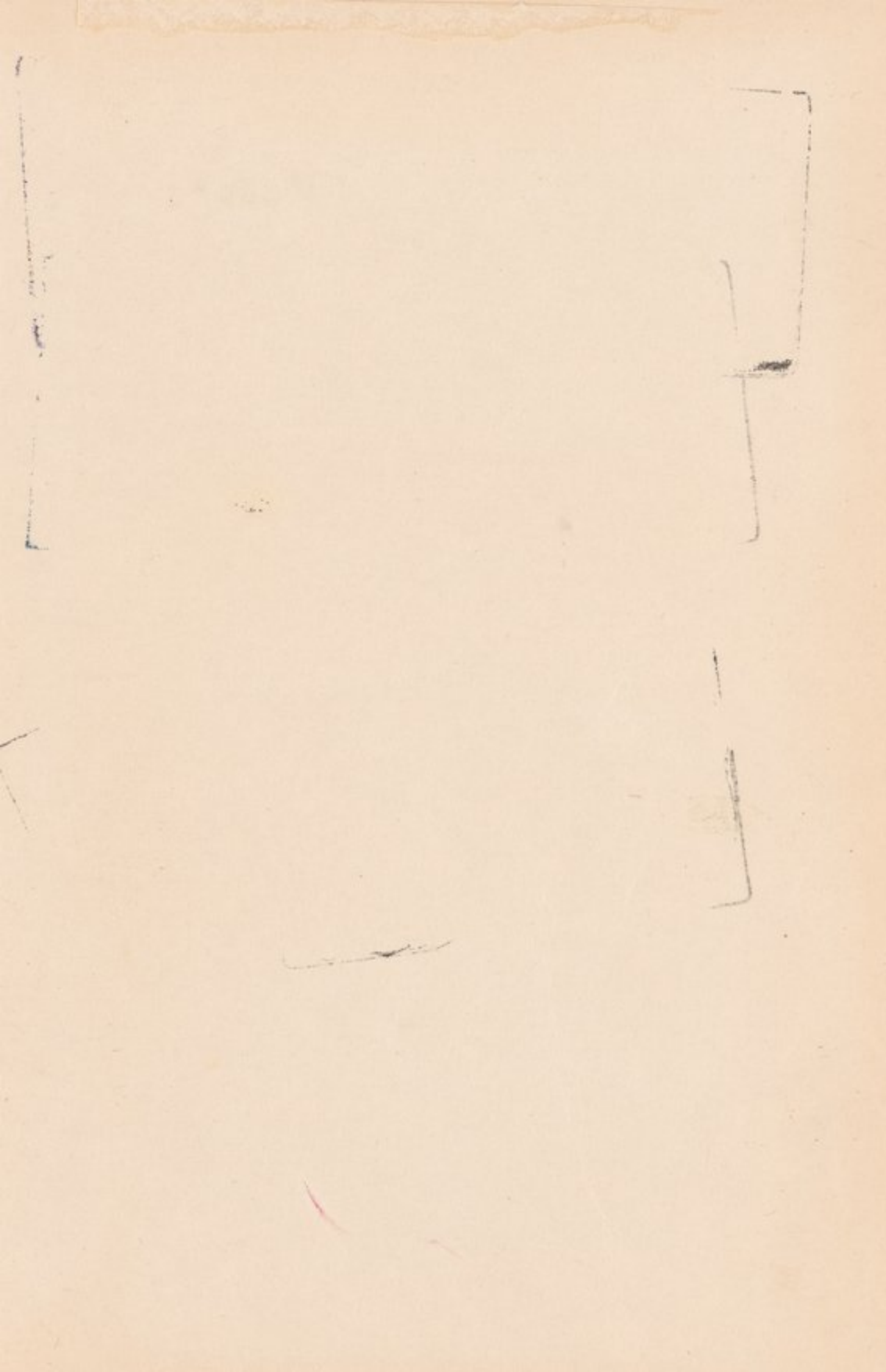
تصحيح الخطأ

خطأ	الصفحة	السطر	الصواب
يتاورثوا	١٠	٣	يتوارثوا
المصريون	١٤	١٤	الفرنسيون
٧٥	٢٨	٢١	٧٣
الآباء	٢٩	٦	الإباء
يكاد معدوماً	٤٥	٦	يكاد يكون معدوماً
التمصيرين	٤٧	١٦	التمصيرين
أنخ إسماعيل	٥٦	٨	أخو إسماعيل
لدارة	٧٥	١٦	لدارة
شخصيتهم	٨١	٤	شخصيتهم
أديباً	٨٣	٤	أديباً
بعدهم	٩٢	٩	بعضهم
المسلك	١٠٩	٢١	المسك
مثلما قالوا	١١٠	٤	مثلما قالوا
المرأ	١٢٢	٢١	المرء
زملاءه	١٢٧	٣	زملاؤه
وفقاً	١٣١	٤	وفقاً
وجهد	١٤٤	٢	وجهد
العائوق	١٦٢	١٧	العوائق
المرء	١٨٤	٦	المرء
الهم	٢٠٠	١	الهمم
تستمع	٢٠٨	١	تستمع
مهمين	٢٠٨	١٣	مهمين
مقالان	٢١٣	٦	مقالين
اثنان	٢١٥	١٥	اثنين
سطلانهم	٢١٨	١١	سلطانهم
١٨٥٦	٢٢٠	١٥	١٨٩٦
أهوال وأهوال	٢٢٢	٨	أهوالاً وأهوالاً
وكثيراً	٣٠٧	١٦	كثير
والألمانية	٣١٣	١١	والألمانيا
ما كوند	٣٢٣	٢	ماكدونلد
الفرنسي	٣٣٠	١٥	الفارسي
١٢٨	٣٤١	هامش	١٧٧

[تم طبع هذا الكتاب في مطبعة الرسالة بالقاهرة
في يوم الإثنين ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧ (٣ مايو
سنة ١٩٤٨) . والحمد لله أولاً وآخراً]

سَيِّدُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

المدير الفني للمطبعة



892.709:D22fA:v.1

الدسوقي، عمر

في الادب الحديث

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032975

892.709:D22fA

V.1

الدسوقي، عمر

892.709
D22fA

Vol

